الترجمة الكاملة
(١)

وصف مصر

تأليف
علماء الحملة الفرنسية

ترجمة
زهير الشايب

المصريون المحدثون



اهداءات ١٩٩٣
صندوق التنمية الثقافية
ج.م.ع

١

وصف مصر

الترجمة الكاملة

وصف مصر

المصريون المحدثون

تأليف

علماء الحملة الفرنسية

ترجمة

زهير الشايب

١٩٩٢

الطبعة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

لقد مضى علـــى صدور هذا الكتاب فى طبعته الأولى من الترجمة العربية أكثر من خمسة عشر عاماً ، لاقى خلالها – ولايزال – الاهتمام المتزايد من القارئين والمتخصصين . ولعل السبب وراء هذا الاهتمام يتضح لنا مما ذكره فورييه فى مقدمة الطبعة الفرنسية ، حيث يقول : " لم يسبق لأى بلد آخر أن خضع لأبحاث بمثل هذا الشمول وهذا التنوع ، وفضلاً عن ذلك فليست هناك بلاد أخرى جديرة بأن تكون موضوعاً لأبحاث كهذه ، فمعرفة مصر أمر يهم فى الحقيقة كل الأمم المتحضرة ".

وإذا كان لعلماء الحملة الفضل والتقدير لتأليـف هـذا الصرح الفـريد ، فقد أتاح المترجم الفرصة لأناس كثيرين – لاسيما المصريين – كي يعرفوا قدر هذا الوطن العظيم ، الشامخ على مر العصور.

واعترافاً بفضل وأثر هذه الترجمة ، نال والدى – رحمه الله – التقدير من عدة جهات معنية ، كان من أبرزها حصوله على جائزة الدولة التشجيعية ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى عام ١٩٧٩.

وكلما زاد الاهتمام بالكتاب كلما تضاعفت المسئولية ، ومن ثم لم تتوان والدتى – بعد رحيل أبى – أن توقف جل شأنها لهذا العمل ، كى يلقى من الرعاية ما يستحقها ، ويظل موفوراً للقارئين . ولقد بذلت والدتى من الجهد – فى سبيل ذلك– ما ينوء بأولى العزم من الرجال ، ومزيداً من الحرص على هذا العمل آثرت

– مع أنها مثقلة بحملها – أن تنشر هذه الموسوعة على نفقتنا الخاصة ، وما ذلك على الناشرين بيسير.

وكانت هذه الطبعة التى نقدمها بين يدى أعزائنا القراء والدارسين هى أحد ثمرات هذا الجهد المضنى الذى تبذله والدتى طوال سنين ، وقد سعينا جاهدين أن تتخلص من عيوب الطبعات السابقة وتخرج فى شكل أفضل .

والله خير معين ،،

أكتوبر ١٩٩٢ **منى زهير الشايب**

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــــــــدمة

يسعدنى أن أقدم هذه الطبعة الثانية من المجلد الأول من الترجمة العربية الكاملة لكتاب وصف مصر، وهو المشروع الذى بدأ يرى النور لأول مرة منذ نحو ثلاث سنوات بصدور هذا المجلد فى طبعته الأولى.

وأرجو مع صدور الطبعة الثانية أن يكون قد بدأ يتخذ شكله النهائى إخراجا ومادة.

وقد وجدت من اللائق أن ألحق بهذا المجلد دراستين، لم يسبق نشرهما فى الطبعة الأولى : وتتناول الدراسة الأولى البنية الفيزيقية لسكان مصر، وهى من وضع البارون لارى أحد كبار أطباء الجيش الفرنسى. أما الدراسة الثانية فهى عبارة عن مقدمة مطولة للطبعة الثانية لموسوعة وصف مصر التى تعرف باسم طبعة بانكوك، والتى صدرت بموجب مرسوم ملكى صادر من لويس الثامن عشر، أوردت ترجمة له فى صدر هذه المقدمة التى أعدها فوربيه سكرتير المجمع العلمى المصرى؛ وهى نفس المقدمة التى نجدها فى المجلد الخاص بشرح اللوحات ، فى طبعته الأولى الفرنسية . وقد ترتب على ذلك تغيير اسم هذا المجلد الأول من الطبعة العربية إلى اسمه الحالى «المصريون المحدثون » حيث إن الاسم الثانى أكثر تطابقا – مع محتويات هذا المجلد – من الاسم الأول الذى أصبح واحدة من دراسات هذا المجلد الحالى.

وقد اقتضى الأمر تقسيم المجلد فى كتابين:

الأول: ويشتمل على دراسة شابرول التى كانت تشكل وحدها كل المجلد فى طبعته الأولى.

والثانى: ويشتمل على الدراستين اللتين رأيت إضافتهما إلى المجلد فى طبعتنا هذه.

ولابد فى هذه المقدمة السريعة أن أشيد بدور مكتبة الخانجى فى إنجاز هذا العمل، وتيسير السبيل له ، مما أتاح صدور ثلاثة مجلدات منه من الثانى إلى الرابع فى عام واحد، الأمر الذى أعطى لمجهودنا دفعة هائلة، وسيتوج ذلك بإذن الله بإصدار لوحات وصف مصر الشهيرة، وقد بدأت المكتبة تعد عدتها لذلك. وقد استقر الرأى على صدور هذه اللوحات مرفقة بالنصوص، بحيث ترافق اللوحات النص العربى الذى يتناولها، ويتفق هذا المنهج فى النشر مع المنهج الذى اتبع عند نشر النص نفسه . فتحية لكل من الحاج نجيب الخانجى، والأستاذين: محمد الخانجى، ونبيل خليل؛ لما لهم من فضل على هذا العمل. كما سيظل العمل مدينا على الدوام للدكتور عبد العزيز الدسوقى، ولكل العاملين بمجلة الثقافة .

ولو أننى وفيت كل إنسان حقه لما اتسعت الصفحات لإسداء الشكر لكل ذوى الفضل، وهم كثيرون بحيث لا أجدنى مبالغا ولا مجاملا إن قلت إن وصف العمل بأنه جهد فردى أمر يجافى الحقيقة، وكما أن عملا كهذا هو مقدم أصلا للناس فإنه قد قام أيضا بهم.

وفقنا الله جميعا لما فيه خير مصر الحبيبة وكل وطننا العربى..

يناير ١٩٧٩.

المترجم

الكتاب الأول

دراسة فى عادات وتقاليد

سكان مصر المحدثين

تأليف

ج. دى شابرول

تقديم

على الرغم من أن وراء هذه المبادرة لترجمة «كتاب وصف مصر» - ككل مبادرة فردية - دوافعها وأسبابها وظروفها الخاصة؛ فإنها ينبغى أن توضع ضمن إطار أوسع وأشمل من تلك الدوافع والأسباب الخاصة، لتربط بذلك الاهتمام الكبير الذى بدأ المفكرون المصريون يولونه لتاريخهم الحديث والمعاصر بعد صدمة يونية ١٩٦٧.

فمنذ تلك الصدمة الهائلة، بدأت الكتب- مؤلفة ومترجمة - تصدر تباعا تتحدث عن تاريخ مصر ودور مصر.. وهكذا لم يعد التاريخ - وتاريخ مصر بالذات - مجرد دراسات أكاديمية لا يتولاها إلا المختصون، وإنما أصبح ثقافة أصيلة لكل مثقف وطنى تشغله أمور بلاده.

ومنذ ذلك الوقت بُدأ بتشكيل ذلك الإطار الثقافى الواسع الذى أشير إليه. ويسعدنى أن أضع اليوم فى داخل هذا الإطار كتابنا هذا الذى يشكل دراسة كاملة من ذلك السفر الضخم، الذى لايفوق شهرته إلا طول إهمالنا له: كتاب «وصف مصر» أو مجموعة الملاحظات والأبحاث التى أجريت فى مصر أثناء حملة الجيش الفرنسى، وهذا هو عنوان ذلك السفر الضخم كاملا.

وقد طبع هذا السفر الذى أسمى بحق انسكلوبيديا مصرية مرتين:

الأولى: وقد استغرق العمل فيها من ١٨٠٩ إلى ١٨٢٢.

وقد ظهر المجلد الأول منها عام ١٨٠٩، وكتب على غلافه وكذلك على غلاف المجلد الثانى أنه قد طبع بأمر صاحب الجلالة الامبراطور نابليون الأكبر، لكن بقية المجلدات التسعة قد ظهرت بعد سقوط نابليون، لذا كتب على غلافها بأنها قد طبعت بأمر من الحكومة.

أما هذه المجلدات التسعة فموزعة على النحو الآتي:

مجلدان : لدراسة التاريخ الطبيعي لمصر، ويشتملان على دراسات عن طيور ونبات وحيوانات وأسماك وحشرات ... مصر.

أربعة مجلدات: لدراسة العصور القديمة، اثنان منها للدراسات، واثنان آخران لوصف آثار العصور القديمة.

ثلاثة مجلدات:لدراسة الدولة الحديثة أو الحالة الحديثة لمصر التى تبدأ تقريبا منذ الفتح الإسلامى حتى مجىء الحملة الفرنسية، لكنها عمليا تعالج أحوال مصر فى العصر العثمانى حتى مجىء هذه الحملة.

وتشتمل هذه المجلدات على دراسات عن مختلف نواحى الحياة فى مصر كما شاهدها علماء الحملة ومهندسوها . وبعض هذه الدراسات طويلة، بحيث يمكن نشرها مستقلة فى كتاب، شأن الدراسة التى ننشرها اليوم، وبعضها متوسط الطول، وبعضها مجرد ملاحظات لاتستغرق أربع أوخمس صفحات.

ولقد ركزت عملى على مجلدات الدولة الحديثة الثلاثة، واتبعت بشأن الدراسات والمذكرات القصيرة منهج تجميعها بشكل متكامل إلى بعضها البعض:فقد جمعت -على سبيل المثال- تلك الدراسات المتناثرة فى المجلدات الثلاثة عن أحوال العربان والجماعات والرحل فى مصر إلى بعضها البعض، لتشكل فى مجموعها كتابا كاملا أرجو أن أتمكن من نشره قريبا ... وهكذا الحال فى دراسات أخرى تتناول موضوعات مختلفة.

أما الطبعة الثانية فقد صدرت فى ستة وعشرين مجلدا ، بالإضافة إلى أحد عشر مجلدا للوحات، وأطلس جغرافى . ومجلدات اللوحات هى نفس المجلدات التى صدرت مع الطبعة الأولى، وبيانها كما يلى :

خمسة مجلدات للوحات العصور القديمة ، ومجلدان في ثلاثة أجزاء للتاريخ الطبيعي، ومجلدان للحالة الحديثة لمصر، بالإضافة إلى مجلد واحد يشتمل على مقدمة لفورييه مع شرح للوحات، ثم الأطلس الجغرافي ويشتمل على خرائط مفصلة لمدن وأقاليم مصر.

وجدير بالذكر أن محتويات المجلدات الستة والعشرين هي نفسها محتويات المجلدات التسعة في الطبعة الأولى، فالطبعة الثانية - كما هو واضح- قد وُزِّعت على مجلدات أصغر حجما من الأولى. والاختلافات بين الطبعتين طفيفة يمكن إجمالها فيما يلي:

١- كانت الطبعة الأولى مهداة إلى «الامبراطور نابليون» أما الثانية فهي مقدمة إلى «صاحب الجلالة الملك».

٢- بدأت الطبعة الأولى بمجلدات الدولة الحديثة الثلاثة، أما الطبعة الثانية فبدأت بوصف آثار العصور القديمة.

٣- تشتمل الطبعة الثانية على مقدمة تقع في حوالي ١٨٠ صفحة من حجم هذه الطبعة من وضع فورييه، ونجد هذه المقدمة نفسها في المجلد الأول من اللوحات.

٤- تشتمل الطبعة الثانية على دراسة لم ترد في الطبعة الأولى، وتتناول هذه الدراسة جامع أحمد بن طولون وحياة منشئه.

وقد بدأ العمل في هذه الطبعة من عام ١٨٢١ وانتهى في عام ١٨٢٩.

***

والكتاب الذي بين يدينا اليوم هو دراسة كاملة من دراسات المجلد الثاني من مجلدات الدولة الحديثة الثلاثة.

ومؤلف هذه الدراسة هو : جلبير جوزيف جاسبار كونت دي شابرول
Gilbert Geoseph Gaspard Comte de Chabrol

ويشار إليه باسم: شابرول دي فولفيك Chabrol de Volvic

وقد ولد فى ريوم Riom سنة ١٧٧٣ ومات ١٨٤٣ (وهذا يعنى أنه عندما قدم إلى مصر كان يبلغ الخامسة والعشرين من العمر) وكان مهندسا للطرق والكبارى، وعين بعد عودته من مصر مأمورا لمدينة مونتينو Montenott سنة ١٨٠٦، وأنشأ بها طريق الكورنيش. وفى عام ١٨١٢ قابله نابليون بشكل عابر ، وكان شابرول يقضى إجازته فى باريس، ودار بينهما حديث ، فأعجب به نابليون وعينه مأموراً للسين، فأدار باريس كما ينبغى أن تدار مدينة كبرى وعاصمة لامبراطورية كبرى، وقد نجح فى ذلك نجاحا كبيرا حتى أن لويس الثامن عشر قد اضطر لاستبقائه فى وظيفته الحساسة، على الرغم من أنه قد عين من قبل نابليون.

وتدين له باريس بكثير من الأعمال الرائعة ذات النفع العام.

ولعل هذا التعريف الموجز بمؤلف هذه الدراسة سيكون سببا قويا لأمرين:

الأول : ماسوف نبديه من إعجاب حق بقدرة هذا المؤلف الشاب على الرصد والتأمل والفهم والإحاطة فى مجال أبسط ما يقال فيه أنه ليس مجال تخصصه.

الثانى : التماس العذر له فى بعض الأمور التى التبس عليه فهمها، بل وفى بعض الأخطاء التى وقع فيها، وبخاصة فى مجال المعتقدات والشرائع.

ولقد آثرت هنا أن أقدم ترجمة كاملة أمينة نصا وروحا لكل ما ذكره المؤلف خاصا بنا وبمعتقداتنا، وسوف يلاحظ القارئ أننى قد آثرت عدم التدخل إلا فى أضيق نطاق ممكن لاعتبارت لا بأس من طرح بعضها:

١- أننا هنا بصدد أثر علمى هام ينبغى أن يحظى بالاحترام.

٢- أنه ليس كل ما يقال عنا صحيحا على إطلاقه، وإن كان ينبغى علينا فى كل الأحوال ألا نخشى أية فكرة صحيحة.

٣- أنه قد آن الأوان لنواجه بشجاعة مايقال عنا، فتجاهل ذلك أو الصمت عنه ليس هو الوسيلة المثلى، فذلك الموقف لن يعنى إلا تسليمنا ولو بشكل سلبى بصحته، ومعرفة ما يقال عنا هى أفضل وسيلة لمواجهته بل ودحضه.

٤- أن الأقوياء لا يخافون معرفة ما يقال بشأنهم، ولا أظن أحدا يجادل فى قوة عقيدتنا.

وأننى فيما فعلت إنما كنت أصدر عن تقديس كبير للإسلام ولنبيه الكريم، كما أننى واثق أننى فيما التزمت به من أمانة فى النقل كنت أقرب ما يمكن إلى روح الإسلام الذى ينهض أول ما ينهض على الإقناع العقلى ، والذى كانت أول آية فى كتابه الكريم تدعو إلى القراءة والفهم ، والذى لا يستوى - بنص آياته - الذين يعلمون والذين لايعلمون.

بل إن المؤلف لم يكن دقيقا كذلك فى حديثه عن بعض الطقوس المسيحية، وقد آثرت أن أترك كل شئ على حاله: ذلك أنه لا القارئ المسلم ولا القارئ المسيحى سوف يلجآن لكتاب وصف مصر لدراسة الشرائع والعبادات. فلهذه وتلك، عند هذا وذاك ، المصدر الذى يعرفانه جيدا..

وبرغم كل شئ فإن واجب الأمانة يقتضى أن أعترف بما يأتى:

١- أننى قد حذفت من الجزء الخاص بالأقباط نصف جملة وجدت أن اللياقة تقتضى حذفها.

٢- أننى حذفت هامشا كاملا أثار - عند نشره بمجلة الثقافة - ردود فعل لم أكن أتوقعها، ولا يتجاوز هذا الهامش أربعة سطور.

٣- أننى جذفت آخر عبارة فى الكتاب (حوالى سطر ونصف) إذ وجدت من الأفضل ألا تترك هذه الجملة طعما مريرا فى حلق القارئ ، بعد صحبة ممتعة مع مؤلف حاول جهده أن ينصفنا طيلة مؤلفه.

وأننى إذ أستميح القراء عذرا فيما فعلت أود أن يشاركنى الجميع عندما يقفون أثناء القراءة على بعض أخطاء المؤلف، وخلطه فى أحيان كثيرة بين بعض الطقوس الدخيلة بل وبعض الممارسات الشاذة، والعقائد والعبادات بشكلها الأنقى،

أود أن يشاركونى فى التماس العذر للرجل، وأن نحاول بروح الإنصاف المعهودة فينا أن نحسب له محاولة فهمنا وإنصافنا، أكثر مما نحسب عليه ما وقع فيه من أخطاء أو سوء فهم أو تسرع فى الحكم، ذلك أن عديدا من أحكامه بدت فى شكل أفكار مسبقة لا تنهض على أساس حقيقي، كما لا ينبغي لنا أن نتناسى كونه عضوا فى حملة غازية، وأنه مخالف لنا فى عقائده، بل وأن كثيرا من فكره إنما هو ترديد لأفكار كانت شائعة فى القرن التاسع عشر ، تربى هو - كأوربى وفرنسى بالذات - فى كنفها.

ويدفعنى الواجب فى النهاية أن أقدم خالص تقديرى وشكرى لشيخ المؤرخين الدكتور أحمد عزت عبد الكريم الذى كان لتشجيعه أكبر الأثر فى دفعى للتصدى لهذا العمل الكبير، كما أوجه خالص تحياتي وعرفاني للأستاذ رينيه خورى مدرس اللغة الفرنسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية والمشرف على مكتبة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية. وهو عالم فاضل وباحث مدقق ولايفوق علمه القدير إلا أدبه الجم ، فقد كان له فضل كبير على إنجاز هذا العمل ، وفى نفس الوقت فإنى أشكر أخى الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن أستاذ التاريخ الحديث بكلية البنات الإسلامية، لما قدمه لى من عون، كما لابد أن أشير إلى أن مؤلفه الهام «الريف المصرى فى القرن الثامن عشر» كان معينا لى على تحقيق كثير من المسميات وإيضاح كثير من المعلومات.

ولن يفوتنى أن أوجه شكرى للأخ الدكتور عبد العزيز دسوقى رئيس تحرير مجلة الثقافة وكذلك الأديب الفنان الأستاذ ثروت أباظة رئيس تحرير مجلة الإذاعة والتليفزيون لما قاما به نحوى من تشجيع حين أفردا صفحات مجلتيهما لنشر أجزاء كبيرة من وصف مصر، مما أحيا الاهتمام بالكتاب فى وقت كاد الكتاب أن يصبح فيه نسيا منسيا.

كما أنى حين أقدم شكرى للسيدة زوجتى فإننى لا أفعل ذلك من قبيل اللياقة وإنما هو عرفان حقيقى بما قدمته لى من عون كبير برغم ظروفها الصعبة كإخصائية اجتماعية وربة بيت وأم . كما لابد أن أوجه شكرى لعشرات من الأصدقاء أولونى قدرا كبيرا من التشجيع مما كان له فى نفسى أثر جميل.

وفى النهاية أستميح القارئ عذرا إن وجد بالعمل بعض الثغرات، وإنه لواجدها ، وليكن حسبى من هذا العمل أن أنجو فقط من اللوم ، وأن أكون قد قدمت على قدر طاقتى خدمة لوطنى مصر، ولمواطنى المصريين.

فبراير ١٩٧٦

زهير الشايب

الفصل الأول

لمحة عامة عن الطقس وعن السكان وعن تقاليد وعادات المصريين

١

عن المناخ

كانت الآثار المادية لمصر القديمة موضوعا لدراسات عدة وجدت لنفسها مكانا في أجزاء من هذا الكتاب (*)، وقد آلينا على أنفسنا هنا أن نقدم لوحة مختصرة لتقاليد سكان مصر الحديثة. وسوف يحملنا ما قد نجده من ملامح التشابه مع العادات القديمة على القيام ببعض المقارنات، وذلك أمر يستحق منا بالفعل اهتماما كبيرا خاصة ونحن بصدد الحديث عن بلد تمتلئ مخيلته بالذكريات، ويخطو فيها الفيلسوف في أثر المؤرخ، لذلك فإنه من المناسب أن ندرس الأسباب المختلفة التي تؤثر على الطقس وفعل هذا الطقس على الكائنات الحية: وهكذا سوف يكون السكان موضوعا لدراستنا في نفس الوقت الذي تشكل فيه آثار الماضي القديم موضوعا لأبحاث عميقة لعلماء الآثار.

تقع مصر في واحد من أكثر المواقع أهمية في الكرة الأرضية. وحيث إنها تقع على أحد طرفي أفريقيا فهي تربط هذه القارة بآسيا،كما أن موانيها الواقعة على البحر المتوسط تجعلها – وبشكل ما – تلامس أوربا. وهي تقع بين خط العرض ٢٤:١° وخط العرض ٣١:٣٧° شمال خط الاستواء، أما عن خطوط الطول فهي تقع بين خطي ٢٧° و٣٢° –وذلك إلى الشرق من باريس.

ويكفي هذا الموقع في حد ذاته لكي نضع مصر ضمن المناطق شديدة الحرارة، لولا أن ثمة بعض عوامل تساعد على التقليل من ارتفاع درجة

(*) وصف مصر .(المترجم) .

الحرارة.فترمومتر ريومور يقف بدرجة الحرارة فى المنازل الرطبة ، وأيضا فى مصر السفلى خلال شهرى يولية وأغسطس عند ٢٤° أو٢٥°، بينما تصل فى شمال مصر العليا وفى الظل ، إلى ٣٤°، لكنها ترتفع فى المناطق الرملية لتصل إلى ٥٤° (١) .ولا يحدث ذلك بسبب القرب من المنطقة الاستوائية فقط كما لاحظ فولنى Volney -وهى منطقة لابد أن نتوقع أن جوها شديد الحرارة - بل وأيضا بسبب التربة نفسها . و هى فى العادة ترتفع قليلا فوق مستوى سطح البحر، ومغطاة فى جزء منها برمال متحركة . وهذه الرمال تركز أشعة الشمس- التى تكون شبه عمودية فى فصل الصيف - ثم تعكسها، لتسقط من فوق جبال قليلة الارتفاع، عارية من أية خضرة، على سهول قاحلة ليس فيها مايمكنه أن يحد من لهيبها، فى منطقة قريبة من المنطقة الحارة . من هنا ينتج هذا الجفاف الشديد للمناخ ، وتلك الندرة فى الأمطار التى يمكنها أن تلطف الجو.

وبرغم ذلك، فهذا الجفاف لايشمل بدرجة متساوية كل أنحاء مصر، فالمطر يسقط كثيرا فى الأقاليم المجاورة للبحر المتوسط ، وكذا فى الصحراوات الواقعة بين وادى النيل والبحر الأحمر، وتشهد بعض الأخوار المحفورة فى أماكن عدة من الهضبة الأفريقية بأن هذه الأمطارتكون فى بعض الأحيان بالغة القوة لحد تصبح معه سيولا. لكن ثمة أمرا يعد واحدا من الملامح المميزة للطقس فى مصر، وهو كذلك عام فى كل المنطقة، ألا وهو تكون الندى بوفرة شديدة، ولعل له بعض التأثير على خصوبة التربة وبخاصة فى الفترة التى يكون فيها مستوى النيل أدنى من مستوى الأرض. ومن أولى خصائص هذا الندى ترطيب وتنقية الهواء والمساهمة فى خفض درجة الحرارة مما يؤدى فى أيام القيظ إلى وجود فروق هائلة بين درجة الحرارة بالنهار ودرجتها بالليل، يمكن أن تبلغ ٣٠درجة، ويستمر ذلك لمدة سبع أوثمانى ساعات ، وهذا بعض مايسبب كثرة انتشار أمراض العيون على ضفاف النيل كما سنوضح ذلك فى نهاية هذا الفصل.

---

(١) وبخاصة فى فيلة وأسوان وكوم أمبو.

وتكاد الأمطار لاتسقط مطلقا فى المنطقة الوسطى من مصر. وتشكل مياه الفيضان ، وكذلك الندى الذى يتكون فى الليل والذى تتباين وفرته تبعا لاتجاه هبوب الرياح، العوامل الخصبة الوحيدة للأرض. ويعود جفاف الجو الشديد إلى حرارة التربة الملتهبة وإلى اتجاه الرياح الذى يتحكم فيه شكل الوادى . وتتكون السحب بفعل أبخرة البحار التى تحد مصر من الشمال ومن الشرق، وتدفعها تيارات الهواء، وهى تيارات قوية، لكنها ما إن تقترب من الجبال التى تحصر وادى النيل من الشرق ومن الغرب حتى يصبح أثرها أقل قوة، لذا يسقط هناك المطر فى بعض الأحيان.

نزل الجيش الفرنسى أرض مصر فى وقت القيظ الشديد، وهى فترة تسود فيها على الدوام تقريبا رياح الشمال والشمال الغربى، ويبدأ فيها النيل فى استقبال موجات الفيضان الأولى. لقد جاء الجيش فى شهر يولية حيث كانت الريح التى تندفع بشدة تُظلم الجو بدوامات من الرمل الناعم الدقيق، ويستطيع سكان المدن بالكاد أن يحتموا من هذه الدوامات داخل بيوتهم. وفى هذا الجو تصبح الأسفار شاقة وشبه مستحيلة، لكن هذه الدوامات تقلل من وطأة الحر الذى يقل الإحساس به لدرجة كبيرة فى الأسكندرية عنه فى داخل البلاد، كما أن هذه الدوامات تعمل على طرد السحب المتراكمة نحو النوبة والحبشة ، تلك السحب التى تصب أمطارها فجأة فى المناطق الجبلية والمغطاة بالغابات. وهكذا فإن هذه الرياح العاصفة غير المستحبة تساهم على نحو ما فى ازدهار مصر حيث تجعل الفيضانات أكثر وفرة.

ويبدأ النيل فى الامتلاء فى نحو نهاية شهر يونية وبداية يولية، ولايخضع حجم مياه الفيضان لقواعد محددة. وفى السنوات العادية يصل ارتفاع النيل فى القاهرة إلى ٨ أمتار(١٤-١٥ ذراعا حسب مقياس جزيرة الروضة) ويصل أحيانا لأكثر من ذلك، ولكى يكون الفيضان وفيرا ينبغى أن يصل ارتفاع النيل إلى ١٦-١٧ ذراعا، عندئذ يبدو وادى مصر- أى أراضيها المزروعة - فى شكل بحيرة

واسعة، وتبدو القرى المقامة على تلال صناعية كما لو كانت جزرا صغيرة متناثرة فوق سطح محيط ، وليس ثمة ماهو أروع من هذا المشهد. وعليك حتى تحظى بالاستمتاع به على نحو طيب أن تصعد إلى قمة الهرم الأكبر في الجيزة، كما يمكنك أن تحيط بجزء من هذه اللوحة الرائعة من أعلى القلعة في القاهرة. ولاتستطيع الأراضي المزروعة والتي تقع على مسافة بعيدة من شواطيء النهر أن تتمتع بفوائد الفيضان، لكنها تحصل على ما يرويها عن طريق الترع أو بواسطة ماكينات بسيطة الصنع (السواقي).

وثمة خاصية أخرى نجدها في تربة مصر، هي اختلاطها بمواد مالحة تطفح كل صباح على سطحها، وبلا جدال فإن هذا الملح الذي يوجد بوفرة في كل مكان يساهم في تنشيط العامل المخصب لطمي النيل.

وفصل الأمطار في مصر هو الشتاء، وهي تهطل بكثرة في الأسكندرية ورشيد وعلى كل الشاطيء ، لكنها لاتستمر طويلا، ويُشاهَد عند المقطم المطل على القاهرة أغوار وحفرات لابد أنها كانت مجاري لسيول قديمة.

٢

عن السكان وطبقاتهم المختلفة

كان تقدير تعداد سكان مصر على الدوام عرضة لأخطاء خطيرة، وقد وقع أغلب المؤرخين المحدثين والقدامى في مبالغات كبيرة يمكن لأي توصيف بسيط للأماكن أن يدحضها . وإلى جانب الخدمات التي قدمتها الحملة الفرنسية للعلوم والفنون والآثار في مصر ، فإنها قد حثت كذلك على استخدام الإحصاء في الأبحاث والدراسات التي تتخذ موضوعا لها أحد الأمور الهامة، وهكذا أمكن التوصل ليس فقط إلى تحديد مساحة الأراضي المنزرعة والقابلة للزراعة بطريقة أقرب إلى الموضوعية، بل وكذلك إلى عدد القرى والكفور التي تغطي وادي النيل،

كما أمكن بالمثل تقدير تعداد السكان في مصر، وكذا تعداد سكان مدنها الهامة. وبخلاف ماجمعته أثناء وجودى في مصر من معلومات فقد استعرت هنا بعض التفاصيل من الدراسة التي كتبها جومار Jomard عن تعداد السكان في مصر الحديثة مقارنا بتعداد السكان في مصر القديمة. وحيث إن جومار قد أقام حساباته على معطيات أكثر دقة عن تلك التي جمعت حتى الآن، وحيث إنه أبان عدد الموتى وخصوبة السيدات ومقدار الضرائب واستهلاك الحبوب بالإضافة إلى أمور أخرى هامة ذات طابع اقتصادى وسياسى،فإنه قد توصل بذلك إلى نتائج نعتبرها قريبة من الحقيقة.

وبعد أن قام جومار بالتحقق من تعداد سكان المدن الهامة في مصر والثابت في وثائق أصلية مثل سجلات الضرائب العقارية المسوكة بأيدى الإداريين الأقباط، وبعد مراجعة بيانات الوفيات التي جمعها المسيو دى جينت Desginettes أثناء ثلاث سنوات هي عمر حملتنا، وكذلك إحصاءات المواليد التي جمعها المهندسون الفرنسيون، فإنه -أي جومار- قد استخلص نتيجة شبه مؤكدة عن تعداد الشعب في مجموعه. وسوف اكتفى هنا بإيراد فقرة من ملخصه تضم نتيجتين متقاربتين وصل إليهما عن طريقين مختلفين : «إن تحديد المساحة الحقيقية للأرض المزروعة ثم حصر عدد السكان في جزء محدد من مساحة البلاد يؤدى – بعد تعميم هذه النسبة وإضافة الناتج الإجمالي إلى عدد سكان القاهرة – إلى نتيجة شبه مؤكدة، وهى أن تعداد سكان مصر يبلغ ٢٠٠ ، ٤٤٢ ، ٢ نسمة، أما الطريقة الثانية فقد بينت أن عدد قرى مصر يبلغ ٣،٦٠٠ قرية ، وأن متوسط سكانها هو٥٣٤ شخصاً لكل قرية ، أى أن تعداد سكان القرى يبلغ ٤٠٠ر١٠٢ر٢ نسمة، وبإضافة سكان المدن إلى ذلك الرقم فإن تعداد مصر يبلغ ١٠٠ر٤٦٧ر٢نسمة».

وحسب ما سبق فقد تحدد تعداد سكان مصر بحوالى ٥ر٢ مليون من السكان، ولايدخل ضمن ذلك مطلقا عدد العربان الذين يعمرون الصحراوات والذين لايمكن

إخضاعهم لتعداد دقيق، لكن مسيو جوبير Jaubert من جهة أخرى يقدر عدد الفرسان العربان حسب الإحصاء الذى قام به بـ٠٠٠ر٢٧ فارس، فإذا ما أضفنا إليهم نفس العدد لأشخاص راجلين وعدداً يتناسب مع ذلك من السيدات والأطفال فإن مجموع تعداد أبناء قبائل العربان سوف يرتفع إلى ٠٠٠ر١٣٠ نفس.

ولكى نقدم للقارىء فكرة عن مختلف طبقات السكان فى واحدة من مدن مصر، فسوف نضع تحت ناظره جدولا عن سكان القاهرة ، ولقد سهلت علينا إقامة الجيش الفرنسى فى هذه المدينة القيام بأبحاثنا بشكل طيب لحد نستطيع معه أن نغبط أنفسنا بأننا – شخصيا – قد حصلنا فى هذا الخصوص على معلومات شديدة القرب من الحقيقة.

كانت القاهرة فى عام ١٧٩٨ تضم مابين ٢٥٠–٢٦٠ ألفا من الأشخاص بما فى ذلك المماليك والتجار الأجانب، وقد قدر تعدادها بحسب إحصاء تم قبل مجىء الحملة الفرنسية بـ٠٠٠ر٣٠٠ نسمة، ويمكن تقسيم هذا العدد على هذا النحو:

– المماليك بما فيهم جنود الأوجاقات ، وعلى وجه العموم كل الفرق العسكرية المكونة من رقيق تم تحريرهم بعد ذلك مثل المماليك :	٠٠٠ر١٢
– الملاك :	٦,٠٠٠
– التجار الذين تمتد معاملاتهم إلى خارج البلاد :	٤,٠٠٠

ويتضمن هذا العدد التجار الأجانب الذين لايستقرون فى القاهرة إلا لوقت محدد مثل أولئك الذين يمتلكون محلات فى خان الخليلى والذين لايستقر معظمهم فيها، وكذلك التجار القادمين من أزمير والقسطنطينية وبغداد وحلب وجدة ينبع...الخ، وهم يصلون إلى القاهرة مع البضائع التى يبيعونها ، ويرحلون بعد ثلاثة أو أربعة شهور محملين ببضائع أخرى عند العودة.

– حرفيون مستقرون، سواء كانوا أسطوات أو عمالاً عاديين ٢٥,٠٠٠

– صغار تجار القطاعى الذين يبيعون المأكولات والزيت والأرز والخضروات ومواد أخرى ٥,٠٠٠

ولايمتلك هؤلاء على الإطلاق أى رأسمال، فهم يبيعون فى النهار ما يحصلون عليه فى الليل استدانة من تجار الجملة، ويدفعون من نتاج مبيعاتهم كل أسبوع. ونادراً ما يكون هذا التاجر ميسورا، بل إن حالته كثيرا ماتتدهور يوما بعد يوم حتى ينتهى به الأمر أن يهجر هذه المهنة ليحترف عملا آخر.

– القهوجية : أى أصحاب تلك المحلات التى يقصدها الناس من مختلف الحرف ليتناولوا القهوة والشربات ويدخنوا ويستمعوا إلى الموسيقيين والرواة : ٢,٠٠٠

وهؤلاء الناس يشترون كل يوم ما يرونه ضروريا لاستهلاك اليوم.

ويستلزم هذا النوع من الصناعة رأس مال قليل ، إذ تكفى ٥٠ بوطاقة[١] (خردة) لإنشاء مقهى جميل ، ولدفع إيجار المحل الذى يشغله ، ولتجهيز الأثاثات والآنية اللازمة[٢] .

– خدم ذكور : قواس، سايس، سقَّاء، فرَّاش : ٣٠,٠٠٠

– عمال، حمالون، عمال يومية ١٥,٠٠٠

(١) تساوى البوطاقة ٩٠ بارة، ووقت إقامتنا فى مصر، كانت البارة تساوى تقريبا ٤ سنتيمات وكانت تساوى من قبل ٧.٥ سنتيمات، وقد تناقصت قيمتها الآن كثيرا.

(٢) يوجد فى تركيا كما يوجد فى مصر عدد هائل من مثل هذه المحلات. ويتكون أثاثها من مقعد طويل بلا مساند، مستدير أو مستطيل بحسب شكل المحل، وتوضع على هذه المقاعد حصر (حصيرة) ويقعد الاتراك على هذه المقاعد ليدخنوا الغليون وليتفكروا ويشربوا القهوة بلا سكر. وأماكن التجمع هذه تسمى بالتركية كافيناى ، ويديرها عادة رؤساء الكولوك: أى البريد الحربى .

- إجمالى الذكور البالغين : ٩٩,٠٠٠
- ويمكن أن يصل عدد النساء البالغات إلى : ١٢٦,٠٠٠
- كما يمكن أن يصل عدد الاطفال من الجنسين إلى : ٧٥,٠٠٠

وبذا يبلغ إجمالى عدد سكان القاهرة : ٣٠٠,٠٠٠

ومن بين الـ ٩٩,٠٠٠ شخص من الذكور يمكن أن نحصى على الأقل ٢٦,٠٠٠ شخص ليست لهم بحكم سنهم زوجات[1]. وليس ثمة أسرة ميسورة ولو قليلا إلا وتمتلك على الأقل بعض العبيد السود، ويستطيع الأوربيون المقيمون فى مصر أن يشتروا هم أيضا عبيدا ليعملوا فى خدمتهم، وهذا أمر غير مسموح به فى بقية ولايات الباب العالى.

وفى أثناء حكم على بك، كان عدد دواب النقل فى القاهرة مثل الحمير والبغال يصل إلى ٢٢,٠٠٠، لكن عدد البغال اليوم ضئيل لحد كبير، ويمكن أن يبلغ عدد الحمير المستخدمة فى التنقل داخل المدينة أو ضواحيها، ولنقل الفاكهة وأعشاب المراعى بلا أدنى مبالغة حوالى ٣٠,٠٠٠ حمار. ولا يعرف المصريون عامة استخدام العربات لنقل بضائعهم، وهذا ما يضاعف لحد كبير من عدد الحيوانات التى تقوم بهذا الدور. ويُستخدم الجمل للمسافات الطويلة. وحيث إن الحمار لايتطلب قدرا كبيرا من العناية مثلما يتطلب الحصان فإنه يستخدم كدابة لغالبية السكان. وكان ممنوعا على الأوربيين لوقت طويل أن يستخدموا دابة أخرى غير الحمار، بل كان عليهم إذا ما قابلوا أثناء جولتهم مملوكا بسيطا أن ينزلوا أمامه

(١) توصل المسيو جومار- بعد حساب أسسه على النسبة القائمة بين عدد الموتى وعدد المولودين وكذلك تعداد الأحياء - إلى تقدير عدد سكان القاهرة بـ ٢٦٣,٧٠٠ نسمة.

على الأرض دليلا على الاحترام، كذلك كان الأمر بخصوص اليهود والأروام وبقية الرعايا الأخرى، ويبلغ عدد سكان القاهرة القديمة من ١٠ – ١١ ألف نسمة من بينهم ٦٠٠ من المسيحيين المنشقين.

وقد حان الآن الوقت لكي نتحدث عن الديانات التي تقتسم سكان مصر، وفيما يلي لمحة عامة عن ذلك.

٣

عن الأديان المختلفة

تجتمع في مصر على وجه التقريب كل عبادات ومذاهب الدين الإسلامي(*) ويمكن أن نقسمها إلى مايلي:

١– أتباع المذهب الحنفي، ويعتنق بلاط القسطنطينية هذا المذهب، لذا تحتم أن يكون قاضي العسكر حنفيا على الدوام، ولكن ذلك ليس بالأمر الحتمي بالنسبة لقضاة الأقاليم. وكانت حكومة مصر السابقة (على مجئ الحملة) تتبع بالمثل المذهب الحنفي.

٢– أتباع المذهب الشافعي: وهذا المذهب هو أكثر المذاهب انتشارا في القاهرة، وهو مذهب المشايخ والعامة.

٣– أتباع المذهب المالكي.

٤– أتباع المذهب الحنبلي: واتباع هذا المذهب نادرون لحد كبير.

وسوف يندهش القارئ – الذي تعود على الدوام أن يقرأ في كتب التاريخ عن المعارك الدامية التي تتبع حركات الانشقاق الدينية – حين يعرف أن كل هذه المذاهب متسامحة غاية التسامح فيما بينها، فليس ثمة أي عداء أو تنافس، وليس

(*) من الواضح أن المؤلف لم يكن ملما إلا بالمذاهب الاسلامية السنية فقط (المترجم).

ثمة أى اضطهاد من جانب أقواها، كما لايفكر أحدها على الإطلاق فى الحصول على أنصار له من أبناء المذاهب الأخرى، وهذا مايدل على الاعتدال الشديد، بل إن أتباع المذهب الحنفى يتميزون عن أتباع بقية المذاهب بأنهم أكثر تسامحا.

ويمكن أن نعد الطوائف الآتية بين المسيحيين:

الأقباط

١- طائفة كاثوليكية وتتبع البابا.

٢- طائفة من الهراطقة وتخضع لبطريرك، ويتبع هؤلاء آراء أوتيخوس ونسطريوس، ولكن مع اختلافات كبيرة. وهم ينكرون الطبيعة المزدوجة للمسيح.

الأروام

١- الكاثوليك ويخضعون للبابا.

٢- المنشقون ويخضعون لـ ٤ بطاركة: واحد فى القسطنطينية، وآخر فى القاهرة، وثالث فى دمشق، والرابع فى القدس.

الأرمن

١- الكاثوليك ويخضعون للبابا.

٢- المنشقون ويتبعون أحد البطاركة.

المارونيون

وهم كاثوليك ويخضعون للبطريرك فى لبنان.

وليس فى مصر لا كالفانيون ولا لوثريون.

وينقسم اليهود فى مصر أيضا إلى طائفتين أهمهما طائفة القرائين. وهما متسامحتان فيما بينهما. أما بقية طوائف هذه الديانة والتى تحدث عنها نيبور Niebuhr فى كتابه Voyage de L'arabie فمجهولة تماما فى مصر وفى كل وادى النيل.

٤

عن الأقباط بشكل خاص(*)

لعل أكثر الطوائف إثارة للإهتمام من بين كل سكان مصر هي طائفة الأقباط بلا جدال، ذلك أنهم يعتبرون أنفسهم أحفادا للمصريين القدماء، كما يرون في لغتهم وفي المسارات التي سلكتها الأحداث التاريخية مايرجح كفة مثل هذا الادعاء. ومما لاجدال فيه أن لهم ملمحا فيزيقيا شديد القرب من ملمح الافريقيين لحد يكفي لكي يحملنا على أن ننسب لهم أصلا يعود إلى الدولة القديمة، ولعل بمقدورنا أن نفترض أن جنسهم قد استطاع أن يظل نقيا، بعيدا عن أي اختلاط بالأغريق، اذ ليس بينهما أي ملمح من تشابه. فعندما استولى الاسكندر على مصر واستقر فيها الإغريق بشكل دائم تحت حكم البطالمة فلابد أن كان ثمة جنسان متميزان، ومنذ ذلك الوقت أصبح المصريون، الذين عرفوا باسم الأقباط، يشكلون طائفة منعزلة بالرغم من الغزوات المتتابعة من الرومان والعرب والعثمانيين، وماتزال هذه الطائفة منعزلة تماما حتى اليوم عن بقية الأجناس التي تشكل الآن الجزء الأعظم من سكان مصر.

(*) من نافلة القول أن نذكر بأننا هنا بصدد أثر علمي يقتضي الواجب نقله بأمانة نصا وروحا، ومع ذلك فجدير بالذكر أن الصورة القائمة هنا هي نموذج لحالة كل المصريين باختلاف طوائفهم في ذلك العهد، حيث كان كل أبناء مصر يعانون وإن اختلفت الحجج والادعاءات بحسب مقتضى الحال، وبرغم ذلك فإن الصورة هنا تختلف في كلياتها، بل يصل الاختلاف أحيانا لحد التناقض مع ما جاء في دراسات أخرى بوصف مصر، نذكر منها -على سبيل المثال- ماجاء بدراسة دي بوا-ايميه في وصف مدينة منوف، وما جاء بدراسة لانكريه عن نظام الضرائب على الأراضي الزراعية، وكذلك ماجاء بدراسة جيرار عن الزراعة والتجارة والصناعة. كما أن بعض ماجاء في هذا الفصل لايمكن التسليم بصحته بحال من الأحوال، بل لايمكن تصور طرحه على الإطلاق، فليس هناك ما هو أيسر من دحضه. (المترجم).

منذ الأيام الأولى للمسيحية، أرسل بطرس الرسول إلى المصريين القديس مرقص كى يبشرهم بالإنجيل، فجذبت فصاحته وحماسته على الفور العقول، وأصبح له جمهور من الأتباع. وهكذا تأسست كنيسة الأسكندرية التى أصبحت ذائعة الصيت في الشرق. ولكن - بعد ذلك - تغلبت آراء أوتيخوس ونسطريوس، وظلت هذه البذور الأولى للانشقاق تعمل عملها حتى اليوم.

وللأقباط منشآت دينية بالغة الروعة كما نرى فى كثير من الكنائس والأديرة الخربة، كما أنهم أنشأوا فى مصر العليا على وجه الخصوص كنائس رائعة. ويبدو الصعيد بمثابة مهد لهم، فقد كانت أعدادهم هناك على الدوام كبيرة ومايزال الأمر كذلك حتى اليوم، ولكنهم بعد كثير من التقلبات والأزمات السياسية لقوا مصير سكان مصر الآخرين، ذلك أن ديانتهم بعد أن فقدت جزءاً من سطوتها التى أكدتها سيطرة الأباطرة الرومان فقدت كذلك جزءا من عظمتها وازدهارها، وبرغم ذلك فقد ظل لهم مايقرب من مائة دير، من بينها خمسة أديرة خاصة بالنساء: اثنان منها فى القاهرة، واثنان فى مصر القديمة، وآخر فى مكان منعزل بالقرب من منفلوط، وهذا الدير الأخير مثال لحالة بالغة الندرة والشذوذ بشكل غير مستحب، فهو ينقسم إلى قسمين منفصلين: واحد للرجال وآخر للنساء، يضمهما معا سور واحد دون أن يكون ثمة - رغم ذلك- أى اتصال بينهما.

ولا يلعب الأقباط فى مصر إلا دورا ضئيلا، ومهارة شعبهم هى مصدر حياتهم، فقد استطاعوا -تحت حكم الأتراك- أن يحتفظوا بجزء من العمل الإدارى لم يخرج مطلقا عن أيديهم منذ العصور البالغة القدم، وهو مسك سجلات الضرائب والدخول والملكيات، أى أنهم - باختصار- الملمون بمساحة مصر. وهم يتهمون بأنهم لم يكونوا -على الدوام فى عملهم هذا- على درجة كافية من الأمانة والنزاهة.

وهم يقومون بعمليات تقسيم التركات العقارية، وهم كتبة مصر الحقيقيون،

كما أنهم أيضا مساحوها، وقد انهمك عامتهم فى ممارسة فنون الصناعة.

وتعيش الأديرة بفعل الهبات، وعن طريق دخول متواضعة تأتى من بعض الملكيات الضئيلة التى احتفظوا بحق استغلالها. كما أنهم يقومون بمساعدة فقرائهم عن طريق جمع تبرعات عامة، ويقوم بجمع هذه التبرعات مفتشون يختارهم البطريرك على الدوام من أبناء العائلات الكبيرة. ورهبانهم بسطاء فى ملابسهم وطعامهم، كما أن الرزق - أى الدخول - الممنوحة لهم لا تكفيهم إلا مع الحرمان الشديد، لذا فهم لايأكلون فى اليوم سوى مرة واحدة، ويتكون طعامهم من الخضر وقليل من السمك، ولايسمح لهم بأكل اللحوم إلا فى أيام الأعياد. وملابسهم عبارة عن رداء كتانى طويل، والراهبات لسن بأحسن من هؤلاء لبسا.

وهكذا أمكن للأقباط أن يتماسكوا فى شكل أمة متحدة داخل بلد منهزم، ويعطى مجتمعهم الصغير لمصر - بفضل بعض الأنظمة المقتبسة من القيم الإنجيلية - مظهرا من مظاهر الاتحاد والوفاق والألفة، وهو أمر نادر فى تلك البلاد التى نكبت بالطغيان والاستبداد.

وبرغم هذا فإن الأقباط لايخلون من العيوب، وهذه العيوب إنما هى نتيجة حتمية لتلك الحالة من الإذلال التى انتهوا إليها تحت حكم الأتراك، فحيث إنهم كانوا على الدوام مضطرين للاستكانة وللتظاهر بخلاف مايبطنون فقد أصبحت الغالبية منهم تتصف بصفات الجشع وبأخلاق الأُجَراء المرتزقين. وهذه بالتأكيد هى مسيرة كل الشعوب المقهورة على مدار التاريخ، فالتقاعس هو النتيجة الطبيعية للعبودية والاذلال [١].

---

(١) ممايبين إلى أى حد كان الأقباط يحتقرون من قبل المسلمين أن عمامتهم ينبغى أن تكون من لون واحد، مما يؤدى إلى التعرف عليهم من بعد، ويمكن أن يقال، إلى تعريضهم لزراية العامة، ولايسمح لهم مطلقا بأن تكون لهم عمامة تماثل عمامة المسلمين، فهى عبارة عن شريط ضيق يلف حول طربوش يغطى الجبهة. ومع ذلك فإن الأقباط عندما يتوجهون إلى الأقاليم لتحصيل الضرائب فإنهم لاتنالهم إهانات من قبل المسلمين، وليس هذا بفعل الاعتياد الطويل، بقدر مايعود إلى وجود قوة من الجنود معهم لحمايتهم.

ومع ذلك فقد بقيت لهم على الأقل حرية العبادة، ذلك أن محمدا الذى كان سياسياً محنكاً قد ترك للشعوب التى خضعت لسيطرته حرية ممارسة شعائرهم الدينية ، كما ترك لهم الحق فى أن يسيروا أمورهم بموجب قوانينهم الخاصة، ولكن داخل أطار سيطرة النظم الإسلامية، وقد سار على نهجه القويم الخلفاء من بعده، ولعل الديانة الإسلامية تدين بنجاحها السريع لهذا الاعتدال الحكيم أكثر مما تدين لقوة السلاح. ومهما يكن الأمر فإن الأقباط -وعموما كل مسيحيي الشرق- قد لعبوا دورا فى سياسة بلادهم ، بل إن المماليك أنفسهم لم يكن بمقدورهم أن ينهوا امتيازا كهذا تدعمه مبادئ دينهم أكثر مما تدعمه العادة وفعل الزمن (*) .

وتتخذ أمة الأقباط - كرئيس أعلى لها وكزعيم دينى ودنيوى - حبرا هو الشخصية الأولى فى الكنيسة ويلقب بالبطريرك، ولاتُعرف لسلطته حدود إلا ماتفرضه العادات المستقرة وإرادة حكام البلاد. وهو يفصل فى كل الخلافات التى تقع بين كل رعيته ، لكن حكمه فى ذلك ليس نهائيا، إذ يمكن للأطراف المتنازعة - باتفاق فيما بينها- أن ترفع الأمر إلى القاضى، الذى يقر عادة حكم البطريرك. أما الجنح والجرائم فتعامل بطريقة أخرى، فالبطريرك لايفصل إلا فى الجرائم الصغيرة التى لاتتطلب إلا عقابا إصلاحيا ، فعندما يتهم قبطى - على سبيل المثال - بالسرقة من أحد المسلمين، فإن المسلم يرفع شكواه إلى البطريرك. أما إذا كان المسلم -على عكس ذلك - هو السارق فإن القبطى يرفع شكايته أمام القاضى أو يطلب العدالة من حاكم المدينة نفسه، ويقوم الطرف القبطى بنفسه بتقدير حقوقه أمام المحاكم.

أما حوادث القتل والجرائم الكبرى، فليست من اختصاص محكمة البطريرك، لكن من اختصاص الضباط المكلفين - من قبل شرطة المدن - بمطاردة ومعاقبة كبار المذنبين. وفى بعض الأحيان يتمكن المذنب من التملص من العقاب عن طريق

(*) لعل القارئ قد لاحظ هذا التناقض فيما يذكره المؤلف هنا وما سبق أن ذكره فى بداية هذه الفقرة .(المترجم) .

دفع مبلغ من النقود لمن يمسكون بسيف العدالة ، ويحدث هذا أيضا بالنسبة للمسلمين.

ويختار البطريرك – على الدوام – من بين رهبان دير سان أنطوان ، ويتم ذلك بالانتخاب، وعندما يراد اختيار خليفة له فإن المطارنة وكبار القساوسة ينضمون إلى كبار رجالات الأمة القبطية.

وتتكون الجمعية العمومية من ٤٠ –٥٠ شخصا، ثم يشرعون فى عملية الانتخاب، ويعين الراهب الذى يحصل على أكبر عدد من الأصوات فى منصب البطريرك.

ويشكل المطارنة الصف الثانى من هييرارشية الكنيسة القبطية، وليس لهؤلاء الأساقفة من دخل إلا ما يحصلون عليه من هبات من أقاليمهم . ويبلغ إيراد كنيسة العاصمة حوالى ١٠,٠٠٠ بوطاقة (خردة) وهو إيراد بعض المنشآت الخيرية المخصصة لها، وهذا الدخل البسيط هو أساس دخل البطريرك، لكنه يستطيع على الدوام أن يعثر على الوسائل التى يزيد بها مخصصاته الشرفية، وهى دخول عرضية (غير ثابتة) لكنها تصل فى بعض الأحيان إلى رقم كبير للغاية. والاسكندرية هى مقر البطريركية ، لكن البطريرك يقيم فى القاهرة حتى يكون فى وضع يمكنه من رعاية مصالح شعبه ، والدفاع عن حقوقه أمام السلطة المسلمة.

ويتمتع رجال الدين من الدرجة الأقل أيضا بأهمية كبيرة، لكنهم جهلة وفقراء، وتسمح لهم قوانين كنيستهم بالزواج الذى ينبغى أن يسبق رسامتهم. ولايسمح لهم بالزواج طيلة حياتهم إلا مرة واحدة. وعندما يموت أحد القسس الأقباط يتجمع كبار رعاياه ، كى يحددوا لمطران الولاية رجل الدين الذى يبدو لهم أكثر جدارة بولاية المتوفى ، ويعين المطران على الفور القسيس الذى وقع عليه اختيارهم. وكل الكنائس مملوكة لهيئة رجال الدين ، ويصرف عليها من الهبات والتبرعات.

ويثق القبطى ثقة عمياء فى قساوسة طائفته، ولهؤلاء القسس تأثير كبير على

النفوس، وبمقدورهم – بقليل من الحيلة – أن يسيئوا استغلال ذلك التقديس الذى يحيطهم الناس به ، ليعودوا بالنفع على أنفسهم. لكنهم فى غالب الأحيان جهلة مثل بقية أبناء الشعب، وليس ثمة بينهم إلا عدد ضئيل للغاية قد وصلوا إلى درجة من العلم يستطيعون معها أن يقرأوا كتب الطقوس الدينية ، وهى الكتب الوحيدة التى ماتزال تستخدم اللغة القبطية حتى اليوم(١).

وبالرغم من هذا التقدير العميق لرجال الدين ، فإن القبطى لايسمح لزوجته أن تسفر عن وجهها أمامهم (ونحن هنا نتحدث فقط عن الطبقة الميسورة منهم) ، بل إن البطريرك لايمكنه أن يرى سيدة سافرة إلا إذا كان زوجها هو الذى سمح بذلك وعن طيب خاطر.

ولهؤلاء الأقباط أيام للصوم وأيام للأعياد الدينية ، هى – على وجه التقريب – نفس أوقاتنا. ويتمثل الاختلاف الوحيد فى طول المدة أو قصرها ، وكذلك فى طريقة أدائها. وعدد مناسبات صيامهم أربع مناسبات فى العام ، وهى تسبق أيام الذكرى ذات القدسية الكبرى لديانتنا، والصيام السابق على عيد الفصح (القيامة) هو أطولها جميعا ، وهو كذلك أشدها مشقة ، ويبلغ طوله ٥٠ يوما. ولا يمكن للمسيحى طيلة هذه المدة أن يتناول سوى وجبتين فى اليوم، ويمتنع تماما عن تناول اللحوم والأسماك وكل ماله روح على وجه العموم. وتأمر الكنيسة بأن يمتنع الناس عن إدخال أى شئ إلى أفواههم حتى ولوكان دخان النارجيلة قبل الظهيرة ، وهى موعد الوجبة الأولى . ويستمر الصيام السابق على عيد الميلاد ٤٣ يوما ، ويبلغ صيام العذراء ١٥يوما ، ويتراوح صيام الرسل بين ١٥ –٤٥ يوما ، حسب المسافة الموجودة بين عيد الميلاد والصوم الكبير. وهم طيلة أيام الإمساك (الصوم) لايتناولون سوى وجبتين : واحدة عند الظهر والأخرى فى المساء ، ولايمكن تناول

(١) يمكن القول بأن اللغة القبطية كانت هى اللغة العامية للمصريين القدماء ، وأن رموزها ليست سوى الحروف اليونانية مضافا إليها بعض الحروف لاستيعاب الأصوات التى ليس لها شبيه فى اللغة اليونانية .

السمك أو البيض أو الألبان دون الحصول على إذن من المطارنة ، وفي بعض الأحيان لابد من اللجوء مباشرة إلى البطريرك ، وبخصوص مدة الصيام وصرامته، فإن ثمة تشابها كبيرا مع الكنيسة اليونانية في الشرق، وفضلا عن ذلك فهناك عدد كبير من الروابط بين الطائفتين. وليس هذا مما يبعث على الدهشة، فأصل الكنيستين واحد ، كما أنهما يتبعان – على وجه التقريب – نفس المبادئ .

ويمارس الأقباط كذلك الاعتراف، وهم يشتركون في هذا الطقس الديني مع المسيحيين عموما، لكن ثمة عادة خاصة بهم تبدو مناقضة تماما أو على الأقل غريبة عن مذهب المسيح ، تلك عادة الختان للجنسين(١). وبالرغم من أن هذه العملية ليست – فيما يبدو – إلزامية بالنسبة لكل الأقباط، فإنهم مع ذلك يخضعون لها إما بفعل الاعتياد وإما بفعل الأفكار المسبقة. وتصر الأمهات على ضرورة ختان أطفالهن ، إذ يتصورن أن أبناءهن لن يكونوا صالحين للإنجاب مالم يمروا بهذا الأمر المؤلم .

وفي الصعيد يختتن كل الأقباط، لكن عدداً كبيراً منهم في القاهرة يرفض ذلك ، أما بالنسبة لختان الأطفال الصغار فهي عادة شائعة في كل مكان ، تتم دون وساطة القسيس، ويختتن الجنسان في سن السابعة أو الثامنة. وينتهي يوم هذه العملية عادة بعيد عائلي . لكن ينبغي أن يسبق العماد عملية الختان ، ويتلقى الأطفال سر القربان المقدس في فترات تختلف بحسب الجنس، فهو يتم بالنسبة للذكور بعد ٤٠ يوما من ولادتهم ، وبالنسبة للإناث بعد ٨٠ يوما .

ويسارع الأقباط بتزويج أبنائهم ما أن يروا أنهم قد بلغوا سن البلوغ ، ولذلك يتم تزويج الفتيات في سن الثانية عشرة ، بينما يتزوج الأولاد في سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة. ولاينبغي أن ندهش لمثل هذه الزيجات التي تتم هكذا قبل الأوان ، في منطقة كهذه يعمل فيها الطقس على سرعة نمو الجسم ، كما يعمل على إثارة الشهوات منذ سن مبكرة .

---

(١) يبدو أن هذه العادة قد انتقلت إليهم عن قدماء المصريين الذين كانوا يمارسون هذه العادة. انظر هيرودت : الكتاب الثاني، فقرة ١٠٤ . ترجمة لارشيه Larchet .

ويرسل الأقباط أولادهم إلى مدارس صغيرة، حيث يتعلمون القراءة والكتابة إلى جانب المبادئ الأولى للدين. ويتمتع بهذه الميزة كل الأطفال الذكور بلا تمييز، لكن الفتيات لايستطعن الذهاب إلى المدرسة إلا بموافقة أمهاتهن اللاتى يعترضن على ذلك فى بعض الأحيان . ولم نشاهد فى القاهرة فتاة واحدة تتردد على المدرسة ، وعلى العكس من ذلك فى الصعيد ، حيث يذهبن إلى المدارس هناك مثل الأولاد ، ولاينقطعن عن الذهاب إلى المدرسة حتى فى سن الثامنة أو التاسعة ، وهو السن الذى يبدأن فيه فى التشكل ولايَعُدن أطفالا.

لقد أطلنا بعض الشئ ، لكننا رأينا من واجبنا أن نبدأ أولا بالوقوف على بعض التفاصيل حول الأقباط ، لأن معرفتنا بهذه الأمة لاتزال شديدة الضآلة. وسوف نعود إلى الموضوع نفسه فى فصل آخر ، وسوف نحاول أن نقدم فكرة كاملة عن عادات وتقاليد ونظم ومؤسسات وحرف هذه الأمة التى ظلت شبه منسية حتى يومنا هذا من بقية المذاهب المسيحية.

٥

عن العربان على وجه الخصوص

تتكون الكتلة الكبرى من الشعب المصرى من عرب استقروا وارتبطوا بشكل أساسى بالأرض، ولاتختلف عاداتهم فى شئ عن عادات من نعنيهم باسم المصريين. لكن العربان الرحل ينقسمون إلى قبائل رحّالة ، تنقل خيامها من صحراء لأخرى، ولايخضع أبناؤها إلا لمشايخهم، ويتجاهلون سلطة الباشا والبكوات. ويستحق العربان منا اهتماما خاصا ، إذ إن لهم عادات مختلفة، وسوف نرسم سريعا تلك الملامح التى تميزهم، لأن هذه اللوحة سوف تساهم فى تكوين فكرة عن المؤثرات التى تؤثر فى سكان مصر على وجه العموم.

يبلغ عدد العربان الرحل حسب إحصاء قريب ٤٠ ألفا . ويمكن لنا – بالقيام بعملية نسبة – أن نحصل على العدد التقريبى لكل هؤلاء العربان ونسائهم

وأطفالهم... الخ. وهم يشغلون الصحراوات المحيطة بمصر من كلا الجانبين ، ويقترب عدد منهم – في بعض الأحيان – من ضفاف النهر ، ليزرعوا أراضي يستأجرونها من حكومة الإقليم . ويمكن اعتبارهم جميعا من أتباع عقيدة محمد ، بل إنهم يتسمّوْن باسم المسلمين ، ومع ذلك فإن مبادئهم الدينية تبدو شديدة التباين كما يرى بعض الأوربيين الذين زاروهم . ومن المؤكد أن عقائد هذه الشعوب، وكذلك التقاليد الراسخة التي احتفظوا بها عن أصولهم ، وكذلك أخبارهم التاريخية – لابد أن تحظى باهتمام خاص من قبل الرحالة ، إذ يمكن لمثل هذه الأمور أن تساهم في توضيح نقاط كثيرة غامضة في التاريخ الحديث. لكن مثل هذه الدراسات – على وجه العموم – قد أهملت لحد يفوق التصور ، على الرغم من أن العربان الرعاة قد نقلوا – من جيل لجيل – تاريخ آلاف من الوقائع التاريخية المجهولة ، التي من السهل أن تهتك لنا هذا النقاب الصفيق الذي تغلفهم به خرافاتهم وأساطيرهم. وباختصار، ولانمل من تكرار ذلك، ينبغي على كلٍ من المؤرخ ورجل الآثار أن يحصل على معرفة عميقة عن عادات العربان وتقاليدهم.

وفيما يلي أسماء القبائل التي تقتسم فيما بينها صحراوات مصر الشاسعة ، وكذا أسماء الأقاليم التي تفضل هذه القبائل أن تستشرف حدودها:

ولاية المنصورة

١– قبيلة درنة: وهي قبيلة قوية وكبيرة العدد، لكن عوامل الضعف قد دبت فيها نتيجة للحرب الأخيرة التي شنها عليها حاكم الولاية . وقد تبعثرت حاليا هذه القبيلة.

٢– قبيلة البوارشة : وهي تسكن القرى وتحترف الزراعة.

٣– قبيلة حسن طوبار : وتشغل قرى عديدة بمنطقة المنزلة.

ولاية البحيرة

طبقة أولى : الهنادى (*).   طبقة ثانية : أولاد على

وتقيم هاتان القبيلتان فى خيام، وهما أقوى قبائل مصر وأكثرها شراسة، وعلى الرغم مما بينهما من خصومات وما يفرق بينهما من عداوات بفعل من أحقاد وضغائن دينية ، فإنهما يقتسمان فيما بينهما السيطرة على الولاية . وتتبع واحدة منهما أفكار شيخ يسمى : سعد، أما الأخرى فتعتقد فى قداسة شيخ يسمى: حرام. ومن هنا تولد هذا النوع من الكراهية والنفور الذى استمر لأزمنة طويلة ، لكن أحدا لم يستطع أن يعثر على أصل لهذين المذهبين أو مؤسسيهما، بل لقد حدث أن انقسمت مصر بأكملها بفعل هذا الخلاف نفسه، الذى أدى إلى قيام العداوات والضغائن بين الفريقين ، وأخذ كل فريق يدين الفريق الآخر، ويتوعده بعقوبات الدار الآخرة، حتى وضعت حكومة على بك الشهير حدا لهذه العداوات المتعصبة، وعملت حكمة وحزم هذا الرجل - غير العادى الذى لم يكن ينقصه إلا نوع مختلف من التربية ، وكذلك أن يلعب دوره على مسرح من الأحداث أكبر اتساعا لكى يدهش العالم - على تذكير المصريين بمشاعر الاعتدال والتسامح التى اشتطوا فى البعد عنها . ومنذ ذلك الوقت، فإن الناس يكادون يكونون قد نسوا كلا من سعد وحرام، لكن اسمى هذين الزعيمين الروحيين قد ظلا يثيران الشقاق بين الشعوب الطليقة فى الصحراوات.

ولم تكن سوريا لتبعد عن روح التعصب هذه. فهكذا خلقت فى كل هذه البلاد أحزاب أعمتها مثل هذه الأمور من الدجل والضلالات، وبذلك أصبحت ديانتهم الخاطئة، التى يسيئون هم أنفسهم فهمها، سببا للأحقاد والضغائن والعواطف الجامحة، مما أدى بشعوب بأكملها إلى التطرف الأرعن، باسم ديانة يعملون هم أنفسهم على الإساءة إليها.

(*) وردت فى الأصل باسم نميادى Namiady ولعله خطأ مطبعى.(المترجم) .

وتقوم القبيلتان اللتان تحدثنا عنهما للتو، بفرض ضرائب على سكان ولاية البحيرة ، تعادل تلك الضرائب التى تفرضها السلطات الحاكمة ، وبسبب نقص وسائل القمع التى فى حوزة السلطات الحاكمة ، فقد ظل مثل هذا الطغيان البغيض سادرا .

ولاية الشرقية

طبقة أولى	طبقة ثانية
بلى	جميلة
رفاعات	بنى أيوب
سمدانى	جميلات
أولاد على	
الحيوان	

وهذه القبائل كلها من العربان الرحل، وهم لايعرفون الزراعة ولا التجارة، وحيث إنهم قطاع طرق بالسليقة، فقد أصبحوا قتلة بفعل الطمع والجشع . ولاتفرض عليهم الحكومة أية ضرائب أو إتاوات ، لكنهم يكتفون بأن يرسلوا كل عام إلى شيخ القاهرة هدية تتكون من الخيول والجمال، وبذلك يحصلون على حماية هذا الضابط، بل يمكن القول على تفويض منه بالانغماس - دونما اعتراض من جانبه - فى جرائمهم المعتادة.

القبائل المتوطنة

طبقة أولى		طبقة ثانية
القصاصين		أولاد زهيرة
السماكين	بالصوالحية	متولى
الصوالحة		البوارشة
عايد		وروره
الزملى		
أولاد موسى		
لكام		

وهؤلاء يسكنون القرى ويفلحون الأرض ، ومع ذلك فإن لديهم فى نفس الوقت – شأنهم شأن الأولين – ميلا لا يقاوم يدفعهم للقيام بأعمال السلب ، إذ تراهم فى معظم الأحيان يتركون محراثهم ليمسكوا ببنادقهم ويسلبوا أمتعة المسافرين.

ولاية قليوب

طبقة أولى	طبقة ثانية
الصوالحة وجهينة	العيايدة
الحويطات	طرابين

وهم يقيمون فى الخيام ، ويروعون سكان ضواحى القاهرة بغاراتهم التى يقومون بها للسلب والنهب. وهم يشاركون الفلاحين فى زراعة الأرض، ولكن دائما وبلا جدال على حساب هؤلاء الأخيرين(١).

---

(١) لمزيد من التفاصيل ، راجع دراسات دى بوا ايميه وجومار. وكذلك الجدول الذى وضعه اميديه جوبير Amèdèe Jaubert . وسوف نعود فى الفصل الثالث إلى هذا الموضوع بالتفصيل.

(ونجد جدول جوبير الخاص بالقبائل العربية التى تقيم مابين مصر وفلسطين فى المجلد الثانى من الترجمة العربية). (المترجم).

٦

عن المماليك، وعن الأجانب الذين استوطنوا مصر

عندما نتأمل قوة المماليك وتقدمهم الذى ظلوا يحتفظون به على الدوام على قوات الباب العالى ، فسوف نجد - بما لايدع مجالا للشك - أن قوتهم العسكرية الرائعة تلك لاتعود إلى تعدادهم ، بقدر ما تعود إلى قدراتهم وكفاءاتهم . فتعدادهم ليس شيئا بالمرة ، إذ لايكاد يصل مجموع عددهم - سواء الذين حرروا منهم أو الذين مازالوا أرقاء - إلى ثمانية أو تسعة آلاف رجل : وبرغم ذلك فقد توصلوا بفضل جرأتهم وشجاعتهم ومزاجهم العسكرى الذى تنميه نشأتهم العسكرية، وكذلك بسبب من الذكريات الرائعة والطموح الذى لايعرف لنفسه حدا، توصلوا إلى قيادة شعب كبير مع تقييده بسلاسل من خوف، وسحقه تحت وطأة اسمهم :المماليك، وهو الذى يمكن أن يقال بأنه أصبح مثيرا للرعب بسبب كثرة ماأحرز من انتصارات .

ومن الممكن أن ننسب قلة عدد المماليك إلى عادتهم فى الزواج من نساء أجنبيات مثلهم ، وفضلا عن ذلك فإن طقس مصر يحول دون تكاثر الأجانب عموما، حتى عندما يتزوج هؤلاء من مصريات ، فالأطفال - فى الحالة الأولى - يموتون وهم لما يبلغوا من العمر بضع سنوات . وحيث كان المماليك - هكذا - محرومين من فرص التكاثر الطبيعى ، فقد بات عليهم أن يلجأوا إلى هؤلاء الذين ينحدرون من نفس أصولهم ، فكانوا يشترون الرقيق الشبان ويقومون بتدريبهم عسكريا ثم يعتقونهم بعد ذلك . وكان هؤلاء الرقيق إما شراكسة وإما قوقازيين، وكانوا يحملون أولا إلى القسطنطينية ، ثم يرسلون من هناك إلى كل أنحاء الإمبراطورية العثمانية حيث يشتريهم الأغنياء . وتنتسب زوجات المماليك إلى نفس هذين الإقليمين، ويصلن إلى تركيا بنفس الطريقة .

وفى بعض الأحيان، وقبل مجئ الحملة الفرنسية، كان يحدث أن يتزوج أحد

المماليك – بعد أن يدركه اليأس من الوصول إلى الصفوف الأولى من رجالات الدولة – من زوجة مصرية ، وعندئذ يكون له الحظ فى إنجاب الأطفال ، لكن ذريته تتميز مع ذلك بالضعف.

ويمكن لنا أن ندرج العبيد السود من الجنسين الذين كانوا يجلبون من أعماق أفريقيا ضمن الشعوب الأجنبية التى استوطنت مصر. ففى كل عام كانت أسواق القاهرة تمتلئ بهؤلاء التعساء ، وكان عدد النساء بينهم يتجاوز عدد الرجال . وهذه التجارة المرذولة هى واحدة من المهن الرائجة فى هذا الإقليم . ومن أسواق القاهرة، تذهب أفواج العبيد إلى المدن الكبرى فى آسيا ، مثل: أزمير والقسطنطينية وحلفا..الخ، ويبقى عدد كبير منهم فى نفس الوقت فى القاهرة،حيث يستخدمون فى مختلف الأعمال . ويميل المصريون إلى تفضيل النساء الزنجيات، ويشترى الرجل على هواه وحسب قدرته اثنتين أو ثلاثا وحتى ستا منهن.

وكما سبق أن قلنا فإن للمسيحيين فى مصر الحق فى امتلاك العبيد ، بالرغم من أنهم لايتمتعون بهذا الحق فى بقية الولايات التركية ، ومع ذلك فإن هذا الحق محدد بشروط معينة ؛ فمن المحظور عليهم أن يمتلكوا عبيدا من الذكور ، إذ هم – فى هذا الصدد – لايستطيعون على الأكثر إلا شراء أطفال صغار يتخلصون منهم عندما يكبرون . ومع ذلك فقد كان يسمح لهم باقتناء أى عدد من النساء الإماء يستطيعون الحصول عليه ، لذا كان لدى كل أسرة واحدة أو اثنتين على الأقل للقيام بأعمال البيت.

أما العثمانيون المقيمون فى مصر فكانوا قليلى العدد ، وكانت ذريتهم تنقرض شأنهم فى ذلك شأن المماليك، ولنفس الأسباب. ويوجد بالمثل عديد من العائلات السورية التى استقرت فى مصر بغرض التجارة، ولكنها ليست بذات وزن كبير فى أجناس هذا الشعب.

وتشغل قبائل النوبيين أو البرابرة مناطق عديدة فى صعيد مصر وبعض

الجزر المجاورة لشلال أسوان، وهى قبائل فقيرة وتتكون من بعض العائلات.

وفى ختام المطاف نذكر الأفرنج أو المسيحيين الأجانب. وهؤلاء لايستقرون إلا فى مناطق التجارة الكبرى ، مثل : الأسكندرية ، رشيد ، دمياط ، القاهرة . وأهمية هذه الطائفة تعود إلى ماتقوم به من عمليات تجارية أكثر مما تعود إلى تعدادها.

تلك – على وجه التقريب – لوحة بالغة الإيجاز لمختلف العناصر والأجناس التى تقطن مصر، وقد اكتفينا هنا بمجرد ذكرها ، لكننا سنعود إليها فيما بعد ، وعندئذ سنتحدث عنها بتفصيل أكبر.

٧

عن العادات والتقاليد بشكل عام

يوجد فى مصر – شأنها فى ذلك شأن بقية بلدان الشرق – خليط مضطرب من العادات والتقاليد ، تعود إلى أصول متنوعة ، وتنتج عن أسباب كثيرة . وهل كان يمكن للأمر أن يكون على نحو آخر فى بلد يمكن القول بأن كافة الأمم قد اختلطت فيه ؟ فالعادات إذن تتنوع بنفس الطريقة التى تشكلت بها فئات السكان بمختلف أديانهم وأصولهم . فنحن نجد فى المدن – مع شئ من الاختلاف – نفس عادات الشعوب الشرقية ، ولقد كان هذا الاختلاف أمرا ضروريا بسبب طبيعة التربة وتأثير الطقس. أما فى الريف وفى الصحراوات فسوف نتعرف على رجل العصور الأولى ببساطة أذواقه ، هذا إذا لم تكن العصور المنصرمة قد تكفلت بإتلاف فطرته.

تتحدث كل فئات هذا الشعب لغة مشتركة هى اللغة العربية ، وقد تمثل الأقباط كذلك هذه اللغة . وإذا كان بعض العثمانلى قد احتفظوا بلغتهم الأم فقد كان ذلك يحدث فيما بينهم ، وفى علاقاتهم مع ضباط الباشا الذين يحكمون مصر باسم السلطان . وقد نسيت اللغة اليونانية تماما ،أو قل إنها قد انكمشت فى دائرة صغيرة من تجار هذا الشعب (اليونانى) الذين يقيمون فى القاهرة أو الأسكندرية.

ولايمكنك أن تكشف ما يعتمل فى نفس المصريين عن طريق ملامحهم . فصورة الوجه ليست مرآة لأفكارهم ، فشكلهم الخارجى فى كل ظروف حياتهم يكاد يكون هو نفسه ، إذ يحتفظون فى ملامحهم بنفس الحيدة وعدم التأثر ، سواء حين تأكلهم الهموم أو يعضهم الندم أو كانوا فى نشوة من سعادة عارمة ، وسواء كانت تحطمهم تقلبات غير منتظرة أو كانت تنهشهم الغيرة والأحقاد أو يغلون فى داخلهم من الغضب أو يتحرقون للانتقام . فليس ثمة مطلقا فعل منعكس : أحمرار فى الوجه أو شحوب مفاجئ ، يستطيع أن يشى بصراع تلك العواطف العديدة التى تهزهم . ويمكننا أن نلتمس أسبابا عديدة لهذا الجمود المذهل فى الملامح ، قد لايكون الطقس بعيدا عن هذه الحالة . فحيث يبدو الطقس على الدوام بنفس الشكل، فإنه ينقل إلى النفوس - على نحو ما - ثباته الدائم ، ومع ذلك فإن الأسباب الرئيسية لذلك تكمن بالتأكيد فى شكل التربية ، وفى الاعتقاد فى القضاء والقدر المنتشر بين كافة الناس ، كما تعود فى النهاية إلى تعودهم أن يكونوا على الدوام عرضة لنزوات الطغاة الذين يعم ظلمهم البلاد . ففى كل يوم تنشأ أخطاء وبشاعات جديدة، تصبح الغفلة معها بالنسبة للمصريين - والشرقيين عموما - نوعا من الحيلة لمواجهة هذا العسف، فعندما يعاقب الإنسان على حركة أو بسبب نظرة أو أحيانا لمجرد الاشتباه، كما لو أنه ارتكب جريمة، فإنه يصبح وقد اكتسب مقدرة عميقة على الاستيعاب والتمثل بحيث تصبح هذه الأمور الجائرة حالات عادية . لذا فلا ينبغى علينا أن نبحث عن مصدر آخر لأسباب هذا النوع من التسليم المستعذب للألم الذى يميز الشرقيين على وجه العموم: فالشكاوى والصيحات أمور لا فائدة منها أمام إرادة الطغاة . ويعرف المصرى كيف يمشى وقد أغضبه الألم، وكيف يموت تحت عصا القواس دون أن يقول كلمة، فهذه إرادة الله، والله أكبر، والله غفور... وتلك فقط هى الكلمات التى تأتى على لسانه عندما يبلغه نبأ نجاح لم يكن يأمله ، وهى نفسها التى تفلت منه عندما يبلغه نبأ كارثة كبرى ألمت به.

ويبدو خمول المصريين الملتصقين بمدنهم أمرا بالغ التناقض مع تقاليدنا ، حتى لنظنهم في البداية بلهاء أو معتوهين، فتحركاتهم وأحاديثهم وأبسط حركاتهم بل ومسراتهم، كل ذلك يشي بعدم اكتراث مذهل . فأنت تراهم ممددين لجزء طويل من النهار على أرائكهم أو على حصرهم ، حسب درجة ثرائهم ، حتى تظن أن ليس ثمة في هذه الدنيا مايشغلهم إلا أن يملأوا ويفرغوا على التوالي غلايينهم الطويلة، وتبدو مخيلتهم وكأنما قد تخدرت مثل أجسامهم لحد تخال معه - وهم في حالة التنويم الروحي تلك - أن سماعهم لحكم بالموت صادر عليهم لن يكون بمقدوره أن يثير مجرد دهشتهم . وبرغم ذلك فتحت هذا القناع من السلبية البادية على ملامحهم يكمن خيال ملتهب ، وسوف يكون من الظلم أن ننكر عليهم كل حساسية . فعادة الصمت تجعل أحاسيسهم على العكس - وحيث يمكنهم بذلك تركيزها - أكثر حدة ، كما أنها تعطي لأرواحهم دفعات من النشاط تجعلهم في بعض الأحيان قادرين على الإتيان بأفعال بالغة الجرأة ، وفضلا على ذلك فإن الفكر يكسب بعمق ما كان يمكن أن يفقده لو كانت الروح متوقدة... إن ملكة الانتباه ، والقدرة على التذكر ، تذهب إلى أبعد مدى عند هؤلاء الناس الذين تخالهم غارقين في بلادة مطلقة .

وتتوافق أحاسيس هذا الشعب مع بقية عاداته ، فالمرء منهم يستمتع في الحمام مثلا بملذات عجيبة ، إذ لابد أن تقوم واحدة من الخادمات على الدوام بتدليك قدمه إما باليد ، وإما بقطعة من الطوب الأملس ، كما أنه يمضي وقتا طويلا في تهذيب لحيته . وهذه عادة قديمة جدا في الشرق ، حيث لا تدلك القدم باليد إلا في المجتمعات الحميمة من الأهل والأصدقاء ، ذلك أن الآداب العامة لا يمكن أن تسمح بهذا الفعل الشهواني على الملأ . أما عن حك الأقدام بقطعة ملساء من الطوب فهي لا تمارس إلا عند الخروج من الحمام . وكلا الأمرين يعدان في وقت معا ضربا من الأمور الحسية والشهوانية ، وكذلك عملا من أعمال النظافة.

وقد تبدو ملذات من هذا النوع بالغة التفاهة في نظر الأوربي ، لكنها تكفي

لتوفير جو من الرخاوة لذلك المصرى خالى البال ، فهو يتمتع بها وسط العطور وسحب الدخان والأبخرة المعطرة ، ويستطيع أن يوفرها لنفسه على الدوام ما دام الأمر يرتهن بمشيئته . فإذا ما أضفنا إلى ذلك المشهد مسرات ومباهج الحريم والموسيقى والغناء ، وكذلك حبه قول أو سماع الحكايات، ذلك الأمر الذى يستغرق جزءا كبيرا من سهرتهم، لتكونت لدينا فكرة شبه كاملة عن مباهج الحياة عند المصريين وعن ملذاتهم .

إن كل شيء في هذا الشعب يقدم صورة من التناقض الواضح مع عاداتنا نحن الأوربيين . وهذا الاختلاف بلا جدال من صنع الطقس ، ومن صنع الأنظمة المدنية ، والمعتقدات الدينية كذلك . كما أن غيبة القانون تكاد تشل مختلف ضروب الصناعة ، فى الوقت الذى تتكفل فيه الحرارة الشديدة بتقليل نشاط القدرات الجسمية . ولنا أن نتساءل ، لماذا يكلف الفلاح نفسه كبير عناء - فى بلد كهذا ليست الملكية فيه سوى ضرب من الأوهام - كى يحسن من زراعاته ، إذا كانت جهوده تلك لن تؤدى بالضرورة إلا إلى إثراء مستغليه ، وإلى انتزاع مغارم جديدة منه ؟ إن المصرى يعرف حقيقة وضعه ، ويُسيِّر - نتيجة لذلك - أموره ، ويأتى الخوف مضيفاً أثره إلى فعل الطقس ، ليضعف من مقدرة جسمه ، بنفس القدر الذى تقيم به المعتقدات الدينية عقبة - لا يمكن اجتيازها - تحول دون تقدم وتطوير أرضه . وهكذا يظل الغنى ينتهب اللذات ، بينما يظل الفقير يروى بحبات عرقه أرضاخصبة معطاء ، لكنه لايستطيع أن يحصل منها إلا على ما يقيم أوده.

ومن جهة أخرى يمكن القول بأن كل فروع الصناعة بلا استثناء فريسة للاستبداد . وفى نفس الوقت فإن التجارة مزدهرة ، وليس ذلك لأنها تلقى تشجيعا من الحكومة ، ولكن لأن موقع مصر وثراء منتجاتها يهيئان للتجارة معينا لا ينضب. وهذه الحرفة هى المجال الوحيد الذى يمكن أن يعد المصرى بمستقبل زاهر ، فهى تقوده إلى الثروة فى بعض الأحيان ، وهى - فى هذا الصدد - الحسنة الوحيدة التى بقيت لهم، حيث إن صفتهم كمواطنين قد أغلقت أمامهم طرق المجد والمراكز

الكبرى فى وطنهم . انظروا إذن ، إلى أى حد تضاءل سكان واحدة من أجمل بقاع الأرض تحت هذه السيطرة الأجنبية وغير المشروعة ؟. إن الكوارث التى تنال منهم اليوم سوف تظل تثقل عليهم ، طالما ظلت هذه العصا الغليظة لمستغليهم غير الجديرين تدور عليهم، ولسوف يظل المصرى عبدا ، بائسا ، سلبيا ، خاملا ، تدور به دوامات الشك دون أن يفكر فى وضعه المحزن . ولربما تكون بلادته تلك هبة من القدر ، إذ بفضلها لن يعذبه على الإطلاق ذلك الإحساس بالآلام والمخاطر التى تهدده بلا انقطاع.

وبرغم ذلك ، فإن للطبقات الشعبية تقاليد أقل تخنثا ، فذلك الرجل البائس الذى يتوقف بقاؤه على قيد الحياة على عمله اليومى الدءوب ، نشيط بالضرورة لحد لا يمكن معه أن ينال منه التعب . ويتحمل الفلاح النيران التى تصبها عليه السماء الملتهبة لكى يبذر الأرض التى تمده بضرورات أسرته . وسوف يدهش الأوربى الذى سبق له أن رأى الأثرياء المصريين ممددين على أرائكهم فى رخاوة ، بل يمكن القول بأنهم يخشون من أن ينال منهم التعب لو أنهم أتوا بإشارة إلى خدمهم، سوف يدهش عندما يرى السايس أو خادم الاسطبل – أثناء تدريبات المماليك العسكرية – وهو يجرى أمام حصان سيده ، ويتابع كل حركاته لساعات طوال ، دون أن تبدو عليه أقل أمارات التبرم أو الضجر، فى الوقت الذى تلقى الشمس الملتهبة على جسمه العارى شواظى من رصاص . ويؤخذ هؤلاء الخدم من طبقة الفلاحين عادة .

وعندما يمتدح أحد الأوربيين لأحد سكان القاهرة مباهج التريض وجمال الأمكنة المخصصة لذلك فى أوربا ، فإن القاهرى يجد صعوبة كبيرة فى أن يتفهم كيف يمكن أن تكون هذه الممارسة المتعبة واحدة من مباهج الأثرياء . فالقاهرى عدو لكل حركة ، وهو يزحف بصعوبة من منزله إلى دكانه ، لذا فهو يذهب إلى هناك فى معظم الأحيان على ظهر الحصان أو الحمار . وكل شىء مجهول فى مصر إلا الحدائق ، فلكل المنازل التى تتمتع بمظهر حسن – إلى حد ما – قطعة

من الأرض صغيرة ، تزرع بالأشجار والخضروات ، لكن الأشجار تزرع بلا أدنى تنسيق ، كما أنها تزرع لمجرد الزينة . وفى بعض الأحيان يذهب رب البيت إلى هناك ليستنشق الهواء تحت ظلها ، لكنه هنا أيضا يتمدد فوق سجاجيد ومخدات ، كما أنه لا يتنزه فى طرقات حديقته ولا بين أدغال أشجار البرتقال ، كما ادعى ذلك عديد من الرحالة ، إذ ليس لهذه الحدائق طرقات ، كما أن أدغال البرتقال ليست منسقة بطريقة تحبذ النزهات . وباختصار فإن المصريين يزرعون هذه القطعة من الأرض بجوار منازلهم ؛ كى يحصلوا طيلة العام على أنواع متعددة من المزروعات ، وليس لكى يستمتعوا بمشهد الربيع الدائم .

ويتمتع الفلاحون عادة بصحة جيدة ، وملامحهم بشوشة، بحيث تتناقض مع ذلك الهوان الذى قُدِّر عليهم على الدوام أن يقاسوا منه . وهم عجاف أشداء ، وهم يستطيعون تحمل كافة المتاعب، فتراهم نائمين وقت الظهيرة فوق أرض ملتهبة ، وينامون على هذا النحو ساعات متوالية، معرضين للهب الشمس، وهو أمر يكفى لقتل الرجل الأوربى، لكن تلك هى قوة الاعتياد التى يتوافق الفلاح معها على الدوام . وهم لا يكادون يحسون بالعرق ، إذ لا تمتلك هذه الطبقة إلا قُوَّتها الجسدية، ولعلها وفيما عدا هذه الميزه أتعس طبقات مصر.

ولا يتمتع الأغنياء وسكان المدن بمثل هذه البنية القوية ، إذ يبدو عليهم منذ أعوامهم الأولى الضعف والتهدل ، فالأطفال من الجنسين شديدو النحول لحد كبير، وعندما تتقدم بهم السن فإنهم يحتفظون بهيئتهم التى كانوا عليها وهم صغار ، حتى ليظنهم المرء رجالا ممروضين ، وسوف نتحدث فى مكان آخر عن الأمراض الخطيرة التى تهددهم ، لكننا هنا سوف نكتفى بالحديث عن آلام الأسنان التى يبدو أن الإفراط فى الأكل هو السبب فى حدوثها ، إذ يتعرض الأغنياء من المصريين كثيرا لهذه الآلام ، حتى أنه من النادر أن نرى واحدا منهم سليم الفم بالرغم من كافة الاحتياطات التى يتخذونها ليحتفظوا بأسنانهم سليمة ،

فهم ينظفونها مرتين فى اليوم بنوع من مياه صابونية ، ولا يفوتهم أن يكرروا نفس الشيء بعد تناول أقل طعام .

ويبدو أن سوء بعض ما يتناولون من أطعمة هو السبب فى هذه الآلام ، حيث إن الفلاحين لايصابون مطلقا بأمراض الأسنان تلك . ومع ذلك فيستحيل علينا – على سبيل المثال – أن نتفق مع جان فيلد Jean Wiled على أن أسنان المصريين تالفة ، لأنهم يمصون بكثرة قصب السكر . فلو كان الأمر كذلك لكان سكان الريف أول من يهاجمهم هذا المرض ، كما أننا لا نستطيع كذلك أن ننسب هذه الأمراض بشكل مطلق إلى عادة شرب المشروبات الساخنة ، وبشكل أساسى : القهوة . ذلك أن آلام الأسنان كما لاحظ نيبور Niebuhr بحق فى كتاب Description de L,Arabie قديمة جدا فى مصر ، وهى تسبق بوقت طويل اكتشاف البن، إذ يشير هيرودت – عندما يتحدث عن الأطباء – إلى فئة منهم مهمتها أساسا علاج الفم.

ويتميز المصريون باحترامهم لكبار السن، كما أن حب الأبناء هو أيضا واحد من فضائلهم الأساسية، وينظر الشبان لآبائهم بنوع من التقديس الدينى ، ولايجرؤون أن يدخنوا أمامهم على الإطلاق ، ولايسمحون لأنفسهم بتلك الميزة إلا بعد زواجهم ، وهنا فقط يعتبرون أنفسهم رجالا ، ومع ذلك يظل آباؤهم على الدوام أولى أمرهم، وموضع حبهم وعاطفتهم. وفى بلاد كهذه تدين بوجودها للنيل فإن كل شئ يرتبط بهذا النهر، وماتزال توجد حتى اليوم عادات كانت تحدث فى الأزمنة الماضية، فالمسلمون – على سبيل المثال – ينتظرون أولى بشائر الفيضان والاحتفالات التى يقوم بها الناس فى هذه المناسبة ، لكى يحتفلوا بأعراسهم ، ويستمر ذلك حتى حلول شهر رمضان، ومن النادر أن يتزوجوا قبل أو بعد هذه الفترة التى يبدو أن العادة هى التى حددتها .

وقد فرض محمد الوضوء لمرات عديدة فى اليوم، وأصبح هذا التقليد واحدا من الفرائض الأساسية لتلك الديانة التى أسسها هذا المشرع. ونحن لانستطيع أن نلومه فى هذا الخصوص ، حيث إن الوضوء فى كل البلدان الحارة ضرورى للنظافة ، بل إنه ضرورى للصحة . ويغسل المسلمون كل جسمهم كلما استطاعوا ، أو يكتفون بغسل أجزاء منه ، ومن هذه الأجزاء أعضاؤهم التناسلية ، ويستخدمون فى هذه العملية يدهم اليسرى ، أما اليمنى فتبقى لأمور أكثر نبلا . فهى التى توزع الطعام ، وتحيى أو تقدم للكبار أمارات الاحترام أو الخضوع بوضعها فوق الرأس.

والمساجد عبارة عن تجمعات شيطانية ، إذ يتجمع هناك أناس ينهمكون فى أمور تتعارض تماما مع قداسة المكان ، بل هم يندمجون أحيانا فى اهتمامات مجافية للذوق ، فهناك ترى خليطا من المتعبدين يؤدون الصلاة، وبؤساء يتفلّون ويقتلون ما بملابسهم وأجسامهم من قمل وبراغيث ، وعاطلين نائمين ، وحرفيين منهمكين فى ممارسة أعمالهم . وينظر لتلك الأمور بتسامح كبير، وليست مصر هى البلد الإسلامى الوحيد التى تُغتفر فيها – بحكم العادة – تلك العادات السيئة.

ويقدس المسلمون هناك عديدا من الأولياء الموتى، وهم لايعظمونهم إلا لكى ينالوا منهم الصحة لأنفسهم أو الخصوبة لزوجاتهم العقيمات، ويرون فى أوليائهم كذلك القدرة على إبطال مفعول الحسد والسحر المؤذى، ذلك أن الجهل والتعصب يحملانهم على أن ينسبوا لمجرد نظرة سريعة من العين ، الكثير من التأثير الضار على صحة المرء ، بل على حياتهم كلها. وجدير بالذكر أن اليهود – وهم ليسوا أقل تعصبا ولاتطيرا من العرب – يقدسون أحبارهم لنفس الغرض . وبخلاف ذلك ، يلجأ العامة لوسائل أخرى كثيرة – سنتحدث عنها فيما بعد – لكى يبعدوا العين «الردية» كما يقولون.

ويقوم المصريون بممارسة أخرى مضحكة ، تعود إلى ضعف نظامهم الروحى،

فيحرص المسلم منهم بعد أن يقص شعر رأسه أو لحيته على ألا يرمى بها فى الهواء، بل يطويها بعناية داخل ورقة ، ثم يضعها بحرص فى أحد الشقوق . ويتبع الشعب كله على وجه التقريب هذه العادة العجيبة.

وقد قام الجيش الفرنسى - بعد احتلال هذه البلاد - بإنشاء مستشفيات فى كل المدن الكبرى ، وكان بعض المسلمين يترددون على هذه المستشفيات للقيام بمهمة دفن الموتى . وقد لاحظنا أنهم يضعون جثث المسيحيين بطريقة عكسية تماما لتلك التى يضعون بها جثث المسلمين . وسألناهم ذات يوم عن السبب فى هذا التمييز ، فأجابونا بجدية تامة : « إننا نحن أتباع محمد الذين ينبغى لأرواحنا أن تصعد إلى السماء ، لذا فنحن نرقد جثث المسلمين على ظهورها ، أما أرواح الكفار فينبغى - على العكس من ذلك - أن تهبط ، إلى الأرض لذا فنحن نرقد جثثهم على بطونها ، حتى نسهل من مهمة أرواحها ونقصر عليها المسافة » .

وللمماليك عادات ترجع إلى مزاجهم وتربيتهم ، فهم لايُشاهَدون مطلقا بدون سلاح، بل إنهم لايتوجهون إلى حفلة طعام دون أن يرتدوا كافة سلاحهم، ذلك أن الخيانات المستمرة فيما بينهم تفرض مثل هذا الحرص ، إذ كانت الموائد والاحتفالات الكبرى على الدوام هى المناسبة والوسيلة لتنفيذ عمليات الاغتيال أو الانتقام ، إنهم يتمسكون إذن بمناصبهم باحتياطهم ضد هذه المكائد . ومن جهة أخرى، فإن عادة أن يكون المرء مسلحا هى عادة شائعة بين الشرقيين، بل هى عندهم أمر من أمور الجاه والعز، ويشكل السلاح على نحو ما جزءا من ملابسهم ، وسوف يكون الأمر فى غير تمامه لو أن الحزام لم يكن مليئا بالطبنجات الفخيمة والخناجر الجميلة . وتتفق هذه الأداة القاتلة مع نوع الحياة التى يحيونها ، ومع ميولهم الجموح.

والمصريون بشكل طبيعى نحيلو الجسم ، وذوو أمزجة سوداوية ، ولانجد من بينهم رجالا ضخام الجسم وأقوياء إلا عند الأقباط أو المسيحيين الشرقيين .

وأكثر الناس حياء بين المصريين هم الأقباط، ولا يمكن للمرء أن يتصور إلى أى حد بلغ جبنهم وتخاذلهم، ومن السهل تفسير ذلك، فحالة العبودية التى انتهوا اليها منذ قرون كثيرة هى السبب الحقيقى لذلك .

وإذا كان صحيحا أن مصر القديمة هى التى أوحت للشاعر أروفيوس بالأفكار الأولى لهارمونيته الموسيقية ، فإن مصر الحديثة قد فشلت فى هذا المجال ، كمافشلت فى أمور أخرى . فالموسيقى فى هذا البلد ليست سوى نوع من الأنغام الغليظة والرفيعة ، تفرغ ضوضاءها المنفرة والمنافية للذوق السليم فى الآذان فتكاد تجرحها . ومع ذلك فإن لهذه الموسيقى المليئة بالعيوب – كما نرى – قدرة عجيبة على إدخال السعادة إلى الجنس اللطيف فى مصر، الذى يحتقر فى نفس الوقت وبشكل كبير موسيقانا الأوربية . وقد شاهدنا امرأة يغمى عليها من فرط الانتشاء وهى تستمع لصوت أجش لأحد المطربين العرب ، بينما كنا نحن الأجانب نعده صوتا عاجزا يبعث على التقزز . وهم يصحبون أغانيهم بآلة موسيقية أو آلتين حادتين ليس بينهما تناسق [1] . ومغنيات مصر المفضلات هن العوالم (عالمة) . وهن يشكلن واحدة من مباهج وملذات المصريين . ومع ذلك فإن صوت هؤلاء العوالم منفر وغير مقبول ، وينبغى أن تكون مصريا حتى تجد فى صوتهن بعض الطرب . وتنتسب هؤلاء السيدات عادة إلى الطبقات الشعبية ، وهن مشهورات بكونهن شاعرات مرتجلات .

---

(١) ينبغى أن نلاحظ أن الموسيقى العربية – بعيدا عن التونات وأنصاف التونات الموجودة فى سلمنا الكروماتيكى – تتمتع هى أيضا بأرباع التون . وهذه النغمة هى التى تأخذها أذن الأوربى كنغمات خاطئة . ولكن عندما تدرس الأغنية العربية بشكل أفضل فسوف نرى على الفور أن أرباع التونات هذه تشكل جزءا من السلم الموسيقى .انظر فى هذا الخصوص دراسة المسيو فيوتوVilloteau حول موسيقى المصريين المحدثين . وصف مصر، الدولة الحديثة، جـ ١، ص ٦٠٧ وما بعدها .
(الجزء الثامن من الترجمة العربية . المترجم) .

ومن الأشياء التي تلفت نظر الأوربي أكثر من غيرها عند عبوره شوارع القاهرة أن يرى بعض الشبان تغطي أجسامهم الهلاهيل والأتربة ، لكنهم يتجادلون فيما بينهم بكثير من الجدية والأهمية . وليس أكثر مثاراً للدهشة من أن ترى بعضا من العامة يتشاجرون، فهم يتبادلون السباب والصيحات العنيفة ، ويهدد بعضهم البعض ، بل يصل الأمر لحد أن يتلامسوا بالعصى ثم يتفرقون دون أن يصل بهم الأمر لأبعد من ذلك ، ومن النادر أن تصل مشاجراتهم لنتائج أكثر خطورة .

ونلاحظ في المصانع المهارة التي يستخدم بها العمال إبهام قدمهم لإنجاز أعمالهم ، ولاتستطيع أيديهم بكثير من الجهد أن تجارى أقدامهم في تنفيذ نفس الحركات بمثل هذه الدقة والسرعة.

ويمكن لنا أن نذكر تحت بند المهارة ، مهارة الحلاقين المصريين ، فلعلهم أبرع زملاء مهنتهم في العالم كله ، ومع ذلك فأساليبهم تبعث على الضيق حين لايكون المرء متعودا عليها . وهم يتفوقون على وجه الخصوص في حلاقة شعر الرأس بالموسى .

ويتمتع الشرقيون الذين يعملون بتجارة الفضة عامة بشهرة سيئة بخصوص أمانتهم واستقامتهم ، لكن هذا الاتهام ظالم ، ذلك أن الوزانين العموميين والصرافين والعاملين في تبديل العملات مشهود لهم في مصر – على العكس من ذلك – بالنزاهة والاستقامة ، ولعلنا لانجد مثالا واحدا على أن رجلا واحدا من العاملين في هذه المهن قد اتهم بإساءة استغلال هذه المهام الدقيقة التي نيطت بهم. ويحوز الصرافون سمعة طيبة جدا في مجال التجارة . ومع ذلك فمن الصحيح أن لديهم وسائل مشروعة كثيرة يصلون بواسطتها إلى تكوين ثروة كبيرة دونما حاجة منهم إلى الغش . وهم يستطيعون أن يتركوا عملهم هذا في بضع سنوات ، أو يستمرون فيه حسب مزاجهم ، ذلك أن هذا الوقت القصير يكفي عادة لكي يجعل منهم أناسا بالغي الثراء .

٨

عن الأمراض الرئيسية

فى ظل وجود حرارة متساوية الدرجة – على وجه التقريب – طيلة العام، وفى ظل سماء صافية تغسل الموجودات والأشياء كل صباح بما تكونه من الطل والندى ، فإن مصر لا تتعرض إلا لعدد قليل من الأمراض، ومع ذلك فهذه الأمراض على قلتها قاتلة فى معظمها لحد يثير الفزع . ومما لاجدال فيه أن نضع على رأس قائمة هذه الأمراض : الطاعون، هذا الوباء ، الكارثة ، الذى استطاع – بسبب النشاط الذى لم يمكن إدراكه حتى الآن للجسيمات الحاملة له – أن يفلت إلى اليوم من بحوث علم الطب . ويندلع الطاعون فى مصر على فترات تتقارب أو تتباعد، ويمكن القول بأنه نادرا ما ينقطع فى القاهرة والأسكندرية بصفة خاصة . فبعد أن ينكمش المرض بفعل الحرارة الشديدة أو برودة الشتاء القارسة ، فإنه يعود ليتولد من جديد ، وتعود إليه قواه المُهْلِكة ، فى الفصل الذى تميل الحرارة فيه إلى الاعتدال . وفى بعض الأحيان يكون المرض طارئا وعارضا، وعندئذ يكون قليل الخطورة ، ويختفى فجأة بعد مدة قصيرة ، ليعاود الظهور من جديد بعد بضعة أشهر. ويبدو تواكل المسلمين وعدم حيطتهم وسذاجتهم الروحية ، باعتبارها الأسباب الرئيسية لبقاء هذه الكوارث . فهؤلاء فى الواقع، يتصورون – متمثلين بما ورد فى بعض نصوص القرآن – أن ليس ثمة ما يحدث دون إرادة من الخالق ، وأن ليس ثمة ما يمكنه أن يرد قضاءه ومشيئته التى لا محيص عنها ، لذا ينظرون إلى الاحتياطات التى تم اللجوء إليها لمنع انتشار الطاعون كأمور لا جدوى منها ، إذ إنهم لن يصابوا مطلقا بأذى إذا كان مقدرا لهم أن يعيشوا ، كما أن شيئا لا يمكن له أن يحميهم إذا ما كانت مشيئة الله قد أرادت لهم أن يموتوا .

ويتذكر سكان القاهرة بفزع نوبة الطاعون التى حلت أيام على بك ، وتلك التى حلت أيام إسماعيل بك ، ولقد أدت النوبة الأخيرة على وجه الخصوص – وهى التى

اندلعت فى ربيع ١٧٩١ – إلى حدوث فظائع كبرى ، فقد كانت تحصد الألوف فى كل يوم، وكان إسماعيل بك وكبار المماليك من بيته من أوائل ضحاياها . وقد كلفت هذه النوبة مدينة القاهرة ثلث سكانها .

ولسنا هنا بصدد الدخول فى تفاصيل حول مرض الطاعون، فلسوف تذهب بنا الظنون مذاهب شتى حول تحديد أسبابه ، دون أن نتمكن بطريقة كافية من أن نحدد طبيعة العوامل المتسببة فى حدوثه . ذلك أننا لا نريد أن نضاعف من حجم عدد الافتراضات التى قدمت والتى سوف تقدم فى هذا الخصوص ، فالطاعون ينتقل بفعل الاحتكاك والتلامس ، فإذا ما استطاع المرء أن ينعزل تماما وأن يمتنع عن ملامسة جسم مريض أو استنشاق هواء تنفسه ، فبإمكانه أن يتأكد أنه سوف يفلت منه . ويعتقدون هناك فى الشرق أن المرض يمكن أن ينتقل أيضا عن طريق حاسة الشم، وأن الزهور تتشرب بسهولة الأبخرة العفنة الناقلة للطاعون (١) .

وبرغم أن الدوسنتاريا أقل بشاعة من الطاعون بكثير ، فإن آثارها فى مصر ليست أقل تدميرا ، وذلك بسبب أطعمة المصريين الرديئة ، وبسبب استعداد أجسامهم وبنيتهم الضعيفة ، ويسبّب لهم هذا المرض دمارا مروعا، وهو يهاجم أطفالهم على وجه الخصوص ، ويحصدهم بطريقة تبعث على الرعب .

وفى نفس الوقت فقد قدر على المصريين المحاطين بالصحراوات من كل جانب، حيث تنتشر رمالها الناعمة والحادة بفعل الريح ، وحيث يتعرضون هناك لتقلبات مفاجئة فى درجات الحرارة ولرخات الطل المتزايدة – قدر عليهم أن

---

(١) أظهر السيدان ديجينت ولارى des Genettes & Larry كبيرا أطباء الجيش أثناء مدة الحملة، شجاعة تعلو على كل مديح حتى يتعرفا على العوامل المسببة لهذا المرض ، و قد أمكنهما أن يجمعا – مخاطرين بذلك بحياتهما – عددا كبيرا من الملاحظات القيمة عن أساليب العلاج الواجب اتباعها . ويتذكر كل رجال الجيش الذين لا يزالون على قيد الحياة – بكل الأسى – تضحيتهما الكريمة. انظر مؤلفاتهما وانظر كذلك مقالة السيد الدكتور سافارسى Savaresy عن الطاعون الذى ضمها إلى مذكراته، وكذلك مقالة المسيو أسالينى Assalini .

يتعرضوا لأمراض العيون منذ زمان ضارب فى القدم . وهذا ما يؤكده هيرودت حين يشير - من بين الأطباء - إلى أولئك الذين يعملون منهم فى علاج أمراض العيون . وليس الرمد اليوم منتشرا بأقل مما كان عليه فى الماضى ، بل لعل انتشاره قد ازداد بسبب إهمال الشعب وعدم حيطته ، إذ ينام الناس فى الهواء الطلق ، مما يساعد الرطوبة و برودة الجو على تكوين التقيحات ، التى تسبق علل العيون أو فقدان البصر.

ولم يكن بمقدور جنودنا أن يفلتوا من هذا المرض ، وقد ظنوه فى البداية معديا . ولم يكن التجار الأجانب ليفلتوا بدورهم منه ، حتى ليبدو وكأن المرض يفضل سكنى عيونهم ، ومع ذلك فهو لا يستثنى المواطنين، فمن بين كل خمسة أشخاص ، ثمة واحد يضع عصابة على عينيه .

أما الجدرى الذى كان بشعا فى بلادنا منذ زمن طويل ، فإنه يواصل تدميره فى الشرق حيث يهيئ له التعصب والخرافات - كما فى حالة الطاعون - عمرا طويلا[1] . وهو مرض بشع فى مصر ، ويظهر هناك بشكل مفزع ، وبدرجة أشد خطورة مما كان يحدث فى أوربا . ونادرا ما يفلت الأطفال فى سن مبكرة من مخاطره وخبثه ، وإذا ما كان بعض البالغين أو الرجال الناضجين يشفون منه فإنه يترك على كل أجسامهم ندوبا عميقة . وهو ينتشر فى فترة معينة من العام شأنه فى ذلك شأن الطاعون[2] ، لكن ما يجعله أبلغ ضررا منه فى أى مكان آخر ، أن الأمراض التناسلية لا تشفى هناك بشكل جذرى ، لذا ينتقل ميكروبها البالغ النشاط من جيل لجيل ، ويصيب الشعب كله وينتقل إلى دم الأطفال مع لبن الرضاعة . وعندما يأتى الجدرى بعد ذلك ليهاجم هذه الكائنات الضعيفة التى أتلفت فيها بالفعل منابع الحياة نفسها، فلابد أن نستنتج بسهولة أنه سيكون من

(١) يعتقد كثير من الأطباء أن مرض الجدرى قد نشأ أصلا فى مصر .

(٢) انظر ما كتبه المسيو جومار Jomard فى دراسته عن المقارنة بين سكان مصر الحديثة وسكانها القدامى .

الصعب على هؤلاء الأطفال الضعاف أن يقاوموا شدة هذا المرض ، لذا كانت هذه النسبة الكبيرة من الوفيات بين الأطفال فى القاهرة وبقية المدن .

ومن الأمراض الشائعة فى مصر كذلك الفتاق والدمامل . وكان يمكن أن تصبح هذه الأمراض أكثر انتشارا لو لم تكن تلك الحيطة الحكيمة من جانب الفلاحين ، إذ يضغطون أسفل البطن بواسطة حزام جلدى عريض . وتهاجم هذه الأمراض العارضة الحيوان كما تهاجم الإنسان . لكن الإنسان لا يلقى لها فى البداية الاهتمام الكافى ، ومن ثم يزيد المرض خطورة ، ويصبح فى شكل تقيحات تستعصى على الشفاء ، ولما يكن المريض قد شرع بعد فى العلاج . وهكذا شأن القوم مع الأمراض الأخرى ، فالرقى والأدعيات الدينية هى العلاج الناجح لكل الأمراض عند عامة الشعب . أما عيادات الطب الشعبى التى أنشئت فى المدن فهى تغتال حياة من يسلم إليها نفسه طائعا مختارا من الأغنياء ، وفى الوقت نفسه فإن الخرافة تعمل من تلقاء نفسها كعلاج ناجع غريب لهذا البلد ، الذى تُسيِّر أموره المعتقدات المسبقة والجهل والتعصب .

وتشكل كل الظروف التى رصدناها فى الأجزاء : ١ ، ٣ ، ٨ العناصر التى عملت على تشكيل أو تعديل تقاليد المصريين وعاداتهم، ويعود بعض هذه الظروف إلى كل العصور ، حيث إنها ترتبط بالطقس وبالبنية الطبيعية لمصر ، أما بعضها الآخر فهو ثمرة الديانة المسيطرة ، والأنظمة المستقرة ، والقوانين التى تحكم البلاد بمقتضاها . وينبغى علينا كى نُكَوِّن فكرة دقيقة عن بقية الأسباب التى تؤثر – بطريقة مباشرة أو غير مباشرة – على تقاليد الإقليم ، أن ننفذ إلى كل الوقائع، وهذا ما سوف نفعله فى الفصول القادمة .

الفصل الثانى

عن الإنسان المصرى فى سنوات عمره الأولى
الطفولة والتربية - الفنون والعلوم
والآداب

١

عن خصوبة المرأة ونظام الرضاعة

قد لا يكون خارجا عن موضوعنا – قبل أن نتحدث عن خصوبة النساء فى مصر – أن نخوض فى بعض التفاصيل حول حياة المرأة المنزلية ، وحول المكانة التى تشغلها فى المجتمع . فملاحظات من هذا النوع ترتبط بالموضوع بشكل أساسى . وإذا كانت المرأة لا تُحْدث عند الشعوب الشرقية إلا تأثيرا بالغ الضآلة على الرجل ، بالمقارنة بما يحدث عندنا فى أوربا ، فإن الأطفال فى سنى عمرهم الأولى برغم ذلك يخضعون لتأثيرها ، ولا يمكن أن يكون أمر كهذا – بالنسبة للدارس الواعى – إلا واحدا من العوامل التى تؤثر فى تقاليد الأمم ، إذ لا يمكن أن يكون مثل هذا الأمر خاليا من التأثير، حتى وإن عُدّ من قبيل الأسباب غير المباشرة .

وتقيم الطبقة والثروة بين نساء مصر اختلافات وفروقا أكبر بكثير من تلك التى تحدث عند شعوب الغرب ، لكن هذه الفروق لا تتضح فى مجال التربية التى يتلقينها فى طفولتهن – وهى تكاد تكون معدومة بالنسبة لجنسهن كله – بقدر ما تتضح فى مجال العادات التى تنتشر فى أوساطهن كنساء ، وفيما تحاط به السيدات من علية القوم من احتفال وامتياز . ومن هذه الناحية ، يمكن لنا القول بأنه لا توجد فى مصر إلا طبقتان من السيدات : طبقة ترفل فى الثراء ، ويؤدى الغنى إلى رخاوة نسائها ؛ فيقضين حياتهن بأكملها داخل مباهج ومسرات الحريم، وطبقة أخرى قدرت على نسائها حياة نشيطة مليئة بالعمل . ولكى يتضح لك الفرق ، فما عليك إلا أن تنظر إلى واحدة من زوجات البكوات ، وأن تدرس أذواقها وسلوكها ومباهجها وملذاتها واهتماماتها اليومية ، فهذا كفيل بأن يقدم لك فكرة كاملة عن كل السيدات الثريات . ثم عليك بعد ذلك أن تنفذ إلى ما تحت سقف واحد من الحرفيين ، أو إلى داخل كوخ أحد الفلاحين ، وسوف ترى أن الظروف المتشابهة التى تحياها كل هؤلاء النسوة هى التى تحدد لهن ملابسهن ...

وهكذا يمكنك أن ترى كل مباهج الرخاوة وترفها في جانب ، وفي جانب آخر سوف ترى كل خشونة العمل ومقتضياته .

وبرغم ذلك كله فثمة ذلك الذوق الفطرى عند كل النساء الذى يبدو وكأنه يعمل على التقريب بينهن فى مختلف ظروفهن، ذلك أن هذا الذوق يتعلق بالمرأة كامرأة بعيدا عن الطبقة التى تنتمى إليها ، ويمكن القول بأن هذه هى نقطة الالتقاء الوحيدة التى تربط بين النساء على اختلاف طبقاتهن ، ونعنى بذلك حب التأنق والتزين بالحلى . فكثير من السيدات فى مصر يلبسن من تلك الحلى ما يفوق كل ثروة أزواجهن، وليس من النادر أن نرى هناك زوجة لحرفى بسيط تتزين بمجوهرات ثمينة ، لو أن أتيح لواحدة من ثريات النساء فى أوربا أن ترتديها لأدركتها كل أمارات الزهو والخيلاء، ومع ذلك فقد تكون زوجة هذا الحرفى ممن يعانين فى الحصول على قوت يومها . وهذا الكلف من ناحية السيدات المصريات بهذا النوع من الزينة يرتبط بطريقة إحساس هؤلاء السيدات بكرامتهن ، حتى أن أبسط تاجر لا بد أن يوفره لزوجته إرضاء لها ، ويؤدى ذلك فى النهاية وبدرجة لم تكن متوقعة إلى تضييق ممارسة تعدد الزوجات ، لذا يكتفى المسلم المتواضع الثراء بزوجة واحدة أو اثنتين ، ولن يكون بمقدوره أن يزيد عن ذلك وإلا سوف يصعب عليه أن يساوى بينهن . وهكذا ، فقد وضع خيلاء النساء وغرورهن حدودا لإفراط الرجال وشهواتهم .

ولقد سبق أن تحدثنا عن حياة سيدات الحريم، وكيف أنها فارغة ورتيبة، وكيف أن الواحدة منهن تقضى يومها راقدة فوق فراشها أو مُقْعية على وسائد رخوة ، تحيط بها جمهرة من الإماء شديدات الانتباه ، لحد يتنبأن معه بما قد يجول فى إرادتها حتى يوفرن عليها حركة الإشارة من أصبعها ، لذا فإن مثل هذه السيدة تكتسب فى وقت قصير سمنة غير مستحبة، لكن الأتراك يعتبرون هذه السمنة واحدة من أهم شروط الجمال . ومع ذلك فلعل هذا الميل منهم يعود إلى أن كل النساء هناك فى العادة سمينات ، وهذا طبيعى بالنسبة لنساء يتلقين هذا

النوع من النشأة المرفهة . وفضلا عن ذلك فلون بشرة هؤلاء السيدات ناصع البياض، وعيون غالبيتهن آية فى الجمال ، وملامحهن على وجه العموم متناسقة . لكن جمود ملامحهن قد جعل وجوههن خالية من كل تعبير، كما أن سكونهن يشى برخاوتهن ، وعقلهن فضلا عن ذلك خال من أية معرفة . ونساء هذه الطبقة يلجأن إلى وسائل - تبدو لنا بالغة الغرابة - كى يضفين رونقا على جمالهن و يقاومن آثار الزمن وفعل الطبيعة ؛ فحيث إنهن يرون فى كثافة الحواجب أمرا شائنا فإنهن يستخدمن الموسى لكى يصبح هذا الحاجب الكث مجرد خيط رفيع فوق الجفون . وهن يعرفن كذلك المساحيق الأوربية فى التزين . وتلجأ الشابات المسيحيات ، وكذا الروميات اللائى يطمحن أن يحصلن قبل الأوان على كل جاذبية المراهقة - إلى وضع ضمادات من لباب الخبز الساخن بين النهدين ، وتحدث هذه العملية بالفعل أثرها . ولكن فلأن الثديين قد نضجا بسرعة وقبل الأوان فإنهما فى نفس الوقت يفقدان من مرونتهما ؛ ولعلنا نستطيع أن نجد فى ممارسة هذه الطريقة الغريبة سر السرعة التى يذبل بها جمال المرأة الشرقية . وهكذا فنساء مصر كما رأينا لسن أقل من مثيلاتهن الأوربيات غيرة على سطوة جمالهن ، وذلك بالرغم من أنه ليس أمامهن من فرص لاستعراض جمالهن هذا إلا أمام أزواجهن أو أترابهن ، فهذا النوع من الانتصار يرضى كرامتهن بشدة .

وفى الطبقة الدنيا يتغير كل شئ ، فالنساء مهمومات بأمور البيت ، أما مباهج البطالة فلم تخلق لهن . فهاهن فى الحقول يقتسمن مع أزواجهن العمل ، أو يساهمن على الأقل فى جعل العمل على أزواجهن أقل مشقة، لذا تراهن يتمتعن بكل الخصائص الجسدية التى تنتج عن مثل هذا العمل المنتظم ، فأجسامهن قوية، عارية من الشحوم ، وحركاتهن سهلة ، وخطوهن ميسور ، فى حين أن خطوات السيدات الميسورات ثقيلة متعثرة . وعلى الرغم من بساطة ملابسهن فإن لديهن الرغبة فى أن يتميزن وسط رفيقاتهن ، وذلك بالتزين ببعض الحلى المتواضعة ؛ فيحطن أصابعهن بخواتم عريضة كما يفعل السايس ، ويزين خصلات شعرهن ببعض قطع من النقود .

ويقيم في القاهرة وبولاق عديد من الأسر من أصل سوري، ونساء هذه الأسرات في العادة جميلات وقامتهن مديدة وعيونهن سوداء واسعة بها شئ من الإغراء، لكن أنفهن الأقنى والطويل بعض الشئ ربما يعطي لشكلهن ملمحا من شموخ واضح، ومع ذلك فهن يبدون بهذا المظهر المتعجرف في مواجهة السيدات التركيات اللاتي يماثلنهن في الزى والعادات .

وثمة عادة شائعة بين النساء - مسلمات ومسيحيات - وهي أن يُسوِّدن حافة جفونهن بالكحل ويُحمِّرن أظافرهن بالحناء ، ويلاحظ المرء كيف يمكن لهذا اللون القاتم أن يضفي شيئا من الغلظة على الوجه ، لكننا برغم ذلك لا نستطيع أن نصدر حكما قاطعا في هذا الصدد إلا إذا رأيناهن عن قرب ، وفي ظروف حميمة وليس في ظروف طارئة تأتي لتجعل مثل هذا الفضول ممكن التحقق . ذلك أن النساء في كل الظروف لا يخرجن مطلقا سافرات الوجوه، بل يغطين وجوههن بالبرقع ، وهو غطاء مكون من قطعة من الموسلين ، توضع فوق الأنف والوجه ، وتضايق التنفس ، ولا بد أنه يسبب لهن الكثير من الضيق ، وزيادة على ذلك ، تغطي جبهة المتزوجات منهن بعصابة من قماش أسود ، تترك بين البرقع والجبهة فراغا ضيقا تستطيع العين أن ترى من خلاله ، أما أولئك اللائي لم يتزوجن بعد فيحملن على جباههن عصابة بيضاء ، أما لون البرقع فهو نفس اللون بالنسبة لهؤلاء ولأولئك .

ولا يدخل الرجال مطلقا - فيماعدا بعض الأهل الأقربين - إلى مسكن السيدات ، ونادرا ما يأكل الزوج معهن ، ويخصص لهن الجزء العلوى من المنزل ، وهذه عادة شائعة عند الأتراك وعند كل الأمم الإسلامية .

وعندما كان يتاح لأحد الأجانب - قبل قدوم الحملة الفرنسية - شرف أن يمثل في حضرة زوجة أحد البكوات ، أو زوجة إحدى الشخصيات الكبيرة ، فإن هذه الزوجة لم تكن لتستقبله في حجرتها ، بل في حجرة طواشيها أول ، لكنها لا تظهر لناظره . وتأمر بتقديم القهوة والشربات إلى ضيفها . وتظل تتحادث مع هذا

الغريب عن طريق طواشيها دون أن تخرج مطلقا من خدرها . وهكذا لم يستطع الرحالة - السابقون على الغزو - أن يتعرفوا على أحوال سيدات الطبقة المسيطرة ، وذهبت أدراج الرياح كل توسلاتهم اللحوح . فلم يكن عظماء مصر ليسمحوا لأحد بأن يتطلع إلى جمال زوجاتهم ؛ ومع ذلك فقد كانوا يستطيعون أن يوفقوا على الدوام بين واجبات ومقتضيات اللياقة وبين تقاليد بلادهم . وتتزوج النساء - كما سبق لنا القول - فى سن الثانية عشرة ، ومن النادر أن تبقى واحدة منهن بلا زواج حتى سن السابعة عشرة، بل يحدث أن يدعى أنهن قد نضجن فى سن العاشرة أو الحادية عشرة . ومع ذلك فلعل هذا الأمر أقل انتشارا ، رغم أن ثمة أمثلة عديدة فى هذا المجال لا تدع مجالا للشك فيما نقول ، فقد حدث أن تزوجت شابات قد نضجن قبل الأوان وهن بعد فى سن التاسعة أو العاشرة ، إلا أن مشورة السيدات لازمة فى هذه الحالة ، ولم يكن زواج مثل هذا ليتم إلا بعد أن تعلن النسوة أن الزوجة الشابة قد بلغت مرحلة النضوج .

ويمكن للزوجة المصرية أن تصبح أما فى سن الثانية عشرة ، لكنها تصل لذلك فى العادة فى سن الرابعة عشرة ، وتظل فى سنواتها المقبلة تقدم الأدلة على خصوبتها المذهلة ، ومن الممكن لها أن تصبح أما مرة كل تسعة أشهر ، ولكننا نستطيع القول - لكى نقدم نسبة دقيقة - بأن كل مصرية تتزوج تنجب طفلا كل ثلاثة أعوام . ويقيم ذلك التقدير نوعا من التعويض بالنسبة للسيدات اللاتى يمرضن ، أو أولئك اللاتى يتميزن بخصوبة قليلة ، أو اللاتى تجعلهن بعض الأسباب الخاصة عاجزات عن الإنجاب . والعقم التام شديد الندرة فى هذه البلاد، بل إنه يعد بمثابة عار للمرأة ، لذا تلجأ السيدة العقيم إلى كل الوسائل التى تفرضها معتقدات النساء وخرافاتهن لكى تستطيع الإنجاب . ويقوم الدجالون والمحتالون من أهل البلاد أو من الغرباء باستغلال هذا النوع من النساء ، فيقدمون إليهن - بأثمان كبيرة - أشياء يقال إنها لا تخيب مطلقا ، لكن الطبيعة والطقس يعملان عملهما فيساعدان بذلك هذه الأشياء - الوهم - التى يمكن القول بأنها عديمة الجدوى على الدوام .

لكن السيدات فى نفس الوقت لا يبقين خصيبات لسن متأخرة كما يحدث فى أوربا، فما أن يقترين من سن الثلاثين حتى تؤدى نوبات الحمل المتكررة إلى جعل الولادة عسيرة ، مما قد يكلف الطفل - الذى كن سيتباهين به - حياته . وسن الخامسة والثلاثين هى السن الطبيعية التى يتوقف عندها معظم السيدات عن الإنجاب ، ويظل بعضهن يتمتعن بنعمة أن يكن أمهات حتى سن الأربعين ، لكن تلك حالة شاذة ونادرة الحدوث . ومن غير المألوف أن ترى سيدة تنجب بعد هذه السن، وتكون هذه فترة مزعجة بالنسبة للسيدات المصريات، إذ يشعرن فى هذا الوقت ببعض الاضطرابات والتقلبات التى تؤذى صحتهن، لكن السيدة التى تفلت من هذه الأزمة يمتد بها العمر فى بعض الأحيان لسن متقدمة جدا .

وتتم الولادة عن طريق القابلات، وهى على الدوام حوادث سعيدة بسبب تلك الحياة الرخوة الهادئة التى تحياها المصريات . وعندما لا تستطيع امرأة - بعد أن تكون قد استنفدت كل الوسائل التى يتيحها لها طب الركة العاجز - أن تتمتع بسعادتها فى أن تكون أما ، أو أن تحتفظ بالأبناء الذين أتت بهم إلى هذاالعالم، فإن التبنى يعوضها عن ذلك الحرمان الذى فرضته عليها الطبيعة، ولا يمكن لك أن تسمع مطلقا من يقول بأن تلك السيدة عقيم أو أن ذلك الرجل عاجز . ويقوم الموت بحصد أطفال العائلات الأجنبية على وجه الخصوص، فالمماليك واليونانيون الآسيويون والعثمانيون والأوربيون وكافة أبناء الأجناس التى لا تنتمى لهذا الوطن يموتون فى العادة دون ذرية تخلفهم ، وذلك إذا ما تناسلوا فيما بينهم . أما عندما يتزوجون من سيدات هذا البلد فإن بمقدورهم أن يتمتعوا عندئذ بمباهج الأبوة ، دون أن يستطيعوا مع ذلك أن يتطلعوا إلى أن ينالوا نعمة أن يتركوا بعدهم ذرية كبيرة العدد .

ولا يصبح للمرأة المصرية من شاغل - وقد أصبحت أما - إلا أن تعنى بطفلها، فتضع فيه كل اهتمامها وتركزحوله عواطفها ، ولا تستطيع أقوى الشدائد أن تدفعها لكى تتخلص من هذا العبء الذى تظل فخورة به طيلة تسعة أشهر، بل

إن طفلها المرتقب ينسيها آلام الوضع، فهذاالكائن الضعيف والعزيز هو تعويض لها عن آلامها الطويلة . وكم هو جميل بالنسبة لها أن تقوم بواجبات الطبيعة ! إنها لن تسلم مطلقا هذا الطفل – الذى يدين لها بوجوده – لعناية سيدة أخرى غريبة عنه ، فهى شديدة الفهم لملاطفاته الأولى، وهى كذلك تطعمه من لبنها ، ولا تخشى مطلقا ما يعدها به هذا المولود الجديد من متاعب، فلقد قررت أن تتحمل ذلك بسرور ، ولسوف تتحمل فى شجاعة أية مخاطر كبرى قد تتهددها . لكنها لا يمكن أن تسمح له مطلقا بأن يخلع على أخرى ببساطة ذلك الاسم الذى يصنع لهاسعادتها ومجدها، اسم "الأم" الذى تغار عليه وتفخر به ، لذلك لا تعرف فى مصر هذه الأمراض التى تثير أحزان الأمهات الشابات اللاتى يمتنعن عن إرضاع أطفالهن . أما عمليات سكب لبن صدر الأم وغيرها من الأمور التى تضعف صحة الأمهات فسوءات لا يعرفها الشرق ؛ فكل امرأة هناك هى مرضعة أسرتها ، أما إذا ما شاءت الطبيعة ألا تهيئ الكمية الكافية من اللبن لإرضاع مولودها الجديد فإنها ستطلب معونة سيدة أخرى ، لكن هذه المرضعة لن تعد مطلقا غريبة عن الأسرة ، إذ يمكن القول بأن صفتها كمرضعة سوف تنسبها إلى هذه الأسرة ، وسوف تمنحها حقوقا أبدية فى عواطف الأبوين وفى عواطف الرضع . وهكذا يبدو أن العناية الإلهية تقيم نوعامن التعويض بين المزايا التى توزعها على الشعوب ، فهذا هو المصرى الذى ليست له نفس مباهجنا وملذاتنا أو نفس ميزاتنا الجسدية أو الروحية التى تبعده عن أسرته، يعرف أكثر منا معنى العواطف الطبيعية، فأطفاله هم كل شئ فى حياته ، وهم مصدر كل سروره وفخره وآماله ، ولربما كانت أحاسيسه أكثر تبلدا وأقل تنوعا، لكنها أكثر نفاذا وأكثر حقيقة . وهو يدين بذلك إلى براءة عاداته وكذا إلى بساطة تقاليده ، لقد وجدها كامنة فى نفسه وفى ثنايا أسرته ، فليس ثمة من المرارة والندم العائلى ما يسمم مباهجه .

وتولى النساء المسلمات أطفالهن اهتمامات دقيقة ، كثيرا ما تأتى بعكس المرجو منها بالنسبة لهؤلاء الأطفال ؛ فهن يسرفن فى تغطيتهم بالملابس الثقيلة ،

ويؤذين معدتهم بأطعمة غير صحية . فيسرفن – على سبيل المثال – فى تقديم السكريات والفاكهة من كل نوع لهم ، وتكون النتيجة أن يهلك عدد كبير من هؤلاء الأطفال فى سن مبكرة ، ويأتى الجدرى ليساهم فى الارتفاع بنسبة الوفيات بينهم كما سبق لنا القول . ففى القاهرة – على وجه الخصوص – يتسبب الجدرى فى حدوث أضرار هائلة، إذ يهاجم الأطفال من الجنسين ولما تكن أعمارهم قد تجاوزت السنتين أو الثلاث، ولا يمكن لمثل هذه الأجسام الضعيفة التى أتلفت الأطعمة الضارة بنيتها أن تقاوم بسهولة عنف المرض . وهكذا يمكن القول بأن هذا الشعب يدين بوجوده لخصوبة نسائه ، بينما يصعب على الأجناس الأخرى أن تستمر على قيد الحياة فى هذه البلاد، وسوف نقدم الدليل على ذلك فى الجدول الآتى عن حالة أهم الأسر المملوكية :

إسماعيل بك : لم يترك إلا بنتا واحدة .

إبراهيم بك : له طفلان على قيد الحياة .

قاضى أغا : أنجب أحد عشر طفلا، بقى منهم أربعة على قيد الحياة .

مراد بك، أيوب بك الصغير وأيوب بك الكبير، الألفى بك، محمد بك المنفوخ، عثمان بك تباس ، عثمان بك الشرقاوى ، عثمان بك الأشقر ، عبد الرحمن بك ، عثمان بك البرديسى ، عثمان بك الطمبورجى ، حسن بك الجداوى ، صالح بك، إبراهيم بك الوالى ، محمد بك العبدولى ... كل هؤلاء بلا أطفال .

محروق بك بن إبراهيم بك : له طفلة واحدة على قيد الحياة .

على بك الكخيا : له طفلة واحدة على قيد الحياة ، وكذلك سليمان بك .

أحمد بك الكرارجى :لم ينجب أطفالا على الإطلاق ، ونفس الشئ بالنسبة لعثمان بك حسن ، وكذلك سليم بك أبو دياب ، وقاسم بك .

حسن الكاشف الشركسى : لم يخلف سوى طفل أعمى.

محمد أغا : أنجب اثنين وعشرين طفلا لم يبق منهم على قيد الحياة سوى طفل واحد ضعيف البنية.

ومن هذا نرى كيف كان عدد أطفال المماليك الذين يبقون على قيد الحياة ضئيلا ، ويمكننا من جهة أخرى أن نعد أسرا أجنبية أخرى كثيرة لم تكن بأسعد حظا من ذلك ، وهذا دليل على أن الوطنيين وحدهم فى مصر هم الذين لديهم فرصة البقاء عن طريق التناسل ، ويبدو أن طبيعة المناخ تلفظ بعناد بذور الأجناس الغريبة.

وقد خصص محمد نصا عن الواجبات التى ينبغي على الأمهات القيام بها تجاه أطفالهن. يقول المشرع العربى :

«والوالدات يُرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لاتكلف نفس إلا وسعها لاتضار والدة بولدها ولامولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلاجناح عليكم إذا سلمتم ماآتيتم بالمعروف» * لكن السماح البادى فى هذا النص يظل بالنسبة للزوجات المصريات غير مطروق ؛ إذ إن لهن صالحا مزدوجا فى أن يقمن بأنفسهن بالعناية التى يتطلبها أطفالهن ، فهن مدفوعات لذلك بدافع من الحب الأموى أولا ، وهن مدفوعات لذلك ثانيا بفعل احتياجهن لأن يجدن لأنفسهن اهتمامات وأعمالا تقطع الرتابة المعتادة فى حياتهن . ويتفق ذلك مع كثير من أساليبهن فى السلوك، فهؤلاء السيدات اللائى تخلو رؤوسهن من أية معرفة واللاتى لايعرفن عادة اللجوء إلى الكتب لملء فراغهن ، يتمسكن- بفرحة طاغية - بأية وسيلة يمكن لها أن تزجى بعض هذا الفراغ. من هنا فإن ممارسة واجبات الأمومة الشاقة بالنسبة لهن نوع من دفع الملل، وإذا ماحدث أن حملن ثانية أثناء الرضاعة - وهذا أمر مألوف -

---

(*) القرآن الكريم ، سورة البقرة ، الآية ٢٣٣ . (المترجم) .

فإنهن يستمررن فى إرضاع الطفل حتى الشهر السابع أو الثامن من الحمل حيث يكون اللبن قد تناقص، وعندئذ يتخذن لطفلهن مرضعة.

ويتصرف البدو بطريقة جد مختلفة، إذ لاتقوم الأمهات عندهم برضاعة أطفالهن ، حيث يرفض الآباء ذلك بحجة أنهن يسرفن فى تدليل الأطفال، لذا يعهدون بالأمر إلى مرضعات.

وقد سبق لنا أن تحدثنا عن العناية الفائقة التى توليها النساء المصريات المقيمات فى المدن لأطفالهن منذ نعومة أظفارهم ، وهى عناية تضر على الدوام بصحة أطفالهن، ولكن زوجات الفلاحين- على العكس من ذلك - يكتفين بلف أطفالهن بقطعة من قماش خفيف ، ويحملنهم معهن ، ويسمحن لهم بالزحف شبه عراة على الأرض . وينتج عن هذه النشأ ة أن يتعلم أطفال الفلاحين المشى فى سن مبكرة، كما أنهم يكتسبون قواهم بسرعة ، وفجأة بعد قليل يصبحون نافعين لآبائهم . وعادة ارتداء السروال الشائعة فى أوربا مجهولة تماما فى مصر ، وكذا فى كل بلدان الشرق ؛ لذلك فنادرا مانرى رجالا متصنعين يجدون حرجا من الاستجابة لقضاء ضرورات الجسم.

والأب فى مصر هو الذى يقوم بتسمية طفله، ويقوم - لهذا الغرض - بجمع أصدقائه وأقاربه فى اليوم السابع للولادة . وعادة ما يختار لطفله اسم جده إذا كان المولود ذكرا ، أما إذا كان بنتا فليس ثمة قاعدة لاختيار اسمها ، ويختار لها عادة اسم زهرة أو اسم شىء من الأشياء الثمينة الموجودة فى الطبيعة.

٢

الختان

بالرغم من أن الختان عادة إسلامية ، فإن المذاهب الإسلامية تنظر إليه بشكل مختلف ، فأتباع المذهب الشافعي يرونه واجبا دينيا لا محيص عنه ، أما أتباع المذهب الحنفى فيرون أن الختان ليس سوى فعل يثاب المرء عليه. ويعترفون بأن بإمكان المرء أن يكون مسلما حسن الإسلام بدون ختان ، ومع ذلك فمادام ينبغى على المسلم أن يأخذ به فليس ثمة من الأسباب ما يكفل له أن يرفضه .

وليس ثمة سن محددة لإجراء عملية الختان هذه ، فيكفى أن يختتن الأطفال الذكور قبل البلوغ ، إذ عليهم فى هذه السن أن يؤدوا الصلاة ، وهم لايستطيعون أن يحصلوا على الطهارة التى يتطلبها محمد كشرط لهذه الشعيرة الدينية ما لم تكن غرلتهم قد قطعت .

وعندما يريد أحد الآباء أن يقوم بختان ولده ، فإنه يقوده إلى المسجد ، وهناك يصلى الإمام على الشاب الصغير الذى يخرج بعد ذلك من المسجد ليجد جمعا من الأهل والأصدقاء ، وبصحبة هؤلاء فى جولات طويلة على ضجة الآلات الموسيقية ومع كثير من الأبهة حتى منزل والده . وعندما يكون هذا الطفل ابنا لأسرة ثرية أو ذات نفوذ فإنه يمتطى حصانا جميلا مزركشا فى بذخ ، وعندما يعود إلى منزله ، تقدم وليمة يدعى إليها كل الأهل والأصدقاء . وعند نهاية الوجبة يقوم الحلاق بقطع الغرلة بالموسى ويوقف تدفق الدم بواسطة دواء قابض ، وعندئذ يسارع كل المدعوين بتقديم الهدايا « للمطاهر » ، ولاتحضر النساء هذا الحفل ، وعند الطبقات الدنيا فقط تقوم النسوة بمصاحبة الطفل إلى المساجد ويعدن به . أما الفتيات فلا يخضعن لعملية الختان هذه ، ومع ذلك فإن الفلاحين والعربان يقومون بقطع بظر الفتيات . ويعيب الاتراك وسكان المدن هذا السلوك مادام طول العضو لايتطلب مثل هذا البتر، وهى حالة نادرة جدا .

وكما سبق لنا القول فإن الأقباط يمارسون الختان ، ويخضع له أطفالهم الذكور فى سن الثامنة أو التاسعة ، أما الفتيات ففى نفس السن تقريبا . وقد سبق أن أوضحنا أن هذه العادة قديمة فى مصر ونضيف إلى ذلك أن اليهود الذين نشأوا بين المصريين قد نقلوا هذه العادة إلى فلسطين ، وهذا التشابه لافت للنظر ويستحق الاهتمام كما نرى ، وقد سبقنا زملاؤنا إلى المطالبة بذلك ، ونحن نكرر ذلك هنا حيث إن هذا هو المكان الطبيعى لمثل هذا المطلب.

ويعتبر الختان عند المسلمين بمثابة الخطوة الأولى فى الحياة ، إذ يمكن القول بأن الطفل كان يحيا حتى ذلك الوقت بجسمه فقط ، ولكنه بعد هذه السن سوف يبدأ حياته الأخلاقية والروحية . فهو يؤمر عندئذ بأداء الصلاة ، ويلقن العلوم والفنون بعد أن يكون قد سبق له التردد على المدرسة ، لكن المدرسين لم يكونوا قد فرضوا شيئا بعد على عقله الصغير . فالختان إذن هو بمثابة نهاية لمرحلة الطفولة بالنسبة للمصرى بكل نزقها وطيشها ، ويمكن القول بأنه بهذه العملية يولد مرة أخرى ، لكنه فى هذه المرة يولد رجلاً .

٣
التعليم الأَوَّلىّ

فى القرآن – ذلك التشريع الدينى والاجتماعى فى الوقت نفسه – قام محمد بتحديد السن التى ينبغى أن يكون الطفل قد بلغها ، لكى يبدأ تعليمه الروحى والأخلاقى ، فقال :

« رب ابنك لسبع، واضربه لسبع، وآخه لسبع » (*) .

ومع ذلك، فحيث إن الأطباء يدعون أن ملكات الطفل العقلية تتشكل منذ سن الرابعة أو الخامسة، فإن الذى يهمه تعليم طفله، يحرص على أن يبدأ طفله تعليمه

(*) هكذا فى النص والمعروف أن هذا مضمون حديث نبوى شريف وليس آية قرآنية .(المترجم) .

أحيانا فى هذه السن ، فيجعله يتردد على المدارس حتى يتعود على الأقل على شكل الحروف ، ولكى يدركها دون مشقة كبيرة . ويلتزم الآباء بأن يعطوا لأبنائهم نوع التعليم الذى يتناسب مع درجة ثرائهم ، أو يلزمونهم حسب الحال بتعلم حرفة. وتعلم القراءة والكتابة يسبق كل شئ ، لكن ذلك ليس إلزاميا ولا حتى عاما ، حيث إن العدد الأكبر من الفلاحين وأبناء الطبقات الشعبية لا يعرفون القراءة والكتابة، ويمكننا أن نقدر عدد الذين يعرفون ذلك فى القاهرة بثلث عدد سكانها الذكور، بل ويمكننا أن نهبط بهذا العدد إلى الربع فقط .

ومن النادر أن نرى مصريا يتحمل بنفسه مشقة تعليم طفله، فمن الطبيعى أن يتجنب الناس التصدى لعمل بمثل هذه المشقة، لذا فهم يرسلون أبناءهم إلى المدارس مدعين بأنهم – إذا ما تولوا أمر تعليمهم بأنفسهم – لن يقوموا بهذه المهمة بالحزم اللازم . ويرسل الأغنياء أطفالهم بصحبة أحد الخدم، أما الفقراء فيصحبونهم، أو يتولى مساعد المدرس تجميع هؤلاء الأطفال ليصحبهم جميعا . وتقوم الأمهات بإرسال وجبات إلى أطفالهن الدارسين ، ويقتسم هؤلاء الأطفال طعامهم مع زملائهم المعوزين، وهذه العادة تنبع من معتقدات حقه شائعة عند كل المسلمين . فبهذه الطريقة يتعلم الناس منذ طفولتهم كيف يصبحون خيرين ، وكيف تنمو مع نموهم هذه الميول الخيرة التى تحض عليها مبادئ الدين . من هنا تأتى هذه المساواة المطلقة التى تسود بينهم ، فهم لا يعرفون ذلك التمايز الذى يعود إلى الأصل والمنشأ، بل إن الثروة نفسها ليس لها فى هذا الصدد إلا ميزة طفيفة . ولكن أيتعين علينا إذن أن نتلمس وجود مثل هذه الأفكار الخيرة وسط هذا الخليط من النظم الهمجية ؟ ولماذا تفرض العناية الإلهية حواجز على حكمة البشر؟

ولا يرسل الكبار أبناءهم أبدا إلى المدارس العامة ، أما الفتيات فلا يتعلمن حتى مجرد القراءة، وإذا حدث أن كان بعضهن يمتلكن هذه القدرة فلا بد أن هذا بالغ الندرة ، ولا بد أنهن قد تعلمنه فى معقل الحريم، ويكون مدرسوهن فى هذه الحالة رجالا فى سن متقدمة ومحرومين من نعمة البصر، ولايستطيع مثل هؤلاء

المدرسين أن يعلموهن أكثر من حفظ بعض آيات من القرآن . وعند هذا الحد تقريبا توقف التربية الأخلاقية للنساء في مصر .

وليس ثمة ما هو أكثر ضجيجا من مدرسة عامة في مصر، حيث يتعلم الأطفال كتابة الحروف الهجائية والكلمات، في نفس الوقت الذي يتدربون فيه على نطقها . وهم عادة لا يتعلمون إلا قراءة وكتابة وحفظ أجزاء من القرآن، وفي هذا الحد البسيط ينحصر تعليمهم الأولى . ويردد التلاميذ بصوت عال - وهم متجمعون داخل نفس الفناء - الدروس التي سبق لهم أن تلقوها ، من هنا يمكننا أن نُكَوِّن فكرة عن الضجيج الذي يُسْمع في الفصل ، وعلى هذا فينبغي أن يكون المدرس متعودا على هذا الضجيج حتى يمكن له أن يتحمله . و بالإضافة إلى تلك العادة الشائعة لدى كل الأطفال - عادة أن يغنوا وهم يستذكرون دروسهم أو أثناء قراءتهم - فإن أطفال مصر معتادون على تحريك الجزء الأعلى من جسمهم بشكل مستمر أثناء ذلك . وهذه الحركة الدائمة، بالإضافة إلى الأصوات غير المتنازعة تجعل من المدرسة العربية مشهدا فريدا بالغ الغرابة بالنسبة للمُشَاهد الأوربي . ويُعَاقَب الأطفال الذين يُخِلّون بواجباتهم المدرسية أو بعلاقتهم بمعلميهم بقسوة، ويتمثل العقاب العادي في عدد غير محدود من الضربات بالجريدة - وهي فرع من شجرة نخيل - على باطن القدمين .

وعندما يُحْرِز الأطفال تقدما في الكتابة والقراءة ، يبدأون التعلم بطريقة الإملاء. ولا يكلف المعلمون أنفسهم مطلقا عناء تعليم أطفالهم لا الصلاة ولا القوانين التي فرضها النبي ، ومع ذلك فإن القرآن هو الكتاب الوحيد في مراحل الدراسة الأولى . ويلتزم الآباء بتعليم أبنائهم قواعد الشريعة، فعندما يقترب الابن من سن البلوغ يبدأ الأب دروسه الأولى ، ولا يستطيع الطفل أن يشارك في صلاة الجماعة إلا بعد الختان ، وقد سبق أن أوضحنا في أي سن يتم ذلك .

وعلينا الآن أن نتحدث عن المدارس الأولية وعن نشأتها ، ومن الأمور اللافتة

للنظر أن المدارس العمومية لا تدين بوجودها إلا لأعمال البر ، وهذه المدارس كبيرة العدد فى أية مدينة تحظى بدرجة ما من الأهمية . ويقوم الرجل الثرى عادة بتخصيص جزء من الميراث الذى سيتركه لأولاده لإنشاء مدرسة عمومية والصرف عليها . انظر إذن كيف يقوم كرم وتضحية الخاصة – اللذين لا جدال فيهما – بسد ثغرات الإهمال الإجرامى من جانب الحكومة ؟ ولولا حسنات هؤلاء الأغنياء لكانت مصر و تركيا معا محرومتين تماما من معرفة المبادئ الأولية للتعليم . وفى معظم الأحيان يكون المبلغ المخصص للعناية بالمدارس وفيرا ، لحد يسمح بالصرف على طعام وكساء وتعليم الأطفال الفقراء مهما كان عددهم .

ويدفع الآباء محدودو الثراء أتعابا ضئيلة للمدارس ، تتراوح ما بين ٣ – ٢٠ مدينى فى الأسبوع . والمدارس العمومية كثيرة جداً فى القاهرة وفى المدن الرئيسية ، ولكن من النادر أن نرى مدرسة واحدة فى الريف . وعلى الآباء الذين يريدون هناك أن يعلموا أبناءهم أن يرسلوهم إلى إمام المسجد .

وللمسيحيين أيضا مدارسهم . وهى تعيش – شأنها فى ذلك شأن الأديرة – على الإعانات والعطايا الخيرية ، ويعيش المدرسون من الأتعاب المتواضعة التى يُحَصلونها من تلاميذهم ، وما أن يبدأ الأطفال فى معرفة القراءة حتى توضع بين أيديهم مزامير داود .

وإدارة المدرسة، بل يمكن القول ملكيتها ، من حق نجل مؤسسها أو أحد ورثته، وبإمكان هذا الوريث أن يبيعها ، أو أن يتنازل عنها لصالح آخر . ومع ذلك فينبغى أن يكون المدرس الموكل إليه أمر التدريس قادرا على القيام بمهام وظيفته وأن يكون حافظا للقرآن، وإذا ما رأى القاضى أنه أقل كفاءة مما يقتضيه العمل فإنه يستطيع أن يرغم القائم على أمر إدارة المدرسة أن يختار مدرسا آخر أكفأ ، ولكن مهنة التدريس لا تحظى بالعناية الكافية، ومكانتها بالغة الضعف . وإذا ما كان المدرس كفئا لحد أمكنه أن يجذب عددا كبيرا من التلاميذ فله عندئذ أن يأمل فى

بعض النفع ، وإلا فعليه أن يعيش خامل الذكر ، وفى حالٍ تَقْرُب من العوز ، وليس له أن ينتظر نفعا .

وللقاضى حق التفتيش على المدارس الابتدائية، وعندما يتبين هذا الموظف الكبير أن المبالغ المخصصة للعناية بهذه المنشآت وتلاميذها قد صرفت فى غير أغراضها، فإن له الحق فى أن يرغم القائمين على إدارتها على الامتثال لرغبة مؤسسها .

٤

العلوم والفنون

عندما يرغب الشبان – بعد انتهاء دراستهم الأولية – فى مواصلة دروسهم ، فإنهم يطلعون لفترة فى تلك الكتب التى لها صلة بدراستهم المقبلة، ثم يتوجهون إلى الأزهر للاستماع إلى دروس وشروح المشايخ . والجامع الأزهر – على نحو ما– هو الجامعة الوحيدة فى مصر ، وهيئة التدريس به تضم من٤٠ – ٥٠ مدرسا ، من بينهم خمسة أو ستة ذائعو الصيت .

وقلما يُدَرّس هناك سوى القرآن وتقاليد السلف الأول، والعقائد والشريعة والصلاة والحج وبقية الشعائر الدينية التى فرضها محمد . ولكل مذهب أساتذته الكلاسيكيون الذين لا يختلفون مطلقا فيما بينهم حول المبادئ الأساسية للعقيدة الإسلامية .

كان النبى العربى يدرك أن القوانين تكتسب قوة دافعة جديدة إذا ما تأسست على العقيدة الدينية نفسها . لذا فقد كان بعيد النظر حين ربط بين الأنظمة والمؤسسات وبين الدين ، وحين جعل من الواجبات التى تفرضها الحياة الاجتماعية على الناس فروضا يؤديها الإنسان تجاه ربه ، وبذلك أدمج فى تشريع واحد كلا من المبادئ الدينية والقوانين المدنية .. ويحرص المدرسون تماما على عدم الفصل بين الأمرين فى دروسهم . وهم يشرحون فى إسهاب كل ماجاء فى أجزاء القرآن

مع الاهتمام بتوضيح المعانى الحقيقية للكلمات، وكذلك يدرسون القواعد أو النحو ، أى تلك اللغة التى كان يتحدثها العلماء الأوائل . ويقوم أهم الأساتذة فى الأزهر بتدريس المنطق والمعانى أو البيان، وهم يعرفون البيان بأنه فن التعبير عن أفكار كثيرة فى أقل عدد من الكلمات ، وكذا فن استخدام كلمات كثيرة للتعبير عن أفكار قليلة ، أى فن توسيع الفكرة أو تركيزهاحسب مقتضى حال السامع .

وكان محمود – والى مصر وابن هارون الرشيد – قد جلب إلى مصر مؤلفات الفلاسفة الإغريق ، وأمر بترجمتها إلى العربية ، لكن هذه الترجمات لم تعد موجودة بمصر ، ولا يعرف الآن فى المدارس إلا مجرد أسماء هؤلاء الفلاسفة وبعض مقتطفات من مؤلفاتهم .

وينقسم المدرسون والطلاب إلى ست حجرات (أروقة) أو فروع كبيرة : السوريون ، البربر ، الإغريق ، سكان الريف ، الصعايدة ، العميان ، ويخصص الرواق السابع لبعض طلاب الأقاليم .

وتقدم الحكومة كل عام حوالى ٥,٦٠٠ أردب من الحبوب ، يوزعها شيخ الأزهر أو وكيله بين هذه الفروع ، وليس لغالبية القادمين من القرى وسيلة أخرى للعيش إلا ذلك الخبز الذى يحصلون عليه من شيخ رواقهم .

وليس ثمة من نفوذ لوظائف التدريس، ولا ينشغل مدرسو الأزهر بالأمور العامة إلا لكى يحوزوا لأنفسهم شهرة ورواد عديدين ، ولكى يأخذوا نصيبا من تبرعات المسلمين المتحمسين . فيحصلون بذلك على دخل بسيط يخصص لهم ، بالإضافة إلى بعض الهدايا، وإلى ما يحصلون عليه فى مقابل الفتاوى التى يصدرونها فى الأمور المدنية والجنائية التى تعرض عليهم لإبداء الرأى ، لأنهم فى نفس الوقت رجال قضاء .

والطلاب ليسوا ببساطة مجرد مستمعين سلبيين ، فبإمكانهم إيقاف المدرس عند نقطة لم يتفهموا معانيها، وأن يعارضوا رأيه برأى شيخ آخر ، فيقيموا بذلك

نوعا من الجدل حتى يستخلصوا الحقيقة بشكل أفضل ، ومن جهة أخرى فإن الشيخ بدوره يسأل طلابه لكي يعرف ما إن كانوا قد فهموا وتقدموا .

وعندما ينتهى شاب من تحصيل دروسه ، ويأنس فى نفسه الكفاءة والعلم اللذين يؤهلانه كى يشغل وظيفة فى الجامع الكبير، فإنه يطلب إلى شيوخه شهادات بكفاءته، ويتقدم إلى شيخ الأزهر ليحصل منه على إذن القيام بالتدريس هناك بدوره ، ويدعو الشاب إلى الدرس الأول الذى سيلقيه كل أصدقائه وكل العلماء[1]، فيستمعون فى البداية اليه ، وبعد ذلك يسأله العلماء ويجادلونه ويعارضون آراءه ويحاولون إحراجه ، فإذا ما أمكنه أن يجيب على كل الأسئلة ويرد على كل الاعتراضات تأكدت شهرته ، ويهرع إلى دروسه الطلاب والسامعون . وعلى العكس

---

(١) أن الأوان أن نبين هنا المعنى الذى يقصده العرب من مختلف هذه المسميات : عالم، شيخ ، إمام .. الخ . العلماء هم أساتذة الشريعة الضليعون فى ذلك . وكل مسلم لديه علم يبلغه ويتخذ من ذلك حرفة له يسمى عالما .

أما الشيوخ فهم المدرسون ورجال الدين . وشيخ الجامع الأزهر هو فى نفس الوقت رئيس هيئة التدريس فيه ، ويعين عن طريق قيام المدرسين القدامى باختياره ، وهم يراعون أن يختاروا رجلا ناضجا مشهودا له بالعلم ويحظى برضاء الحكومة . والمرشح الذى يفوز بأكبر عدد من الأصوات يُقدَّم أولا إلى الشيخ البكرى – وهو زعيم أحفاد محمد – فيخلع عليه جبة ، ويعينه فى وظيفته الجديدة ، ثم يقدم بعد ذلك إلى شيخ البلد وإلى الباشا اللذين يخلعان عليه جبة كذلك . وليس هناك راتب مخصص لهذه الوظيفة ، لكنه منصب بالغ الجاه والشرف ، ويعطى صاحبه حق الإشراف على كل المدرسين . فإذا ما جرؤ أحدهم على الإعلان عن مبادئ مناقضة لآراء محمد، فإن بمقدور شيخ الأزهر أن ينحيه عن العمل بالتدريس فى الجامع الكبير، لكن الاحترام الذى يكنه العلماء تقليديا لكل ماتعلموه نادرا ما يعرضهم لمثل هذا الموقف. أما المفتى فهو الشخص الذى يصدر الفتوى – أى الرأى القانونى – حول الأمور التى تعرض عليه، ولكل مذهب مفت ، ومفتى الجامع الأزهر هو رئيس كل المفتين ، ويمكنه أن يناقض فتواهم . و هذه الفتاوى ليست فى الواقع سوى آراء استشارية ، يحق للقاضى أن يأخذ بها أو ينحيهاجانبا ، حسب قوة الحجج التى تأسست عليها ، وحسب مكانة المفتى الذى أصدرها . وعندما يموت مفتى أحد المذاهب يتجمع علماء المذاهب الأخرى ليعينواخلفا له ، ولكل مدينة من مدن مصر الرئيسية مفتيها الخاص بها .

من ذلك إذا ما تردد أو ارتبك ، ولم يستطع أن يفوز بقدر كبير من الثقة ، لكنهم مع ذلك يحفظون عليه كرامته ويتحاشون إهانته . لكنه يكون بذلك قد قدم عن نفسه فكرة سيئة ، بحيث لا يستطيع أن يأمل فى المستقبل إلا فى نجاح متواضع .

ومن المستطاع ممارسة التعليم فى مسجد آخر بخلاف الجامع الأزهر ، ويكفى الطالب فى هذه الحالة الحصول على موافقة شيخ الأزهر الذى يحدد له المكان الذى ينبغى أن يدرس فيه .

وعندما يتقدم عديد من المرشحين للحصول على مقعد فى الجامع الكبير ، وعندما لم يكن ثمة إلا مقعد واحد شاغر ، فمن حق شيخ الأزهر أن يعطيه للشخص الذى يراه صالحا، فهذا المركز ليس عرضة للتنافس . ومن ناحية أخرى فليس للمدرس من لقب آخر سوى الشيخ أو المعلم ، وليس ثمة أى تمييز طبقى أو تفضيل مسبق بينهم . فعمق معرفتهم، وسنهم ، وفضائلهم هى التى تحدد أوضاعهم . ويحمل الشبان تقديرا كبيرا لأولئك الذين علّموهم وشكلوهم ، فيصغون إليهم باحترام ، ويتلقون آراءهم بل وتأنيبهم أحيانا بكثيرمن الإذعان .

ويهمل المصريون المحدثون العلوم المقننة بعكس أسلافهم ، فالرياضيات لا تكاد تكون معروفة عندهم، ويكتفى الفلكى هناك بتسجيل بعض الملاحظات عن طريق آلات ضخمة ، وعلى تحرير التقويم السنوى . وفى نفس الوقت فعدد من لديه مثل هذه المعارف ضئيل ، وليس ثمة فلكى شهير فى هذه الآونة إلا شيخ واحد، هو واضع التقويم الحالى وله بعض التلاميذ .

ولن نتحدث هنا لا عن النحت ولا عن الرسم، فهما – فى مصر – لا يستحقان منا أدنى اهتمام، لكن العمارة أكثر تطورا، ومقارنة المنازل الحديثة بالمنازل القديمة توضح تقدما محسوسا فى أساليب البنائين أحرزوه منذ عدة سنوات، فالتوزيعات تتم بشكل جيد تسمح بمرور الهواء والمحافظة على رطوبة المبنى ، لكن الذوق والأناقة فى حكم النادر .

ويمكننا أن نعيب على المصريين المحدثين نفس ما يعيبه الإغريق على أحفادهم ؛ فهم يتلفون كل شئ ولا يصلحون شيئا، وهم يحيون فى حالة من عدم الانتظام والتباين ، لكن هذه العيوب لا تصدمهم مطلقا . ولقد تعلموا من العمال الفرنسيين فن صناعة الأحذية وأدوات المائدة الفضية والمجوهرات والمهامين، لكنهم لا يلقون بالا لا لجمال الشكل ولا لتناسقه . وتطريزهم جيد ، لكنهم يبرعون على وجه الخصوص فى الفخار، وكثير من الزهريات التى يصيغونها تحتفظ بالشكل القديم، ويستخدمون فى المصانع والورش وسائل بالغة البساطة والاقتصاد ، سوف نتحدث عنها فى الفصل الأخير من هذا المؤلف .

٥

الأدب والشعر

معرفة أوربا بالأدب العربى معرفة بالغة الضآلة لدرجة لا تسمح بتكوين فكرة دقيقة عن ذلك العدد الكبير من الكتاب المشهورين الذين برعوا فى مختلف ضروب المعرفة . وباستثناء بعض العلماء المتخصصين فى الشرقيات (المستشرقون) الذين ندين لمجهوداتهم بمعرفتنا لعديد من مؤلفات هذه الشعوب ، فإن عدد الأشخاص الدين هم فى حالة تسمح لهم بالحكم على التراث الفكرى العربى ضئيل للغاية، ومع ذلك فإن العرب قد أثروا الشعر على الدوام، وهو الفن الذى برعوا فيه ، أما النحو والبلاغة فقد قاموا فى دراستهما بأبحاث عميقة (١) كما هو الحال فى علوم الفقه والأخلاق، أما مؤلفاتهم فى الطب والتاريخ والجغرافيا فتحظى اليوم بشهرة هى جديرة بها (٢) . ولا ينبغى لنا أن ندهش من أن الشعراء العرب قد أحرزوا هذا

(١) يمكنك الرجوع فى هذا الصدد إلى المؤلفات العديدة المكتوبة باللغة العربية والتى تمتلك المكتبة الملكية منها مجموعة ثمينة ، وسوف تتبين أن العرب كانوا مشغولين على وجه الخصوص بنظرية اللغة ، وأن القواعد أصبحت عندهم علما يتطلب دراسة متخصصة.

(٢) أولئك الذين حازوا أكبر قدر من الشهرة فى أوربا من العلماء العرب، وهم: الحريرى، الجوهرى، الفيروزبادى، ابن سينا الذى يعرف باسم Avicenne ، المكين المعروف باسم Elmacin ، ابن خلدون، ابن الفارض، المتنبى ، ومن علماء الجغرافيا . ابن حوقل ، أبو الفداء ، المقريزى ، الإدريسى .. الخ.

القدر من النجاح والتفوق ، فثراء اللغة العربية ودقتها وجمالها يؤدى إلى تفوقها على كافة اللغات الشرقية، ولكن فحيث إن مجال دراستنا هنا لا يسمح لنا بأن نتوسع كثيرا فى دراسة الأدب فسوف نكتفى بدراسة اللغة من حيث علاقاتها بتقاليد وعادات المصريين.

يتناول هذه اللغة ، فى مختلف البلدان التى تستخدم فيها ، بعض الاختلافات البسيطة ، سواء فى تركيباتها الدارجة أو فى نطق بعض الحروف الهجائية، ويعدل سكان القاهرة – المشهود لهم بأنهم يتحدثون العربية بكثير من الرقة – من نطق كثير من الحروف الساكنة ، ليجعلوها مخالفة للشكل الذى تلفظ به فى سوريا والجزيرة العربية . ويتمثل هذا الاختلاف على وجه الخصوص فى الحروف : ح ، ق ، ج . فحرف الـ "ج" يلفظ فى كل مكان كما تلفظ الـ" g " اللاتينية فى كلمة genou ، لكنها تلفظ فى مصر كما تلفظ الـ "g " الفرنسية فى كلمات gain, guerre, garcon . أما حرف الـ "ق" التى تماثل عندنا الـ " k " الحلقية فلا نكاد نراها تلفظ على لسان المصريين ، ولانكاد نحن نحس باستخدامهم لها إلا عن طريق نوع من التوقيف أو من الهوة الناتجة عن تتابع حرفى علة يشكل كل منهما مقطعا صوتيا مستقلا: أولهما هو المقطع الصوتى السابق على الـ "ق" ، وثانيهما هو المقطع الذى تشكل الـ "ق" جزءا منه ، أما سكان الصعيد فيلفظونها بنفس الطريقة التى يلفظها البربر ، أى كما نلفظ نحن حرف الـ "g " فى كلمة gain (١) .

سبق لنا أن قلنا بأن العرب قد برعوا على الدوام فى الشعر، ولا يزال الأمر كذلك حتى اليوم عند كل طبقات المجتمع ، إذ نجد رجال الطبقات الشعبية فى مصر ، بل وحتى الأطفال ، لديهم حساسية فائقة لهارمونية الإيقاع ، ولتكرار نفس الحروف الساكنة (السجع) .

---

(١) بهذا يكون علينا أن نواجه ثلاث طرق لنطق هذا الحرف فى كلمة واحدة ، فكلمة بقرة على سبيل المثال يلفظها السوريون : بقرة ، ويلفظها سكان مصر السفلى : بأرة ، أما سكان الصعيد والبربر فيلفظونها : بجرة .

ولعمال المدن أغنيات خاصة تساعدهم على إنجاز أعمالهم، ومن خاصية هذه الأغنيات ضبط حركات العمال والتقليل من مشقة المجهود الذى يبذلونه . ومع ذلك فسوف نخطئ لو أننا تصورنا أن هذه الأغنيات الشعبية تراعى تلك القواعد الصارمة التى تحكم الشعر العربى (١) . ومن بين تلك التكوينات البالغة الجمال فى اللغة العربية نشير إلى الموال ، وهى الأغنية المفضلة لدى الجنس اللطيف فى مصر، والذى يقارب الـ Romance عندنا . والموال إما قصيرا وإما طويلا ، وموضوعاته على الدوام هى مباهج الحب ، والشكوى من الحبيب الذى خان أو الذى هجر ، وتصوير جمال المحبوب ، ورسالة حب بين عاشقين ولواعج الغياب .. وعندما يغنى هذا الشعر بنغمة خفيفة متهدجة مثيرة للعاطفة فالأمر يستدعى نوعا من المد والاسترسال ، لذا فمثل هذه الأغنيات ، من أجمل مباهج ومسرات الحريم ، وما أن يؤلف موال جديد حتى تتكفل العوالم والآلاتية على الفور بإذاعته ، ليستقر بين النساء المصريات اللاتى يتسابقن على حفظه والتغنى به .

---

(١) تخضع موازين الشعر لقواعد بالغة التعقيد إذا ما قارناها بتلك التى تحكم كل أنواع الشعر المعروف، إذ هى لا تحتم فقط نفس القافية والإيقاع وانقسام البيت إلى شطرين مثل الشعر الفرنسى، بل هى تحتم كذلك عددا من التفعيلات بشكل يماثل العروض اللاتينى على وجه التقريب .

ويوجد فى اللغة العربية ١٦ نمطا أو مقياسا . ويحمل كل واحد من هذه المقاييس اسم بحر، تصريفاته مأخوذة – شأنها شأن كل الصيغ النحوية الأخرى – من الفعل العربى : فعل، وعلينا أن نقيس الأبيات التى نؤلفها على هذه التصريفات . والشطر يسمى : مصراعاً ، وكل مصراعين يشكلان بيتا، ويقطع البيت إلى أجزاء . ونقدم هنا تصريفات الـ ١٦ بحرا للشعر العربى مع بيان الأسماء الخاصة التى تطلق عليها. و بعضها أكثر انتشارا من غيره كما أنها تختلف فيما بينها من ناحية شدة أو قلة السرعة .

١- بحر الطويل : فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن مرتين .

٢- بحر المديد : فاعلاتن فاعلن فاعلاتن فاعلن . مرتين .

٣- بحر البسيط : مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن . مرتين .

٤- بحر الوافر : مفاعلتن (ست مرات) .

ويضم الموال فقرة واحدة تتكون من خمسة أبيات أو أربعة فى حالات كثيرة . وتتراوح أوزان هذه البيوت مابين ٨ - ١٢ مقطعا ، أو ١٤ مقطعا فى بعض الأحيان، وينبغى أن يكون لكل أبيات الموال نفس الوزن ونفس القافية ، فيما عدا البيت الرابع فى الموال الذى يتكون من خمسة أبيات .

٥- بحر الكامل : متفاعلن (ست مرات) .

٦- بحر الهزج : مفاعلين (ست مرات) .

٧- بحر الرجز : مستفعلن (ست مرات) .

٨- بحر الرمل : فاعلاتن (ست مرات) .

٩- بحر السريع . مستفعلن مستفعلن مفعولات (مرتين) .

١٠- بحر المنسرح (أو المسترسل) : مستفعلن مفعولات مستفعلن (مرتين) .

١١- بحر الخفيف : فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن (مرتين) .

١٢- بحر المضارع : ويسمى هكذا بسبب تشابه أوزانه مع بحر المنسرح : مفاعلين فاعلاتن مفاعلين (مرتين) .

١٣- بحر المقتضب : مفعولات مستفعلن مستفعلن (مرتين) .

١٤- بحر المجتث : مستفعلن فاعلاتن فاعلاتن .

ويرى النقاد أن هذا البحر قد يسمى هكذا إما لأن الشعراء لا يستخدمونه إلا مع حذف فاعلاتن الأخيرة من كل مصراع ، وإما لأنه بعد اختصاره على هذا النحو يبدو كما لو كان مشتقا من بحر الخفيف إذا ما حذفنا فاعلاتن الأولى من كل من مصراعيه . ونفس الشئ بالنسبة لبحر المقتضب، فاسمه هذا يعود إلى أن كل واحد من مصراعيه عادة يفقد مستفعلن الأخيرة فيه ، فيبدو عندئذ وكأنه من بحر المنسرح بعد أن شطرنا مستفعلن الأولى فى مصراعيه .

١٥- بحرالمتقارب، وسمى هكذا بسبب تقاربه واختصار الزواحف التى تكونه . فعولن (٨ مرات) .

١٦- بحر المتدارك ، أى الذى يلى البحور الأخرى ، ويسمى هكذا لأنه البحر الأخير فى النظام الذى أخذ به العرب : فاعلن (٨ مرات) .

ولا يحظى البحر الأخير بقبول معظم النحويين الذين لا يعترفون إلا بـ ١٥ بحراً .

تلك هى البحور الـ ١٦ التى تنظم الشعر العربى . وإذا كانت هذه الأنماط المبدئية قد طبقت بصرامة فى البداية ، فإن كل واحد من هذه البحور البدائية قد تناوله عدد كبير من التعديلات ، كان ينظر إليها فى البداية كنوع من الإستثناءات الشعرية ، لكن كثرة اللجوء إليها قد أدى إلى تثبيتها، حتى

ويكاد يكون هذا البيت قبل الأخير بلا قافية، ونادرا مايكون بحره هو نفس بحور البيوت الأخرى للموال، فإذا ما حدث أحيانا وكانت له نفس القافية فإن ذلك لا يتم إلا فى حالة الموال الذى يتكون من أربعة أبيات .

ويحدث أحيانا أن تستخدم نفس الكلمة كقافية فى كل أبيات الموال ، لكن ينبغى أن يكون لها معنى مختلف فى كل واحد من هذه الأبيات ، ولدينا عند بعض شعرائنا أمثلة لهذه القوافى ذات الجناس الواحد والمعنى المختلف . ونكتفى بأن

أصبح عدد هذه الاستثناءات الشعرية ، المباحة يماثل عدد البحور المنتظمة ، بل لقد شغلت مكان عدة بحور لم يستعمل قياسها الأول على الإطلاق فى كامل تمامه .

وتسمى كلمات التعريف الثمانى التى تشكل مختلف البحور ، وهى : فاعلاتن ، فاعلن ، مفاعيلن ، فعولن ، مفعولات ، متفاعلن ، مفاعلتن ، مستفعلن ، تسمى هذه الكلمات أجزاء البحر ، والمفرد جزء .

كما يشار إلى المجموعات المختلفة من الحروف والحركات التى يتكون منها كل جزء باسم أسباب (حبال) وأوتاد ، وعندما يوجد حرفان أولهما متحرك والثانى ساكن مثل : هل ، لا ، قم ، فإنهما يشكلان سبباً خفيفاً ، أما إذا كان الحرفان متحركين ، وينقسمان نتيجة لذلك إلى مقطعين صوتيين مثل : هو ، لك ، فإنهما يشكلان سبباً ثقيلاً . والأوتاد الأركان هى أيضاً من نوعين : وتد مجموع ، وهو مجموعة تتكون من حرفين متحركين بعدهما حرف ساكن ، مثل : لَهَا ، لَقَدْ . ووتد مفروق ، وهو عبارة عن مجموعة مكونة من حرف ساكن يقع بين حرفين متحركين مثل : قلت ، صار . والجزء الأخير من المصراع الأول يشار إليه باسم عروض ، بينما يشار إلى الجزء الأخير من البيت باسم : ضرب ويسمى حشواً كل الأجزاء الأخرى من البحر . ويطلق اسم صدر على الجزء الأول من البيت ، وابتداء على الجزء الأول من المصراع الثانى . إذن فكلمة حشو تشير إلى أجزاء البيت التى ليست لا العروض ولا الضرب ولا الصدر ولا الإبتداء.

وتبعاً للتعديلات المختلفة التى أباحها العرب وأدخلوها على القياس وسموها باسم زحاف أو علل ، يمكننا أن نعد بالنسبة للبحور الستة عشر ٣٦ عروضاً و ٦٧ ضرباً مختلفة .

ويعنى علم العروض بمعرفة هذه الأنماط الأولية والتفريق بينها ، ولكى نعرض الأمر كما ينبغى فإن ذلك يستلزم مؤلفاً كاملاً ، لكن حدود هذا الهامش البسيط لا تسمح لنا بقول المزيد .

(هذا الهامش عن الشعر العربى قدمه لنا السيد عجوب) = (وهو چوزيف عجوب وكان مترجماً للحملة ووضع أول قاموس فرنسى - عربى) .

نورد هنا هذين البيتين للشاعر بوالو :

Prends-moi le bon parti : Laisse-Là tous tes livres.

Cent francs au dernier Cinq.Combien Font-ils ?Vingt livres? (*)

ومن المعروف أن اللغة العربية تضم عددا كبيرا من مثل هذه الترادفات فى المعنى ، ولكن حيث إن الموال أبعد من أن يخضع لصرامة القواعد التى تحكم الشعر العربى الفصيح، فإن الشعراء لا يُكَلِّفون أنفسهم عناء تحمل هذه الصرامة، فيستخدمون نفس الكلمة المأخوذة على نفس المعنى، عدة مرات كقافية . ويُنْظَر لهذا الاستثناء الشعرى باعتباره كسرا لقواعد الشعر .

وفيما يلى مثال لموال من خمسة أبيات :

الأهيف اللى تمناه القليب ودعاه

فى موقف الذل خلا العاشقين ودعاه

كمن قلت للعين كفى عن هواه ودعاه

كمن له قلب قاسى لم رحم عاشق

ولا يخاف من أنينه فى الدجى ودعاه

والأبيات الآتية مثال على موال مكون من أربعة أبيات :

يا غربتى فى بلاد الناس ذلتنى

يا كلمة الندل شالتنى وحطتنى

يا دمعتى نزلت على خدى حرقتنى

يا حصرتى راحت رفاقى وخلتنى

(*) فى البيت الأول كلمة livres تعنى : كتب وفى الثانى تعنى جنيهات .

وفيما يلى ترجمة لأبيات موال ألف خصيصا لامتداح مقياس جزيرة الروضة كما قدمها لنا السيد عجوب :

«اعجبوا لجمال المقياس، وبالفن الذى بنى به . لا يوجد فى أيامنا هذه ما يمكنه أن يضارع هذا البناء، ولا تستطيع القرون الآتية أن تقدم شيئا يماثله . لقد بناه مهندس نبيه ذكى، شديد العلم ، وأظهر فيه كل روعة فنه، وسوف يُضَيّع أمهر الفنانين وقتهم سدى لو حاولوا تقليد جماله . إنه مقياس مفيد، كان مفيدا وسيظل مفيدا على مدار السنين . طوله ٢١ ذراعا، وعندما تبلغ المياه الذراع الـ ١٦ تغرق مياه الفيضان أرض الريف» (*) .

(*) اكتفيت بالترجمة لعدم امكان الوصول إلى النص الأصلى . (المترجم) .

الفصل الثالث

عن الإنسان المصرى فى طور الرجولة

العادات المدنية والأسرية

١
عن الزواج

الزواج فى مصر هو عقد اتفاق خاص لا يحتاج إلى تصديق دينى أو قانونى ؛ إذ يتمثل فقط فى الإرادة التى يعبر عنها الطرفان المتعاقدان ، وتكفى موافقتهما المتبادلة ليكون هذا الزواج مشروعا . وتعطى المرأة موافقتها بنفسها أو من خلال وكيل ، وعندئذ يتقدم الشخص الذى يمثلها إلى الزوج المقبل ليتسلم المهر، ويقول له فى حضور شاهدين : زوجتك ، ويجيب الآخر : قبلت . ويتم الزواج هكذا بدون أية إجراءات رسمية أخرى .

ولا تقدم الزوجة الجديدة مهرا (دوطة) لزوجها ، وفى بعض الأحيان تتلقى هى هدية من والدها ، ولكن هذه الهدية تطوع منه وليس من حقها أن تفرضها عليه، ويحدث فى أحيان أخرى ألا يكون للزوجة من مهر إلا ما يقدمه الزوج، فالشريعة تحتم على الزوج تقديم مهر لزوجته . وتختلف قيمته باختلاف المذاهب ، فيحتم أحدها ألا يقل المهر عن عشرة دراهم ، أى حوالى ١٨٠ بارة ، ويكتفى مذهب آخر بمجرد أن يكون ثمة مهر حتى ولو كان المهر لا يتجاوز دبلة من الحديد . ومع ذلك فلا يفوت أهالى الزوجة أن يقدموا إليها هدايا تتناسب مع ثروتهم تتمثل فى مجوهرات وملابس، لكنها لا تعطى مطلقا عقارات زراعية . وفى حالة ما إذا لم يتم تحديد المهر قبل اليوم المحدد للزواج – وهذا شئ نادر الحدوث – فإنه يحدد طبقا لمهر أم العروس أو واحدة من أقرب قريباتها . والمهر الذى يقدَّم للزوجات عن طريق أزواجهن عماد أساسى من عمد الزواج، وهو حق مطلق لهن ، وسوف تتضح لنا فيما بعد أهميته .

ويحرص الكبار وأفراد الطبقة الثرية على أن يتخذوا شهودا على زواجهم من بين رجال الشرع الذين يكتبون عقد الزواج ويودعونه عند الكاتب العمومى . أما الفلاحون فيكتفون بتسجيل زيجاتهم عند قاضى الولاية، أما سكان المدن فيهملون كل أشكال الرسميات وتتم الزيجات بينهم دون اتفاقات مكتوبة .

ولا يستطيع المسلم أن يتزوج لا ابنته ولا أخته ولا بنت أخيه أو بنت أخته ولا بنت زوجته ولا أخته في الرضاعة بل ولا أخت زوجته إلا إذا كانت زوجته قد ماتت أو كان قد أنفصل عنها . وبخلاف ذلك يسمح له بالزواج من بقية درجات القربى الأخرى .

ولا يعترض الدين على ارتباط المسلم بزوجة من ديانة أخرى : مسيحية أو يهودية ، وقد سمح محمد بهذه الزيجات لأنه يعترف بموسى والمسيح نبيين ورسولين من عند الله ، لكنه لم يسمح مطلقا باتخاذ زوجات من عقائد أخرى خلاف ذلك، بل ليس ثمة سوى أمثلة محدودة لمسلمين قد استفادوا من هذا التفويض من جانب الشرع . وينشأ الأطفال الذين يولدون من زيجات كهذه على دين محمد ، ولا ترث الزوجة في هذه الحالة عن زوجها ما لم تكن ثمة وصية، ويمكن للزوج أن يقدم لها جزءا من ثروته كهبة اختيارية .

وتزويج الأبناء قبل سن البلوغ حق مطلق يتمتع به أرباب العائلات ، بل إن موافقة الأبناء أنفسهم لا ضرورة لها ، وليس بإمكانهم أن يفكوا - عن طريق الطلاق - وثاقا عقد على هذا النحو . ولكن إذا كان الأبناء بالغين فإن موافقتهم لا غنى عنها، لكنهم يقرون اختيار أهاليهم في معظم الأحيان ، ذلك أن الجنسين على الدوام - حيث لا وسيلة للاتصال بينهما - لن يستطيعا إقامة زواج على أساس من الاختيار أو العاطفة المتبادلة ، وفي نفس الوقت فليس مسموحا لزوج أن يقرب زوجته إلا بعد بلوغها السن الذى حددته الطبيعة للبلوغ حيث تصبح قادرة على الإنجاب ، فَيُبْقِي الأب ابنته لديه حتى تبلغ سن الخامسة عشرة ، لكن حقوقه هذه تتوقف عند بلوغها هذه السن ، ويحظى الأب بالتقدير عادة إذا ما اعترض على إتمام زواج لم يحن بعد أوانه . وينبغي أن نلاحظ أن والد الزوج لا يقيم اعتراضات من هذا النحو إذا ما وافق والد الزوجة على أن تذهب على الفور إلى أحضان زوجها ، ولاتقيم أسرة الزوج أية عقبات تحول دون اتصال الزوجين ، ولكن يندر أن نجد في أوساط الطبقة الدنيا زيجات تتم قبل الوقت المناسب .

ويحدث كثيرا ألا يكون الزوج الشاب قد رأى من قبل المرأة التى تزوجها ، ولم تكن لديه بالتالى فكرة عن جمالها وكفاءتها إلا عن طريق واحدة من قريباته أو صديقات أسرته ، لذلك فإن الليلة الأولى للزفاف لا يكون لها فى بعض الأحيان من نتيجة إلا القطيعة التامة لتذهب الزوجة غاضبة إلى بيت أبيها . ومع ذلك، فإنه إذا ما ألح رجل فى أن يرى تلك التى يعرضون عليه الزواج منها فإن الشريعة تبيح أن تكشف الفتاة عن وجهها ويديها أمامه ، ولا يمكن أن يتم هذا إلا فى حضور أهلها، وفى الفترة التى قارب الزواج فيها مرحلة التمام . وعلى الرغم من هذا فنادرا ما يلح أحدهم فى ذلك مطلقا حيث إن العادات المتبعة تعارضه . ومن بين الأسباب التى تؤدى إلى زواج مبتسر كهذا خوف الآباء من استسلام أبنائهم إلى ملاذ مهلكة للصحة تحت ضغوط من شهواتهم .

ويمكن للمسلم أن يتزوج من أربع زوجات شرعيات ، بالإضافة لأى عدد من الإماء يستطيع إطعامه ، ومع ذلك فحيث إن عليه – كما سبق القول – أن يوفر لهن جميعا حياة طيبة ، بالإضافة إلى ما ينشده المرء من سعادة وهناء عائلى ، فإن المسلمين من كافة الطبقات يحرصون على ألا يفيدوا من هذه الرخصة التى أباحتها الشريعة إلا باعتدال بالغ . وليس لكبار الشخصيات فى العادة إلا زوجة شرعية واحدة ، وقد تدفع أحدهم الرغبة فى إنجاب الأطفال أو فى الحصول على مصاهرة ممتازة إلى الحصول على زوجة ثانية . وعلى الشخص المتزوج من أكثر من زوجة أن ينام فى مسكن كل واحدة من زوجاته بالتبادل ، أما إذا تصرف بطريقة مخالفة فسوف يلام على سلوكه علنا ، فتفضيل زوجة على الأخريات ينظر إليه كأمر ظالم ، لا يسمح به لأنفسهم أولئك الحريصون على هنائهم العائلى والذين تسيرهم مشاعرهم الرقيقة . وعندما لا تكون الزوجات فى حالة وفاق فيما بينهن – وهذا هو الأمر الشائع – فإن الزوج ملزم بتخصيص منزل لأية واحدة منهن تطلب ذلك ، ولا يستطيع الرجل أن ينجح فى الاحتفاظ بعدة زوجات فى منزل واحد إلا بقوة الإرادة وبالصبر والكرم ، أو بطريق العنف والاستبداد .

وتعدد الزوجات أكثر شيوعا بين الطبقات الشعبية . وهم يسيئون كذلك استغلال سهولة إيقاع الطلاق بزوجاتهم ، حيث إن الأمر لن يكلفهم إلا مهرا بالغ الضآلة، وحيث إنهم – بسبب تلك الغلظة فى طباعهم – ينظرون للمرأة كمخلوق ناقص غير جدير بالاحترام .

ويتم الاحتفال الذى نصح به محمد لإعلان حدث بهذه الأهمية فى منزل والد الزوجة، لكن الوقت لم يكن قد حان بعد كى يستطيع الزوج أن يرى زوجته ، إلا إذا كان الاثنان قد بلغا سن الرشد . وتنقضى الأيام التى تسبق الارتباط فى أفراح عند الأسرتين ، فيُدعى الرجال إلى منزل والد الزوج ، وتدعى النساء إلى منزل والد الزوجة . وتقضى الزوجة يوما فى الحمام ، وتذهب إلى هناك فى صحبة قريباتها وصديقاتها ، يغطيها تماما قناع كبير ، ويزين رأسها تاج ، وتسير تحت هودج تسبقه عالمة وفرقة من الموسيقيين . وتجعل أصوات الآلات الموسيقية وأغنيات العرس وصيحات الفرح التى تطلقها السيدات (الزغاريد) اللائى يشكلن الموكب – كل ذلك يجعل من ذلك الموكب مسيرة صاخبة مليئة بالحيوية . وعندما يصل الموكب فى نهاية المطاف إلى الحمام ، فإن العروس تستعرض على صاحباتها حليها ، فتملأ المباخر بالبخور الطيبة الرائحة ، وتراق العطور الغالية بسخاء وبذخ ، وتكشف صاحبات العروس عن أجمل زينتهن ، وينقضى اليوم فى مرح بهيج وتقدم الإماء أو خادمات الحمام القهوة والشربات والفطائر والحلوى ، ثم يعود موكب العروس إلى بيت أبيها بنفس الطريقة التى ذهبت بها الحمام [1] .

---

(١) حيث إن فخامة وأبهة حفلات الزفاف تختلفان تبعا لدرجة ثراء الزوج فقد اكتفينا فى المتن بأن نقدم فكرة عامة ، لكننا فى هذا الهامش سوف ندخل فى بعض التفاصيل الدقيقة ، حتى لانهمل شيئا يمكنه أن يحدد خاصية عادات مختلف الطبقات الإسلامية فى مصر .

فى أثناء التوجه إلى الحمام تتحجب كل السيدات فى الموكب وكذا العروس، وتحمل العروس فى بعض الأحيان على رأسها وعاء مغطى بشال من الكشمير يتدلى من كل الجهات ، ويغطى الوجه تماما ، ويكون الشال مزدانا بالكثير من المجوهرات والأحجار الكريمة التى استعارتها الزوجة إن لم تكن تملكها

==

ولا يفوت الزوج بدوره أن يذهب إلى الحمام العام ، وهذه عادة يتبعها الأثرياء على الدوام حتى عندما يكون لديهم فى منازلهم حماماتهم الخاصة . وهو يقوم بإبلاغ رغبته فى ذلك إلى أسطى الحمام عشية اليوم الذى يرغب أن يذهب فيه إلى

هى نفسها. وحتى يكون الشال أكثر بريقا فإنه يغطى من الأمام بورقة طويلة من الذهب . وبرغم أن الشال يتدلى حتى القدمين تقريبا فإننا نستطيع أن نلمح – من خلال الفتحات التى يكشف عنها – ملابس الزوجة البالغة البذخ والمطرزة بخيوط الفضة والذهب . وترتدى الزوجة خفين من جلد الماعز الأصفر ونعلا مطرزا ، وهى لا تكشف مطلقا عن يديها . ويسمح شكل ملابسها بأن نكون فكرة عن قامتها ودرجة سمنتها . وهى تسير تحت هودج تغطيه ناموسية من الكريشة المصبوغة باللونين الأخضر والأحمر ، ويحمله الأصدقاء أو الأقارب من أركانه الأربعة . وعندما يحتفل أحد المماليك بزواجه على هذا النحو فإن المماليك هم الذين يحملون أركان الهودج . ويسير مع العروس تحت الهودج اثنتان من خيرة صديقاتها مزينتان بأغلى الحلى وتسير خلفها أمها ، ويتقدم المسيرة رجال يحملون الدفوف ، ويعدهم خادم يسير أمام الهودج حاملا على رأسه طبقا من الفضة أو النحاس المحلى بالذهب ، مغطى بقطعة من الحرير المطرز . ويحتوى هذا الوعاء على زوج من الأحذية الخشبية (القبقاب) المزدان بشريط من الفضة، ويحتوى كذلك على مشط من العاج محلى بالفضة كذلك ، وقمعين صنوبرين من السكر الناصع البياض ، وشمعتين بيضاويتين ، ومنديلين من الموسلين المطرز بالفضة ، وأخيرا على رطلين (الرطل = ١٨٠ درهم ويساوى تقريبا نصف كيلو جرام ونصف الجرام ١٠٠ رطل = ٥٥كيلو جرام) من البن أحدهما مغلف بشكل مختلف عن الآخر ، ويضم الموكب فتيات ومدعوات يصل عددهن إلى ٢٠، ٣٠، أو ٦٠ سيدة .

ويلاحظ فى حفلات زفاف الطبقة الدنيا وجود نفس العادات مع تعديلات طفيفة . فبدلا من المجوهرات والأحجار الكريمة التى تزين الشال الذى يتدلى حول العروس، يرصع الشال بكمية كبيرة من النقود الفضية ، ويحمل رجال من العامة أطراف الهودج ، الذى يسبقه بعض العبيد يرتدون ملابس على نمط القسطنطينية ، وموسيقيون يركبون الحمير ، ويقوم رجل يسير بالقرب من العروس برشها من أن لآخر بماء العطر ، بينما تقفل المسيرة جمهرة من النساء ينشدن الأغانى التى تنشد عادة فى مناسبات العرس .

وخارج مدينة الأسكندرية شاهدنا عروسا بدوية كانوا يتجولون بها ، وكانت تركب فوق جمل ، وتصحبها الماشية والأثاثات وكل الأشياء التى تلقتها كمهر ، وكان الموكب بطيئا ، بل كان أحيانا يتوقف

=

هناك ، فيسارع العمال بتجهيز الحمام بطريقة لائقة . ويزينونه بالورود فى حالة السيدات ، أما فى حالة الرجال فيكتفى بإحراق البخور فيه ، وفى نفس الوقت يكون العريس قد دعا ١٥ - ٢٠ من أصدقائه ليصحبوه ، وبعد أن يدخلوا صالة الحمام لا يقبل دخول أشخاص آخرين . وهم فى الغالب يحضرون معهم بياضاتهم وأغطيتهم وفوطهم ، كما يجلبون معهم عازفين للترفيه عنهم . ويأتى مدير الحمام نفسه لاستقبال الجميع ، ويقود العريس إلى الحمام ، وينسحب ليأتى بعد قليل حاملا الغليون ، وعندما ينتهى العريس من حمامه يقوده مدير الحمام مرة أخرى إلى الحجرة الأولى . وفى اليوم الأول الذى يمضيه هؤلاء فى الحمام لا يأكلون شيئا ، ويحصل مدير الحمام من العريس على ٦٠٠ - ١٠٠٠ ، وأحيانا ألفين من البارات حسب درجة ثرائه .

ويؤدى الأثرياء حفلة الحمام هذه مرتين .

وأخيرا يحل اليوم الكبير حيث ينبغى أن تذهب الزوجة إلى بيت زوجها ، ويأتى الأب أو واحد من أصدقائه ليأخذها من بيتها . ويسير خلفها موكب لا يقل روعة عن موكبها إلى الحمام، وتسير العروس تحت هودج ، وتغطى طيلة الطريق بقناع لا يكشف شيئا ، ويسير أمامها العبيد حاملين مجوهراتها وملابسها فى سلال مزدانة، لكنها لا تتوجه مباشرة إلى منزل زوجها ، بل تقوم بجولة طويلة زيادة فى

=

وقفات قصيرة . وكان البدو يطلقون الأعيرة النارية من بنادقهم ، كما كانوا يعزفون الموسيقى بينما يواصل النساء غناءهن بلا انقطاع .

وجدير بالذكر أن هذه الاحتفالات التى تتم خارج البيت والتى عرضنا للتو تفاصيلها لا يمارسها البكوات وكبار الشخصيات بالقاهرة، ذلك أن احتفالات العرس عند هؤلاء تتم داخل البيوت . كما أن المشايخ وبقية المسلمين الذين حصلوا على قدر كبير من التعليم قد هجروا بالمثل عادة تقديم الدليل على بكارة زوجاتهم للأقارب والأصدقاء باعتبار ذلك شيئا يخدش الحشمة .

أما عامة الشعب والأقباط فإنهم وحدهم الذين ما يزالون يمارسون هذا السلوك .

الأبهة . وعندما تصل إلى بيت الزوجية ، يحتفل بقدومها بإقامة وجبة باذخة فى مسكن النساء ، ولا يكون الزوج من بين المدعوين ، إذ هو يتوجه فى المساء إلى المسجد للصلاة ، يصحبه أقاربه وأصدقاؤه وتسبقه جوقة من الموسيقيين، وعند عودته إلى بيته تقدم القهوة والشربات ، ثم يدخل حجرة العروس وتنسحب بقية السيدات فيما عدا القابلة والبلانة ، ويقترب الزوج من زوجته المغطاة بنقابها ويسمى باسم الله ، إله محمد، بينما قلبه يدق خوفا وأملا ، وعندئذ تنسحب بدورهما السيدتان الغريبتان . وعندما تصبح الزوجة بمفردها مع زوجها فإنها تقدم له العسل والفطائر ومأكولات أخرى على هذه الشاكلة ، رمزا معبرا عن العاطفة والمودة التى هى حق لكل منهما على الآخر ، والتى هى الضمان الأكثر وثوقا لكفالة حياة عائلية هانئة .

وتتلقى الزوجة ثلثى مهرها عند دخولها إلى منزل الزوجية ، ويكون هذا المبلغ ملكا خاصا بها ، وهى تستطيع أن تتصرف فيه على النحو الذى يعجبها، ولا يمكن للزوج أن يحاسبها عليه مطلقا ، بل ليس له مجرد الحق فى مناقشتها فى أمره .

ويحسن بنا هنا أن نلاحظ أننا سوف نكون قد أخطأنا على نحو كبير إذا ما اعتقدنا أن المسلمات - برغم خضوعهن لنفوذ أزواجهن - يمكن أن يعاملن باستبداد وطغيان من قبل أزواجهن ، فإن وضعهن على العكس من ذلك طيب لحد كبير، كما أنهن فى نفس الوقت الذى تقضى فيه التقاليد والقوانين عليهن بنوع من الانسحاب والتقوقع الدائم - يتوصلن لامتلاك نفوذ لا شك فيه على عقول أزواجهن ، كما أن هؤلاء لا يستطيعون مطلقا أن يسيئوا معاملتهن بل ولا حتى أن ينهروهن بحدة ، إذ للزوجة فى هذه الحالة أو تلك أن تطلب الانفصال وتعود إلى بيت أبيها .

ويتكفل الأهل بتعليم الزوجة واجباتها وحقوقها الزوجية، ولا يتدخل الأزواج مطلقا فى الأمر، ويتم ذلك عادة قبل الزواج . وهكذا تعمل عادات وأصول اللياقة

على التخفيف لحد ما من تزمت تلك الولاية المستبدة التى تعطيها الشريعة للرجال على زوجاتهم . ومع ذلك فالنساء سعيدات بقدرهن ، ولايمكن لهن أن يتصورن – مجرد تصور – كيف يمكن أن تكون نساء الغرب فى حالة أكثر امتيازا مما هن عليه.

٢

الانفصال والطلاق

جعلت الشريعة الإسلامية من الطلاق أمرا بالغ السهولة ، إذ يكفى أن يقول الرجل لزوجته : "أنت طالق" حتى يكون الطلاق قد وقع ، دون أن يكون القاضى فى حاجة لأن يتدخل فى الأمر أو أن يقف على دوافع هذا الطلاق . وهنا تتسلم الزوجة الباقى من مهرها ، وتحمل معها مجوهراتها وبقية متعلقاتها ، وتنسحب من بيت الزوجية . وقد حدد محمد الأمر على النحو التالى فى القرآن : "للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر " . "والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء " . "الطلاق مرتان" . "ولا يحل لكم أن تأخذوا مما أتيتموهن شيئا" "فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا "..* "وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى ولاتنسوا الفضل بينكم"** . وحسب أوامر المشرع هذه ، فإن الزوج إذا ما طلق زوجته فى اليوم الأول لزواجهما دون أن يباشرها – وهذا أمر يحدث فى بعض الأحيان – فلا ينبغى عليه أن يدفع لها إلا نصف مهرها ، أما إذا ماحدث لزوج طلق زوجته أن استعادها مرة أخرى ، وكرر الزواج والانفصال ليبلغ عدد مرات ذلك ثلاثا مع نفس

(*) البقرة . ٢٢٦ – ٢٣٠ . (المترجم) .

(**) البقرة ٢٣٧ . (المترجم) .

المرأة ، فإنه لا يستطيع أن يتخذ منها بعد ذلك زوجة شرعية ، إلا إذا مرت قبل ذلك بأحضان رجل آخر . وقد يبدو هذا التشدد من جانب المشرع للوهلة الأولى همجيا أو باعثا على الضحك ، ومع ذلك فإننا نجد فيه فكرة عميقة ومعرفة عظيمة بنفوس البشر ، فبوضع الزوج هكذا عرضة لنوازع الغيرة - وهي عاطفة بالغة العنف عند الشرقيين- سوف يكون عليه أن يتروى ولايستجيب ببساطة لأبسط مشاعر الغضب ، فيقرر هكذا ببساطة وبمثل هذه السرعة الفائقة طلاقا ظالما في معظم الأحيان، سوف يتحمل هو قبل غيره عواقبه القاسية إذا ماعاد به الندم والعاطفة ذات يوم إلى مشاعر أرق. ولهذا السبب فقد حدث أكثر من مرة أن قام الزوج المطلق - وهو يتحسر على جمال وفضائل زوجته في الوقت الذي يريد فيه أن يذعن لأحكام الشرع - بدعوة أحد أصدقائه إلى اتخاذ طليقته هو زوجة له، ويتفق مع هذا الصديق على أن يقوم بتطليقها دون أن يقربها في فترة هذا الزواج القصير المدى ، ومع ذلك فينبغي أن يظل هذا الاتفاق سرا على الناس جميعا بخلاف الأطراف الثلاثة المعنية . ويتحتم على وجه الخصوص أن يكون ثمة ثقة تامة في الزوجة ، لأنها هي التي سوف تلعب الدور الرئيسي في هذا التواطؤ الغريب. ومع ذلك فقد حدث في بعض الأحيان أن نسي مثل هذا الصديق - بعد أن أخذه جمال عروسه تلك - نفسه لدرجة يخون معها مابينه وبين صديقه الغيور من ثقة وصداقة ، بل ويحتفظ بتلك الزوجة التي كان عليه فقط أن يتظاهر بالزواج منها.

وحيث إن محمدا قد تنبأ بأن الطلاق يمكن أن يقع بسبب تافه كمجرد نفور طارئ ، فقد نصح الزوج المُطلِّق - حتى يتجنب بقدر الإمكان مثل هذه المأساة العائلية - بأن يبقيها في بيته مدة ثلاثة أشهر ، على أمل أن يؤدي إعمال الفكر أو تؤدي بعض المجاملات المتبادلة إلى إعادة الود بينهما قبل انقضاء هذه المهلة ، وبرغم الحكمة البادية في مثل هذا الأمر فإنه نادرا ما يحدث ، إذ من المعتاد في القاهرة أن تخرج المرأة من بيت زوجها بمجرد أن يتم طلاقها منه. ويمكن للمطلقة

أن تتزوج بعد مضى ثلاثة أشهر من انفصالها ، أى بعد أن تأتيها عادة النساء الشهرية ثلاث مرات ، ويعتبر إعلانها هى للأمر كافيا . فإذا ماحدث ووجدت نفسها حاملا فى هذه الفترة فإن الأب المطلق لايمكنه أن يطلب طفله إلى حضانته إلا بعد أن يبلغ من العمر سبع سنوات بالنسبة للذكور، أما بالنسبة للإناث فإنه لايستطيع أن يطلبها إلى حضانته إلا بعد أن تصل إلى سن البلوغ ، وفى نفس الوقت، فإنه - الأب المطلق - ملزم بأن يدفع مصاريف رعاية وإطعام وتعليم الوليد مهما كان جنسه.

وقد يحدث أن تنتقل الأم إلى بيت زوج جديد، وفى هذه الحالة تعهد بوليدها إلى رعاية جدته أو واحدة من أقرب قريباتها فتاة كانت أو أرملة ، ولايمكن للأب أن يسترد طفله إلا فى حالة ما إذا لم يكن لزوجته أسرة ، ونادرا مايحدث ذلك(١).

والزنا هو أخطر اتهام يمكن أن يوجهه زوج إلى زوجته ، لكن المشرع جعل هذا الاتهام عسيرا على الإثبات لدرجة لايمكن معها أن نذكر إلا عددا بالغ الضآلة من السيدات أُدِنّ أو عوقبن على مثل هذه التهمة . ومع ذلك فإذا ما أقسم شخص ما خمس مرات أمام القاضى أن زوجته قد خانته ، ثم أقسمت هى خمس مرات على عكس ذلك ، فإن القاضى يحكم بطلاقهما ، ويصبح انفصالهما أبديا. ولسنا

(١) نضيف إلى هذا العرض لقواعد الطلاق أن الرجل إذا ماطلق زوجته قبل أن يختلى بها فإنه ليس ملزما نحوها إلا بنصف المهر ، ولكن لو حدثت خلوة بينهما ولو مرة واحدة فهو ملزم قبلها بدفع المهر كله ، وتحمل البنت أو المرأة المطلقة معها إلى بيت أبيها كل ماخرج منه بالإضافة إلى حقوقها هى من قِبَلِ طليقها ، وهى عبارة عن الثلث الأخير من المهر، وهى تتسلمه عند خروجها من بيت زوجها ، ويكون ذلك دليلا على القطيعة . وكما سبق القول فليس ثمة إجراءات قضائية أو عقود مكتوبة للتصديق على الزواج أو لتسجيل الطلاق ، ونمتنع هنا عن الإدلاء بآرائنا حول غرابة وشذوذ هذه العادات كما قد يراها من تختلف أنظمتهم عن هذه النظم ، ومع ذلك فقد يكون المشرع العربى قد استهدف من وراء تلك التشريعات أن يتفادى مضار أكبر خطورة ، فلكل الشعوب طباع خاصة بها كالأجواء التى يعيشون فيها ، وعلى أولئك الذين يريدون الحكم على أنظمة وعادات الآخرين أن يراعوا هذه الحقيقة التى لا مفر منها ، وأن يقرروا نتيجة لذلك. وهذا هو العذر الوحيد الذى يمكن التماسه لمحمد.

بحاجة للقول بأن أبناء الطبقة العليا أو حتى الطبقات البسيطة يتفادون على الدوام الفضيحة التى تنجم عن حكم كهذا، إذ لايعرض نفسه وعرضه لمثل هذه المهانة إلا ضعاف النفوس وقليلو الحياء ، لكى يشبعوا شهوة الانتقام والرغبة فى التشهير التى تستبد بهم .

ولا يمكن للمرأة بمطلق حريتها أن تغادر بيت الزوجية . وإذا ما نشأ نفور أو كراهية أو كان هو يهملها أو يسئ معاملتها ، فإنها تستطيع أن تحمله عن طريق عروض سخية تقدمها له أن يقبل الانفصال بينهما ، فإذا مارفض وظل سادرا فى أساليبه السيئة فإنها تتوجه إلى القاضى ، ويفحص الأخير شكواها، ويحكم بالطلاق إذا ما اقتنع بالأسباب التى قدمتها له ، وفى هذه الحالة لاتفقد المرأة أى حق من حقوقها، وتحتفظ بكل مهرها وكل امتيازاتها، أما إذا قبل الزوج الطلاق الذى عرضته عليه زوجته فلا يمكنه أن يردها إلى عصمته إلا بعد أن يعقد عليها عقد زواج جديد.

وكنتيجة حتمية ، فلابد أن يكون الطلاق فى بلاد ليس للمرأة فيها – فى غالب الأحيان – حق اختيار زوجها، أكثر انتشارا منه فى البلاد التى تتم فيها الزيجات نتيجة لعواطف وميول متبادلة، كما أنه أكثر شيوعا من جهة أخرى بسبب السهولة التى منحتها القوانين للأزواج، وهذا مايحدث فى تركيا ومصر. وبالرغم من الحقوق التى رتبها محمد للنساء قبل أزواجهن ، وبالرغم مما فرضه على الأزواج بضرورة إبقاء زوجاتهم فى البيت ثلاثة أشهر بعد الانفصال الأول ، فإن الطلاق بالغ الشيوع . ومع ذلك فلابد أن نقر بأن ليس ثمة ما يشين امرأة مطلقة ، فهى تستطيع العثور على زوج آخر بسهولة . لكن حياة الناس تتأثر على الدوام من مثل هذه الحرية المعيبة ، وإن كان الأمر المؤكد – نقول هذا باسم الحقيقة – أن التقدم الحضارى قد جعل مثل هذا الفعل المعيب أقل انتشارا بين الطبقة العليا فى المجتمع ، بل يكاد ينظر إليه كأمر ماس بالشرف . وسعيدة هى تلك الأمم التى يمكن للعقل والأخلاق عندها أن تنتزع السوءات من جذورها ، وبخاصة عند هؤلاء

الذين يعانون من جموح عواطفهم وشهواتهم : وتلك هى طباع المصريين . ونحن فى وضع يسمح لنا بتكوين هذا الرأى عنهم ، بعد تلك الفترة التى أقمناها فى وطنهم ، ولعله ليس ببعيد ذلك اليوم الذى ستبذل فيه الجهود لإعادتهم إلى حظيرة العلوم والفنون ومختلف مناحى الحضارة ، بل ويمكننا أن نتجاسر بالقول بأن جهودا كهذه لن تلقى أية صعوبة، فالنجاح فى هذا الأمر يتجاوز بكثير مرحلة الأمل .

ولابد قبل أن ننهى هذا الفصل أن نتحدث عن بعض الاعتبارات العامة حول حياة ودور النساء فى مصر ، وحول الطريقة التى تمضى عليها حياتهن، فهذا الجنس الذى كان موضوعا لاهتمامنا وعنايتنا ، هو أبعد ما يكون – كما سبق أن لاحظنا – عن أن يحصل على نفس الامتيازات التى يحصل عليها المسلمون الرجال، فالمرأة – وقد انعزلت عن المجتمع – محكوم عليها بالعدم المطلق وبالعار، ويضعها المسلمون فى عداد الكائنات التى لا تحظى بقدر كاف من الذكاء ونعمة العقل . ويعود هذا التهوين من شأن المرأة إلى الخليفة عمر ، وذلك حين منعهن من الإسهام فى ممارسة الواجبات الدينية ، فلقد صك بذلك أمرا لا راد له بالحط من شأن النساء، وإن كان محمد نفسه ليس بعيداً عن مشاركته فى ذلك ، فنهجه الدينى مجحف بالجنس اللطيف ، ويمكنك بلا جدال أن تهدم الدعائم التى تنهض عليها جنته الموعودة ، فما عليك لكى تفعل ذلك إلا أن تستبعد منها أولئك النسوة الفانيات. ولكن، أو لم يكن بمقدوره أن يعثر على وسيلة أكثر إنصافا كى يربط أحلامه الرائعة بالعقل والعمل ؟ .

وحيث إن الرجال يضعون النساء فى مرتبة أدنى منهم ، فإنهم يكنون نحوهن نوعا من الاستخفاف والاحتقار ، تتعرض معه النساء على الدوام لإهاناتهم بل ولضروب من قسوتهم الرهيبة . لكن إساءة معاملتهن تلك – كما سبق لنا القول – لا تأتى من جانب الزوج ، بل تتعرض النسوة لذلك من جانب أهلهن قبل الزواج ، ثم يتعرضن لنفس المخاطر بمجرد أن يصبحن مطلقات ، وليس بمقدورهن أن يؤمن

أنفسهن ضد هذا العسف إلا فى حماية زوج . ومن نافلة القول أن نلفت النظر إلى أن اللوم ينصب بصفة خاصة على الطبقات الدنيا من سكان المدن ، وعلى أولئك الذين تكاد لم تمسهم الحضارة في الريف . أماالرجل التركى ، أو ذلك الرجل الذى ينتمى إلى أعيان المصريين فإنه ينظر إلى ضرب زوجته باعتباره عملاً إجراميا ، يمثل ما هو باعث على العار . لكن هذه النظرة الإنسانية والعاقلة ليست للأسف هى الشائعة ، ولا يدعمها القانون بسطوته . وسوف تجعلنا الحكاية التى سنقصها هنا نقف على رأى المسلمين فى النساء ، ومن الممكن أن نقص آلاف الأمثلة ، لكننا نكتفى هنا بتلك الحكاية التى كنا نحن بأنفسنا طرفا فيها .

كنا فى قرية الرحمانية ، عندما لجأت امرأة وعديد من الرجال إلى منزل واحد من زملائنا ، وركعت وركع الجميع على ركبهم طالبين العدل أو بالأحرى الانتقام ، حيث يفضل الشرقيون استخدام تلك الكلمة الأخيرة، وكانت المرأة ملطخة بالدم . هدأ زميلنا من روعها ، واكتشف أنها مضروبة فوق رأسها ، وأراد أن يخلع النقاب الذى يغطى وجهها ، لكنها قاومت، فكرر المحاولة وانتزع النقاب ، لكن البائسة – التى كانت تتمسك وهى فى آلامها تلك ، بالواجبات التى تفرضها على جنسها عادات وتقاليد بلادها – غطت وجهها بيديها . واحتراما من زميلنا لمعتقدات كهذه فقد قص الشعر المحيط بالجرح وضمده بنفسه ، حيث لم يكن ثمة طبيب، وربط الضمادة بقطعة من قميص مزقه لهذا الغرض ، وعندما شاهده بعض المسلمين والأقباط يقوم بهذا العمل، أظهروا بالغ دهشتهم علنا ، بل وعبروا عن استنكارهم لقيام رجل يشغل منصبا عاما مثله بالانحدار لدرجة يضمد معها كائنا حقيرا ، وتلك رؤيتهم للمرأة . وعندما صدمته همجيتهم تلك أراد أن يطردهم ، لكنهم ظلوا يقولون له إنه بذلك يسئ إلى كرامته .

ويضيف زميلنا : توجهت على الفور إلى حاكم الولاية وعرضت عليه الأمر، فخولنى كامل السلطة فى عقاب المذنب الذى كنت قد أمرت بإلقاء القبض عليه . وعندما عدت إلى منزلى وجدت هذا الرجل .

- أهو أنت أيها الهمجى الذى عامل هذه المسكينة بهذه الوحشية ؟

فأجابنى ضاحكا :

- ماذا ؟ أتظنها وحشية أن تضرب امرأة ؟

- وذلك الدم الذى أسلته ؟

فأجاب - لا يمحو دم الرجل إلا الدم، لكن ليس هذا هو الأمر بالنسبة للنساء.

واستفزنى الهدوء الذى يصطنعه فى ردوده ، فقلت له :

- نحن قضاتك ، وتلك القسوة التى أبديتها جريمة كبرى فى نظرنا وسنعاقبك.

- وهل ستعاقبوننى لو أننى جرحت بقرة ؟

- بلا جدال ، إذا لم تكن ملكا لك .

- إذن فاستمعوا لأسبابى، وسوف ترون أنه كان على أن أسلك هذا السلوك . لقد انتزع المماليك منى حقلى لكى يعطوه لابن عمى . ثم جاء الفرنسيون ليصلحوا من مظالم المماليك : أفلا يحق لى إذن أن استرد أملاكى السابقة ؟ لكن ابن عمى وأخته وابنه اعترضوا على ذلك فضربتهم، وسأظل أضربهم حتى يعيدوا إلى أرضى . إننى لا أطالب إلا بما هو حق لى ، بل إننى ألجأ لهذا الغرض إلى عدالة القوانين الفرنسية .

- حسن، ما دمت تتحدث عن القوانين الفرنسية، فاعرف إذن أنهاتعاقب السفاحين ، والذين يسمحون لأنفسهم بارتكاب أعمال العنف ضد الآخرين .

واستدعيت إلى بيتى أعيان وشيوخ القرية:

- ماهو العقاب الذى توقعونه على الذين يضربون أو يجرحون عامدين أحد الرجال؟

فأجابوا في وقت واحد :

– عصا في مقابل كل عصا ، وليس ثمة أكثر من ذلك . أما العقوبات التى نعاقب بها عموما فهى : الغرامات، الضرب بالعصا، الموت .

– يكفى، والرجل الذى ماثل أمامنا الآن قد جرح هذه البائسة، وهو يطلب أن يعامل حسب القوانين الفرنسية . فليعلم إذن أن الإنسان حسب هذه القوانين لا يستطيع أن يحصل على حقوقه بنفسه، وأن للمرأة نفس الحقوق التى للرجل، وأن دمها ليس أقل قيمة من دمه . ونتيجة لذلك فسوف يضرب على الفور ٢٥ عصا .

– ٢٥ عصا ؟ (صاحوا جميعا بلهجة تنم عن دهشة شديدة) ليس هذا عدلا، فهذا أقصى ما كنا سنوقعه عليه من عقاب لو أنه قتلها .

– نعم ٢٥ عصا ولتنفذ أوامرى على الفور، وإذا ماتت المرأة سنتخذ إجراءات أخرى .

وعندما حان وقت تطبيق العقاب لم يشأ أى منهم أن يتحمل مسئولية تنفيذه ، فأرسلت فى استدعاء القواس ، لكنه مارس واجبه برخاوة وحرص، حتى أن خادما ملطيا – كان يشاركنى الشعور بالغضب – انتزع منه العصا ، وأكمل هو العقاب بالقسوة التى يقتضيها الحال .

وهذه الحكاية تصور – دون حاجة منا إلى تعليق – تقاليد الطبقة الدنيا من الشعب، وتعطى فكرة دقيقة عن رأى أبنائها فى النساء فى مصر، ويكاد الأمر يكون على هذا النحو فى كل بلدان الشرق .

٣

الطعام

القناعة فضيلة مصرية، وإذا كنا نجد أثرياء المدن الكبرى يتصفون بالشراهة ويصنعون أطعمة بسيطة الإعداد ليتناولوها بكميات كبيرة جدا (ويوجه هذا اللوم إلى المماليك بصفة خاصة) ، فإن الطبقة العاملة وكذلك الفلاحين شديدو القناعة بشكل لافت للنظر، فهم لا يتناولون من الطعام إلا ما يكفى كى يقيم أودهم ، وفضلا عن ذلك فغذاؤهم هذا بالغ السوء والفقر ، لدرجة أن المرء لا يكاد يتصور كيف يمكن أن يكفيهم هذا الطعام ، وكيف يمكنهم والحالة هذه أن يقوموا بأعمالهم الشاقة .

ويحب المصريون قبل كل شئ لحم الضأن، ولكن الطبقات الشعبية لا يمكنها أن تستمتع بمثل هذا الترف إلا أيام المناسبات الهامة ، أما بقية العام فهى تعيش على الخضروات الطازجة والسمك المملح ودرنات النباتات وبقول من نوع الحمص والفول والترمس .. وتباع الأطعمة الأخيرة مطبوخة ، وتشكل بالإضافة إلى بعض الفاكهة الغذاء الرئيسى لسكان المدن .

وبالرغم من أن تربة مصر تنتج القمح بكميات وفيرة ، وأن لبذور القمح هنا خاصية ممتازة ، وأن سعرها أقل بكثير من سعرها فى أوربا - فإن القمح لا يشكل الغذاء الأساسى لغالبية السكان ، كما يحدث فى كل مكان . إذ يترك الفلاح وصغار الناس - بدافع فطرى بل ربما يكون الأمر بدافع اقتصادى - للأغنياء عادة أكل الخبز الذى ينظرون اليه كأمر من أمور الترف ، ليتغذوا هم بوجه خاص على الخضروات التى تزرع فى كل الفصول ، فيأكلون بدلاً من الخبز - على سبيل المثال : درنات القلقاس ، جذور الجزر ، ثمار البامية ، والباذنجان ، والخيار، والشمام والبطيخ ، والعبد اللاوى (العجور) ، وأنواعاً أخرى من الشمام تزرع بمصر ، وأوراق الخبازى ، والملوخية ، والحلبة ، وهذه النباتات مرطبة ومخاطية،

وبالإضافة إلى ذلك يأكلون حبوب الذرة ، والذرة العويجة ، والترمس ، والحمص . كما يتغذون بثمار النخل (البلح) ، والسمك المملح ، واللبن الرائب ، والجبن ، والعسل الأسود . وكما سبق أن قلنا فإن اللحم أبعد من أن يكون طعاماً يومياً لتلك الطبقات.

وربما جاز لنا أن نجد فى كسل المصريين الفطرى وفى ندرة الوقود فى بلادهم ، بعض أسباب هذا الصيام المستمر الذى حكموا به على أنفسهم حتى يتخلصوا من حيرة المطبخ ، ولعلها هى نفس الأسباب التى دفعتهم إلى تفضيل استخدام الأطعمة التى يمكن أن تؤكل نيئة وبلا إعداد ، أو تلك التى يمكن طهيها بكميات كبيرة على يد أناس يحترفون ذلك كمهنة لهم . وفضلا عن ذلك ، فلو أننا قارنا طريقتهم فى الغذاء هذه وتلك التى كانت لدى قدماء المصريين لوجدنا تماثلا كبيرا ، سواء فى المأكولات أو فى بساطة إعدادها [١] .

---

(١) يقول هيرودت عن غذاء المصريين بينما هو يتحدث عن بعض عاداتهم .

«أما عن الطعام ، فقد تفتق ذهنهم عن وسائل دءوبة للحصول عليه بسهولة ، فعندما يكون فيضان النيل فى أوجه ويصبح الريف أشبه بالبحر ، تظهر فى المياه كميات هائلة من الزنابق يسميها المصريون البشنين (اللوتس) ، فيقومون بجمعها وتجفيفها فى الشمس ، ثم يأخذون بذورها التى تشبه بذور الخشخاش ويصحنونها ليصنعوا منها الخبز الذى يقومون بإنضاجه على النار ، كما يأكلون كذلك جذور هذا النبات ومذاقها طيب لذيذ ، وهى مستديرة وفى حجم التفاحة . وثمة نوع آخر من الزنابق تشبه الورود وتنمو بكثرة أيضاً فى مياه النيل ، ويقوم المصريون بجمع ثمارها التى توجد بها كمية من حبوب حسنة المذاق وفى حجم نواة الزيتون ، وهى تؤكل خضراء أو جافة . أما البردى فهو محصول سنوى، وعندما يؤخذ من المستنقعات يقطع الجزء العلوى منه ويستخدم استخدامات عدة ، أما جزؤه السفلى وما يتبقى من النبات – ويبلغ طوله حوالى ذراع – فإنه يؤكل نيئا ، أما الذين يريدون له مذاقا أفضل فيقومون بتحميره فى فرن ملتهب ، وبعض المصريين لا يعيش إلا على السمك ، وهم ينزعون أحشاءه ويجففونه فى الشمس ويأكلونه بعد ذلك . (هيرودت ، الكتاب الثانى، الفقرة ٦، ص ٧١ ترجمة : لارشيه) . ويضيف المؤرخ فى مكان آخر من كتابه: « يصنع المصريون خبزهم من الشعير ، ويعيشون =

وأثناء حرارة الصيف الشديد يأكل الناس بشغف : البنجر والخيار والبصل المنقوع فى الخل ، وهذا النوع من الطعام رخيص الثمن ، وينادى عليه الباعة فى الشوارع ، ويعرضونه فى الميادين حيث يتجمع العامة أيام الأعياد ، وفى هذا الفصل أيضا يأكل الناس أوراق الحلبة . ويصنع المصرى لنفسه وجبة شهية ، مكونة من : الخس والخيار والبطيخ أو الشمام ، دون أن يقوم بتمليح الصنفين الأولين . وهو يأكل السلاطة بشهية عظيمة ، ولا يكلف نفسه عناء تزويدها بالزيت أو الخل ، ويأكل – كحلوى – كيزان الذرة المشوية قليلا فى الفرن ، والتى قطعت قبل أن تبلغ مرحلة النضوج .

وعندما تنقضى مواسم الفاكهة والخضروات ، يصبح الطهاة الذين يقومون بطهو كميات كبيرة من الفول والحمص ... الخ المصدر الوحيد لطعام الطبقة الدنيا من الشعب . ولعل هذه المناسبة هى التى ينبغى أن نقول فيها كلمة عن طريقتهم فى طهو هذه الأطعمة، وهى طريقة اقتصادية للغاية وبالغة البساطة . فطهاة الشعب – إن كان يصح أن نسميهم بهذا الاسم – لديهم قدور من الفخار كبيرة

=

على السمك النيئ المجفف فى الشمس والمتبل فى ماء مالح ، ويأكلون كذلك السمان والبط وبعض الطيور الصغيرة، وهم يأكلون هذه الأصناف نيئة بعد تمليحها» .

ويتحدث ديودور الصقلى فى نفس الموضوع فيقول

«يقال إن المصريين فى بادئ أمرهم كانوا يعيشون على الأعشاب ، فكانوا يأكلون الكرنب وجذور النباتات التى يعثرون عليها فى المستنقعات دون أساس للمفاضلة بينها إلا المذاق ، وكانوا يأكلون على وجه الخصوص العشب المسمى المرجية agrostis ، ومذاقه طيب للغاية ، وكان غذاء كافيا للإنسان . ومن المؤكد أنه كان مفيدا على وجه الخصوص لقطعانهم ، فقد كان يؤدى إلى تسمينها بشكل واضح ، ولا يزال المصريون حتى اليوم – عرفانا بما أداه هذا النبات من فائدة لآبائهم – يحملون هذا النبات فى أيديهم وهم ذاهبون إلى المعابد لتأدية الصلاة لآلهتهم . والطعام الثانى للمصريين هو السمك ، ويهيئ لهم النهر كميات هائلة منه ، وتظل كميات كبيرة منه على سطح الأرض بعد انحسار المياه، كما أنهم يأكلون كذلك لحم ماشيتهم ، ويستخدمون جلودها فى صنع ملابسهم ، وقد تعلموا مؤخرا أكل الفاكهة وأهمها البشنين (اللوتس) الذى يستخدمونه فى صنع الخبز .

الحجم ، يقومون بملئها حتى ثلاثة أرباعها بالبقول المغمورة بالمياه ، وتسمى هذه : "قدرة الطبخ" بلغة أهل البلاد ، وبعد أن تملأ القدرة بهذه الطريقة يغلق حلقها تماما بالليمون النيلى وطين الطفل ، ثم تدفن فى رماد الحمامات العامة الملتهب ، وتترك هكذا لمدة ٥-٦ساعات ، وبعد ذلك يصبح الطعام مطهوا تماما وصالحا للبيع، ويشتريه الجمهور بكميات قليلة مع قليل من الملح ، ويزين أحيانا بالخس وقليل من التوابل . ويساوى الطبق من هذا الطعام - إذا كان مزودا بالتوابل : فلفل أسود ، فلفل أخضر ، زنجبيل - بارة واحدة ، أما إذا لم يكن مزودا بالتوابل فلا يزيد ثمنه عن ٦ أجداد[١]. أما أولئك الذى يبغون توفيرا أكبر فيمكنهم أن يكتفوا بكميات من الترمس . ويطهى الترمس بنفس الطريقة السابقة ، ولكى يفقد الترمس مرارته فإنه يستنبت قبل إعداده ، ثم يغسل وذلك بوضعه فى سلال تدلى وسط النيل ، وعندما يتم كل ذلك يطهى الترمس . ولا تساوى كمية كبيرة من هذ الخضار أكثر من ٢-٣ أجداد ، وفضلا عن ذلك ، فهذه الكمية - مع قناعة المصريين الشديدة - تكفى وجبة لرجل .

والبلح الطازج أو المجفف هو أيضا ذو نفع كبير للطبقات الشعبية ، وبخاصة سكان الريف . ويكاد لا يكون للبدو من طعام سواه . وفى الصعيد، توجد قرى بأكملها لا تعيش إلا على البلح وحده لمدة تزيد على عشرة أشهر فى العام ، وتؤكل هذه الفاكهة فى حالات مختلفة من النضوج ، وتستهلك منها القاهرة والمدن الأخر كميات كبيرة ، ويأتى جزء كبير من البلح الذى يأكله سكان الدلتا من الصعيد، وهو يصل إلى هناك طازجا أو مجففا ، ويصل النوع الأخير إما بكامل هيئته ، وإما منزوع النوى فى هيئة كتلة مضغوطة (عجوة) ، وهذا ما يجعله قابلا لأن يبقى فترة طويلة دون أن يتلف . وعندما تقطع منه قطعة فإنها تشبه اللحم المفروم الذى يسميه الجزار فى باريس Fromage de cochon . والبلح المجفف سواء كان

---

(١) الجديد عملة من النحاس ، والبارة تساوى ١٢ جديدا .

بكامل هيئته أو معدا بالشكل الذى بيناه للتو غالي الثمن ، لأنه ينقل من مكان بعيد، وبسبب غلو سعره فإن الطبقات الدنيا لا تستطيع التزود به ، لذا فهى تكتفى بالبلح الطازج الذى يجمع فى مناطق مجاورة ، ولهذا فهو يؤكل قبل أن يصل إلى تمام نضجه .

وتزود التجارة مصر بأنواع عديدة من الفواكه المجففة ، مثل : العنب والمشمش والخوخ والفستق واللوز، ويزرع فى البلاد التين والزيتون ، أما عنب كورنيثة المجفف فهو يدخل كثيرا فى إعداد وجبات الأثرياء .

ويخلاف بائعى البقول المطهوة ، يشاهد فى القاهرة وفى المدن الكبيرة أعداد من الشوائين الذين يبيعون السمك المقلى ، واللحم المفروم المعد على هيئة كرات صغيرة مشوية ومغلفة بأوراق العنب ،أو فى حجم العصفور ، موضوعة فى أسياخ صغيرة من الخشب .

وينظر الفلاحون إلى شحوم الحيوانات باعتبارها الطعام الأمثل ، لكن فقرهم لا يسمح لهم بالحصول على ما يشبع حاجتهم منها على الدوام ، ويستهلك الأقباط كميات كبيرة من زيت الزيتون ، ويدخلونه فى كل شئ حتى أنهم يرشون به خبزهم، وهذه العادة السيئة سبب لكثير من الأمراض التى تصيبهم هم بشكل خاص ، لكن المصريين على وجه العموم يأكلون بنهم بذور الخشخاش ، وبذوراً أخرى يستحلبونها ، ومشروباتهم هى الشربات وسائل آخر يدخل فى تركيبته الأفيون بشكل رئيسى، ويلجأ الأثرياء لهذا المشروب الأخير للسكر، لكن الفقراء فى غالب الأحيان لا يشربون إلا الماء القراح وأنواعا من الشربات الردئ . وتحرم الشريعة الإسلامية الخمور كما يعرف الناس جميعا حتى تمنع السكر، ويراعى المسلمون المتمسكون بدينهم ذلك، أما الكبار والتجار والجنود فيرتكبون هذه المعصية فى الخفاء .

ويصنع المصريون عديدا من المشروبات الروحية ، وأحسنها وأجودها هو

المشروب المصنوع من العنب المجفف ، أما ما يستخرج من التين والجميز والبلح وثمار التين الشوكى فهى أدنى قيمة . ويفرط الأقباط فى تناول هذه الخمور[1] فيشربون منها زجاجات بأكملها ، وهو ما يؤدى بهم إلى الإصابة بالدمامل . أما الذين يشربون من مياه النيل طيلة العام دون مراعاة للفصول ودون القيام بتنقيتها ، فإنهم يتعرضون لمبادئ حمى تهدم بنيتهم بشكل غير محسوس .ذلك أن مياه النيل يصيبها العطب كل عام قرب نهاية أبريل . أما البيرة فهى مجهولة تماما فى مصر اليوم بالرغم ، من أن هيرودوت قد تحدث عنها كمشروب عند قدماء المصريين [2] .

٤

الملبس

لا تتأثر ملابس المصريين على الإطلاق بأهواء الموضة وتقلباتها ، مثلما يحدث عندنا . فشكلها ثابت لا يتغير أبدا ، والألوان الزاهية هى أكثر الألوان التى تحظى بالقبول ، والاتساع ميزة واضحة فى ملابس المصريين ، وهم يشتركون فى هذا مع كل الشرقيين ، حيث لا تستطيع هذه الشعوب تحمل الملابس الضيقة مطلقا : "فاللباس" والقميص والبنيش والجبة والقفطان .. تفصل كلها على نفس الوتيرة .

---

(١) يستهلك المسيحيون فى سوريا والأقباط فى مصر المشروبات الروحية المستخلصة من العنب المجفف بكميات كبيرة ، ويشرب منه الأخيرون على وجه الخصوص زجاجات بأكملها بعد عشائهم ، وكنت قد اتهمت من نقل إلىّ ذلك بالمبالغة ، ولكنه قدم لى الأدلة على صحة ذلك . ومع ذلك فقد ظللت على دهشتى من أن مثل هذا الإفراط فى الشراب لا يؤدى إلى قتل الشارب ، أو حتى على الأقل إلى بلوغه ذروة السكر .

(٢) هيرودت ، المرجع السابق ، ص ٧٧ . ويصنع المسيحيون كميات قليلة من الخمور فى الفيوم ، ولكنهم لا يعرفون كيف يصنعونها بشكل طيب ، ولم تكن الخمر مجهولة لقدماء المصريين كما تصور البعض حسب نص لهيرودت ترجم على نحو غير دقيق ، فقد رأينا فى آثارهم رسوما لحصاد العنب وصنع الخمر والآنية التى كانت تقدم فيها . انظر دراسة المسيو كوستاز Costaz عن وصف مغارات مدينة طيبة . وقد حاول الفرنسيون صنع الخمر فى القاهرة ، ولكن الحروب أوقفت تجاربهم .

ومن الطريف أن نذكر هنا ما كان يقوله الرجل المصرى عندما يرى أحدنا يمر أمامه وهو يرتدى بنطلونا مصنوعاً حسب الموضة ، أحضره معه من فرنسا – وهو لذلك بالغ الضيق – : "ماذا ! هل الأقمشة قليلة جدا لديكم حتى تصنعوه بهذا الشكل ؟ " .

ولكى نتعرف جيدا على الملابس المصرية، سنقدم فيما يلى بيانا مفصلا لمختلف أجزاء هذه الملابس ، وسنبدأ بملابس الرجال .

اللباس : سروال الصيف ، وهو عادة من التيل .

الشرشير : سروال الشتاء ، وهو من الجوخ .

السروال : سروال المملوك ، ولونه أحمر ، ويصنع من حرير وارد من البندقية .

القميص : وذراعاه غير مشقوقين، ويتدلى حتى العقبين ، ويلبس فوق السروال ، وأكمامه واسعة وبالغة الطول .

اليلك : صديرى خاص بالمملوك ، وهو واسع وقصير، وأكمامه طويلة جدا وبالغة الاتساع .

القفطان : رداء مفتوح من الأمام بكمين كبيرين جدا ، ويلبس فوق الصديرى.

الجبة : رداء مفتوح هو الآخر ، وتلبس فوق القفطان ، وأكمامها ليست قصيرة بالمقارنة بأكمام القفطان ، ويضاف إليها الفراء فى الشتاء .

البنيش : روب واسع جدا ، وأكمامه بالغة الطول تتجاوز طول الذراع واليد ، وهى مشقوقة عند أطرافها .

الحزام : وهو من الموسلين أو الصوف أو الحرير ، ويلبس فوق القفطان .

الطربوش : وهو من اللباد ، ويغطى الرأس حتى الأذنين .

الشال : وهو قطعة طويلة من الموسلين أو من قماش صوفى ، ويلف حول الطربوش عدة مرات . ويصنع شال الأثرياء من الكشمير .

الصديرى : وهو صغير وبدون أكمام .

العمة : ويطلق الأسم على غطاء الرأس بجزئيه (الطربوش + الشال) .

القاووق : غطاء الرأس عند الأتراك والبكوات ، وهو مستدير الشكل شديد الارتفاع ، وأكثر اتساعا عند القمة عنه عند القاعدة ، ويغطى جزؤه الأسفل بشال ملفوف حوله بعناية بالغة .

الطرحة : قطعة قماش من الموسلين أو جزء من الشال ، يتدلى خلف الرأس بعد أن يلف عدة مرات حول الطربوش ، ويستقر على الكتفين ، وله تأثير جميل وتطرز حوافه أحيانا بالذهب .

ولا يقل الحذاء تعقيدا عن بقية أجزاء الملابس ، وهو يتكون من : المست وهو من جلد الماعز يغطى كل القدم ، ثم البابوش والصرمة وهما أيضا من جلد الماعز ، وتوضع فيها القدم مغطاة بالمست . وعند الدخول إلى مسكن مفروش بالسجاجيد يخلع البابوش والصرمة ، حسبما يقضى الذوق . وينتعل الناس – عند ركوب الخيل أو حتى عند القيام بجولات فى شوارع المدينة – الخف ، وهو من جلد السختيان الأحمر أو الأصفر ، وهذا مشترك بين الرجال والنساء .

ويحب الرجال أن يحملوا فى حزامهم خناجر ثمينة محلاة بالأحجار الكريمة ، وتتجلى أبهة المماليك فى فخامة طبنجاتهم . ويهوى الأثرياء اقتناء الغلايين الرائعة. وتحب كل الطبقات بلا استثناء أن تغطى أصابعها البنصر بالخواتم التى تتفاوت قيمتها حسب الطبقة والثراء ؛ وهذه الخواتم تجملها فصوص الأحجار الكريمة ، وهى من الفضة بالنسبة للرجال ، ومن الذهب بالنسبة للنساء .

ومن نافلة القول أن نلفت انتباه القارئ إلى أن الزى الكامل الذى بينا تفاصيل كل أجزائه إنما هو زى الكبار والأثرياء . أما الطبقات الشعبية فلا تكلف نفسها كل هذا العناء ، فخزينة ملابسهم لا تحتوى على أكثر من ثلاث أو أربع قطع من الملابس ، لا تتغير إلا عندما تصبح مهلهلة الأطراف ، فالفلاحون رجالا

ونساء يذهبون إلى حقولهم شبه عارين ، أما عمال الطبقات الدنيا وكذلك جمهرة سكان المدن فيسترون أجسامهم بالكاد ببعض الهلاهيل [1] .

---

(١) يذكر أحد زملائنا أن المصريين من كل الطبقات يميلون إلى الأبهة فى ملابسهم ، وقد شغفت بتحرى هذه الملاحظة مع واحد من خدمنا . كانت خزانة ملابسه لا تكاد تساوى نصف فرنك عندما دخل فى خدمتنا، ويكفى ذلك لندرك أن خادمنا هذا كان شبه عار . وكان الأجر الذى يحصل عليه منا معقولا لحد كبير، كما أنه كان يحصل على بعض المنافع من أثمان المشتروات التى كنت أكلفه بها ، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان يحصل فى الخفاء على هدايا وإتاوات ممن يترددون على فى العمل . وقد أدى ذلك كله إلى ثرائه شيئا فشيئا ، حتى أنه فى خلال سنة واحدة – وقد بدأ يدخل فى طور الرجولة – لم يعد ذلك الشبح الذى كانه فى البداية ، فقد نما لحد أننى تعرفت عليه بصعوبة . وقد بدأ بأن اشترى لنفسه ما يلى :

١ – قميص من التيل الأزرق له كمان طويلان ، وهو يعتبر فى الصيف الرداء الوحيد عند السكان .

٢ – طربوش جديد وله شال من القطن .

٣ – مركوب أحمر اللون .

٤ – حزام من الصوف .

٥ – سروال من التيل .

٦ – خاتم، والخاتم يعطى أهمية للابسه .

٧ – ملاية ، وهى قطعة من نسيج قطنى من اللونين الأبيض والأزرق ، طولها ٨ أقدام وعرضها ٤ أقدام ، وتستخدم فى شكل بالطو .

٨ – دفية ، وهى قميص كبير من البوركان الأسود ، ويستخدمها كبار شخصيات القرية .

٩ – صديرى من القطن .

١٠ – جبة ، وهى نوع من الروب دى شامبر من الحرير أو القطن .

١١ – قفطان من الجوخ على شكل روب قصير .

١٢ – بنيش وهو روب كبير من الجوخ .

ولم يعد ينقصه سوى شال من الكشمير ومعطف ليصبح شبيها بكبار القوم فى بلده .

وكان فى البداية يسير على قدميه ، ثم أخذ يقضى مشاويره على ظهر حمار ، ثم على ظهر حصان خاص به . وكان نشيطا فى البداية ، وعندما أصبح ميسورا جعل هناك من يعاونه ، ثم لجأ إلى خادم يخدمه كنت أدفع له أجره أيضا، وفى النهاية أتخذ الخادم الأول هذا لنفسه خادما خاصا . وإنى لمتأكد أننى – عندما تركنا مصر – كنت على وشك أن أرى الخادم الجديد يتخذ لنفسه بدوره خادما له .

وعلى منوال بقية المسلمين ، يحلق المصرى رأسه بالموسى ، ولا يترك فوق جمجمته إلا خصلة من الشعر . هذه العادة تسبب العديد من الأمراض ، وتؤدى بصفة خاصة إلى إصابة العيون بالالتهابات والرمد ، إذ لا يمكن لأحدهم أن يخلع العمامة الثقيلة التى تغطى رأسه دون أن يتعرض للإصابة بالبرد ، وهى الإصابة التى تؤدى إلى تكدس الأورام الصديدية فى العيون . ولتجنب ذلك تغطى الرأس بأغطية دفيئة جدا ، مما يجعل هذا الجزء من الجسم أكثر حساسية لأقل برودة . ومع ذلك فربما كانت طريقة الشرقيين هذه فى حلاقة الرأس هى التى تقيهم الإصابة بآلام الرأس من حيث إنها تسهل حدوث العرق ، إذ نادرا ما تصيبهم هذه الآلام . وينبغى أن نقول كذلك إن المصريين لايسيرون برؤوسهم عارية مطلقا مثلما نفعل نحن فى أوربا .

ويستدل على ثراء المرأة المصرية من زينتها ، إذ على الرغم من أنها لا تستطيع أن تتألق بزينتها وحليها إلا أمام زوجها وأمها وأخواتها وصديقاتها ، فهى ليست أقل ميلا للأبهة ولا أقل استعدادا للتألق . وهى تغطى جسدها بأغلى الملابس التى تنثر فوقها – ببذخ وبدون أى اختيار أو تناسق – حليها ومجوهراتها ، وكل ما لديها من أحجار كريمة . وهى تحلى جيدها بالعقود التى يمكن أن نسميها سلاسل من ذهب ، وتتدلى هذه السلاسل حتى أسفل الصدر ، ويتدلى من هذه السلاسل عادة صندوقان صغيران : يضم أحدهما آية قرآنية ، ويضم الآخر بعضا من العطور . وتحلى السيدة من الطبقة العليا الجزء الأدنى من ذراعيها بأساور من ذهب ، يتراوح عرضها بين ٤–٥ بوصات ، ويتفاوت مقدار سمكها ، وترتدى فى قدميها أساور مماثلة ، ولكن تلك ليست عادة عامة ، وأصابعها مثقلة بالخواتم التى ترصعها الأحجار الكريمة . ومع ذلك فعندما تنزل إلى الشارع فإنها تقبر كل مظاهر الثراء هذه تحت البرقع والسبلة ، وهى قميص كبير من التافتاز يغطى كل ملابسها ، وينزل حتى عقبيها . وتتزين النساء على هذا النحو عند ذهابهن إلى الحمام ، أو عند قيامهن بزيارة ، أو عندما يستقبلن فى بيوتهن قريباتهن وصديقاتهن .

وحيث إننا قدمنا بيانا بملابس الرجال، فإن من المناسب أن نقدم هنا الملابس التي تضمها خزينة النساء ، وهى كما يلى :

اللباس : كالسون أو كيلوت صيفى [١] من الكتان أو القطن .

الشنتيان : لباس الشتاء .

الدكة : حزام يربط به السروال حول البطن .

القميص :

اليلك : روب يرتدى فوق القميص، وهو مفتوح من الأمام ، وأكمامه طويلة وضيقة.

الفستان : روب يحل محل اليلك ، وهو غير مفتوح . وقد اعتادت السيدات الأوربيات المقيمات فى مصر على ارتدائه تقليدا لسيدات القسطنطينية اللاتى يرتدينه فى بعض الأحيان .

الجبة : روب يرتدى فوق الفستان ، وأكمامه قصيرة جدا، ويضاف إليه الفراء فى الشتاء ، ويطلق عليه عندئذ اسم : وش فروة .

الحزام : وهو فى الصيف من الموسلين أو الحرير، وفى الشتاء من الصوف أو الكشمير . وعندما يعقد من الخلف يتدلى على هيئة مثلث .

الطاقية : غطاء يغطى الرأس مباشرة ، ويستبدل دائما .

الطربوش : غطاء رأس يرتدى فوق الطاقية .

القمطة : قطعة من الموسلين تلف عدة مرات حول الطربوش ، وهى جزءان، والجزء الذى يدور حول الرأس نفسه أحمر اللون أو من لون آخر زاه جدا، ويشكل الغطاء كله حول الرأس شريطا اسطوانيا بارزا يرصع باللآلئ والأحجار الكريمة .

---

(١) من المعروف أن النساء الشرقيات قد اكتسبن عادة لبس السراويل، وليس هناك فرق فى هذه الناحية بين المسيحيات أو اليهوديات أو المسلمات .

الربطة : وتطلق على غطاء الرأس فى مجموعه .

العقدة : عقد من اللؤلؤ .

الشواطة : مسبحة من اللؤلؤ ، يربط كل طرف من طرفيها بأحد جانبى الربطة .

الضفاير : خصلات من الحرير تزيد من طول خصلات الشعر .

البرق : قطع ذهبية صغيرة تربط بالضفاير ، ويتدلى من طرف قطع البرق هذه قطع نقدية صغيرة (سكين) Sequins .

السبلة : قميص واسع من التفتاز ، يغطى كل الملابس ، ويتدلى حتى يلامس الأرض ، وترتديه النساء عند خروجهن وعند ذهابهن إلى الحمام أو للزيارة ، ولا يخلعنه إلا إذا ألحت عليهن من هن فى زيارتها ، وخاصة إذا كانت الأخيرة تنتمى إلى الطبقة العليا .

البرقع : قناع الوجه ابتداء من أسفل الأنف ، ويتصل بالربطة من فوق الجبهة من الجانبين . وهو من قماش الموسلين أو الكتان الأبيض الناعم ، ويتدلى حتى الركبتين ، ولا غنى عنه لسيدة تريد أن تخرج خارج بيتها .

الحبرة : قطعة كبيرة من قماش التفتاز الأسود ، توضع فوق الرأس ، وتغطى بها الربطة والملابس واليدين، وتخلعها المرأة عند دخولها أحد البيوت .

التزيرة : وهى مجموع السبلة والبرقع والحبرة .

الخلخال : سوار فى القدم .

ولا تختلف أحذية النساء عن أحذية الرجال التى سبق أن تحدثنا عنها إلا فيما يختص بالأحذية الخشبية التى تستخدمها النساء داخل البيوت ، وتسمى هذه الأحذية : القبقاب .

ونساء الطبقات الشعبية أبعد ما يكن عن الاقتراب من هذه الأبهة فى ملابسهن، فهن لا يرتدين - فى القاهرة أو الريف - إلا سروالاً من فوقه قميص أزرق اللون واسع جدا ، أكمامه طويلة و واسعة تنزل حتى الردفين . وهن فى نفس الوقت محجبات ، وتضفر شعورهن على طريقة سيدات الطبقة الراقية ، لكنهن يعلقن فى أطراف هذه الضفائر أجراسا صغيرة ، أو أشياء أخرى يتخذنها كزينة، وتتدلى بطول الظهر . وتضع الفتيات فى بعض الأحيان أجراسا صغيرة فى أقدامهن ، ويحلى غطاء رأس الأطفال بصف من القطع الفضية أو قطع من النقود تحيط بالرأس(١). لكن شيئا من هذه الأبهة لا يظهر للعين خارج البيوت ، فكل شئ يختفى تحت الملابس حتى بداية الوجه ، ولا يرى من النساء عادة إلا عيونهن ، بل يختفى جزء من هذه العيون ، ويمكن القول إن الأطفال يدثرون هكذا حتى يتفادوا نظرات الحسد التى ترمقهم بها العيون الحاسدة ، التى يعتبرها المصريون المتطيرون بالغة الأذى . وتتدلى من آذان نساء العامة أقراط ، وتتدلى الأقراط أحيانا من الأنوف ، لكن هذه الحالة نادرة . وتحيط النساء أذرعهن وأقدامهن كذلك بأطواق من المعدن ، كما يرسمن فوق شفاههن وذقونهن وصدورهن رسوما للزينة زرقاء أو سوداء (الوشم) ، وهى رسوم تماثل تلك التى ترى المسيحيات أثناء فترة الحج يرسمنها فوق أذرعهن دلالة على التقوى والولاء .

وتنظر السيدات من الطبقة الميسورة - شأنهن فى ذلك شأن نساء الطبقات الفقيرة - إلى مختلف التشويهات التى تحدثنا عنها فيما سبق، باعتبارها نوعا من الجاذبية ، أو على الأقل نوعا من التزين ، وبخاصة عادة التقليل من سمك

---

(١) أخبرنا أحد أبناء طرابلس أن المسلمين يحيطون رءوس أطفالهم بنقود ذهبية عليها كتعويذ بعض آيات من القرآن ، ولهذا السبب فهم يحتفظون - وما يزالون - بكثير من قطع النقود الكوفية . وهذا ما يسهل على الأوربيين الراغبين فى اقتناء دنانير أو عملات تعود لعصر الخلفاء أن يعثروا فى حليات الفتيات المسلمات على بغيتهم . وفضلا عن ذلك فلا تستخدم النقود الكوفية إلا كزينة ، ولولا هذه العادة لكانت قد انقرضت منذ وقت طويل .

الحواجب ، كما يعنين أيضا بصبغ اليدين والقدمين بالأصفر ، والأظافر بالأحمر ، وذلك باستعمال الحناء . وهذه العادة أكثر انتشارا بين الطبقات الشعبية ، وهى ترتبط أساسا بالتقاليد ، وبحالة التحفظ التى ينبغى أن تكون عليها النساء أمام الرجال، فالغرض من هذه العادة منع العين الفضولية من استجلاء درجة بياض الجسم عن طريق النظر إلى بشرة اليد إذا ظلت فى لونها الطبيعى .

٥

التقاليد والعادات المختلفة

ترتبط تقاليد المصريين بأنظمتهم، لذا يمكن القول بأن هذه التقاليد إنما هى وليدة هذه النظم . ومما لا جدال فيه أن معظم قوانينهم تقوم على معرفة دقيقة بالمناخ وأنها تبدو متمثلة تماما لطبائع الناس ، وكذلك للموقع الجغرافى للبلاد . ويمكن القول كذلك بأن المشرع العربى قد حسب مدى سرعة ونجاح انتشار مذهبه السياسى والدينى الجديد – وذلك بقياسه لعقول وأذواق مواطنيه – فتجنب تلك المعركة الخطرة على الدوام ، التى يدخلها المجددون ضد عواطف وأهواء أولئك الذين يريدون إصلاحهم ، لذا فقد أعلى من شأن أتباعه فى نظر أنفسهم بفعل ديانة أسسها بشكل ماهر ، واستطاع أن يتوصل إلى أن يبرهن على عظمتها لأناس جهلاء سذج . فلقد احترم تقاليدهم العائلية ، وكان متسامحا مع هفواتهم ونقاط ضعفهم ، وعندما شاء أن يقدم مكافأة لأولئك الذين يتمثلون مبادئه السهلة ، تملق عواطفهم الجموح حين وعدهم بأنهم سيكونون خير أمم الأرض ، وعندما رأى نفسه واثقا من أن مذهبه يتدعم بَشّرَهم بمباهج سماوية مثالية . ولقد توج النجاح آماله ، وحصل محمد على نفس النجاح الذى حازه ليكورج (*) دون أن يؤسس

(*) lycurgu مُشَرِّع أسبارطة ، عاش فى القرن التاسع قبل الميلاد . وجدير بالذكر أننا نقدم هنا ترجمة للأصل نصا وروحا ، وإن كانت لنا تحفظات هامة على كثير مما ورد فى هذه الفقرة . ومع ذلك فقد آن لنا أن نلم بكل ما يقال عنا ، فليس كل ما يقال صحيحا على إطلاقه ، بالإضافة إلى أن هذه الأفكار قد تجاوزها حتى الفكر الأوربى نفسه اليوم . (المترجم) .

أنظمته الفكرية على قوة من الأخلاق ، أو على إنارة السبيل أمام أمته . ولسوف تظل عقيدته هذه فى أوج فاعليتها فى الشرق ، طالما ظلت شعوب هذا الشرق بعيدة عن مدارج التقدم والحضارة الحديثة ، وفضلا عن ذلك فإنه ليبدو أن طبيعة عقلية الشرقيين تؤمن لمثل هذه العقيدة بطول البقاء .

إذن فليس المجتمع هو الذى ينظم التقاليد فى مصر ، كما أن «الموضة» لا تغير من هذا المجتمع بحسب أهوائها وتقلباتها ، فكل شئ فيه يستند إلى النظام الروحى والدينى ، ويظل – مثله – فى حالة من الثبات لا تقبل التغيير . فكل ما كتبه الرحالة القدماء الموثوق بهم عن العرب ما يزال على حاله حتى اليوم ، ولو أنهم عادوا إلى الحياة اليوم ليخوضوا فى نفس الأمر لوجدوا أنه لا ينبغى عليهم أن يغيروا اليوم شيئا مما قالوه فى ذلك الماضى البعيد، وإلى أن يحين ذلك الوقت الذى تتفجر فيه ثورة يبدو أنها ما تزال شديدة البعد، فلسوف تظل عادات الشرقيين الأسرية هى هى . وعلى كلٍ فسوف نكتفى بأن نقدم هنا لمحة سريعة عن حياة المصريين الخاصة ، فعن طريق مثل هذا الفحص فقط يستطيع المراقب أن يُكَوِّن حكمه ، بل إن المراقب لا يمكنه أن يعرف مدى عمق الروح القومية الحقيقية لشعب ما إلا إذا فحصه باهتمام من هذا المنظور .

إن المجتمع الذى تستعبد فيه نساؤه لا يقدم مطلقا هذا المزيج من الرقة واللياقة اللتين تميزان الأمم الأوربية على وجه الخصوص، وحيث إننا لا نكاد نحس بأثر للنساء على العادات الاجتماعية فى مصر ، فمن الممكن أن نتفهم بسهولة لماذا تتميز التقاليد فى مصر بوجه عام بهذه الغلظة الهمجية ، التى هى بالتأكيد غلظة تقاليد العرب الغزاة . وتلك فى الواقع هى الملحوظة التى تتضح لأول وهلة ، فرياضة الشعب وألعابه ومسراته ذات طابع خليع، متهور ووحشى فى وقت معا ، وسوف يكون الأمر بالتأكيد على نحو مخالف لو كان للنساء نصيب فى صنع هذه التقاليد ، فالاعتبارات التى ستولى لهن – من حيث جنسهن – سوف تؤدى غريزيا إلى تولد مشاعر اللياقة ، وعندئذ سوف تكون الأمة هى الصانعة لشكل مجتمعها .

وتتوزع حياة المصرى من أبناء الطبقة الميسورة ما بين الصلاة والحمام والملذات الحسية والكسل وتدخين الغليون وشرب القهوة . وقد يجوز لنا أن نقول بأن الشعب كله يقضى جل وقته فى التدخين . ولا يستخدم الأغنياء إلا تبغ اللاذقية[1] ، الذى تستهلك منه كميات كبيرة فى مصر ، أما الفقراء فيقنعون بالتبغ المحلى الذى لا يمتاز بنفس المذاق اللذيذ الذى لتبغ اللاذقية ، لكن سعره مناسب . وتشرب القهوة فى فناجين جد قصيرة وبدون سكر، وهناك بعض من الناس يشرب ما يزيد على العشرين فنجانا من القهوة فى اليوم الواحد .

ويكَوّن أبناء الطبقة الشعبية من خلاصة نوع من القنب – الذى يسمونه الحشيش – مستحضرا مخدرا ، يتعاطونه بلذة شديدة ، ويؤدى هذا المستحضر إلى السكْر ، أو بالأحرى إلى إحداث نوع من الخدر ، وفى هذه الحالة من الخدر الجسمانى والروحى يحصل البؤساء على هدنة من آلامهم ومضايقاتهم . أما الأغنياء فيبحثون عن هذا الخدر عن طريق خلاصة أو عصارة الخشخاش المطبوخ. ومن خاصية هذا المشروب أنه يسبب نوعا من الأسى العميق ، ويصبح الجسم والعقل بعد تناوله أكثر تهالكا عما كاناه من قبل .

ومسكن الحريم مكان له حرمته ، والأزواج وحدهم هم الذين يستطيعون التردد عليه بحرية ، ولا يمكن لأبواب هذا المكان المحرم أن تفتح مطلقا لرجل آخر بخلاف الطبيب أو الكاتب ، أى ذلك النوع من موظفى السكرتارية الذى تستخدمهم عادة نساء الطبقة العليا . ولا يستدعى الأطباء إلا فى الحالات العاجلة والملحة ، وفضلا عن ذلك فليس بإمكانهم أن يروا مريضاتهم إلا فى حضرة الإماء أو الأغوات [2] ، بل إن النساء – حتى فى هذه الحالة – لا يخلعن نقابهن . أما الكاتب ، فلا يسمح له مطلقا بالدخول إلى الحجرة التى تشغلها سيدته ، فيبقى فى الحجرة المجاورة ،

(١) اللاذقية هى لادوسيا Ladociè القديمة ، وقد بناها سيلوكيس Sèleucus ، وسماها على اسم أمه ، وتقع على الساحل السورى ، ويزرع التبغ على التلال المحيطة بها .

(٢) بدأ البكوات (المماليك) يقتنون الأغوات فى الفترة الأخيرة .

ويفتح باب اتصال بين الحجرتين ، ويكتب هو حسب الأوامر التى تملى عليه . وفى كثير من البيوت يكون للكاتب حجرة تقع أسفل مسكن الحريم، وتملى عليه المباشرة (الوكيلة)- وهى سيدة تعمل فى خدمة ربة البيت ولكنها ليست من الإماء - أوامر سيدة البيت .

وتراعى هذه التقاليد بشدة عند كل الأسر المتميزة ، والتى تتباهى بنسبها العالى، بل إن السؤال عن حال السيدات يعتبر أمرا معيبا مهما كان الدافع الذى يمليه . فالرجل على سبيل المثال لا يسمح لنفسه بأن يسأل رجلا آخر عن أخبار زوجته ، ما لم تكن ثمة روابط حميمة بينهما ، بل إنه فى هذه الحالة أيضا يستخدم تعبيرا يصلح لمثل هذه المناسبات ، مثل : كيف حال العائلة ؟ أو كيف حال (الناس اللى فوق) ؟ . وكذلك لا تسمح آداب اللياقة بإدخال العوالم فى بيوت العائلات المتمسكة بالأصول والتقاليد ، إذ لا يمكن لهؤلاء العوالم أن يدخلن مثل هذه البيوت إلا أيام الاحتفالات والمناسبات الكبرى ، ولا يكون ثمة من شكوى إلا أن فى أغانيهن أو رقصاتهن شيئا من الخلاعة لا يليق . أما رقص الغوازى الذى يرى فى شوارع القاهرة ، فمثل هؤلاء الغيورين على التقاليد يستبعدونه بغلظة .

ومع ذلك فينبغى القول بأنه ليست كل العائلات على هذه الدرجة من التعنت، بل إن هناك الكثيرين ممن تسمح تقاليدهم المتراخية لزوجاتهم بأن يحكن المكائد الغرامية فى داخل الحريم نفسه ، أو فى خارجه بمعونة من إمائهن ، فيتظاهرن على سبيل المثال بأنهن ذاهبات إلى الحمام أو للقيام بزيارة ، ويذهبن بدلا من ذلك إلى لقاء غرامى. ولا بد أن نستنتج أن البطالة التى يحيون فيها وكذا حرارة الطقس الملتهبة هى التى تهيج شهواتهن ، وتحملهن - بلا انقطاع - على الاستجابة لملذات الحواس ، فما أن تلهب خيالهن رغبات أو احتياجات جديدة حتى يطرقن كل وسيلة لاشباعها، ولكن الذى يضع حدا لذلك كله هو خوف المرأة من أن يطلقها زوجها ، بل وأن تلقى الموت على يديه .

ويشكل السقاءون نوعا من رسل الغرام ، ويلعبون دورا رئيسياً فى مكائد الحب . ولسيدات الطبقة الراقية عبيد من نفس جنسهن (اماء) يعهد إليهن بالعناية بأمورهن ، وعلى رأس هؤلاء جميعا الخازنة ، وهى التى تعنى بالمجوهرات والنقود وخزينة الملابس ، وهى أول من تفوز بالعتق . ويليها فى الترتيب والأهمية – من حيث الوظائف – تلك التى تأمر بإعداد القهوة والشربات : أى تلك المكلفة برعاية واجبات الضيافة ، ويليها تلك الأمة المكلفة بالتفتيش على المطبخ ، ولها السطوة على كل الإماء . وتتفاوت درجة تقسيم هذه الأعمال بحسب طبقة وثروة ربة البيت، بل إن بعض هذه الأعمال توكل إلى عائلات حرة مثل أعمال المباشرة أو الوكالة . ولا يحق للسيدات أن يستخدمن خدما إلا من نفس جنسهن أو من الأغوات، وثمة شيوخ عميان يأتون لتعليم العبيد الصلاة . ويشغل الأغا (الطواشى) حجرة فى الطابق الأرضى ، وبإمكانه أن يدخل فى حرية إلى جناح الحريم ، وهو يقوم بنقل أوامر رب البيت إلى ربة البيت، ويمكن القول بأنه يستخدم كحلقة اتصال بين الاثنين .

ونادرا ما تخرج المصريات إلى خارج بيوتهن، وإذا حدث ذلك فإنهن يفضلن ساعة قدوم الليل لقضاء مشاويرهن الصغيرة . أما عند سفرهن فيوضعن داخل هودج : عرضه قدمان وعمقه ثلاثة أقدام ، وتعلوه قبة صغيرة على هيئة قوس، ويحمل الجمل اثنين من هذه الهوادج بعد شدهما إلى جنبيه . كذلك لا تتجول السيدات فى حدائق بيوتهن ، وهى حدائق تنقصها الممرات ، ويمضين أياما بأكملها على أرائكهن ، ويتسلى بعضهن بغزل حرير أو قطن الهند، وتقوم من يستطعن التطريز منهن بتطريز المناديل التى تستخدم كغطاء للرأس ، أو الشيلان (الشال) التى يصنع منها حزام أزواجهن بكشكشات صغيرة .

ومن السهل التعرف على الإماء ، حيث إن شعرهن يرتفع فوق رءوسهن، وفستانهن مقفول ، وتغطى رؤوسهن وأكتافهن – بدلا من القناع الكبير أو الطرحة – قطعة من قماش التيل أو القطن ، كما يغطين بها وجوههن فى حضرة الرجال .

ومع ذلك فإن نساء الطبقات الشعبية لا يستشعرن مثل هذه المضايقات ، إذ يُقَدَّر عليهن على الدوام الانهماك فى أعمال خارج بيوتهن ، لكنهن طيلة الوقت متحجبات بالبرقع ، وبخاصة إذا ما لمحن رجلا ، وأكثر ما يشغلهن هو إحضار طعام أزواجهن ، والذهاب لجلب المياه فى جرار يحملنها على رأسهن بمهارة (١) . وفى نفس الوقت فأكثر الفلاحات لا يعرفن الحياكة ، لذا يتركن ملابسهن الخفيفة – التى تغطيهن – وقد تدلت مزقها ، إما لأنهن لا يستطعن رتقها، وإما لأنهن لا يجدن ضرورة فى تكليف أنفسهن هذا العناء ، ويجدن سعادة فائقة فى ألا يعملن شيئا ، ثم فى أن يقعين على حصيرة أو حتى على الرمال . وهذه البلادة التى نلاحظها فى كل بلدان الشرق ، ينبغى أن تجد لنفسها فى مصر بالذات بعض العذر ، إذ إن حرارة الجو المرتفعة تحتم الاسترخاء . وتحب المصريات عموما تدخين الغليون ، لكن هذا المزاج نادر الشيوع عند نساء الطبقة الراقية ، وهؤلاء لا يدخن مطلقا فى حضرة أزواجهن ولا يحصلن على مثل هذه المتعة إلا خفية .

وكما سبق لنا القول ، فإن الحمام هو أحد المتع الرئيسية عند المصريين من كلا الجنسين على قدم المساواة ، وللسيدات من الطبقة الميسورة حمامات فى بيوتهن ، يعتنين بتزويدها على الدوام بالمياه الساخنة والبخار ، ويتبادلن فيما بينهن الزيارات إلى حمام كل منهن كما لو كانت زيارات إلى مكان بهيج . وهناك يستعرضن مجوهراتهن ، وأجمل ملابسهن وكل أبهتهن ، ويستخدمن ببذخ صارخ ماء الورد والعطور، ويقضين يومهن هناك يتناولن القهوة والفطائر ، وينغمسن فى كل أنواع التسلية والترفيه (٢).

---

(١) عندما لا يكون حجم هذه الجرار كبيرا فإنهن يحملنها على أكفهن ، ويتكئن بمرفقهن على الجنب ، ويرفعن اليد الأخرى إلى أعلى . وتتفق هذه الطريقة تماما مع طريقة المصريات القدامى ، ويكفى للاقتناع بذلك أن نلقى نظرة على الرسوم المنقولة عن تلك الرسوم الموجودة فى كهوف كثيرة فى صعيد مصر .

(٢) عندما تقوم سيدة بزيارة أخرى تكن لها بعض الود أو الصداقة ، فإنها تدعوها لأخذ حمام وكذا النوم عندها، وينتج عن ذلك أن تستمر الزيارة أحيانا لعدة أيام .

وتراعى السيدات فيما بينهن – شأنهن فى ذلك شأن الرجال – وبكل الاهتمام والتدقيق هذه الطقوس والاعتبارات التى لهن بحكم الطبقة والثروة . والصمت والاحترام ملازمان العظمة . وإذا ما كان ثمة سيدتان قد نشأتا معا وعاشتا معا فى مودة منذ طفولتهما ، ثم تزوجت إحداهما من ثرى (١) ، أو ذى مكانة مرموقة – فإن لهجة الحديث بينهما تتغير على الفور . وللرجال احتفال خاص بمراعاة واجبات الذوق واللياقة فيما بينهم ، وبأن يقدموا من تلقاء أنفسهم دلائل الاحترام والتقدير ، فالأدنى يقبل يد الأعلى ، بل ويقبل أحيانا طرف ردائه إذا كان ثمة فارق كبير بينهما ، أو يكتفى أحيانا برفع اليد اليمنى إلى الصدر لتأكيد ندية الصداقة التى بينهما، أما عندما توضع اليد على الرأس فإنها تعبير بالخضوع من المرءوس إلى رؤسائه الكبار .

لكن احترام الأبناء لآبائهم وأمهاتهم يذهب لأبعد من ذلك ، فهم لا يخرجون من كنف الحريم قبل سن البلوغ ، ويخضع الذكور منهم لهذه القاعدة ، ومع ذلك فهم لا يسكنون نفس الحجرة التى تقيم فيها الأم ، ويأتون كل صباح لتقبيل يدها ، ويظلون للحظات واقفين أمامها وأذرعهم معقودة على صدورهم ، ثم ينزلون بعد ذلك إلى والدهم ويقدمون له نفس أمارات الاحترام ، ومع ذلك فالأب لا يقبل وجودهم على مائدته إلا إذا كان ذلك فى يوم يعد من أعياد الأسرة ، وهو – كذلك – لا يسرف فى تدليلهم ، ويحتفظ معهم باستمرار باللياقة الواجبة. وهذه عادة عامة عند كل الطبقات ، وتستطيع الطبقة الدنيا وحدها أن تخرق هذه القاعدة. وليست المرأة أكثر احتراما من جانب زوجها ، فمن النادر أن تدعى للطعام معه ، وتظل سيدات الطبقات الشعبية واقفات بينما يتناول الأزواج الطعام ، ولا يجلسن لتناول طعامهن إلا إذا فرغ من ذلك الأزواج .

---

(١) هذه الطريقة لدى الشرقيين فى قياس لهجتهم وحركاتهم بحسب الثروة والجاه ، تلاحظ على وجه الخصوص عند المماليك ، فهؤلاء الرجال الذين كانوا – كلهم على وجه التقريب – أبناء لرعاة أو لفلاحين ، يحرصون على الحصول على قدر من الثروة والتكريم يتناسب مع طبقتهم الجديدة التى أمكنهم الارتفاع إليها .

ويخصص اليوم السابع لمولد الطفل لأفراح كبرى تجرى داخل الأسرة ، وفى هذا اليوم تأتى كل السيدات اللاتى كن من قبل إماء عند أم المولود لزيارتها، فتستقبلهن المباشرة فى أول حجرة ، وتأمر بتقديم القهوة والشربات لهن ، وبعد ربع ساعة تقبل ربة البيت التى كانت قد انسحبت عند قدومهن إلى حجرة أخرى ، عندئذ يهرع نحوها الجميع حتى يحظين بنوال شرف السماح لهن بتقبيل يدها، ثم تجلس السيدة وتظل معتوقاتها واقفات أمامها ، وبعد ما يقرب من نصف ساعة من الحفل تنسحب السيدة ، وتعطى لمباشرتها الأمر فى أن تُبقى من معتوقاتها أولئك اللاتى تريد هى الاحتفاظ بهن ، وتخرج الأخريات على الفور .

وعندما يصعد زوج إلى حجرة زوجته فإنه يعلن ذلك مسبقا عن طريق أحد الطواشى أو واحد من العبيد ، لكنه لا يظهر مطلقا إذا كان بالحريم غريبات .. وتراعى الزوجة أن تبعد عن ناظره الإماء اللاتى يمكن لجمالهن أن يغويه ، ومع ذلك، فإنه إذا ما لمح واحدة منهن ونالت إعجابه وأبدى الرغبة فى أن يبقى وحده معها ، فإن زوجته تبدى الكثير من التلطف لحد تنسحب معه من الحجرة . ولكى تحتفظ زوجات البكوات بالسطوة التى لهن على أزواجهن فإنهن يقدمن لهم على الدوام تضحيات من هذا النوع ، بل ويذهبن إلى حد تقديم الإماء الجميلات كهدايا لأزواجهن ، ويزينهن بالمجوهرات والملابس الفاخرة . وكانت زوجة مراد بك تقدم له مثل هذه الرعاية . لكن هؤلاء المحظيات اللائى يقمن بإمتاع الزوج مسايرة لرغبات سيدتهن يحتفظن لها على الدوام بأمارات الاحترام والتبجيل ، ويحرصن على الدوام على مراعاة مصالحها .

ولم يكن من النادر – وخاصة فى الأزمنة الأخيرة – أن ترى أرملة واحد من البكوات أو الكشاف تتزوج واحدا من مماليك زوجها ، وفى هذه الحالة يظل هذا المملوك يحتفظ لها بأكبر قدر من التقدير والرعاية، مهما كانت المكانة التى سيصل اليها فيما بعد . وإذا ما كانت هذه الزوجة مدققة فى مثل هذه الأمور ، فإنه لا يجرؤ أن يسمح لنفسه بالتصرف بحرية مع الإماء ، ولكنه فى نفس الوقت يجاهد

كى يخفى عنها مغامراته التى يمكن له أن يمارسها خارج نطاق الحريم . ويحكى أن إبراهيم بك - الذى كان من قبل مملوكا لمحمد بك ، ثم تزوج من أرملته بعد وفاته - قد ضبطته زوجته هذه ذات يوم مع واحدة من إمائها ، فقامت - وقد طعنت فى كرامتها - بضربه بقسوة وهى تصب عليه شتائمها ، لكن الخوف من مثل ذلك لم يستطع أن يكبح جماح شهوات هذا البك . ويقال إن زوجته تلك -الغيور والمتجبرة فى وقت واحد - كانت تأمر بإغراق أو دس السم لأى واحدة من إمائها تشك هى فى أن لها علاقة بزوجها.

وفى مصر ، لا ينام الرجال بجوار زوجاتهم ، وهذه عادة عامة عند كل الطبقات . وللأغنياء حجرات مستقلة ، أما الفقراء فيختارون الركنين المتقابلين من حجرتهم التى هى عبارة عن خص أو كوخ فقير . ويوضع الفراش وسط حجرة كبيرة ، وهو بالنسبة للرجل الميسور سجادة مبسوطة على ألواح خشبية ، وتحيط بالسجادة أربع مخدات فخمة ، اثنتان منها على اليمين واثنتان على اليسار ، ليحصر بذلك الفراغ الذى ينبغى أن يشغله الفرد ، ويوضع أعلى ذلك غطاء أو ناموسية من الحرير أو الموسلين [1] . وقد شاهدنا بعضا منها مطرزا بالذهب والفضة . ولايكلف الفقراء أنفسهم مثل هذا العناء ، فهم يتمددون على حصيرة مصنوعة من سعف النخل ، وينامون بكامل ملابسهم .

وقلما يغير الناس - من كلتا الطبقتين - من ملابسهم الداخلية أثناء النوم، ويساهم ذلك فى وجود الحشرات الضارة بملابسهم كالقمل والبراغيث، كما يؤدى إلى تكاثرها .

ويلجأ الناس لعادة بالغة الغرابة لإيقاظ الشخص النائم ، فلا يتم ذلك بإحداث صوت أو هزة حتى ينهض من نومه ، لكن واحدة من الإماء تأتى محدثة بعض

(١) لا غنى عن الناموسية فى مصر حيث تمتلئ الحجرات بحشرات الفراش . وبدون هذا الاحتياط لا يكاد المرء يستطيع النوم، أما أبناء الطبقات الشعبية فإنهم وحدهم - بحكم التعود الطويل - الذين يستطيعون تحمل إزعاج هذه الحشرات .

الصخب ، وتدغدغ له بيدها باطن قدمه ، وبذا تنتزعه هذه الدغدغة برفق من نومه . وهذا الاحتياط الناعم يشى برخاوة من يلجأون إليه ، فهو دليل على الحياة المخنثة التى يحياها هؤلاء ، وهو احتياط يمكن القول بأنه لم يكن بمقدور أهالى سيباريس(*) القدامى أن يخترعوا أمرا يفوقه رقة ودقة .

وفى ختام فصلنا هذا نقدم جدولا مقارنا بين المواقيت الفرنسية والمواقيت التى تقابلها عند المسلمين، ويحتاج هذا الجدول إلى شرح تمهيدى :

يقسم المسلمون فترة اليوم ابتداء من غروب الشمس، ويحسبون ٢٤ ساعة فى المسافة التى تفصل بين الغروبين، ولكن بعد أن يصل العدد إلى رقم ١٢ يعودون ثانية مثلنا للعدد ١ ، ٢ ، ٣ ... الخ . فإذا حسبنا مثلا أن الغروب قد تم فى الساعة ١٢، فإنه تأتى بعد ذلك الساعة الواحدة ثم الساعة الثانية، وهكذا .. الخ .

وعند معرفة الوقت الفرنسى، فإن من الممكن تحديد الساعة عند المسلمين وذلك بعد إضافة العدد ٥ . و على هذا فإذا كانت الساعة لدينا فى فرنسا الرابعة صباحا فإنها تكون عند الأتراك التاسعة . وعندما تكون عندنا: ٥ ، ٦، ٧، فهى عند الأتراك: ١٠، ١١، ١٢. وعندما تكون لدينا: ٨، ٩، ١٠، فهى لدى الأتراك ليست: ١٣، ١٤، ١٥، وإنما: ١، ٢، ٣ .

وهكذا فإنه يمكننا أن نتبنى كقاعدة عامة المبدئين التاليين :

١ - بإضافة ٥ إلى رقم الساعة الفرنسية فإن حاصل الرقمين يوضح لنا الساعة عند المسلمين إذا لم يكن الحاصل يتجاوز الرقم ١٢.

٢ - أما إذا ما تجاوز الحاصل الرقم ١٢ فإن الزائد يؤخذ منفصلا ليكون هو الوقت عند المسلمين . فإذا ما افترضنا أن الساعة هى الثالثة عند الفرنسيين فبإضافة ٥ تصبح الساعة الثامنة لدى المسلمين ، أما إذا افترضنا أنها ٩ لدى الفرنسيين فإننا نجد أننا بإضافة ٥ سنحصل على رقم ١٤ وهو ما تجاوز ١٢ ،

(*) (ب) سيباريس مدينة اغريقية قديمة اشتهرت بالثراء والترف .(المترجم) .

وبطرح ١٢ منه يتبقى لدينا ٢ ، ويكون هذا الرقم هو الوقت عند المسلمين .

ونظرة سريعة إلى الجدول التالى تبين لنا مثل ذلك الارتباط فى كل ساعات الليل والنهار .

جدول ارتباط التوقيت

الساعة فى فرنسا	الساعة عند المسلمين	الساعة فى فرنسا	الساعة عند المسلمين
منتصف الليل	٥ ليلا	الواحدة بعد الظهر	٦ نهارا
الواحدة صباحا	٦ «	الثانية «	٧ «
الثانية «	٧ «	الثالثة «	٨ «
الثالثة «	٨ «	الرابعة «	٩ «
الرابعة «	٩ «	الخامسة «	١٠ «
الخامسة «	١٠ «	السادسة «	١١ «
السادسة «	١١ صباحا	السابعة «	١٢ المغرب
السابعة «	١٢ «	الثامنة «	١ ليلا
الثامنة «	١ نهارا	التاسعة «	٢ «
التاسعة «	٢ «	العاشرة «	٣ «
العاشرة «	٣ «	الحادية عشرة «	٤ «
الحادية عشرة «	٤ «	منتصف الليل «	٥ « وهكذا
الظهر	٥ «	———	———

٦

الطباع

المصرى خجول بطبعه ، وهو يتفادى الخطر بقدر ما يستطيع . لكنه – ما أن يجد نفسه وسط المخاطر بالرغم من حيطته – يبدى همة ما كنت تظن فى البداية أنها لديه ، وليس ثمة ما يساوى رباطة جاشه وفى نفس الوقت تواكله . ولقد واتتنا الفرصة لتسجيل هذه الملاحظة عدة مرات أثناء حملتنا ، وهذا مايبرهن على ماسبق أن قلناه من أن إصلاح مساوئ نظام الحكم سوف يؤدى– بسهولة فائقة – إلى أن يرد لهذا الشعب كل الفضائل التى فقدها ، بل التى لا يظنها هو نفسه كامنة فيه . كما أن ذلك سوف يوقظ فيه كل مشاعر النبل والهمة ، وعظمة الروح التى خنقتها إلى حين تلك الأنظمة الشيطانية التى يرزح تحت نيرها ، إذ تعمل هذه الأنظمة الخبيثة على تدمير أخلاقيات الأفراد [١] بشكل محزن . ومن هنا ، ذلك الشح الوضيع الذى يلاحظ عند أبناء الطبقة الدنيا من المجتمع ، وذلك الرياء الذى نجده لدى كل أفراد المجتمع . فحيث إن المصرى يلقى الهوان فى طاعة الكبار– الذين يعرفون تماما معنى تلك السلطة التى فى حوزتهم والتى لاحدود لها ، والذين يتحكم فيهم خيلاؤهم الشرس – فإنه (أى المصرى) يحمل بين جوانحه روحا منكسرة تشي عن نفسها فى كل حركاته وإيماءاته ، فيتذلل ويتحسس كلماته مع كل من يخشى قوتهم ونفوذهم . وعندما يتاح له أن يُدْرج فى مصاف الأثرياء ، فإنه يعمل على إشعار البؤساء الذين يأتمرون بأمره بوطأة استعلائه وتحكمه ، وتلك نتيجة طبيعية للتربية التى تلقاها ، وللأمثلة التى رآها فى حياته ، والتى آن أوان أن يحتذى بها .

---

(١) لا نقصد بحديثنا هذا النظم الإسلامية ، ولكننا نقصد تلك القواعد والقوانين الهمجية والاستبدادية للبكوات المماليك ، والتى شوهت لحد كبير أشكال ونظم الإدارة التى وضعها سليم وسليمان الثانى.

ولايستحى الفلاح أو الحرفى- مهما كانت مهنته - من أن يستجدى ، حيث لايهمهم كثيرا ماسوف يقال عنهم وعن حالهم ، بل إنهم يفعلون كل مافى وسعهم ليظهروا أمام الناس بمظهر البؤس والعوز بقدر الإمكان . وفى المساء حين يترك العامل الورشة التى يعمل بها ، فإنه يلح فى الحصول على أجره عن ذلك اليوم ، ويظل يعذبك حتى تدفع له . وقد يكون هذا الإلحاح القلق تعبيرا عن حاجة حقيقية عند البعض ، لكنه عند البعض الآخر مجرد تعبير عن تخوف العامل من ألا يحصل على ثمرة عمله وجهده ، وفضلا عن ذلك فإن الكثيرين منهم لايبدون مثل هذا التلهف في الحصول على أجورهم إلا لكى يقدموا للقائمين على شئون الأجور والمال ،الدليل على عوزهم ، وبهذه الطريقة يتفادون تلك المظالم والمغارم التى تهدد على الدوام أولئك الذين يبدو عليهم أنهم يعيشون فى بحبوحة من العيش.

وعندما تعطى للمصرى مالا ، نقدا أو عينا ، فإنه يحرص على الدوام أن يحرك إبهام يده اليمنى قائلا : "كمان واحد" . ويذكرنا هذا بخصلة كانت للشيخ مريك (وربما موسيا أو مصبع) شيخ إحدى قبائل بدو الأفراد ؛ فقد جاء ذات يوم يشكو إلى حاكم ولاية البحيرة من أن بدو بنى عون شنوا عليه الحرب ، وأنه يحتاج إلى دعم لصدهم ، وطلب لذلك فصيلة من خمسين رجلا ، ووعده القائد بالاستجابة لذلك ، ثم بدأت المحادثة تخوض فى أمور عامة . وعندما آن له أن يمضى فقد عاد يذكر القائد من جديد بالدعم الذى وعده به ، وسأله عما ستكون عليه هذه المعونة ، فأجابه القائد بأنها ستكون عبارة عن خمسين جنديا ومدفع ، فهتف الشيخ فى حدة : خمسين جنديا؟ فقط خمسين ؟ زودها واحدا ، اجعلهم واحدا وخمسين ، واحدا وخمسين . وفى أثناء ذلك كان يحرك إبهام يده اليمنى بطريقة استجداء مضحكة ، حتى أننا لم نتمالك أنفسنا من الضحك ، ومع ذلك فقد استوجب الأمر أن نرضيه بأن نجعل الفصيلة تتكون من واحد وخمسين رجلا بدلا من خمسين.

ومن الصعب أن نوفق بين عادة حب المال لدى المصريين وبين خمولهم وبلادتهم التى يمكن القول بأنها قاعدة لطباع المصريين ، بل بين ذلك وبين سلوك

الحذر والاحتراس الذى يسيطر على أبناء البلاد. فلم نسمع على الإطلاق أية شكوى من سرقات المنازل ، أو قل إن هذه حالة نادرة تماما ، بل إننا سوف ندهش أكثر من ذلك إذا ما علمنا أن البيوت والمحلات التى تضم بضائع غالية لايقفل معظمها إلا بضبات (ضبة) من الخشب غير جيدة الصنع . وباستثناء العربان والبدو ، يتميز المصريون بالاستقامة التى تعود فى جانب كبير منها إلى قسوة العقوبات التى توقع على اللصوص ، فكثيرا ماتبقى بالات البضائع الغالية الثمن لأيام عدة على الرصيف أو فى الطرق العامة فى حراسة ذمة الأهلين ، ولم نسمع أن مالكا قد شكا من نتائج مثل هذه الثقة .

ذات يوم قام أحد الدلالين الأتراك لنا بعملية تجارية عادت عليه بربح قدره ٨٠ فرنكا ، وبعد فترة من الوقت ذهبنا لنحدثه فى أمر صفقة أخرى لاتقل عن الأولى عطاء بالنسبة له ، وكان جالسا على المقهى يدخن غليونه بعظمة ، وبصعوبة شديدة أصاخ السمع للعروض التى قدمت له ، ولأننا ألححنا فى الطلب فقد أجاب: لا أحتاج شيئا ، اذهبوا إلى فلان فهو بائس فقير وسيفعل لكم ماتطلبونه منى ومثلى تماما.. لقد ذكرنا هذه الواقعة ذات الدلالة لكى نقدم مثالا على ذلك التناقض الذى يسيطر دائما، والذى يقوم بين الطباع وبين السلوك . ومع ذلك فليس ثمة ماهو أكثر كرما ولاأكثر عظمة من ذلك ، بل ولا أكثر حكمة مما يتضح فى هذا السلوك . ألست على حق إذن حين آمل بأنه سيكون فى الإمكان أن ندخل عند أمثال هؤلاء القوم أفكارا أكثر عدالة إذا ماأشعّت عليهم أضواء الحضارة الأوربية(١). ولست أمل على الإطلاق من تكرار مثل هذه الحقيقة التى لاجدال فى صحتها.

(١) ولكن على الرغم من هذا المثال الطيب فإن الشعب فى مجموعه لا يتصف بالكرم ، وذلك ناتج عن الحاجة أكثر منه عن الطبع ، ذلك أن الكرم يفترض الميسرة ، وإذا ما ظهر المصرى بذلك فسوف يتعرض لمظالم الحكام وانتهاباتهم.

أهكذا ينبغى أن يقتل الخوف والطغيان أجمل الفضائل ؟ ومما يدل على أن المصريين أسخياء بطبعهم بل مجبولون على فعل الخير ، أن أولئك الذين استطاعوا منهم - بفضل مكانتهم ونفوذهم وثروتهم - ألا تنالهم مظالم وانتهابات حكام الطغاة ، يعيشون فى بيوتهم فى أبهة وترف ويقومون عدة مرات فى العام بتوزيع الهبات والعطاءات .

٧

عن الماشية والخيول وكافة دواب الحمل

لايمكن للمصريين أن يكون لديهم ذلك العدد من القطعان الكبيرة من الحيوانات التى لدينا ، والسبب فى ذلك بالغ الوضوح ، فالمراعى عندهم ليست بمثل وفرتها عندنا . فإذا ما استثنينا مصر السفلى وشطآن وادى النيل بعرض ١ -٣ فراسخ ، فسوف نجد أن أراضى مصر قاحلة تماما ، بحيث يستحيل إطعام الماشية. ومع ذلك فسكان الريف يمتلكون جميعا بعض الأبقار والجاموس وبعض الماعز وبخاصة فى الدلتا ، لكن الجمال والخيول والحمير توجد بأعداد أكبر ، لأن مهمة إطعام هذه الحيوانات أقل صعوبة ، إذ لايقدم للخيول سوى التبن (قش مدروس تحت النورج الذى يقوم بدرس القمح والشعير) والبرسيم. ويطعمون فى الربيع بالشعير الغير كامل النضج ؛ وهو يزرع لهذا الغرض ، ولاينبغى أن يترك فى الأرض حتى يبلغ مرحلة النضوج ، ويقوم زراع الشعير بتشكيل حزم صغيرة منه ، يبيعونها فى المدن :كل حزمة بواقع ١ ، ٢ مدينى. أما المماليك وغيرهم من الأثرياء الذين يحرصون أن تكون خيولهم قوية جميلة المنظر، فيطعمونها بالشعير الحب[١].

ولاتلقى الجمال مثل هذه العناية الكبيرة إذ لايقدم لها سوى القش والفول المطحون بالرحى ، وبالإضافة لذلك فإن الجمال تقرض أوراق وبراعم الأشواك التى تنمو على حواف الترع وشواطىء النهر ، وتقدم لها فى الربيع أوراق الأشجار ، وهو طعام مفضل لديها ، وعندما تصبح حرارة الصيف ملتهبة يجمع الفلاحون أوراق الأشجار ليستخدموها شتاء فى إطعام الثيران والماعز.

---

(١) يطعم العربان خيولهم بأشياء قليلة جدا . وهذه الخيول نحيلة وقوية وتتحمل المشاق والحرمان لدرجة أكبر من الخيول الجميلة المنظر ، وهى لا تشرب سوى مرة واحدة فى اليوم ، ويردد العرب دائما هذه الحكمة : يابخت الخيل عند الغز ، يابخت العرب مع الخيل . وذلك تعبير عن أن العربى يحصل على منافع كبيرة من حصانه بأقل التكاليف ، فى الوقت الذى يحصل فيه حصان المملوك من سيده - على نحو ما - على أكبر النفع.

والحمار هو دابة الركوب المعتادة لأبناء الشعب ، وقد تعود الفرنسيون على تلك الدابة بسهولة . وفى الحقيقة فإن الحمار فى مصر ، لا يتميز بهذا البطء ولا بالمظهر الدنىء اللذين لنظيره فى أوربا ؛ فسرعته مناسبة ، وخطوه جميل ، ويخب بسرعة طيبة ، وهوشديد التحمل . وقد رأينا فى الصحراء حميرا صغيرة الجسم ، لكنها تحمل فوق ظهرانيها مايقارب من نصف حمولة الجمل ، ومع ذلك فإن الحمار يقاوم التعب بأحسن مما تستطيع الجمال .

وتوجد فى القاهرة أنواع عديدة من هذا الحيوان ، والنوع الكبير منه جميل الشكل ، ويستحق بالفعل الإطراء الذى امتدحه به بوفون Buffon . ويبلغ علوه من ٣ - ٢/١ ٣ أقدام دون أن ندخل فى ذلك ارتفاع الرأس ، ورقبته عريضة قصيرة، ورأسه مرتفع جميل ، وقامة جسمه متناسقة ، وله ملمح نبيل ، وعيناه مليئتان بالحيوية . إنه حيوان قوى ، جميل الخطو ، ويناسب الفرسان لكنه غالى الثمن ، ويفضل فى معظم الأحيان على الحصان ، إذ يباع بحوالى ٦٠ - ٧٠ قرشا أسبانيا . ومن نافلة القول أن نؤكد أن هذا النوع جميل جدا ، ويستحق بالفعل تلهف الناس على استئجاره للسير به فى شوارع المدينة ، وهو مملوك لأفراد يستطيعون شراءه.

أما ذلك النوع من الحمير التى يقودها المكاريون فهى أصغر بكثير، لكنها بالمثل بالغة الجودة ، ويدفع فى الجولة التى تمتد من أول القاهرة إلى آخرها حوالى ٩ - ١٠ بارات . ويكلف إيجار الحمار ليوم بأكمله ٣٠ - ٤٠ بارة ، وكان السعر أقل من ذلك بكثير قبل مجيئنا إلى مصر. وسبب ارتفاع السعر بالغ الوضوح ، فمع مجىء الفرنسيين تضاعف عدد الجولات فى شوارع المدينة . ويتبع المكارى حماره جريا على الأقدام ، ويحمل فى يده قضيبا صغيرا من الحديد تتدلى منه الجلاجل ، وصخب هذه الأجراس الصغيرة تجعل الحمار يخب ، فإذا لم يجر بالسرعة المطلوبة ينخسه المكارى بهذا القضيب ، فهو مدبب من أحد طرفيه.

ويوجد فى القاهرة عدد كبير من البغال يستخدمها رجال الدين وكبار التجار، وثمنها هى الأخرى مرتفع . وقبل مجىء الفرنسيين إلى القاهرة لم يكن يحق لأحد سوى المماليك أن يمتطى ظهور الخيل(١). وكان من عادة المماليك أن يعدوا بخيولهم عدوا أو يسيروا بها على مهل ، ولوحظ أنهم لايسيرون بخيولهم هذه وهى تقفز . وكانوا يدربون هذه الخيول بأن يندفعوا الواحد ضد الآخر ، وأن يتلامسوا بفعل الاقتراب ، ثم يتجاوز الواحد منهما الآخر ، ثم يناوشان بعضهما البعض بالسيف . وكانت إحدى تدريباتهم المفضلة أن يوقفوا حصانهم فجأة وهو فى أقصى سرعته ، وكانت هذه الحركات المفاجئة والعنيفة والصعبة تعرض الحصان لانحراف خطر مما يحطم له ساقيه. لذلك فإن أغلب الخيول التى تدربت على هذا النمط المملوكى كانت تعانى من هذا العيب ، فقد كانت سيقانها ضعيفة لحد كبير، وقد لاحظنا أكثر من ذلك أن معظمها يعانى من بعض التصلب والتعثر فى حركاتها، وذلك ناتج بلا جدال عن القيود التى وضعت فى أقدامها لأوقات طويلة.

ومن النادر أن نرى فى مصر حصانا خصيا ، فهم يركبون الخيل فى سن الثالثة ، وعندما يتجاوز عمر الخيول العاشرة يكف استخدامها ، وثمة خيول مصرية بالغة الجمال ، لكنها معْ ذلك ليست من نوع واحد . وخيول الصعيد أكثرها جدارة ، فساقها - شأنها فى ذلك شأن كافة الخيول العربية - دقيقة رفيعة ، وعينها يقظة ، ورأسها مستقيمة ، أما كفلها فإنه أقل بدانة مما لخيولنا الرعوية ، وحركاتها أنيقة ، وخطوها مناسب ، خاصة إذا لم تكن قد أتلفتها طريقة المماليك فى التدريب ، ومع ذلك فربما لم يكن فيها جميعا نفس مافى خيولنا الحربية من نبل وعزم . ولن يجد الفرنسيون مثيلا لهذه الخيول المصرية فى قفزها وليونتها ، لكنها أقل من خيولنا احتفاظا بقوتها ، كما أنها أقل منها احتمالا للمشاق ، ويقال

---

(١) يؤكد بعضهم أن المسيو روزتى Rosetti قنصل النمسا قد أراد ذات يوم أن يتمتع بهذا الحق، لكن الناس أنزلوه من فوق ظهر الحصان.

إنها بالغة الخفة وأنها تتفوق على خيولنا فى سرعتها ، ولكنى شاهدت فرسا فرنسيا تسبق حصانا عربيا قويا بمسافة كبيرة (١) .

والخيل فى مجموعها ليست فى مثل عنف خيولنا ، فالأمر يمضى غاية فى الهدوء فى حظائر الخيول ، ومن السهل أن نضعها بالقرب من الفرس دون أن تضطرب الأمور.

وفى أثناء إقامتنا فى مصر كان سعر الحصان يبلغ ١٢ -٢٠ لويس ، وينبغى أن نلاحظ أن المماليك كانوا قد رفعوا سعره فى هذه الفترة.

ولايركب العربان مطلقا إلا الفرس ، ويعلقون أهمية كبيرة على الاحتفاظ بأنسابها الطيبة نقية بعيدا عن أى اختلاط ، بل ولديهم خبراء فى علم أجناسها ، والفرس من السلالة المسماة "كويت" هى أكثرها امتيازا ، وهى ذات قيمة كبيرة ، ويبلغ ثمنها من ٥ -٦ آلاف فرنك ، وقد رأينا منها اثنتين أوثلاث رائعة الجمال.

وللخيول العربية صغيرة الحجم والتى قد لاتلفت الانتباه بأناقة شكلها ، ميزات تعوضها عن مظهرها المتواضع هذا ، إذ هى فى العادة أكبر سرعة من الخيول الأخرى ، كما أنها أكبر منها بكثير مقاومة للتعب .

٨

تقاليد عربان البحيرة

يمكننا أن نحصى فى ولاية البحيرة - الواقعة ما بين الأسكندرية والقاهرة

(١) تتطلب الخيول فى مصر عناية فائقة ، فبعد أقل جولة تقوم بها ينبغى أن يقوم أحد الخدم بجعلها تمشى حتى يجف عرقها ، وبدون هذا الاحتياط يمكن أن تموت على الفور ، وهى فى العادة جفولة ، وتتعرض كثيرا لمرض الرئتين . ويستخدم الشرقيون ركابا للسرج ، عرضه كبير ، ويستخدمونه فى نفس الوقت كمهماز ، وتكفى ضربة قوية لهتك فخذ الحصان ، ولجامها قوى وجاف ، والطريقة التى يستخدم بها هناك تؤدى سريعا إلى هتك أفواه الخيول ، لكن لا يمكن إيقافها بعد ذلك - إذا ما أخذت تعدو - إلا عن طريق هذا اللجام.

والفرع الأيسر للنيل – سبع قبائل أساسية من العربان ، استقر عديد منها هناك منذ زمان بعيد.

وأكبر هذه القبائل عددا قبيلتا الهنادى والجوابى ، ويمكن أن يبلغ تعداد الأولى ۳۰٫۰۰۰ شخص رجالا ونساء ، بينما تكون الثانية على نحو ما أمة صغيرة من الرعاة ، يحكمها شيخ كبير ورث المشيخة عن أجداده. وحيث إن عائلته هى أقوى عائلات القبيلة فإنه يمارس سلطته المطلقة بحق الوراثة ، حيث لاتوجد هناك أية قوانين وضعية . وتنقسم القبيلة إلى ثلاث طبقات ، تنقسم كل منها بدورها إلى عائلات ، أما مكان الإقامة فواحد بالنسبة للجميع ، ولكل واحد قطيعه من حول خيمته ، وهذه القطعان تتكون من جمال وماشية صغيرة ، ويمكن للعربى المتواضع الثراء أن يمتلك ٤ أو ٥ أو ٦ من إناث الجمال واثنين من ذكورها ، بخلاف الماشية الصغيرة التى يمتلك منها عددا كبيرا .

وتُغَيِّر القبائل أماكنها فى فترات منتظمة إلى حد ما ، ويحدد مناطق تجوالها الأمل فى العثور على المراعى اللازمة لإمداد قطعانها بالغذاء ، ولهذا تذهب الجوابى كل عام من مريوط إلى الصعيد ، وهكذا فإنهم يمرون بوادى بحيرات النطرون ، ويحملون معهم كميات من الملح ، ويحصلون فى مقابل ذلك على ثمن تحدده العادة . وفى نفس الوقت يذهب هؤلاء العربان أنفسهم إلى الواحات ، لشراء البلح الطازج أو المجفف ، ليبيعوه بعد ذلك لصغار التجار فى مصر .

وتقاليد هؤلاء العربان بسيطة ورعوية ، وتنأى بهم عن القيام بالسطو والنهب ، إذ لايمكن أن يوجه مثل هذا الاتهام إلا لعدد جد ضئيل من أمتهم الصغيرة تلك ، ولا يحدث بينهم إلا قدر ضئيل من السرقات التى يلقى مرتكبوها عقابا رادعا من الشيوخ .

وفى أثناء جولاتهم تلك ، والتى تتم ببطء شديد ، يمشى الأقوياء من الرجال صغار السن على أقدامهم ، بينما يركب الشيوخ والأطفال على ظهور الجمال ، وتسهر النسوة على شئون النقل مع أزواجهن ، وهن لا يغطين وجوههن إلا أمام

الأغراب ، وتبتدئ الجمال المسيرة تليها قطعان العائلات المختلفة ، وهذه القطعان منفصلة فيما بينها . ويبلغ تعداد حيوانات القطيع ٢٠٠ ، ٣٠٠ ، ٥٠٠ وأكثر.

وملابس أفراد هذه القبيلة هى نفس ملابس بقية العربان ، فالرجال يرتدون قميصا خشنا ومعطفا من الصوف الأبيض أو الغامق ، ويلفونه فوق رؤوسهم ليتقوا حرارة الشمس ، كما يستخدمونه غطاء فى الليل ، وللشيوخ معطف من الصوف الأبيض ، لكنه أكثر نعومة . ولا ترتدى النساء إلا جلبابا خفيفا وتزين خصلات شعرهن بزينات متعددة.

ويرى قليل من الخيل لدى الجوابى حيث لا يتجاوز عدد فرسانها الأربعين ، بينما يبلغ تعداد فرسان الهنادى أكثر من ثمانمائة.

وأبناء قبيلة الجوابى شديدو التدين ، وهم يتبعون الديانة الإسلامية بشكلها الأنقى . ولا تعرف عائلاتها الكبيرة عادة التدخين ، فهذه العادة لم تدخل القبيلة مطلقا ، وهم يمتنعون عنها إما احتراما لعاداتهم القديمة وإما بدافع دينى غامض، بحيث لم نجد فى هذه الأمة الصغيرة إلا عجوزا واحدا يهوى تدخين التبغ ، وينتسب هذا الشيخ إلى عائلة قديمة، ويقابل فعله هذا الذى يتعارض مع العادات المتبعة بتسامح اعتبارا لسنه . ولا تدفع الجوابى ضرائب مطلقا ، ويكتفون بأن يرسلوا كل عام إلى قائمقام دمنهور هدية تتألف من بعض الجمال .

وتعيش الجوابى فى قناعة شديدة ، وهى عادة شائعة – كما رأينا– عند كل العربان ، ويكتفى المرء هناك بوجبتين : واحدة عند الظهر ، والأخرى عند غروب الشمس ، وتتكون الوجبة من اثنتين أو ثلاث بلحات مع شئ من الخبز مغموس بالزبد الذائب على النار . ويكاد المرء لا يتصور كيف يمكن لأجسام تغذت على هذا النحو ، أن تتحمل تلك المشاق التى لم نسمع عنها ، وتحت سماء ملتهبة لهذا الحد. ولايكاد يبلغ إجمالى كمية الطعام التى يتناولها المرء فى اليوم ٦ أو ٧ أوقيات ، وبرغم ذلك فالعربان بوجه عام حسنو الصحة ، وإذا ما استثنينا أمراض العيون –

وهى الأمراض المتوطنة – فإنهم أقل من غيرهم عرضة للأمراض من كافة شعوب أوربا[1] . وفضلا عن ذلك فهم لا يتناولون المشروبات الروحية ، ويكتفون بشرب ألبان النوق والماء القراح . وتصنع آنية الشرب التى يستخدمونها من الخشب ، أما تلك الآنية الطينية المعروفة باسم القلة فليست شائعة عندهم . وشرب القهوة يعد واحدا من المتع التى نادرا مايسمحون بها لأنفسهم ، وليس بينهم من يعتاد عليها سوى الشيوخ ، ولا يقدم هذا المشروب فى الخيمات الأخرى إلا عند الترحيب بزائر غريب .

والجوابى مضيافون بالغو الكرم ، ويمنحون حمايتهم لكل الناس بلا تميز ، بل إنهم يدخلون فى حماهم حتى المجرمين المطاردين ، ويقيم الغريب فى خيمة مضيفه الذى يبذل كل جهده لكى يكرم وفادته ، وتغطى النساء وجوههن أمامه دلالة على الاحترام. وتتجلى مودة العربان وكرمهم خاصة فى الوجبات التى تقدم للمسافرين الذين يلجأون إليهم طلبا للضيافة ، فهذه باذخة بالنسبة لظروف المضيفين ، وتتكون من : الأرز والخبز والبصل المشوى وخروف مسلوق يقدم فى طبق كبير انتزعت منه فقط بعض أجزاء لتحميرها ، وتقدم هى الأخرى على المائدة، وزيادة فى إكرام الضيوف يحرص المضيف على أن يختار لهم بنفسه أحسن قطع اللحم . وقد يدهش المرء من عواطف وأحاسيس هؤلاء الناس الذين هم بالكاد فى أول أطوار الحضارة ، ومن إخلاصهم وحماستهم حين يتحدثون عن مباهج حياتهم تلك .

ويتكون أثاث الخيمة من سجادة خشنة ، وبعض الأوانى الخشبية أو الفخارية، وأسلحة من أنواع مختلفة ، وأحيانا بعض أدوات مـن الحبال وأثاث من نوع خاص . وليس فى خيمة شيخ القبيلة ما هو أكثر من ذلك ، وربما يكون الشئ

---

(١) انظر: Volney, Etat politique de la Syrie, P. 361 et s.
وكل ما قاله هذا المؤلف عن بدو سوريا ينطبق على بدو مصر.

الوحيد الذى يميزها عن بقية الخيام هو فخامة السجادة المفروشة فيها ، والتى ليس فيها برغم ذلك شئ غير عادى ، وقد يصل ثمنها إلى٣٠ – ٤٠ قرشا أسبانيا.

ويقوم العربان بجولات طويلة للغاية فى الصحراء ، ويتوغلون فيها أحيانا لمدة تبلغ العشرين يوما وأكثر . ويجعلهم تعودهم الطويل يتعرفون على السهول الرملية، فهم يعرفون الأماكن التى توجد بها المياه . وليس ثمة من صحراء مهما كانت قاحلة لا تحتوى على مصادر للمياه ، أو على الأقل لا تحتوى على آبار للمياه الصالحة للشرب ، ولو كانت مالحة بعض الشئ . وفضلا عن ذلك فهم يحملون على جمالهم الماء والمؤن الضرورية ، ويحتفظ المسافر بالماء فى آنية كبيرة من الجلد يغلقها بسدادة خشبية ويعطرها بالمستكة.

أما البدو الذين يعيشون على السلب – والذين سنتحدث عنهم بعد قليل – فإنهم يجمعون كل ماسلبوه ليقتسموه فيما بينهم حسب قواعد متفق عليها ، حتى يتجنبوا الاقتتال فيما بينهم ، ونادرة هى الحالات التى يستوجب فيها أن تعود الخيل أو الأمتعة المسلوبة على واحد دون الآخر ، ونادرا كذلك ما يفوتهم أن يخصصوا جزءا من هذه الأسلاب لشيخ القبيلة حتى ولو كان غائبا.

والنساء عند هذه الشعوب الجوابة لسن عاطلات ، بل يصنعن قماش الخيام ، وينسجن بأنفسهن السجاجيد لتأثيث هذه الخيام ، وهن يستطعن صباغة هذه السجاجيد بألوان زاهية ومتنوعة ، وتكاد هذه الألوان تكون أكثر ثباتا من ألوان أجمل سجاجيد الأناضول . وعندما يذهب بعض العربان إلى المدن ، فإنهم يأخذون على عاتقهم القيام بالأعمال التجارية الخاصة بالقبيلة ، كما يحضرون الأصباغ اللازمة لعمل النساء.

ومن حق العربى أن يتخذ لنفسه عدة زوجات ، ولكنه نادرا مايستعمل هذا الحق ، فلكل عربى زوجة واحدة ، ويشترى الأغنياء منهم إماء زنجيات وعبيدا

سودا فى بعض الأحيان . وتسمح لهم الشريعة بالطلاق شأن بقية المسلمين ، لكن عادة الطلاق ليست منتشرة بينهم بنفس درجة انتشارها عند سكان المدن المصرية، بل إن من يطلق زوجته منهم يجر على نفسه نوعا من الاحتقار ، ويعرض نفسه للرفض العام . وقد شوهدت بنت أحد الشيوخ الكبار وهى ترفض أن تعيش مع أبيها لأنه طلق أمها ، كما لم يستطع ابنه الشاب الذى كان يدير شئون عائلته بذكاء كبير أن يمنع نفسه من أن ينظر لهذا السلوك من جانب أبيه باحتقار شديد.

ويدفع لنساء هذه القبيلة مهر ، كما يسمح لهن بامتلاك القطعان .

والحرية هى كنز العربان الثمين ، فهم ينفرون من أى نوع من الخضوع ، وهم يفضلون أن يقدر عليهم البقاء فى عزلتهم الواسعة تلك فى الصحراء عن أن يتحملوا خضوعا من أى نوع . ولا يريد الجوابى أن يرتبطوا بشكل مطلق بزراعة الأراضى ، إما لأنهم يخشون إبدال طبائعهم ، وإما لأنهم ينفرون غريزيا من الزراعة ، وإما تمسكا منهم بعاداتهم القديمة . وفى بعض الأحيان يبذرون قطعة من الأرض روتها الأمطار ، ومع ذلك فإن توقع حصولهم على محصول وفير فى العام التالى لا يغريهم مطلقا على البقاء ، بل إنهم يكتفون بما حصلوا ويحملون خيامهم إلى مكان آخر.

ونحن نرى من هذه التفاصيل كيف أننا - هنا فى أوربا - سوف نكون مجحفين تجاه العرب، لو أننا نظرنا إليهم كأناس همج ليس لديهم شفقة ولا رحمة، فلقد ترددنا عليهم كثيرا ، وكنا شهودا على مودتهم وفطرتهم البسيطة وفضائلهم الرعوية ، وإذا كان ثمة من بينهم قبائل تستحق لوم الأوربيين فنحن لا نستطيع أن نعمم هذا اللوم دون أن نحكم على أنفسنا بالجور وعدم الإنصاف ، فتقاليد الجوابى وكذا تقاليد عدد كبير من قبائل أخرى لا نستطيع أن نتناولها بالحديث هنا ، ليست بأقل جدارة - بأن تُتَّخذ نموذجا يحتذى - من تقاليد أية أمة متحضرة.

وتوجد على مشارف ولاية البحيرة - بخلاف قبيلتى الهنادى والجوابى- القبائل الآتية:

١- قبيلة الأفراد ، ويمكن القول بأنها ليست سوى فرع من الهنادى ، وتتكون من حوالى ٣٠٠ فارس .

٢- قبيلة الجويلى ، وتضم أكثر من ٤٠٠ فارس .

٣- قبيلة بنى عون ، وتبلغ قوتها ٣٥٠ رجلا يركبون الخيل .

٤- قبيلة أولاد على ، وتبلغ قوتها ٣٠٠ رجل يركبون الخيل .

والقبائل الثلاث الأخيرة متحالفة فيما بينها ، وهى فى حالة حرب مستمرة مع القبائل الأولى . وهذه القبائل المختلفة قد اقتسمت على نحو ما السلطة المطلقة على الولاية ، ونشروا مساعدتهم وحمايتهم على بعض القرى ضد عشائر أخرى من البدو فى مقابل إتاوة سنوية . وعندما ترفض واحدة من هذه القرى أن تدفع المبلغ المتفق عليه أو إذا لم تستطع ذلك ، فإن الحماة المدعين يُغَيِّرون من أدوارهم ، وينتظرون حتى يصل الفلاحون ومعهم ماشيتهم إلى الحقول ، وعندئذ تنشق عنهم الأرض فجأة ، وينتزعون كل ما يستطيعون ، ولا يردون ماسلبوه إلا إذا حصلوا على ضعف الإتاوة التى سبق الاتفاق عليها ، ويتم هذا الصلح بالاتفاق بين الطرفين . لكن الغرم يقع على الدوام على الفلاحين الذين لا يمكنهم أن يعرضوا أنفسهم لمثل هذا الابتزاز البشع دون دوافع قوية . أما إذا ما اتفق الفلاحون فيما بينهم ، فإن القبيلة الحامية تقوم بحصارهم حتى يدفعوا الإتاوة مع المغارم التى يحلو للأقوى أن يفرضها . ولكن إذا ما حدث - صدفة - أن حملت القرية السلاح لتدفع المعتدين بالقوة ، فالويل للفلاح الذى يقتل بدويا أو حتى يحدث فيه جرحا ولو بسيطا ، والويل لأسرته ولذريته ، فالدم لايعوضه إلا الدم ، ولسوف ينتقم الجريح وأهله أو حلفاؤه لعاره الآن أو فى المستقبل.. وعند موت أحد البدو يعهد إلى ابنه أو إلى أقربائه الأقربين بمهمة الثأر ، وهذا فرض مقدس ، ذلك أن قانون الدم

عند البدو هو أهم القوانين التى تطبق عندهم . وقد حدث مرات كثيرة أن طلب ثأر واحد من الأهل أو الأجداد ، بعد أن كانت قد انقضت فترة كبيرة من الزمن منذ موته. وعندما تسنح فرصة الانتقام فإن المتضرر أو من يتصرف باسمه لايفوته أن يمسك بها ، وعندئذ لايُعرف لغضبه حدود ، ومع ذلك فيمكن شراء الدم بجعل مالى، لكن مثل هذا الاتفاق ينبغى أن يُصَدّق عليه كل أفراد العائلة وإلا اعتبر كأن لم يكن. وبخصوص الجرح البسيط يمكن الاكتفاء بمبلغ يتفاوت قدره بحسب الجرح ، ويدفع هذا المبلغ نقدا أو عينا . أما بخصوص الموت فيفضل الانتقام ، ولسوف تجلل أسرة المتوفى نفسها بالعار الشديد إذا هى قبلت فى مقابل دم القاتل فدية مهما كبرت ، تاركة بذلك روح قتيلها هائمة(١).

ونقدم هنا أمثلة على تطبيق قانون الدم ، كيما نبين كيف أن العرب قساة فى هذه النقطة .

ذات يوم تقابل اثنان من الأعراب : أحدهما من الأفراد والآخر من الهنادى بالقرب من بسنتاوای ، وهى قرية تقع على بعد ١٢ فرسخا جنوب شرق الأسكندرية . وكان الأفرادى يقود تسعة أو عشرة ثيران تملكها هذه القرية ، فسأله الهنادى :

– هل صحيح أنكم فى سلم مع الفرنسيين ؟

– صحيح .

– أليس من الأحسن أن تتحالفوا معنا بدلا من أن تتحالفوا معهم ؟

– ماذا تريد؟ هكذا أراد شيخنا مربك.

فقال الهنادى :

---

(١) يدخل Volney فى بعض التفاصيل المتصلة بهذه العادة الهمجية ، لكننا نكتفى بأن نحيل قراءنا إلى مؤلفه: Etat politique de la Syrie .

– وهذه الثيران ، هل تقودها إلى معسكر الفرنسيين ؟

– لا ..

– لكنى أمنعك من ذلك وسآخذها منك .

– لا تقدر على ذلك ..

وهنا هوجم البدوى المتحالف معنا ، وبعد معركة خفيفة ، خدش أثناءها الهنادى خدشا بسيطا فى يده ، فصاح: «يا ربى : أتقاتلنى بدلا من أن تقاتل الفرنسيين ؟ » .

فأجابه الآخر فخورا بما أحرزه من كسب :

– لا عليك إلا أن تنشد السلام، ابتعد.

– السلام ! سأصنعه بإرادتى ، ولكن (وأشار إلى يده) .. الدم !

– حسن ، لا عليك ، اطلب ما تريد.

– أعطنى ثورا من الثيران التى تقودها فينتهى الأمر.

وانتهت المعركة بالفعل بهذه الطريقة . ومع ذلك دفعت القرية الأجر المقدر لحارس ثيرانهم هذا ، بالرغم من أن الثيران قد نقصت واحدا بسبب غلطة منه هو.

ويعرف الفلاحون معرفة تامة ذلك الطبع الحقود الذى للبدوى ، حتى أنهم يتحاشون أن يجرحوه ، أو أن يقتلوه مهما كان حجم الضرر الذى وقع منه عليهم .

ذات يوم لمح أحد البدو – بينما هو يمر على حصانه فى سوق دمنهور – بقرة أعجبته ، فألقى على عنقها حبلا به عقدة متحركة وجذبها إليه وسار بها ، وبعد أن أفاق الفلاحون من دهشتهم جروا خلف السارق ، وأدركوه فى اللحظة التى كان فيها على وشك أن يجتاز ومعه غنيمته ترعة مليئة بالمياه ، فأوقفوه ، وبعد أن استعادوا منه بقرتهم ذبحوا حصانه أمام عينيه ، ثم أرقدوه هو نفسه على بطنه

وضربوه بالعصا ٢٥ ضربة ، وبعد ذلك أنهضوه وأطلقوا سراحه. ووصلت فى هذه اللحظة إلى المكان داورية فرنسية قد أرسلت فى أثر البدوى ، ودهش القائد وسريته الصغيرة من أن الفلاحين قد قتلوا الحصان ولم يقتلوا اللص ، وسألوا عن سبب هذا الأمر العجيب ، وعندئذ أجاب أكبر الفلاحين سنا – عن طريق مترجم – بأنهم قتلوا الحصان عقابا للبدوى ، وبأنهم استبقوا البدوى حتى لا يعرضوا أنفسهم لحق لا يمكنهم الإفلات منه ، وهو حق تعويض الدم .

وإذا كانت الشراسة والعناد اللذان يبدوان فى طباع البدو الحقود ، يكفيان لتقديم فكرة سيئة عن أخلاقيات هؤلاء القوم ، فإن من الصعب أن يكون حكمنا عليهم بأفضل من ذلك إذا ما نظرنا إلى أخلاقياتهم بمعيار الصفات الحميدة والفطرة السليمة . ولقد قدموا لنا أثناء مدة الحملة أكثر من دليل على ما يمكن للمرء أن ينتظره وأن يخشاه منهم ، لكننا نكتفى هنا بأن نروى الحكاية التالية لأنها تقدم لنا أمرا من أكثر أمورهم غرابة .

بعد عدة أيام من عملية ١٤ فلوريال (x) التى هزم فيها ٤٠٠من الفرنسيين وردوا خمسة وعشرين ألفا من البدو والمغاربة والفلاحين المتمردين ، جاءنا الشيخ مربك شيخ الأفراد لزيارتنا ، وسألناه أين كان وقت الأحداث ، فأجاب ببساطة «كنت على بعد ١/٢ فرسخ من ميدان المعركة مع كل أبناء القبيلة على خيولنا ومسلحين » – آه ! ، وماذا كنتم فاعلين بسلاحكم ؟ – «كنا سنبث الاضطراب فى صفوفكم بإعمال السيف فيكم ، وإكمال هزيمتكم لو دارت الدائرة عليكم» . وقد أدهشتنا هذه الإجابة لكنا تمالكنا أنفسنا وسألناه : ولكن ، ألسنا فى سلم معكم ؟

(x) الشهر الثامن من التقويم الرسمى لفرنسا ، ابتداء من ٢٢ سبتمبر ١٧٩٢ ، وقسمت بمقتضاه السنة إلى ١٢ شهرا ، بواقع ٣٠ يوما للشهر. أما الأيام الخمسة الباقية من السنة فقد عرفت بأيام الشعب وجعلت كلها أعيادا ، ويعرف اليوم السادس – فى السنوات الكبيسة– بيوم الثورة ، وقد قسمت الشهور إلى ثلاث عشريات ، وجعل اليوم العاشر من كل منها يوم عطلة. والأشهر الاثنى عشر هى: فنديمير ، برومير ، فريمير ، نيفوز ، بليفوز ، فنتوز ، جرمينال ، فلوريال ، بريريال ، مسيدور ، ترميدور ، فريكتيدور. (المترجم) .

– هذا صحيح ، لكن لا ينبغى أن يدهشكم سلوكنا ، فطريقة البدو دائما هى الانقضاض على الضعيف – ولكن نحن ؟ نحن الذين صادقناكم ! – هذا صحيح ، لكن الصداقة بيننا لاتستمر إلا طالما أنتم أقوياء . ولقد أتيح لمبدأ الشيخ مربك هذا أن يطبق بتمامه بعد عام كامل ، فقد كان البدو قبل معركة هليوبوليس على استعداد للعمل لصالح العثمانيين ، بل إن قبائل عدة كانت قد انحازت بالفعل إلى صفوفهم ، ولكن ما أن تقهقر الجيش العثمانى حتى انقض هؤلاء الحلفاء الخطرون عليه ، ونهبوا مؤنه وأبادوا عددا كبيرا من جنوده ، حتى كادوا أن يأسروا الصدر الأعظم نفسه(١).

وعندما ذبح البدو والفلاحون المتحالفون معهم ، الحامية الفرنسية فى المنصورة وكانت تقدر بـ١٢٠ رجلا ، أتاح الحظ لجنديين من التابعين للواء الثالث أن ينجوا بحياتهما ، واصطحبهما البدو أسيرين ، وكان هذان البائسان بالإضافة إلى ثالث أمكنه الهرب هم كل من بقى من أفراد الحامية على قيد الحياة بعد الكارثة التى حلت . وبرغم كل شئ فنحن مدينون لهما بالمعلومات التى سنقدمها هنا– برغم النقص البادى فيها– حول مختلف عادات هؤلاء البدو.

كان معسكر القبيلة يقع على بعد ثلاثة فراسخ من المنصورة ، وقد أشاع الأسيران فى البداية أكبر قدر من الدهشة بين سيدات وأطفال إحدى القرى ، حيث توقف الذين كانوا يقتادونهما ليحصلوا لهما على بعض الطعام. وعندما وصل الأسيران إلى خيمة العربان ، أبلغا بأن ليس ثمة ماينبغى أن يخشياه على حياتهما. وبرغم ذلك ، فإن قيام هؤلاء الهمج بذبح أسير فرنسى آخر وفى برود تام

---

(١) ونحكى كذلك الحكاية التالية وهى إن كانت لا تضيف شيئا إلى ماذكرنا فإن لها جانبا فكاهيا لحد ما . فى أثناء معركة دارت بين البدو الحامين لدمنهور مع بدو آخرين حماة لقرية سرنباى ، ذهب الأولون للاستيلاء على ماشية القرية الأخيرة ، ورد الآخرون على الشر بالشر فانتهبوا دمنهور ، وبرغم قصر مدة المعركة فإنها قد تركت البلدتين بلا ماشية على الإطلاق.

أمامهما ، لم يوح لهما بكثير من الثقة فى مثل هذه الوعود . ولم يفرض على الأسيرين القيام بأى عمل ، بل لقد قضيت لهما بعض طلباتهما .

وقد لاحظ الأسيران أن طعام القبيلة شديد البساطة ، فكمية من العدس وبعض البقلاوة تقدم فى طبق يشبه المقلاة ، أوبعض الحب المجروش المغلى وعليه شيء من الزبد يكفى وجبة لرجل ، وفضلا عن ذلك فهذه الأصناف تقدم بكمية قليلة للغاية . وقد تبين للأسيرين أن أهم شخص فى القبيلة - برغم مكانته وثروته ، وهو يرتدى قماشا من الحرير ، ويتمدد على حشية ، ويغير باستمرار من ملابسه - لم تكن تقدم له أية طقوس تدل على الاحترام ، كما أنه يأكل مع الجميع دون تمييز ، وكان هذا الرجل يتناول القهوة مع عدد صغير من أبناء القبيلة . كما شاهد الأسيران عددا كبيرا من العربان يدخنون الغليون ، وكانت ملابس هؤلاء لاتختلف فى شئ عن ملابس البدو الآخرين الذين سبق أن تحدثنا عنهم.

وفى أثناء الفترة التى أقامها الأسيران فى معسكر هؤلاء العربان ،لاحظا أن هؤلاء يغيرون من أماكنهم باستمرار ، ولكن دون أن يبتعدوا كثيرا عن المكان الذى تركوه ، وكانوا يهدفون بتنقلهم هذا الحصول على المراعى اللازمة لقطعانهم الكثيرة.

كانت القبيلة فى مجموعها تمتلك حوالى المائة من الخيول ، ومثلها من الجمال، وأعدادا هائلة من الغنم والماعز والماشية كبيرة الحجم ، تلك كانت كل ثروتها . وكانت نفس الخيمة - حسب أقوال الأسيرين - تضم الأسرة بأكملها بلا تمييز بين سن أوجنس ، فكان الأب والأم والأطفال يقضون النهار والليل معا ، دون أن يكون ثمة فاصل بين هذا أو ذاك من أفراد الأسرة . ولم تكن النساء متحجبات ، وكن يلبسن فى آذانهن أقراطا من المعدن وأساور . وكان أزواجهن يعاملونهن برقة ، وعندما كن يلمحن الفرسان عائدين من تجوالهم ، كانت كل واحدة من أولئك اللاتى يشارك أزواجهن فى هذا التجوال تهرع للقائه ، وتبدى له أكبر أمارات الابتهاج

والفرحة إذا كان يحمل معه أسلابا ، أما إذا كان قد عاد خالى الوفاض فإنها تلقاه فى صمت. وكانت الأسلاب توزع بين أولئك الذين شاركوا فى الغارة .

وكانت النساء والرجال – وبخاصة الرجال – يؤدون صلوات عديدة ، ودين القبيلة هو نفس دين محمد ، ولكن مع شئ من الخلط برغم أنه لم يكن بمقدور الأسيرين أن يلاحظا ذلك.

ويبدو أن النساء أكبر عددا من الرجال ، وهن يشتغلن فى عمل قماش الخيام. والأطفال كثيرو العدد ، وترضعهم أمهاتهم حتى سن السنتين أو ثلاث سنوات ، ويظلون عراة تماما حتى سن السادسة أو الثامنة ، وفى هذه السن ترتدى البنت قطعة من القماش – أو قميصا – حول خصرها . والرقص هو اللعبة المفضلة عند هؤلاء الأطفال ، وهو عبارة عن القفز بشكل دائرى مع تحريك الخصرين وكل منتصف الجسم بطريقة خليعة . وهم يرقصون معا بينما يقومون فى نفس الوقت بالغناء .

وهؤلاء العربان ، وبخاصة نساؤهم ، كثيرو الكلام ، وتدور بين النساء مشاحنات عديدة تنتهى على الدوام بالصلح بينهن بعد جلبة وصيحات كثيرة . واحترام المسنين هو أحد الفضائل الأساسية لهذه القبيلة ، ويشعر الأولاد نحو والديهم بتقديس كبير . وأمراض العيون هى على وجه التقريب المرض الوحيد الذى يصيب هؤلاء العربان ، فلم نر من بينهم لامقعدا ولا كسيحا ، والأدوية التى يستخدمونها بالغة البساطة . وهم يجبرون الأطراف المكسورة بربطات منفرة وخشنة. وهم يعمرون حتى يبلغوا سن الشيخوخة الطاعنة ، ونادرا ما يعانون من الأمراض التى تهاجمنا مع تقدم السن .

ولنا أن نشعر بالأسف ، لأن الأسيرين لم يستطيعا ملاحظة الاحتفالات الجنائزية للقبيلة ، وكذا بعض العادات الأخرى المثيرة للفضول . هذا كل ما أمكنهما أن يخبرانا به ، ونضيف إليه هنا بعض الأمور التى تتصل بالعربان بوجه عام ، حتى نفرغ مما ينبغى أن نقوله بشأن هذه الشعوب.

لقد لوحظ أن عربان الصحراء الغربية – وبخاصة فى ضواحى الأسكندرية – كانوا أحسن تسليحا ، وأكثر شراسة من عربان الصحراء الشرقية . ويعود هذا الاختلاف بشكل أكيد إلى السهولة التى يجدها عربان الغرب فى التزود بالأسلحة والذخائر من الأسكندرية ، كما أن فرصتهم فى التزود بالسلاح أكبر ، حيث إن الإتاوة التى يحصلونها من الحجاج الذين ينزلون من البحر إلى الأسكندرية أكبر بكثير من تلك الإتاوة التى يحصلها العربان الآخرون ، ذلك لأنهم هم أول من ينبغى أن يدفع لهم . وفضلا عن ذلك فإن مايؤدى إلى جعلهم أكثر انعزالا عن غيرهم من العربان هو أن ولاية البحيرة لاتجذب انتباه الحكومة بشكل كاف ، إذ إنها أقل خصوبة وبالتالى أقل إنتاجا من باقى الولايات .

وينقسم العربان فيما بينهم – من حيث طريقة السكنى – إلى عربان يقيمون فى خيام وعربان يقيمون فى منازل ، وقد يبدو هذا القول من قبيل تحصيل الحاصل ، لكننا هنا نلفت النظر إلى أنه ثمة من بين البدو – حتى هؤلاء الذين يتميزون بالشراسة وحب الحرب – مزارعون طيبون بؤساء يقيمون فى قرى فقيرة، ويزرعون على التخوم بعض مساحات من الأرض القابلة للزراعة . وتسكن بقية القبيلة فى الخيام ، حيث تناسب هذه الطريقة بشكل أفضل تقاليدهم العسكرية ، وحيث إنها كذلك تسهل غاراتهم ، وتسمح لهم بأن يغيروا مكانهم بحرية حتى يعثروا على المراعى الضرورية لإطعام قطعانهم .

ويشكل العربان المرابطون طبقة أخرى من العربان الطلقاء ، وهم يعيشون على زراعة بعض الأراضى المهجورة ، وعلى تجارة الماشية . وهم فى أوقات الحصاد ، يساعدون الفلاحين فى أعمالهم فى مقابل أجر ، كما أنهم يقومون أيضا بنقل البضائع ، ويؤجرون جمالهم للفلاحين ومتعهدى المواكب ، ويجلبون إلى المدن منتجات كثيرة من داخل البلاد . ويسمى هؤلاء بالعربان المسالمين ، وهم بالتأكيد يستحقون هذه التسمية ، إذ ليس ثمة ماهو أبسط ولا أكثر براءة وفطرة من طريقتهم فى الحياة.

ويقطن مناطق من ولايتى الشرقية وقليوب أعداد كبيرة من قبائل البدو ، وبعض هذه القبائل رُحَّل ، وبعضها يمكن القول بأنه متوطن . ولاتختلف تقاليدهم فى شىء عن تقاليد الآخرين ، لذا فلن ندخل بشأنهم فى تفاصيل تعد من قبيل الحشو . وقد قدمنا فى الفصل الأول أسماء القبائل ومقدار القوة الحربية لكل منها .

٩

الحمامات العامة

يمكن أن نحصى أكثر من مائة حمام بالقاهرة ، يواظب السكان على الذهاب إليها - وبخاصة فى الشتاء - حتى يتسقوا مع أحكام شريعتهم . إذ يسمح الصيف للطبقة الدنيا منهم بالتطهر والاغتسال فى النهر حيث تكون مياهه شبه فاترة ، أما الشتاء ببرده فإنه يحرمهم من هذه الوسيلة الاقتصادية . وهنا يتوجه إلى الحمامات - حوالى مرة كل أسبوع - أولئك القادرون منهم ، ليحصلوا بمصاريف زهيدة على متعة يطمح إليها الفقراء والأغنياء معا .

أما رجال الطبقة الممتازة ، أو بالأحرى أولئك الذين يحوزون ثروة كبيرة - حيث إن السلطة فى مصر أكثر منها فى البلدان الأخرى ترتبط بدرجة الثراء - فإنهم يمتلكون فى بيوتهم حمامات خاصة . وبرغم ذلك فإن هذا لايمنعهم من أن يلتقوا بين الحين والحين فى الحمامات العامة ، ليروحوا عن أنفسهم فيما بينهم . كما يذهب إلى الحمامات العامة كبار رجال السلطة ، ولنفس الغرض ، وفى هذه الحالة ، يخطر مدير الحمام فيكف عن استقبال أى وافد ، ويقوم باستدعاء فرقة موسيقية وإعداد وجبة شهية ، ويظل هؤلاء هناك يروحون عن أنفسهم حتى حلول المساء . ويحصل مدير الحمام دوما على ما يكفيه لحد الرضا من كرم هؤلاء السادة الكبار ، إذ يدفعون له عند خروجهم فى مقابل كل بارة يحصل عليها من أبناء الطبقات الشعبية قطعة من الذهب.

ويذهب إلى هناك أيضا ، المماليك الذين لم يصلوا بعد لمرتبة الحكم ، ويقودهم إلى هناك الخزنة دار ، وتقدم لهم فى بعض الأحيان وجبة حافلة ، ويروحون كذلك عن أنفسهم.

ويوجد بكل حمام مغطس ملئ بمياه شديدة السخونة ، وبعد أن ينتهى المرء من استحمامه يغطس فيه للحظات . وطريقة الاستحمام التى تتبع هناك تختلف عن طريقتنا نحن فى ذلك ، فبعد أن يدخل المرء ، يستقبله الخدم فى الحجرة الأولى حيث يودع ملابسه ، ويعقد حول جسمه فوطة بسيطة ، ثم يقاد إلى ممر يشعر وهو سائر فيه بوهج الحرارة يشتد شيئا فشيئا لتصبح قوية عند اقترابه من الحجرة الثانية ، وهناك يجد نفسه وسط سحابة من بخار ساخن معطر يخترق مسام كل جسمه ، ويرقد على قطعة من قماش صوفى ، فيقترب منه على الفور خادم يلبس فى يده قفازا ، أو يمسك بفوطة من صوف ناعم . وعندما يتأكد أن البخار قد اخترق كل المسام بشكل كاف ، وأحدث بالأطراف نوعا من الليونة ، يبدأ بأن يطقطق كل مفاصل الوافد ، وتكاد هذه العملية لاتسبب سوى ألم خفيف تعوضه تلك الليونة التى تحدثها بعد ذلك فى حركة الجسم ، ويستطيع الأوربيون الذين لم يعتادوا مثل هذه العملية ويخشون نتائجها ، أن يرفضوها بمطلق حريتهم.

وبعد ذلك يدلك الخادم الجسم بالقفاز أو قطعة الصوف التى بيده ، ويكون التدليك قويا لحد يظن معه المرء أن جلده سينفصل عن جسمه . ويتوالى سقوط خيوط سوداء ، إذ يتخلص الجسم من كل الوساخات التى كانت عالقة به ، بل إن المسام نفسها تتخلص من أقل شئ يمكن أن يسدها . وفى أثناء هذه العملية يكون النزيل الصبور غارقا فى عرقه ، ثم يقتاد بعد ذلك إلى حجرة مجاورة ليبقى وحده، ويغتسل بمياه تأتى من عينى مياه : إحداهما ساخنة ومياه الأخرى باردة ، ثم يرتدى قميصا ليعود فى النهاية إلى الحجرة الأولى ، حيث يقدم له الخادم وهو جالس على أريكته النارجيلة وفنجاناً من القهوة . وعندما يحين خروجه تكون ملابسه قد تعطرت بدخان خشب الصبر ، وترش رأسه وكل جسمه برغاوى صابون

معطر ، أما النساء فيستخدمن فى نهاية حمامهن عجينة تنزع كل الشعر الزائد منجسمهن(١).

ويقوم مدير الحمام بتعطير الحجرات وإعداد ماء الورد ، ويحصل عادة مقابل كل هذه الخدمات على مايكفيه إذا كان رواده من الأثرياء . ونادرا مايكون مكان الاستحمام واحدا بالنسبة للجنسين ، إذ ينقسم المبنى إلى قسمين لكل منهما مدخل مستقل . وفى الحالة الأولى يخصص لكل من الجنسين موعد خاص. وتذهب النساء عادة إلى الحمام فى وقت متأخر ، وما أن يدخلن حتى تعلق قطعة قماش مطرزة أو سجادة لتنبه الجمهور إلى حضورهن . ومنذ ذلك الوقت لايمكن لأى رجل أن يدخل ، ويستبدل بكافة الخدم الذكور على الفور وبدون استثناء خادمات ، وإذا دخل رجل برعونة إلى حمام وقت وجود النساء فسوف تحدث ضجة شديدة ، ولايمكن له إلا أن يدفع ثمن رعونته.

ومن جهة أخرى ، فعلى الرغم من أن عادات الشرق وتلك القسوة التى يبديها المشرع ضد النساء ، تنهض على الشك وعدم الثقة فى المرأة ، فإن هذه القسوة تخف حدتها شيئا ما عن طريق الحرية التى منحت للنساء فى التجمع بالحمامات ، فهذا التجمع هو على نحو ما عيد تستخدم فيه النساء كل زينتهن وأناقتهن ، حيث لا أمل لهن فى جذب انتباه الرجال وسماع العبارات التى تطرى جمالهن – ذلك الأمل الجميل لجنسهن كله – مادمن لايظهرن فى محفل عام دون أن يكون رأسهن ووجههن بل وجزء من نصفهن الأعلى مغطى بالطرحة . ومع ذلك فهذه البهجة التى تحملهن على التباهى والتفاخر بفخامة ملابسهن وروعة زينتهن هى واحدة من الانتصارات التى ترضى غرور كبريائهن ، فما أن يدخلن الحمام حتى يسارعن بإسقاط تلك الأقنعة المزعجة ، ليستعرضن تحت نظر رفيقاتهن بريق حليهن ، وغاية كل منهن بل ومطمحها أن تخسف بجانب جمالها جمال الأخريات ، بعدد

---

(١) ينبغى على المرأة المسلمة ألا تستبقى سوى شعر الحاجبين والرموش ، وهى عادة شبه دينية توجب عليهن التخلص من بقية شعر الجسم .

قطع النقود الذهبية المدلاة من خصلات شعرها ، وبروعة الماسات والحلى التى تتزين بها ، وبالفساتين الغالية التى ترتديها. ومع ذلك فهذا الإشباع البسيط للكرامة والكبرياء الأنثوى تحرزه أية واحدة منهن بعدد قطع النقود الذهبية المدلاة من خصلات شعرها ، وبتلك الروعة التى تكفى لكى تقتل من الغيظ اثنتين أو ثلاثا من منافساتها ، فأمام من سوف تتباهى بتفوقها ذلك [١] ؟

ولاتختلف الخدمة التى تحصل عليها المرأة ولاطريقة استحمامها عما قلناه بخصوص الرجال ، فيما عدا أن قطعة الصوف التى يدلك بها الجسم تكون أكثر نعومة لحد طيب ، وأنهن يستهلكن قدرا كبيرا من الصابون . وتسرف سيدات الطبقة الراقية فى استهلاك العطور وماء الورد ، وهو ترف لاتقدر عليه الأخريات حتى فى أيام العرس والأفراح[٢].

(١) لا يسمح للرجال كما سبق القول بدخول الحمامات التى بها نساء ، والرجال الوحيدون الذين يتمتعون بهذه الميزة هم الموسيقيون ، ويختارون من بين العميان المسنين ، ويمكن القول إنهم يعطون المرأة تلك الفرصة الفريدة للاستماع إلى أصوات الذكور.

(٢) يمكن أن يكلف إيجار الحمام بدون أثاثات من أى نوع متعهده فى اليوم الواحد من ٦٠ إلى ١٨٠ بارة حسب موقع وجمال وفخامة المبنى ، ويلزم ١٠٠ بوطاقة لأكثر الحمامات تواضعا . ولتأثيث حمام بشكل لائق ، أى ليكون فى مستوى معظم حمامات المدينة ، فإن ٢٠٠ – ٣٠٠ بوطاقة تعتبر مبلغا كافيا . وتبلغ مصاريف الحمام المعد جيدا من ٨٠٠ – ١٠٠٠ بوطاقة ، وتتكلف صيانة الأثاث فى اليوم الواحد ١٠ – ٤٠ مدينى ، ويتكلف إطعام الحيوانات المستخدمة ٢٠ مدينى (ويدخل ثمن شراء هذه الحيوانات ضمن المبلغ المقدر للتأثيث) ، وتجفيف الحمام ودفع أجور العاملين به يلزم مبلغ ١٢٠ – ١٨٠ مدينى يوميا ، يحصل منها الحارس وحده على ٣٠ بارة. ولا يحصل خدم الحجرة الأولى على دخل ثابت ، فهم لا يتلقون أجرا إلا ما يحصلونه من هبات الرواد ، أما القائمون بالخدمة فى الداخل فيحصلون على ثلثى أو نصف أو ثلث ما يدفعه الرواد ، ويبلغ عدد خدم الحمام الواحد ١٢–١٣ خادما.

وفى منشأة من هذا النوع يبلغ عدد الوافدين ٥٠ –٦٠ شخصا فى اليوم الواحد ، وأحيانا يزيد العدد عن ذلك ويدفع عن الحمام الكامل كحد أقصى ٢٠ – ٣٠ بارة ، ويحصل العامة على حمامهم بسعر أقل ، فلا يدفعون أكثر من ٨– ١٠ أو ١٥ بارة على الأكثر. ومما يعوض المتعهد عن ذلك زيارات الكبار ، فهم يدفعون بسخاء كما سبق القول . ويمكن أن نعمم ما قلناه على كل الحمامات فى مصر ، إذ هى لا تختلف إلا من حيث درجة فخامة المبنى ، لكن طقوس الحمام وتكاليفه تكاد تكون هى هى .

١٠

المقاهى

تضم مدينة القاهرة حوالى ١٢٠٠ مقهى بخلاف مقاهى مصر القديمة وبولاق، حيث تضم مصر القديمة ٥٠ مقهى ، أما بولاق فيبلغ تعداد مقاهيها المائة. وليست لهذه المبانى أية علاقة بالمبانى التى تحمل نفس الاسم فى فرنسا إلا من حيث استهلاك البن ، على الرغم من أن هذا المشروب يُعَد ويُشْرب بطريقة مختلفة . فليس فى هذه المبانى أثاثات على الإطلاق ، وليس ثمة مرايا أو ديكورات داخلية أو خارجية ، فقط ثمة منصات (دكة) خشبية تشكل نوعا من المقاعد الدائرية بطول جدران المبنى ، وكذلك بعض الحصر من سعف النخيل ، أو أبسطة خشنة الذوق فى المقاهى الأكثر فخامة ، بالإضافة إلى بنك خشبى عادى بالغ البساطة ، تلك فقط هى أثاثات المقهى المصرية . وهناك يضطجع المترددون على الحصر التى تغطى تلك المنصات الخشبية ، وتقدم القهوة مغلية فى فناجين يبلغ حجمها ثلث حجم مانستخدمه نحن من فناجين ، ولا تشرب القهوة إلا ملتهبة ، لكنهم يرشفونها، وتلك عادة شائعة فى الشرق تتطلب نوعا من التعود . وتوضع الفناجين فى صحون صغيرة من النحاس ، تشبه الآنية المصنوعة من الخزف والتى نعرفها باسم : ظرف البيض ، ويسميها العرب باسم: ظرف . أما الفناجين فهى أحيانا من البورسلين وتستورد من ألمانيا ، أو هى فى الغالب من الخزف وتزينها عدة نقوش ، وهى تستورد كذلك من ألمانيا . ويكاد يكون استخدام السكر فى صنع القهوة غير معروف ، وعندما وصل الفرنسيون إلى مصر ظل الأهلون لفترة طويلة يسخرون من تعودهم على وضع السكر فى البن. وفى نفس الوقت ، يحتفظ مدير كل مقهى بعدد كبير من النارجيلات ، مبسمها من العظم أو من الرخام أو الألبستر (الرخام الشفاف) بدلامن الكهرمان الأصفر ، ويعدها للزبائن الذين يطلبونها ، وينبغى على كل مرتاد أن يحمل معه تبغه ، بل إن المعتادين على التدخين نادرا مايسيرون دون غلايينهم.

وتخضع مقاهى القاهرة للإشراف المباشر لرئيس يشترى لنفسه حق التزامها ، وتدفع له كل المقاهى رسما صغيرا من بداية السنة التركية «الهجرية» (أول المحرم) ، ويبلغ هذا الرسم ١٠ -٤٠ مدينى ، وتعفى من دفعه المقاهى الفقيرة . ويستطيع كل من يريد أن يبنى مقهى أن يفعل ذلك بمطلق حريته ، لكنه لا يستطيع مباشرة العمل فيها قبل الحصول على تفويض من المشرف على الحرفة ، إذ هو على نحو ما مكلف عادة بالإدارة الداخلية والإشراف على هذه المنشآت ، كما أنه ملزم بتقديم مرتكبى المخالفات من أبناء هذه الحرفة إلى العدالة . وتوكل مهمة الإشراف هذه عادة إلى أغا الانكشارية (الكخيا المتولى) الذى يدفع حق هذا الالتزام إلى السلطة.

ويتردد على المقهى الفخم مابين مائتين إلى مائتين وخمسين فردا فى اليوم الواحد ، ويتناول الفرد عادة فنجانين إلى ثلاثة فناجين من القهوة فى مقابل بارة ونصف للفنجان ، وثمة أناس - فقراء مع ذلك - يبلغ استهلاكهم فى اليوم الواحد عشرين فنجانا ، لكن الاستهلاك المعتاد يبلغ من ٦ - ٧ فناجين ، ويكسب مدير المقهى كثيرا إذا كان زبائنه من الأثرياء.

وثمة كثير من المقاهى يباع فيها الأفيون ، وهو نوع من المعجون المخلوط بالأعشاب ، وتتخذ الطبقة الدنيا من الشعب من هذه العقاقير وسيلة للسكر والانتشاء ، ويعتاد عليه ثلثا عدد الحرفيين ، وكذا الأمر بالنسبة للفئات الأخرى من السكان . وهم يسكرون داخل بيوتهم بالرغم من أن الدين يحرم ذلك . ويعتقل البوليس و يعاقب السكارى الذين يكون هذيانهم بالغ الصخب، وفيما عدا ذلك لايضايقهم أحد ، ويكونون بمثابة تسلية بهيجة للناس بسبب هذيانهم وحركاتهم المجنونة[1].

---

(١) لا يشبه السكر الناتج عن الأفيون ذلك السكر الذى تحدثه الخمور ، فعندما تتخدر حواس رجل ما بفعل الأفيـون فإنه يبدو فى حالة شديدة من البهجة ، ويضحك بصوت عال ، ويكون هذيانه عادة =

ويوجد فى كل مقهى عدد من الرواة والمنشدين ، يحكون أويغنون حكاية صحيحة أو وهمية عن شخصية خارقة ورد اسمها فى النصوص الدينية أو التاريخ الإسلامى ، ويكون الإلقاء عادة حيا مليئا بالقوة والحيوية ، كما أن الأغنيات تمتلىء بعبق الشعر ووهجه ، وتكون نغمة الحكى مرتفعة أما نغمة الحوار فمتوسطة ، ويتوقف الراوى فى معظم الأحيان ليسأل مستمعيه ما إن كانوا يشكون فى صحة حكاية ، أو ما إن كانت حكايته (فى مجملها) جميلة أو خيرة . ويزيد منشدو المقاهى هؤلاء حكاياتهم حيوية عن طريق حركات بالغة التعبير ، ويصحبونها أو يسبقونها بموسيقى غريبة تصدر عن آلة موسيقية وترية . وهى مصنوعة من الجلد ، ويحك العازف بقوسه الشعرات المشدودة بالآلة والتى تستخدم كأوتار ، فتصدر نغمات خشنة صماء . ويدفع مدير المقهى فى بعض الأحيان لهؤلاء المنشدين ، لكنهم فى العادة لايحصلون من أجر إلا ما يدفعه الجمهور عن طيب خاطر . وتاريخ الأسكندرية وجنكيز خان هو الموضوع الذى يستوحى منه هؤلاء المنشدون العرب مادة أغنياتهم ، ويضيفون إلى ذلك ألوف الحكايات الرائعة ، بالإضافة إلى قصص المعارك البطولية التى يغترفونها من أحداث بلادهم.

ويستدعى المماليك من الطبقة الحاكمة والمشهود لهم بالشجاعة هؤلاء المنشدين إلى منازلهم ، ويكافئونهم بسخاء.

وفى المقاهى الفخمة تسمع أحيانا ألحاناً من تلك الألحان الشائعة فى مصر ، يؤديها بعض الفنانين الذين يحصلون على أجورهم من أصحاب المقاهى ومَنْ

=

مرحا . وفى بعض الأحيان يغرق فى أحلامه السعيدة ، وفى أحيان أخرى يُشْرك معه الناس فى أحلامه وسعادته ، وقد يتخيل نفسه سلطانا أو شيخ بلد ، كما قد يظن نفسه أحيانا ممتطيا صهوة حصان ، ويطلب من الآخرين أن يعاونوه على وضع قدمه على الأرض.

وإذا ما عارضه أحد فإنه لا يغضب مطلقا ، وإنما يصبح جبانا يفزعه أقل صوت . ونراه ينتقل من أشد حالات الابتهاج والمرح إلى أشد حالات اليأس والحزن، فيبكى ويعول ويسقط فى غيبوبة.

يتطوع من الزبائن . وفى هذه الحالة يستمع الرواد فى صمت ، بحيث لاتسمع صيحة ولاضجة ، ويبدو الفنان وهو يؤدى أغنية غارقا فى حلم عميق ، وهذا واحد من الملامح المميزة للطبع الشرقى. وفى بعض الأحيان يتنافس شخصان أو عدد أكبر على دور شطرنج ، ويخيل إليك وأنت تشاهدهم مندمجين فى اللعب أنهم بُكْمٌ قد حرموا من نعمة الكلام ، ويتطلع المتفرجون دون أن ينبسوا بكلمة أويهمسوا بفكرة ، ويمضى الأمر فى شكل تمثيل صامت (بانتوميم) إلا إذا جاء إلى المقهى مخمور أو فاقد وعيه ليعكر صفو هذا الهدوء ، وليدخل على اللاعبين ومشاهديهم البهجة بأفانين هَذَيانِه[1].

١١

الرياضة والألعاب

تتفق ألعاب الشرقيين مع حدة طباعهم ، ونستطيع أن نتعرف فيها على ذوق شعب مولع بالتفكير ، يعجبه أن يتأمل حتى وهو يمارس ضروب اللهو التى يهواها: فالطاولة والضامة والشطرنج هى الألعاب التى يفضلها المصريون ، وهى كذلك الألعاب التى ينغمس فيها أبناء الطبقات الراقية على وجه الخصوص ، والتى يفضلها الشعب بصفة عامة على بقية اللعبات . وتتمتع الشطرنج بشكل خاص

---

(١) قدمنا فى فقرة سابقة فكرة تقريبية عن المصاريف اللازمة لإدارة وتأثيث حمام عام ، ونفعل الآن نفس الشئ بالنسبة للمقهى ، علما بأننا قلنا كلمة موجزة عنها فى الفصل الأول . يبلغ ثمن أثاثات أجمل مقهى بالقاهرة عندما لا يكون قد سبق استعماله ٤٠ بوطاقة ، بينما لا يتجاوز ثمن أثاث المقهى المتواضعة ١٠ – ١٢ . وهو عبارة عن : ٧ – ٨ حصر ، ١٥ كنكة قهوة ، ١٥ فنجانا من الخزف ، عدد من الفناجين الصغيرة والظروف النحاسية التى يوضع فوقها الفنجان ، تلك هى كل الآنية التى ينبغى شراؤها ، ويلزم زيادة على ذلك ٢٥ – ٣٠ بارة يوميا ثمنا للخشب ، ورطلين من البن يبلغ ثمن الرطل ٤٠ بارة ، ونفقة خادمين ومدير المقهى . وهذا كله شئ بالغ الضآلة ، لذا فإن حالة القهوجى بائسة جدا فى مصر . وقد رأينا مقهى بكامل أثاثها تؤجر فى اليوم الواحد بمبلغ ٧ – ١٥ بارة ، ويتعهد المستأجر بصيانة الأثاث .

بتفضيل الجميع ، والناس هناك شديدو الولع بهذه اللعبة ، وليس من النادر أن ترى لاعبين متنافسين يقضيان فى الدور الواحد أياما بأكملها . ورقعة الشطرنج شأنها شأن الدمى شديدة البساطة ، ولايعود ذلك إلى أن المسلمين ينفرون من الصور والرسوم فحسب ، بل لأن صناعهم فى نفس الوقت ليسوا شديدى المهارة ، كما أنهم لايحصلون فى مقابلها على أجر يتناسب مع ما يبذلونه فى صنعها من جهد إذا ماعنوا بتجويد عملهم[1]. ورقع الشطرنج والضامة المصنوعة من الخشب الثمين لايستخدمها إلا الأثرياء وكبار القوم ، أما أبناء الطبقة الشعبية فيستخدمون قطعة قماش خيطت فوقها مربعات من قماش الجوخ من ألوان مختلفة ، وتستخدم قطعة القماش هذه كرقعة للعب ثم كعلبة توضع فيها الدمى بعد انتهاء اللعب.

وثمة ألعاب مهارة أخرى تتطلب شيئا من التأمل ، وتنتشر هناك لعبة المنقلة ، ويلعبها اثنان ، مع كل منهما لوحان حفرت فيهما ستة ثقوب ، ويضع اللاعبان فى كل ثقب من هذه الثقوب ست قطع من الحجارة أو مثلها من الزلط . ثم هناك تلك اللعبة التى يطلق عليها العرب اسم طاب ، والتى تحدث عنها كثيرا العلامة Th.Hyde ؛ وهى بدورها منتشرة بين الشرقيين . وتلعب بواسطة دمى مختلفة الألوان ، عددها فى سوريا ٢١ وفى مصر ١٩ أو ١٧ ، لكن عددها على الدوام فردى ، وتوضع فى الصف الخارجى عند بدء الدور، وقد شاهدنا هذه اللعبة عند بعض المارونيين فى القاهرة . كان ثمة رقعة بها أربعة صفوف ، فى كل صف ٢١ مربعا ، ويمسك كل لاعب بأربع من العصى الصغيرة والمسطحة : سوداء من جانب وبيضاء من الجانب الآخر. وعندما تتم اللعبة فى الهواء الطلق تلقى هذه العصى على سكين مغروسة فى الأرض ، وعلى مسلة مرشوقة فى كنبة عندما يلعبها

---

(١) ومع ذلك فقد رأينا فى مصر رقع شطرنج بالغة الفخامة ، ومصنوعة بشكل جيد لحد لا يمكن أن تصنع مثيلاتها فى أوربا بسهولة . وهى مصنوعة من العاج وخشب الأكاسيا ، وكل ما فيها منفذ بشكل بديع ، ورسوماتها بالغة الجمال حتى ليندهش المرء كيف لا يلقى مثل هذا الفن ما يستحقه من رعاية ، ولا يملك مثل هذه الرقع الجميلة إلا الأثرياء وكبار القوم.

تاجران داخل متجرهما . وعند بدء اللعب يختار أحدهما اللعب عن اليمين ، ويختار الآخر اللعب عن اليسار ، بهدف أن تتقابل الدمى . وعندما يحصل الأول على طاب أوثلاثة أبيض وواحد أسود[١] يحرك قطعة من قطعه الموجودة بالمربع الأول من صفه إلى المربع الأول من الصف الثانى من جهته ، فإذا لم يحصل على طاب يحل الدور على الثانى ، وهكذا حتى يحصل أحدهما على طاب . ولايمكن تحريك أية قطعة من الصف الخارجى لأول مرة إلا بعد حصول صاحبها على طاب . وهذا بيان بالنوبات الأخرى :دق اثنين :أى اثنان أبيض واثنان أسود ، وفى هذه المرة تحرك القطعة التى سبق تحريكها فى الطاب الأول لمربعين ، دق ثلاثة أى ثلاثة أسود وواحد أبيض ، وفى هذه المرة يمكن تحريك الدمية لثلاث مربعات ، أربعة أسود وبعدها تتحرك الدمية أربعة مربعات ، ستة أو أربعة أبيض وتكسب ستة مربعات، واللاعب الذى يحصل على طاب أربعة أو ستة يستمر فى اللعب ويحرك دماه ، واللاعب الذى يدفع دماه كلها فى الصف الثانى يتدرج بها فى الصف الثالث ، وهكذا بالتبادل بين هذا وذاك حتى يتخلص أحدهما من دماه.

ويلعب الأتراك والعرب أيضا لعبة بالزوج والفرد. وقد شاهدنا فى القاهرة بعض المسيحيين من أهل البلاد يثبتون على الأرض قطعة من الفضة ، ويحاولون لمسها بكرة صغيرة ، وثمة قاعدة تنظم الحالات التى تتقابل فيها كرات اللاعبين ، لكنا للأسف قد أهملنا تدوين القواعد التى تنظم هذه الألعاب ، ولعل الكثير من قرائنا سوف يغفرون لنا عن طيب خاطر هذا التقصير من جانبنا.

وركوب الخيل هو الرياضة المفضلة عند العثمانيين وكبار الأتراك. وهم فى هذه اللعبة ينمون بالدرجة الأولى مهارتهم الحربية ، إذ يتجمع كبار الشخصيات فى القاهرة مرتين فى الأسبوع فى ميدان واسع يسمى المصطبة ، ويصحبون معهم أعدادا كبيرة مَن العبيد والخدم ، وكلهم يركبون الخيل مثل سادتهم ، ويتدربون

---

(١) يقول Th.Hyde: ثلاثة أسود وواحد أبيض ، إذن فأحدنا قد فهم الأمر على نحو خاطئ ، أو لعل قواعد اللعبة هى التى تتغير تبعا للبلاد التى تنتشر فيها.

على الجريد . وينقسمون إلى فريقين ، يحمل كل منهما على الآخر بأقصى سرعة، وكل واحد مسلح بعصا من الجريد طولها أربعة أقدام ومتوسطة السمك ، ويقذف بها منافسه أفقيا وبقوة شديدة . وثمة فرسان يبدون في تدريبهم هذا من القوة والحيوية حدا يمكن معه لقذيفتهم تلك أن تكسر – فيما لو أصابت – عظام غريمه ، والمهارة هنا هى أن يتفادى الغريم عصا غريمه أو أن يتلقاها باليد ، وقد عرفت واحدا من الكبار انكسرت ساقه فى شبابه بهذه الطريقة. أما أولئك الذين يفضلون التدريب على إطلاق النار فيضعون أصيصا (بردك) فوق كومة من الرمال ، ويصوبون عليها بالبنادق وهم يجرون فوق خيولهم بأقصى سرعة. وهم يستخدمون فى هذا التدريب السهام بالرغم من أنه لا تنقصهم البنادق ، ولا يلجأ الرماة لتلك الوسيلة إلا لإجادة التصويب ، ذلك أن الهواء الذى يجذبهم بشدة عندما يجرون بأقصى سرعتهم سوف يمنع وصول الشرارة إلى الرصاصة فلا تنطلق ، بينما لا يوجد مثل هذا العيب عند التدريب بالسهام. ويتسلى السادة أيضا بجذب الأقواس، وتشاهد فى الميادين عمد صغيرة ، نصبت تكريما لأولئك الذين أظهروا فى التدريب قدرة خارقة للعادة . وعندما يبلغ ارتفاع النيل حدا معينا يتنزه الكبار في قواربهم الفخمة ، ويمارسون التجديف فى بركة الفيل والأزبكية، وهناك يطلقون بنادق الرش ، ويصحبون معهم موسيقيين ليسروا عنهم أثناء نزهاتهم النيلية.

ويتدرب عامة الناس أيضا ، وهم فى هذا يقلدون الكبار ، فيفعلون على نطاق ضيق ما يفعله هؤلاء على نطاق واسع ، فقد شاهدنا على سبيل المثال خدم الشخصيات الكبيرة فى القاهرة يتدربون على قذف عصا طولها ٥ –٦ أقدام فى اتجاه أفقى ، وهم بهذا يهيئون أنفسهم لتدريب الجريد الذى سبق أن تحدثنا عنه ، وكانوا يمارسون تدريبهم وهم يجرون على أقدامهم حتى يكونوا أكثر مهارة عندما يحين وقت الرمى من فوق ظهر الحصان. ويتبارز أهالى المدن وكذا الفلاحون بعصا كبيرة مع مراعاة قواعد معينة ، وقد جرت العادة أن يقوم المتبارز فى بداية اللعب بحركات معينة ، هى بالتأكيد نوع من التحية ، يحاول بعدها كل من

المتبارزين أن يضرب غريمه فى رأسه ، وهو العضو الوحيد فى الجسم الذى ينبغى استهدافه. وتتجلى المهارة فى تفادى الضربة ، وهذه المبارزة تشبه فن لاعبى العصا المشهورين فى نورماندیا وبريتانى. وثمة مصارعون مصريون يمسكون بعصا فى يدهم اليمنى وحشية صغيرة فى يدهم اليسرى ، ويوجهون الضربات إلى الذراعين فقط ، ويسمى هذا التدريب «لعب الكب» . وقد شاهدنا كذلك فى شوارع القاهرة مصارعين لا يرتدون من الملابس سوى سروال بالغ الضيق وكل جسمهم مدهون بالزيت ، ويتماسك هؤلاء المتصارعون ، ويحاولون أن يطرحوا بعضهم البعض أرضا ، لكن حركاتهم تنقصها القوة والحيوية والمهارة. وبعد دقائق طويلة يحدثون فيها بضع حركات - نسميها تجاوزا مجهودات - يدع أحد المتصارعين نفسه ليسقط ، وتنتهى بذلك المصارعة. وأمثال هؤلاء المصارعين لا يمكن لهم أن يتجاسروا على عرض مهارتهم تلك فى فارس ، حيث يبرع المصارعون هناك فى مثل هذه التدريبات الجسدية ، لكنهم يلفتون النظر فى مصر، وبرغم كل شئ ، فليس ثمة فى بقية ولايات السلطان من هم أكثر من هؤلاء مهارة.

١٢

الأعياد الدينية ، المبادئ الرئيسية للعقيدة الإسلامية

ترتبط أعياد المسلمين بمناسبات دينية . وفى مصر ، يحرص الناس على الاحتفال بعيد لا يتصل بالمعتقدات الدينية ، هو عيد فتح الخليج فى القاهرة ، أو عيد وفاء النيل ، وهو عيد وطنى ، يعود إلى أزمنة ضاربة فى القدم . أما بقية الأعياد فتتوالى بالترتيب التالى:

شهر محرم : عودة المحمل من مكة .

شرحه (كذا) : عيد مولد النبى .

الشهور التى تلى ذلك : احتفالات متوالية بمولد الأولياء .

آخر أيـــــام شعبان : ليلة أول رمضان ، ويعلن فى هذا العيد بدء الصيام

لمدة شهر قمرى له نفس الاسم (رمضان).

آخر أيام رمضان : عيد كبير يستمر ثلاثة أيام.

٢٧ شوال : سفر المحمل.

١٠ ذو الحجة : العيد الكبير ، ويتفق مع وصول الحجاج إلى مكة .

ويتصدر احتفال عيد الخليج الباشا ، وكبار شخصيات الحكومة ، مثل :شيخ البلد والقاضى والدفتردار أو مستشار الحكومة وكخيا الجاويشية ، وفرقة الانكشارية والكشاف وكل كبار الشخصيات . وعند الصباح يصل الباشا مع أهل بيته أى مع ضباطه ورجاله ، ويصل البكوات مع مماليكهم ، ويصحبهم جمهور كبير من الموسيقيين ويحتلون جزءا من الميدان ، وتغطى القوارب سطح الترعة . وتمتاز قوارب السيدات بفخامتها وبهوادجها التى تغلق عليهن بدافع الغيرة ، ويخلع الباشا جبة على كل من الأغا وبقية كبار الضباط ، ثم يعطى الإشارة ، وعندئذ يقوم عمال معدون لهذا الغرض برمى تمثال أو عمود طينى فى النيل وسط ضجيج الهتافات والآلات الموسيقية ، ثم يقطع السد ، وتتدفق مياه النيل على الفور فى شوارع المدينة لتصبح أشبه بالبحيرات ، وقبل أن ينسحب الباشا يلقى فى النهر بقبضة من العملات الذهبية والفضية ، يتسابق إلى الفوز بها غواصون مهرة ، وينقضى ما يتبقى من النهار فى أفراح ومسرات تستمر حتى الليلة التالية. ولهذا الاستبشار والابتهاج العام ما يبرره ، حيث إن الفيضان هو ضمان الازدهار للجميع ، فعندما يحل الفيضان يبدأ الناس يأملون فى محصول وفير ، بل يمكن القول بأنهم قد بدأوا يحلمون بما يعدهم به من منافع [1] .

وفى أيام العيد يقوم الممثلون المهرجون الذين يعرفون باسم البهلوانات بإمتاع

(١) تسمى الدمية التى تلقى فى النيل عروسة أى الزوجة الجديدة. ويعتقد أن هذه العادة تعود إلى ديانة قدماء المصريين الذين كانوا يخصصون فيما يقال عذراء شابة ليلقوا بها فى النهر ، حسبما يقول كثير من مؤرخى مصر القديمة .

الجماهير بحركاتهم ودعاباتهم . ويمكن القول بأن ضروب اللهو لهذا الشعب تتجلى في العروض الهزلية بل والمرتجلة إلى حد ما ، والتى يعرضها فى الشوارع مهرجون متجولون ، كما أنها تتجلى في القفزات التى يعرضها بعض الحواة المهرة إلى حد ما فى فنهم. وقد شاهدنا فى شوارع القاهرة عدة مرات رجالا يلعبون العرائس ، ويلقى هذا العرض الصغير إقبالا كبيرا ، والمسرح الذى يستخدم لذلك الغرض بالغ البساطة وبالغ الصغر ، ويستطيع شخص واحد بمفرده أن يحمله بسهولة . ويقف الممثل فى المربع الخشبى الذى يمده بطريقة تمكنه من رؤية خشبة العرض والمتفرجون من خلال فتحات صنعت لهذا الغرض دون أن يراه أحد ، ويمرر دماه عن طريق فتحات أخرى ، ليجعلها تؤدى الحركات التى يريدها عن طريق خيوط يحركها على هواه ، وحيث إنه ليس من المناسب أن تصدر هذه الدمى أصواتا تماثل قوة صوته هو ، فإنه يجعل صوته الطبيعى حادا ، ويتم ذلك بواسطة أداة صغيرة يضعها فى فمه ، ويجعله بالغ الرقة ومصحوبا بأنغام الناى وقت الحوار الذى يديره على ألسنة هذه الدمى الصغيرة ، ويمضى الأمر على مايرام إذا لم تكن التمثيلية معيبة . وتبدأ الدمى عادة بتهنئة بعضها البعض ثم يتشاجرن بعد ذلك ، وتنتهى تلك التمثيلية الهزلية عادة بالشجار ، وفى الواقع فإن عددا كبيرا من المشاهدين يهوى هذا النوع من ضروب الترفيه ، ويضطر البهلوان لأن يجاريهم فى ذلك.

وقد رأينا واحدا من الحواة يجوب شوارع القاهرة ومعه صنبور متقطع ، أى تسيل المياه منه ثم تنقطع فجأة لتسيل لبعض لحظات . ويطلب الحاوى من صنبوره – حسب حالته الميكانيكية التى يعرفها جيدا – أن يتدفق بالمياه أو أن يتوقف ، لكن الناس تنطلى عليهم الخدعة ، ويصفقون لتلك المهارة المزعومة ويكافئونه بإعطائه قطع النقود . ويلقى آخر بحفنة من التراب فى إناء ملئ بالماء ، ثم يسترد التراب جافا من الإناء .

ويمسك ثالث بكأس له قاعان يغلقهما غطاءان ، وبعد أن يتحدث إلى جمهوره

طويلا وبعد كثير من المداعبات والتهريج ، ينفخ فى قوقعة كبيرة ، ثم يرفع غطاء أحد القاعين ليظهر بيضة ، ثم يواصل مداعباته وهزلياته ، ثم يكشف عن القاع الآخر الكأس ليظهر كتكوتان يظنهما الجمهور بديلا عن البيضة التى رأوها فى البداية . ويلقى مشعوذ رابع بقفل مغلق فى وجه طفل فينفتح القفل ، ويمسك بخد الطفل من الداخل والخارج . وهؤلاء المشعوذون يرفهون عن الشعب ، ويدفع لهم جمهورهم مبالغ شديدة التواضع ، وهم لا يطلبون من جمهورهم الدفع مقدما ، وعندما تنتهى اللعبة يدفع من يشاء على قدر ما يشاء.

وفى شهر رمضان ، وهو نفس الوقت الذى يحتفل فيه الاتراك (المسلمون) بالصوم ، يسرى أهالى القاهرة كثيرا عن أنفسهم وبخاصة فى الليل. وينام الأغنياء نهارا حيث لا يسمح الدين بالأكل طالما لا تزال الشمس فى الأفق ، ويتناولون طعامهم عند قدوم الليل . ومع ذلك فإنه يرى بالميادين أثناء النهار - وبخاصة فى ميدان الرميلة ، عند سفح القلعة - جمهور من الحواة يشبهون أولئك الذين تحدثنا عنهم .

ويشاهد فى مصر كذلك أشخاص ، ليست لهم من مهنة أو وسيلة لكسب العيش إلا عرض القرود والحيوانات التى تمتاز بالذكاء ، ودفعها لتقديم ألعاب لتسلية العامة. وثمة آخرون أكثر حيلة ، يعرضون الثعابين ويجعلونها ترقص على نغمات تعزف على آلة ما [1] ، وقد يبدو هذا الأمر بالغ الغرابة لمن لا يعرف حب الزواحف بشكل عام للموسيقى ، فهى ترفع رأسها والجزء الأمامى من جسمها عند سماع صوت المزمار ، وهذه الحركات هى التى تشكل رقصة الثعابين . ومن السهل كذلك دفع القرود للرقص ، فهى من نوع فى اليمن ، ويجلبها العربان من هناك حيث هى أكثر وداعة من بقية أصناف القرود ، ويقومون بتربيتها .

---

(١) كتبنا فى مكان آخر من هذا المؤلف فقرة عن سحرة الأفاعى المحدثين ، وهم امتداد للسحرة القدماء ، وانظر كذلك نبذة عن مدينة رشيد ، تأليف جولوا ، ص ٣٥٤ . (المجلد الثالث من الطبعة العربية - المترجم).

ولابد فى النهاية من كلمة عن الممثلين وعن بعض العروض التمثيلية فى مصر ، ونحن لا يخالجنا الشك فى وجود ممثلين حقيقيين فى مصر ، مع وجود تمثيليات تتبع كافة قواعد التمثيليات . وقد شاهدنا فرقة من الممثلين الهزليين فى القاهرة تتألف من مسلمين ويهود ومسيحيين ، ويدل مظهرهم على أنهم لا يصادفون حظهم فى هذه البلاد . وهم يستخدمون فناء بيتهم كمسرح ، وثمة ساتر يحجب خلفه ملابسهم . ويذهب لمشاهدة هذه الفرقة كثير من الأوربيين الذين أقاموا فى مصر منذ عدة سنوات دون أن يشاهدوا أية عروض مسرحية ، كما تستدعى هذه الفرقة إلى بيوت التجار الإيطاليين ، وتقدم عرضها فى حجرة أعدت لهذا الغرض . ومع ذلك فلم نجد فى هذا العرض ما يرضينا : لا الموسيقى ، ولا أداء الممثلين ، بالإضافة إلى أننا لا نعرف من العربية ما يكفى لكى نفهمهم جيدا ، كما أننا وجدنا أن ليس ثمة ما يدعو لعناء أن يترجم لنا معنى التمثيلية ، فقد كان كل شئ رديئا وعاريا من الذوق ، كما كان الأداء متكلفا . وكان الأمر يدور حول امرأة عربية ، تستدرج المسافرين إلى خيمتها لتسرقهم وتسئ معاملتهم ثم تطلق سراحهم ، وعندما كانت المرأة قد تمكنت من سرقة كثيرين وتهيأت لتفعل الشئ نفسه مع آخرين ... عبر أحد التجار – من النظارة ، بصوت عال – عن القرف الذى يسببه له العرض ، وحتى لا يبدو الآخرون أقل رهافة حس منه فقد سارعوا بإيقاف العرض ، بينما لم يكن الممثلون قد وصلوا بعد إلى نصف التمثيلية .

كان ينبغى أن نتكلم هنا كذلك عن العوالم اللائى سبق لنا أن تحدثنا عنهن ، ولكن حيث إن هؤلاء النسوة كثيرات فى القاهرة ، وحيث إنهن يشكلن على نحو ما طائفة حرفية ، فسوف نتحدث عنهن فى الفصل المخصص للحرف .

الفصل الرابع

الإنسان المصرى فى طور الشيخوخة - الموت والجنازات

١

عن احترام الشيخوخة

قد لا يكون من المناسب أن نبحث عن ممارسة الفضائل الطبيعية عند الشعوب المتحضرة ، حيث تتوافق الأنانية والمصالح - وهما أبناء الحضارة الشرعيين - مع أضواء المعرفة ، إذا صح القول . ذلك أن أفق المعارف عند الشعوب كلما اتسع كلما ابتعدت هذه الشعوب عن حياة الطبيعة ، ولا ينبغى أن نمضى بهذه الفكرة لحد أبعد من ذلك . ومع أننا لا ننتوى هنا أن نعقد مقارنة متعسفة ، فإنه ينبغى علينا القول بأن الشرقيين وإن كانوا قد أهملوا تعلم العلوم والآداب ، فقد استطاعوا على الأقل أن يحتفظوا ببعض آثار من العادات والفضائل البدائية . وإلا ، فهل ثمة عند أمم الشرق ما يستوجب المديح أكثر من ذلك الاحترام العميق الذى يكنونه نحو الشيخوخة ؟ . ويتميز المصرى على وجه الخصوص بهذا الشعور النبيل ، ولقد حض عليه محمد فى تعاليمه لحد وجد من الضرورى أن يجعل من ذلك مبدأ دينيا ومدنيا فى وقت معا ، وحتى اليوم ، فإن شيئا لم يستطع أن ينال من قوة هذا المطلب الذى حتمه المشرع ، كما أن الوضع الحالى للتقاليد سوف يهيئ لهذا الأمر فرصة لبقاء أطول . وفى مقابل ذلك ، فإن المفكر يستطيع أن ينعى على الشعوب الأوربية - التى تطورت صناعاتها ومعارفها لحد مذهل - هذه اللامبالاة الشديدة نحو الشيخوخة ، ففى الوقت الذى تعمل فى مجتمعاتهم قوانين تنطق بالحكمة ، وتشهد بالعبقرية والإحساس العظيم لواضعيها ، وكذا بتلك الدرجة الكبيرة من التحضر التى وصل إليها أولئك الذين شرعت من أجلهم هذه القوانين - فإن المرء ليدهش حقا عندما لا يجد فى مجموعة القوانين هذه فصلا مخصصا للواجبات التى ينبغى مراعاتها نحو كبار السن . ونستعير هنا ، حول هذا الموضوع ، بعض الأفكار التى وردت على لسان مؤلف كتاب "رسائل عن مصر" : Lettres sur 1'Egypte ، الذى انتقدنا بمرارة وأحيانا

بتحامل صارخ ، وترسم أقواله بدقة ذلك الفرق الكائن بين أفكار وعادات شعوب الشرق ، وبين مثيلاتها عند شعوب الغرب بخصوص الشيخوخة :

«إن الشيخوخة عند كل الشعوب المتحضرة ، حيث يعيش الإنسان وسط عائلته فترة أقل ، لا تلقى من الاحترام نفس ما تلقاه فى مصر ، بل إنها تكاد تكون فى معظم الأحيان نقيصة ، حيث ينبغى على الملتحى ذى الشعيرات البيضاء أن يصمت أمام غرور الشباب ومباهاته ، وأن يلعب دور طفل حتى يمكن تحمله فى داخل نطاق العائلة . فما أن يحس الإنسان عندنا بأن سنوات العمر قد بدأت تثقل كاهله ، وبأن مباهج حياته تتضاءل ، حتى يرى نفسه وقد أصبح عبئا ثقيلا على أولئك الذين يدينون بوجودهم له ، وعندما يصبح فى حاجة إلى المواساة والسلوى يرى نفسه وقد أنكر عليه حق الرعاية ، وأغلقت دونه القلوب ، عندئذ تزحف إلى جسمه برودة قاتلة ، وترتجف من برودة الوحدة روحه ، دون أن يجد من حب زوجه وحنانها ما يبعث بالدفء إليه ، فى مثل هذه الأمم يموت العجوز – وهو الذى كان من قبل والدا عطوفا – قبل وقت طويل من نزوله إلى ظلمات القبر » .

«فلنخلع إذن النقاب عن وضع ليس عاما لحسن الحظ ، فتلك المشاهد المؤثرة التى كنت أراها كل يوم فى هذا البلد (مصر) قد اضطرتنى أن أقدم لكم هذا النقيض المقابل ، فهنا (فى مصر) ، يبتسم العجوز الذى تلامس لحيته صدره وهو يلقى الاحترام ، يبتسم – برغم وطأة وضعف هذه الشيخوخة – لأحفاده وهم يأتون لمداعبته ، وينشرح صدره وهو يرى أربعة أجيال تهرع نحوه لتقدم إليه ما تفرضه عليها الشفقة الحنون ، فيتذوق بذلك بهجة الحياة حتى آخر لحظة من لحظات عمره[1] .

وفى واقع الأمر فإن الأوربيين لا يمكنهم أن يرضوا عن أنفسهم بثقة وإعجاب عندما يرون هذا الاحترام الذى يبلغ مرتبة التقديس ، والذى توليه الأمم الإسلامية

---

(١) Savary, Lettres sur l'Egypte .

لكبـار السن ، فـهـؤلاء الناس الذين نطلق عليـهم ذلك النعت المقـزز المرعب : المتوحشون والبرابرة ، يقدمون لنا فى هذا الخصوص مثالا يجدر بالاحتذاء ، على أجمل الفضائل ، فى حين أنها قل أن تنال اهتمامنا مع أنها تستحق كل إجلال . أما هنا فى مصر فكم يعرف الشيوخ ما سوف يلقون من محبة الشباب وعواطفهم ! لذا فإنهم هناك لا يلجأون لتلك الحيل التى لا جدوى منها ، لتفادى ما تعده لهم الأيام - حيث هم شيوخ - من إهانات ، بل على العكس من ذلك ، فهم يتباهون بخطوط السن التى تغضن وجوههم ، ولحيتهم البيضاء سببٌ للاحترام المهيب ، وملابسهم تتسق مع كرامة ووقار عمرهم ، وكل شئ فيهم يفصح عن المهابة والأهمية . فإذا تكلموا أنصت الجميع لما يقولون فى احترام شديد ، وليست أقوالهم بالأقوال الباطلة التافهة ، ولا هم يستشعرون مطلقا تلك المرارة التى تقطر بها عادة سنوات العجز والشيخوخة . إنهم يتركون الحياة بلا ألم ، بل إنهم لا يكادون يشعرون بذلك على الإطلاق . فبقدر ما يزيد قربهم من تلك النهاية المحتومة بقدر ما تتضاعف عناية ذويهم بهم ، فلا يعانون من الألم الذى تسببه رؤية أبناء عاقين يتشوفون لساعتهم الأخيرة حتى يقتسموا «أسلاب» تركاتهم ، فمثل هذا النهم البشع لا تعرفه مطلقا أمم الشرق . ومهما كان هؤلاء الأولاد فاسدين فإنهم على الدوام يجدون الدموع التى يذرفونها بغزارة على مقبرة أبيهم ، بل إنهم ليقبلون عن طيب خاطر القيام بأية تضحيات مهما عظمت ، لو كان فى ذلك ما يمد أياما ثمينة فى عمر آبائهم . ولهذا السبب ، فجريمة قتل الوالدين ، تلك الجريمة البشعة التى يثير مجرد اسمها الهلع فى القلوب ، والتى لم يقرر بشأنها المشرعون القدامى أى جزاء ، كما لو كان من المستحيل عليهم أن يتخيلوا أن تقدم كائنات وهبها الله نعمة العقل على ارتكابها مطلقا [١] ، مثل هذه الجريمة البشعة ، لم تعرفها مصر ، بل كل الولايات التركية ، على الإطلاق .

(١) نذكر فى هذا الصدد أن سولون قد أهمل سن قانون بخصوص قتل الوالدين ، إذ كان ينظر لهذه الجريمة باعتبارها أمرا مستحيلا . انظر : Plutarque.

والشيخ العجوز هو الحكم الطبيعى الذى يفصل فى المنازعات الصغيرة التى تنشأ بين أفراد أسرته ، وما يقضى به حكم تلتزم به كافة الأطراف بلا تردد ، كما لو أنها حكمة مقدسة تلك التى جاءت على لسانه .

ويترجم العرب كلمة Vieillard (مسن – عجوز) بكلمة : شيخ ، وهو لقب شرف يوحى بمعنى التشريف والسيادة (١) ، فالمشايخ هم الذين يحكمون القبائل، ويمارسون على النفوس سطوة تماثل سلطة الحكام ، والكلمة الأولى فى كل العائلات المصرية للأكبر سنا ، وهو الذى يتقدم الاحتفالات العامة ، وله مركز الصدارة فى المجالس ، ويقف الناس جميعا عند قدومه ، وتوجه إليه على الدوام علامات الاحترام والتقدير ، وأمامه يتحفظ الشباب وينضبط وهو الجموح بطبعه ، وينصت بشغف إلى ما يقصونه من حكايات ، ويجد فى أحاديثهم ما يرضيه ، بل إننا نكاد نصل لحد الاعتقاد بأن هذا التواصل الحر غير المتظاهر بالخبرة ، يساهم أكثر من أى شئ آخر فى إضفاء الوقار على طباع الرجل الشرقى منذ نعومة أظفاره ، وهو الوقار الذى لا يتكون عند أبناء الشعوب الأخرى إلا فى سن متأخرة ، وبفعل تقدم العمر .

وفضلا عن ذلك فإن الشرق – الذى نتفق على أنه مهد الحضارات – كان مسرحا للتقاليد الأبوية القديمة ، ففى هذه المنطقة من العالم تستمر التقاليد وقتا أطول من غيرها ، حتى أننا ما زلنا نجدهم يعيشون بكل بساطتهم التى كانت لهم وهم يعيشون تحت الخيام ، وثمة تقاليد عديدة تعود إلى عصور قديمة للغاية ، لكنها ما تزال مستمرة داخل العائلات ، وعندما استولى العرب على آسيا نشروا فيها مع معتقداتهم الدينية تلك العادات الاجتماعية التى لآبائهم . وحيث إن احترام الشيخوخة بالغ القدم بالفعل فى مصر كما تشهد بذلك نصوص عديدة من الكتابات المقدسة ، فإن هذا التقليد قد ازداد صرامة بفعل سطوة التقاليد العربية،

(١) بل إن كلمة Seigneur «سيد – شريف» تشتق من الكلمة اللاتينية Senior، وهى تساوى كلمة شيخ . وفى كل العصور نجد أن فكرة الشيخوخة تحمل معها فكرة الاحترام والسيطرة .

حيث الصولجان معقود للسلطة الأبوية التى يبدو أن طبيعة الحياة نفسها تهيئه لها ، وهو نفس ما كان يحدث فى مصر القديمة عندما كانت ما تزال مزدهرة (١) . أما السبب الذى ظلت بفضله هذه الفضيلة الحميدة بعيدة عن أى تغيير ، فهو أن الشعوب التى تمارسها لا تعانى من ذلك الفساد الروحى والأخلاقى الذى تعانى منه عادة المجتمعات الكبيرة ، وتجد سعادتها فى المباهج الطبيعية ، ونادرا ما تبحث عن هذه المباهج بعيدا عن وقائع حياتها الداخلية . ولأن أبناء هذه الشعوب كذلك سعداء فى جهالتهم حيث هم محرومون من المميزات التى تهيئها المدنية عادة ، فإنهم كذلك بعيدون عن المساوئ التى تجرها المدنية معها . وإذا كانت أوربا هى وطن الفنون ومسرح ملذات الشباب ومغامراته ، فإن الشرق – ومصر بوجه خاص – هو على نحو ما ، جنة للشيوخ .

٢

الجنازات

يكنُّ المصريون المحدثون – شأنهم فى ذلك شأن أسلافهم القدامى – احتراما خاصا للموت ، وتصحب الجنازات باحتفال كبير ، وإن كان الأمر يتم بشكل مغاير لما كان يحدث فى الماضى ، إذ لم تعد تحفظ أجسام الموتى ، لكنها – على الأقل– تودع فى احترام كبير فى القبر ، مثواها الأخير. ويبدى أهل المتوفى وأصدقاؤه أمارات على حزنهم ، ويجهز الموتى بشئ من الأبهة ، كما أن احترام المقابر واحد من المبادئ الإسلامية التى لا يمكن خرقها (٢) .

---

(١) لم يكن يتفق مع المصريين من الإغريق بخصوص احترام الصغار لكبار السن إلا أهالى لاسيديمونيا ، فإذا ما قابل شاب عجوزا فإنه يدع العجوز يسبقه ، وإذا ما قدم إلى مكان به بعض الشبان فإنهم ينهضون . انظر هيرودت جـ ٢ ، الفقرة ٨ ، ترجمة Larcnet طبعة ١٧٨٦

(٢) يقسم المصريون عادة بقبر آبائهم ، ومن الشائع هناك أن تسمعهم يقولون : بتربة الوالد ، بتربة أمى .

وليس ثمة ما يستطيع أن يصور ألم أسرة حرمها الموت من عضو عزيز منها . ففى الأيام الأولى بعد الموت ، يكون يأس مرعب ، ثم يأخذ شيئا فشيئا ملمحا أقل جزعا . وتستسلم السيدات تلقائيا لأحزانهن الشديدة ، فيملأن الجو بالعويل ، ويتركن البيت الذى اختطف منه الموت واحدا من الأهل أو الابن أو الزوج ، ليعلن للجيران وللمارة - عن طريق صرخاتهن المدوية ، المثيرة للحزن الشديد - بأنهن قد أصبن بخسارة لا تعوض . ويهرع الناس نحو المرأة المكلومة ، ويحاولون تهدئة اضطرابها ، بينما هى فى أحزانها وجزعها تنزع شعرها وتضرب بقوة صدرها ، فيصحبونها إلى المنزل الذى حل به الموت ويدخلون معها . وتتجمع كثيرات حول الميت : تحرك بعضهن ساقيه أو ذراعيه ، وتضع أخريات أيديهن فوق قلبه ليتأكدن أنه ليست هناك علامة أو نبضة تدل على الحياة ، وبعد ذلك يذهبن لإبلاغ شيخ الجامع الذى يعد على الفور بعض النائحات المأجورات (الندابات) . وهؤلاء النسوة مدربات على الإجهاش بالبكاء والعويل ، وعلى إلقاء المراثى المؤثرة ، وعلى إطلاق صيحات لها إيقاع حزين ، ويستدعين فى رثائهن أهل المتوفى وأصدقاءه ، وينشدن أناشيد تقال فى هذه المناسبات بنغمة بكائية ، وقد يكون ما يقال كلمات عادية شائعة ، مما يؤدى لحدوث مفارقة بين ما يقال وبين النغمة التى يلفظ بها . وإذا كان المتوفى ثريا ، تقيم الندابات وسط عائلته فترة طويلة ، أما إذا كان غير ذلك فإنهن يرحلن بعد عدة أيام ، بل وفى بعض الأحيان ينصرفن مباشرة بعد إتمام الدفن .

والرجال عادة أكثر ثباتا فى هذه الظروف المؤسية ، فألمهم صامت ، يمارسون خلاله تعذيبا للنفس تكاد تظنهم يستعذبونه ، ومهما كانت المرارة التى تفعم قلوبهم ، فهم يجاهدون أن يكتموه ، ويساهم جمود ملامحهم بالإضافة إلى إيمانهم العميق بالقضاء والقدر ، فى جعل هذه المرارة رازحة ، ومع ذلك فهم يهجرون لعدة أيام مجتمع أصدقائهم ، فليست أحزانهم برغم وقارها أقل حدة . وهناك عادة أن يقوم الناس من أعضاء الأسرة المكلومة - فى بعض الأحيان -

بصبغ أيديهم بالنيلة ، كما يمتنعون عن الاغتسال المعتاد طالما ظلت الصباغة فى أيديهم ، كما لا تكف النساء عن البكاء إلا إذا اختفت هذه الصبغة تماما .

ويتم الدفن بعد فترة قصيرة من إسلام المتوفى للروح ، إذ ينقل إلى المقابر فى ظرف ٥-٦ساعات من موته ، إلا إذا كان ثمة دوافع تبعث على الشك فى أننا بصدد حالة استغراق فى النوم نتيجة لفقدان شديد للوعى . فهذه العادة – عادة الدفن السريع – التى تنقصها الحيطة تتسبب فى بعض الحالات فى حدوث جرائم غير مقصودة ، فمن الممكن لنا أن نفترض فى بلد كهذا لايزال فيه الدواء شبه مجهول ، أنهم قد يعتبرون موتا حقيقيا ما هو ليس بأكثر من غيبوبة حدثت بسبب هبوط فى بعض وظائف الجسم ، ولهذا فمن الممكن أن تقع بعض المساوئ نتيجة لهذه العجلة الشديدة فى إجراءات الدفن . فما أن يموت أحدهم حتى يرسل فى إحضار الرجال أو النساء ، حسب الجنس ، الذين يحترفون غسل الموتى ، ويقوم هؤلاء بإخطار بيت المال ، ويطلبون الإذن بالانتقال إلى البيت الذى به الجثة، ويسجونها على طاولة وينظفونها بعناية فائقة ، ويغطون فى حضرة أقرب الأهل الأعضاء الجنسية للمتوفى ، ويلفونه بعد ذلك بقماش أبيض غير مخيط . وإذا كان الميت واحدا من العامة فإنه يكفن بأحسن ملابسه حالا ، لكن المسلمين المتنورين يدينون هذه العادة باعتبارها عادة سخيفة ومضحكة . وتوضع الجثة فى تابوت عمومى لا غطاء له ، ويغطى بقماش مطرز ، وتكون رأس الجثة دائما إلى الأمام ، كما يحرصون على وضع عمامة فوقها إذا كان الميت رجلا ، أو زهورا إذا كانت الجثة لامرأة .

وبعد هذه التجهيزات تبدأ الجنازة مسيرتها نحو المسجد ، ويفضل فى ذلك الجامع الأزهر باعتباره أقدس مساجد القاهرة ، ويتقدم الجنازة عدد من العميان بيدهم عصى ، ويسيرون فى ثلاثة صفوف من ستة أشخاص وهم متشابكو الأيدى، وينشدون بنغمة وقورة ومهيبة صيغة العقيدة الإسلامية : "لا اله إلا الله ، محمد رسول الله" ، ويكررون ذلك حتى القبر . ويلى هؤلاء مباشرة خدم المتوفى ،

وهم يرتدون ملابس قاتمة ، وبعد هؤلاء تأتى الندابات مرتديات ثيابا زرقاء طويلة وحجابا أبيض ، ليسبقن مباشرة الجثة المحمولة على أكتاف رجال أربعة ، والموضوعة داخل التابوت ، وخلف النعش تسير العائلة يصحبها عادة شيخ الجامع ، وفى النهاية ، يختتم الجنازة أناس من العامة ، وتسير الجنازة فى سرعة وتناسق .

ويوضع الجثمان للحظة فى المسجد ، ويؤدى الابن الصلاة على أبيه أو يؤديها خلف واحد من رجال الشرع ، وعند الخروج من المسجد ينسحب جزء من الموكب ، ويصحب المشايخ الجثمان حتى مكان المقبرة ، ويتبع هؤلاء عادة بعض أطفال المدارس ، ويحصل رجال المسجد على أجرهم عند المقبرة نفسها ، وتلك عادة عامة .

وبعد الوصول إلى المقبرة ، يؤخذ الجثمان من النعش ، وينزل رجل فى الحفرة ليأخذ الجثمان ويودعه القبر بحيث تكون رأسه متجهة إلى الشرق ، وبعد ذلك يلقى أقرب أهل الميت بيده قليلا من التراب على الجثمان ، ويغطيها الحفارون على الفور . وبعد ذلك يجلس الأغراب الذين صاحبوا الجنازة ويأكلون حول الحفرة ، ويعود الأهل مع الندابات ليقمن عندهم لأيام عدة مما يسبب مضايقات للجيران(١) .

---

(١) فى مصر عادات كثيرة تشترك فيهامع كل ولايات الدولة العثمانية ، لكن ثمة عادات خاصة بمصر وحدها ، قد يكون من الطريف أن نعرض لها . ومن هذه العادات الخاصة بمصر بكاء الندابات أثناء الجنازة ، ولا يحدث هذا عادة فى القسطنطينية ولا فى سوريا، بل يمكن القول بأنهن غير معروفات فى القسطنطينية أصلا . وفى مصر تظل زوجات المتوفى يطلقن الصرخات تسعة أيام متوالية ، ويستقبلن صديقاتهن اللاتى يأتين للبكاء معهن أو يتظاهرن بالبكاء . ومع ذلك فالمسلمون من الطبقات العليا وكذا العلماء ينظرون إلى هذا العويل باعتباره مخالفا لدين محمد ، ذلك أن الميت لم يفارق هذا العالم – فى رأيهم – إلا للذهاب إلى مكان أسعد (الجنة) ، لكن الدموع ينظر إليها بتسامح لأنها تصدر عن عاطفة محمودة . وعندما يموت رجال ميسورون يتمتعون باحترام كبير ، لا تحدث أية دلالة على القنوط أو اليأس ، بل يحدث العكس أحيانا فتنطلق زغاريد الفرح .

ولا تدفن النعوش مطلقا ، فالجثمان - كما سبق القول - يودع فى الحفرة التى أعدها الحفارون - الذين أرسلهم الشيخ لهذا الغرض - فى مقابر الأسرة التى بنيت من قبل . وهى فى المقام الأول عبارة عن قبر من الحجارة تصف تحتها الأجساد بجوار بعضها البعض، وطالما لم يبل لحم الجثة فلا ينبغى إزعاج الميت ، ولكن عندما يبلى ما يغطى العظام فإن العظام تجمع فى لحد واحد ، وينظر إلى الاحتفاظ بأى جزء من الجثة باعتباره جريمة ، إذ ينبغى أن تدفن الجثة بأكملها . وعندما يموت أحد بعد قدوم الليل يتحتم انتظار شروق الشمس ليتم نقله إلى المقبرة ، ويعتبر المسلمون أن من مبادئ دينهم ألا يدفن الميت إلا والشمس فى الأفق ، بل ويعلقون على مراعاة أو خرق هذه العادة أهمية كبيرة ، حيث لها صلة بالسعادة أو الشقاء فى دار الخلود . ويقوم الأغنياء بدفع نفقات مقابر الفقراء ، ومقابر هؤلاء فى الواقع بسيطة ، لكن أهليهم وزوجاتهم يزينونها بزرع الورود بدافع من العاطفة .

وتوجد مقابر المسيحيين فى القاهرة بمصر القديمة ، ولا يسمح لهم بالدفن فى مكان آخر . وللأرمن مدفن خاص بهم ، وهذه الطائفة من المسيحيين ليست كبيرة العدد ، إذ لا يكاد يبلغ تعدادها ٤٠٠ - ٥٠٠ شخص مستقرين بالمدينة .

ويتمسك بعض المسيحيين فى مصر القديمة بعادة قديمة ، هى أن تكون لهم مقابر صغيرة فى بيوتهم يحتفظون فيها ببقايا جثث ذويهم . وربما لا تكون هذه العادة سوى أثر من ديانة قدماء المصريين ، لكنها محرمة بشدة فى القاهرة ، إما بدافع صحى وإما بسبب عدم التسامح من جانب المسلمين . ويلاحظ هذا الميل نحو المقابر المنزلية بين كبار الأقباط بوجه خاص ، لذا فقد شيدوا بيوتا لهم فى حى منعزل فى مصر القديمة ؛ ليقيموا هناك مدافن لذويهم . ويتوجهون إلى هناك من القاهرة حيث يقيمون على فترات من العام ، كما يحتفلون هناك بالأعياد الكبرى لطائفتهم مع الأهل والأصدقاء ، ولا يوجد فى أى مكان آخر أثر لهذه العادة القديمة .

وفى نفس الوقت ، فإن الندابات وكذا الإشارات الخارجية الدالة على الحزن عند موت واحد من الأهل ، جزء أساسى بالدرجة الأولى من الطقوس الجنائزية القبطية ، بل إنهم يذهبون فى إشارات الحزن تلك لأبعد مما يذهب المسلمون ، فهم يملأون الضواحى المجاورة بصيحاتهم التى تعقبها على الفور صيحات الندابات ، ويستمر هذا العويل أحيانا عدة أسابيع . بل يمكننا الافتراض بأن الأقباط هم الذين نقلوا هذه العادات إلى المسلمين ، حيث من الثابت أن المسلمين فى الأجزاء الأخرى من آسيا لا يراعون هذه العادات على الإطلاق ، وثمة نص لهيرودت ننقله هنا ، يؤكد بالمثل أن البكاء - مصطنعا كان أو صحيحا - الذى يستسلم له الناس عند نعى قريب ، له أصل فى مصر بالغ القدم . يقول المؤرخ الإغريقى : «عندما يموت رجل هام يغطى كل نساء منزله رءوسهن بل ووجوههن بالطين ، ويتركن الميت فى المنزل ، ويحزمن وسط جسمهن ، ويكشفن عن صدورهن، ويعبرن المدينة وهن يدققن على صدورهن ، وتصحبهن فى ذلك قريباتهن (١) » . ألسنا نجد فى هذه العادات التى تمارسها هاتان الأمتان (المسلمون والمسيحيون) تماثلا كبيرا مع تلك التى نقلها هيرودت الموجز على الدوام والذى يبدو لنا عند قراءة نصه أنه قد تحدث بتفصيل أكبر مما يفعل عادة ؟ إن هؤلاء الأهل المكلومين فى الماضى قد تركوا مكانهم بلا جدال لندابات اليوم . ويقدم لنا بقية وصفه نفس التطابق مع اختلافات طفيفة للغاية (٢) .

---

(١) هيرودت : جـ ٢ ، الفقرة ٨٥ ، ترجمة Larchet طبعة ١٧٨٦ .

(٢) يقدم لنا ديودور الصقلى نفس التفاصيل فيقول : «ما أن يموت أحد الناس حتى يسارع أهله وأصدقاؤه فيغطون رأسهم بالطين ، ويسيرون فى الشوارع يبكون حتى يتم دفن الجثمان» . ولكن ثمة شيئا عند ديودور أكثر تحديدا عندما يتحدث عن حداد المصريين عند موت أحد الملوك : «عند موت الملك تدخل مصر كلها فى حداد ، فيمزق الناس ملابسهم وتغلق المعابد أبوابها وتعلق الأضحيات وتوقف الأعياد والاحتفالات لمدة ٧٢ يوما . ويقوم عدد من الرجال والنساء يبلغ ٢٠٠ - ٣٠٠ شخص ، رؤوسهم مغطاة بالطين وصدورهم محزمة برباط ، بالانتحاب والرثاء على صوت الموسيقى مرتين فى اليوم » . انظر ديودور ، الكتاب الأول ، الفصل الثانى .

وعندما يشعر رجل ما بدنو أجله فإنه ينظم شئونه ، وإذا ما كان حذرا فإنه يجمع عددا صغيرا من أصدقائه ليشركهم فى رغباته الأخيرة . وتحتم الشريعة قبل توزيع التركة أن تجنب أولا المبالغ اللازمة لتسديد الديون ، وكذا الهبات الخيرية التى يكون المتوفى قد التزم بها . وللأبناء الشرعيين حق الإرث ، أما غير الشرعيين فلا يحق لهم الإرث دون نص صريح من الموصى . وهذه الترتيبات خاصة بالذكور وحدهم ، أما البنات والزوجات فليس لهن حق الإرث فى الملكيات العقارية . وسوف نتحدث بتفصيل أكبر عن هذه القوانين الجائرة فى الفصل القادم من مؤلفنا (الفصل الخامس) والخاص بالأنظمة والمؤسسات .

ويمكن للأرملة أن تتزوج مرة أخرى بعد مضى أربعة أشهر وعشرة أيام على وفاة زوجها إذا لم تكن حاملا ، وفى الحالة الأخيرة يمكنها أن تتزوج بعد الوضع . وللأبناء أيضا حق الزواج بعد موت والدهم ، لكن اللياقة تحتم انقضاء فترة بين حدث محزن لهذا الحد وبين فعل يتطلب على الدوام مظاهر الخفة والفرح ، وفى ذلك تناقض واضح ، ولذا فإن من يستبيح لنفسه أن يعقب جنازة أى من والديه بحفل زفافه يغطى نفسه بوصمة لا تغتفر لدى الرأى العام .

٣

المقابر

يبدى المصريون المحدثون اليوم عناية بمقابرهم – تماثل عناية أسلافهم فى الماضى – جعلتهم يقيمون منشآت أقل ضخامة حقيقة مما أسسه القدماء ، لكنها على روعة غير عادية إذا ما وضعنا فى الاعتبار حالة المصريين فى الوقت الحاضر . لقد حدثت ثورة تامة فى التقاليد والديانات والعادات الاجتماعية ، ومع ذلك فقد ظلت ضفاف النيل كما كانت فى الماضى ، هى المكان الذى تحترم فيه أكثر من غيره أجداث الموتى ، فليست هناك كما يحدث فى البلدان الأخرى تلك الأحواش الفقيرة والمتهدمة التى تضم مقابر أولئك الذين انطفأت شمعة حياتهم ،

ولا يحدث فيها – كما يحدث فى أماكن أخرى – أن يطأ المرء بقدميه وهو يسير فى أرض قاحلة أو يجوس خلال الأعشاب البرية عظاما بشرية مبعثرة كيفما اتفق . نعم ليس ثمة مثل هذه الأعمال المجوجة والناتجة عن الإهمال واللامبالاة ، والتى تكشف عن مدى ما تلقاه أرواح الموتى من إهانة وازدراء على يد الأحياء . فكل شئ هنا – فى هذا الصدد – يختلف ، فثمة أشجار باسقة تظلل المقابر ، أو ثمة على الأقل ورود زرعتها بين القبور عاطفة محبة ، تحول مثل هذا المكان المقبض إلى نوع من الحدائق العامة ، وثمة مقاعد وفراغات بين المقابر ترسم نوعا من الشوارع الصغيرة ، نرى على امتدادها آثار عمل الإنسان .

يالروعة بناء المقابر ! ويالروعة النقوش التى تغطيها .. إن المرء ليؤخذ بهذه الروعة الورعة لحد أن يتذكر ما كان يحدث فى الأزمنة الخوالى : «تتجلى عناية القدماء بمقابرهم فى تلك الأموال الطائلة التى ينفقونها عليها ، وفى إقامة الأهرامات والنحت فى الجبال واستخدام نقوش ورسوم بالغة البذخ .. وباختصار فى تلك الروعة المدهشة » . وما يزال نفس هذا الميل موجودا حتى اليوم ، وينفق المصريون فى هذا المجال من المال أكثر مما ينفقون على ملابسهم ومساكنهم . هنا يتجلى معنى ما قاله ديودور الصقلى عن أسلافهم من أنهم يعتبرون بيوتهم مجرد نزل عابرة لا ينبغى التوقف عندها طويلا ، لذا فعنايتهم بها قليلة ، هذا فى الوقت الذى يعتبرون فيه المقابر بمثابة دار للخلود ، فيشيدونها بكل الفن والمهارة ، وهو أمر كانوا ضليعين فيه . لقد تغيرت ديانتهم بشكل كامل ، ومع ذلك فقد ظلت العادة كما كانت فى الماضى : فبجوار كل مدينة كبيرة توجد مدينة صغيرة للموتى ، حيث يكون لكل أسرة ميسورة لحد ما مدفن خاص بها ، وحيث تزين كل المقابر بالنقوش والرسوم الجميلة (١) .

ويختار المصريون المحدثون لمقابرهم – شأنهم فى ذلك شأن المصريين القدماء – المناطق المرتفعة فوق مستوى النهر ، حتى لا تصل مياه النهر إليها

(١) انظر وصف مدينة طيبة فى دراسة المسيو جومار عن المدافن الأرضية .

فتهدمها ، ومن جهة أخرى فإن الأراضى القابلة للزراعة فى الوادى غالية الثمن ، وضرورية للأحياء لدرجة لا يمكن معها أن يجعلوا منها مأواهم الأبدى ، وعلى هذا فينبغى أن يكون المكان الذى يستخدم كمقبرة قاحلا أجرد لا يبنى أو يزرع فيه . والأرض التى خصصت للناس لتكون مقرهم الأخير ينبغى أن توقف عليهم ، وألا تقلق هناك أجسادهم بأن يسمح للفلاح أن يغرس فيها سلاح محراثه . وإذا امتلأت مقبرة ما فلن ينازع أحد عظام الموتى فى مكان خصص لها ، فلا تخلى المقبرة من العظام ليخلو المكان لموتى جدد .. هناك فى هذه المقابر يرقد الفقير مستريحا تحت المكان الحجرى الذى خصص له ، أما الغنى فإن ما دفعه لشراء تلك المساحة الضيقة التى يشغلها قبره لن يضيع هباء . وهكذا ، فما أن تغطى المقابر مساحة الأرض التى خصصت للمدافن حتى تسمح الحكومة بأرض جديدة لنفس الغرض ، وتهجر الأولى ، ومع ذلك يظل ينظر إليها الناس باحترام ورع ، ويصبح من أعمال الخير – لوقت طويل من هذا الهجر – أن يضع الناس الورود فوق رخام المقابر .

ويقع المدفن ، أو مدينة المقابر ، فى مدخل المدن عادة ، وخارج نطاقها ، ويستطيع كل إنسان أن يدخلها بلا عائق ، إذ ليس ثمة حائط أو سور يعوق الاقتراب منها . ويا لها من مفاجأة بالنسبة للأجنبى – الذى لم يكن قد رأى حتى هذه اللحظة إلا الأكواخ التى يسكنها الأحياء فى الريف – عندما يرى هذه المقابر الباذخة ! فثمة غابة من العواميد والنصب التذكارية والأضرحة . تغطى مساحة شاسعة : وقد يظن المرء فى البداية أنه أمام مدينة بديعة هجرها عشية الأمس سكانها ، وعندما يرى شوارع المدفن فقد يظن أنه فى سهل مزروع بالمقابر، وفى كل مكان ستتجلى فنون العمارة التى تتضاءل إلى جوارها – وبخاصة الأضرحة الكبيرة – عمارة المساجد وقصور الكبار .

وتصنع الأعمدة وشواهد القبور من الرخام الأبيض ، أما أساس المقابر فمن الحجارة ، وتصنع القبة من الخشب وتغطيها طبقات من الجبس أو الجير شديد

البياض . ونقوش المقابر ذات ذوق شرقى ، وهى عبارة عن زخارف تحوى زهورا من مختلف الأنواع نُفذت بعناية ، وتغطيها رقائق ذهبية مما يعطيها مشهدا بديعا. أما أولئك الذين لم يحوزوا إلا ثروة متواضعة فيكتفون بالكتابة على مقابر أهليهم بالأسود ، لكن الكتابة التى ينفذها الأغنياء على مقابرهم ذهبية اللون . وتتكون المقابر العادية من حجر فوق اللحد ، يرتفع من أحد جانبيه عمود يحمل عمامة ، وينتهى جانبه الآخر بقطعة حجر مسطحة ، تنتهى بشكل مدبب ، وقد شذبت جوانبها لتأخذ شكل مسلة ، وتنقش عليها النقوش ، وهى فى بعض الأحيان نقش لشجرة سرو أو لورود منفذ بعناية شديدة . وتتكون مقابر السيدات من حجرين مسطحين ، ينهض أحدهما عند الرأس والآخر عند القدم ، وهما مليئان بالرسوم والنقوش ، وينتهى كل منهما بشكل مسلة لكنها لاتحمل عمامة . وتصنع هذه الحجارة من الجرانيت ، أو من الحجارة الجبلية ، وفى هذه الحالة لاتكون مزدانة بأية نقوش. وفى بعض الأحيان تغطى المقبرة كتلة صماء من الحجر ، وهذا أمر كاف عند الأتقياء الورعين ، فكل إنسان يبذل ما يستطيع لتكريم ذكرى ذويه . وفى آسيا حيث الأراضى خصبة والأمطار غزيرة يزرع الأتراك فى المدافن أشجار السرو ، ويشبه المدفن عندئذ غابة واسعة ، إذ ترتفع هذه الأشجار إلى علو شاهق. ومهما بلغ عمر الشجرة فلا يسمح بقطعها ، فقطع هذه الأشجار جريمة لا يغفرها القانون .

ويوم الجمعة بوجه خاص هو اليوم المحدد لزيارة المقابر ، وتذهب الأسرة إلى هناك بأكملها ، فتصحب الأمهات أطفالهن ، ويتجمع هناك الأصدقاء ويجلسون حول مقبرة الفقيد ، ويتربعون على الحصر ليتناولوا بعض مايحملون من هبات ، ويتحدثون بمرارة عن الخسارة التى حدثت ، وعن فضائل الفقيد وكفاءاته ومميزاته. وهم يذهبون إلى مدينة الموتى هذه عند شروق الشمس ، ويمضون فترة الصباح كلها فى الصلوات والدعوات الدينية . وفى هذه الأيام المهيبة يبلغ الزحام درجة تبدو معها المقابر وكأنما تقطنها جماهير غفيرة ، ويمكن أن نتخيل أحجبة

النساء وهى ترفرف ، وملابس الرجال الزاهية بكل الألوان الفاقعة والمتنوعة ، وفخامة مبانى المقابر التى تغطى السهل ، فنتذكر على الفور تلك الأساطير القديمة التى ولدت على نفس هذه الضفاف . إذ تبدو هذه الأماكن وكأنها مقر لأشباح محظوظة ، يخيل للمرء أنها تهيم على وجوهها وهى تخطو خطوها البطىء وسط مساكن الموت هذه . أما مجموعاتهم تلك المنتشرة هنا وهناك تحت أشجار الأكاسيا والجميز ، فتبدو وكأنها تقدم لعيون المسافر لوحة من جنة الدار الآخرة تكملها وتجسدها مخيلته .

وتمتلك العائلات الغنية – كما سبق القول – مقابر رائعة الجمال ، ويعتبر بعضها فى الواقع مساجد صغيرة ، وهى محاطة بسور ، ويدفن فيها عبيد الأسرة وخدمها ، ويدفن السادة تحت القبة ، ثم تجمع عظامهم بعد ذلك فى قبر واحد . أما المقابر الأخرى فهى أكثر بساطة ، وتتكون من أساس من الحجارة تعلوه أربعة عواميد ، تحمل أقبية وسقيفة إما على شكل قبة أوعلى هيئة هرم ، وتوضع الأجساد عند الأساس ، أما المقبرة فتظل خالية وتبنى تحت القبة التى تحدثنا عنها .

وفى معظم الأحيان ثمة مربع محفور وسط المستطيل الذى يغطى المقبرة ، ويملؤه الناس بالتراب لتزرع فيه الزهور بدافع المحبة والاعتزاز والتبجيل .

أما العامة الذين لايقدرون حتى أن يثبتوا مجرد حجر عادى علامة على المكان الذى يرقد فيه أعزاؤهم ، فإنهم يكتفون برفع مستوى الأرض حول حفراتهم ، ويزرعون فيها بالمثل ورودا يأتون كل أسبوع لريها .

ومدافن المصريين تحظى بتقديسهم ، وهم يحرصون على أن يبعدوا عنها كل ما يمكنه أن ينال من قداستها . وتحاط مدينة القاهرة بأحواش مقابر سبق أن تحدثنا عن فخامتها ، لكن ينبغى أيضا أن ننوه بمدينة الموتى فى سيوط (أسيوط) فى صعيد مصر ، فهى تقع عند سفح جبل على حافة واد يانع الخضرة ،

ويخترقها طريق واسع للغاية يفضى إلى الصحراء . ويحيط بكل مقبرة جدار أبيض، تعلوه رسوم زاهية اللون، وتظلله النخيل وأشجار الأكاسيا والجميز . وتعمل عاطفة الأحياء نحو ذويهم هناك على مضاعفة عدد هذه الأشجار والعناية بها .

وهكذا فإن المصريين الذين تربط بينهم على الدوام المودة وصلات الدم ، يقدمون بعد موت أحبائهم علامات مؤثرة على ذلك الحزن العميق الذى انتابهم بفقد هؤلاء . فهم – مثل أسلافهم – يحسون بقوة بمباهج المشاعر الأسرية ، وتصدمهم بشكل مؤثر تلك الضربات التى تحرمهم من مخلوقات عزيزة عليهم ، خسارتها لاتعوض . وهكذا أيضا نراهم بعد أن يكونوا قد تذوقوا سعادة أن تشملهم المحبة أثناء حياتهم ، يتمتعون بعد أن يتركوا العالم الأرضى ، بسعادة أن يخيم على ذويهم الأسف على فراقهم .

٤

الحداد والندابات

لدينا فى أوربا وقت محدد للحداد الكبير ، أما الحداد الصغير فيلى ذلك . لكن هذه الممارسات مجهولة فى الشرق ، فهناك يعبرون عن الحزن والأسى بطريقة أخرى ، كما أن للألم هناك لغة غير تلك التى لدينا . فخلال عدد من الأيام حددها العرف ، تظل المرأة تبكي وفاة أقاربها سواء داخل بيتها أو فى المسجد أو على القبر ، وثمة وقت من أوقات النهار مخصص لهذا الواجب الحزين . وينفذ هذا الواجب بدقة تستعصى على الفهم . صحيح أننا نلاحظ فى بعض الأحيان نوعا من التكلف فى هذه الممارسات الخارجية ، إذ ليس من النادر على سبيل المثال أن نرى النسوة يعبرن الشارع – وهن فى طريقهن إلى المسجد أو إلى المقابر – دون أن يبدين أية دلالة على الحزن ، ثم ينهضن من هناك بعد أن يكن قد أطلقن صرخات الحزن المؤثرة لمدة تقرب من ساعة ، ويرحلن دون أن تحتفظ ملامحهن بأقل أثر لانفعالهن ، وبرغم ذلك فإن هذه المظاهر صادقة وحقيقية عند العدد

الأكبر من هؤلاء النسوة ، ولكى تقتنع بذلك ، فيكفيك أن ترى كما رأينا بائسات يهزهن الخوف من فقد أحد أقاربهن ، يحادثن أنفسهن ويُعَبّرن بصوت خفيض وبطريقة تثير الشفقة عن القلق الذى يأكلهن . وكثيرا ماسمعنا نسوة ينطقن – أثناء سيرهن فى الشوارع – بالدعوات الحارة كى يبعد الله المصيبة التى تهدد أسرتهن، ولايقطع حديثهن إلا العبرات التى تمزق صدورهن ، ويعبرن عن مشاعرهن تلك بلا حرج وبلهجة صادقة ، ويدعين الله أن يطيل عمر من يعانى من الخطر على حساب عمرهن، يقلن ذلك بحرارة لدرجة يكون من الظلم معها أن تشك فى إخلاصهن .فإذا كان الخوف من الخطر يعذبهن بمثل هذه الطريقة المؤلمة أفلا ينبغى أن تفترسهن الأحزان إذا ما تحققت مخاوفهن ؟ وكثيرا ما رأينا سيدة فقدت طفلها العزيز وهى تندفع إلى خارج بيتها نائحة باكية ، لتجوب الشوارع وتلقى بصرخاتها المنتحبة تنادى طفلها بصوت يمزق القلب :يا والاد.. ياوالاد! (ياولد.. ياولد) .

والسيدات وحدهن فى مصر يقمن محافل البكاء بعد موت أقاربهن ، أما الرجال فعليهم كما سبق القول أن يظهروا قدرا أكبر من ضبط النفس ، فإذا تألموا فإن ألمهم مركز ، بل إنهم يطلبون من النساء – إذا ما ذهبن إلى بعيد فى التعبير عن بؤسهن (١) –أن يعتدلن ويتحلين بالصبر . وفى الدموع والأحزان يتجلى حداد مصر ، ولا يفرض الدين زيا محددا للحداد ، ومع ذلك فإن الناس يرتدون ملابس قاتمة علامة على الحداد ، لكن أبناء الطبقات العليا لايخضعون لهذه العادة ، فما أن يدفن شخص منهم وتؤدى عليه الصلوات حتى لايعود ثمة أى حداد دينى ملزم ، ويكتفون بقضاء عدة أيام فى استقبال المعزين . ويدعى إلى وجبة جنائزية كل أصدقاء المتوفى ، وتخصص هذه الوجبة لذكراه التى تكون موضوعا للحديث ، ويأخذ كل مدعو فى تعديد مناقبه .

---

(١) ليست النساء المسلمات وحدهن كما سبق القول هن اللاتى يبكين موتاهن ، فربما تتفوق عليهن المسيحيات فى هذا الخصوص . وهذه العادة عامة فى مصر .

أما الندابات اللاتى يتبعن مراسيم الدفن فهن نساء من الشعب ، مدربات منذ زمن طويل على العويل وتصنع صرخات اليأس ، وليس ثمة مسلم متنور إلا ويدين هذه العادة الكاذبة ، ومع ذلك فقد لاحظنا أنها لاتصدم الرأى العام . وتلجأ زوجة الواحد من الكبار ، عندما تخشى أنها لن تستطيع أن تسكب وحدها على المرحوم قدرا كافيا من الدمع ، أو ربما عندما تجد أن مهمة الانتحاب لمدة طويلة بلا انقطاع تفوق طاقتها - تلجأ إلى استدعاء الندابات اللاتى يقمن فى الحجرة من البيت التى كان الجثمان مسجى فيها ، وهناك يقمن بتأبين الميت ولكن بطريقة شديدة النحيب . وتبدأ إحداهن بإطراء فضائل المتوفى ، وما أن تلفظ أول كلمة حتى تطلق الأخريات فى صوت واحد صيحات مفزعة ، كما لو كان ذلك للتعبير عن حجم الخسارة التى أصابت العائلة . وتشرب الندابات من إبريق موضوع على موقد فى نفس الحجرة وعقب كل نوبة تأبين ، قدحا من القهوة . ومع ذلك فليس فى صرخاتهن مايمس قلب الأجنبى ، فهن يعولن أكثر مما يبكين بعاطفة ، وأغلب هؤلاء التعيسات لايسكبن دموعا ، ويقتصر عملهن على الإتيان ببعض الحركات وأن يرثين بنوع من الإيقاع الحزين . ولايسمح النقاب الذى يغطى وجههن ، والذى بدونه لايمكن لهن أن يتجاسرن على الظهور أمام الناس - لايسمح للمرء أن يكشف كذب بكائهن .

وعلى الرغم من الاحتقار الذى يبديه المسلمون المتنورون لهذه الاحتفالات الجنائزية والتى تشبه مسرحية هزلية أكثر مما هى تعبير حقيقى عن الألم ، فإن من المحتمل أن تظل هذه العادة لوقت طويل فى كامل قوتها ، إذ من الصعب أن تقتلع معتقدات من جذورها بعد أن امتد بها العمر وتجسدت فى هذه العادة الضاربة فى القدم ، وإنة لأمر أكثر مشقة عند شعب روتينى ، يبدو كما لو كان يرى - على نحو ما - فى حذوه حذو أسلافه أمرا له قداسة الأديان .

الفصل الخامس

النظم والمؤسسات

١

رجال الشريعة والقضاء

بعد أن انتهينا من الحديث عن التقاليد الأسرية والعادات الاجتماعية للمصريين المحدثين ، وبعد أن تعقبناهم فى مختلف أطوار حياتهم من المهد إلى اللحد ، فسوف نهتم الآن بأنظمتهم ومؤسساتهم المدنية والدينية ، ولعل هذا هو أهم فصل فى مؤلفنا ، إذ كان من المستحيل على الرحالة الذين جاءوا إلى مصر قبل هزيمتها على يد الفرنسيين أن يحصلوا فى هذا الصدد على أفكار ومعلومات موضوعية ، فقد كان ثمة عقبات كبيرة تحول دون أبحاث بهذه الدقة ، كما أن مثل هذه الأبحاث كانت تثير الهلع كما كانت تثير ريبة وشكوك الحكومات المستبدة ، التى كانت تتولى شئون البلاد . لقد كان الأمر يتطلب وجود ودعم جيش منتصر مسيطر ، وعلاقات يومية ومباشرة مع السكان من كافة الطبقات ، حتى يمكن دراسة قوانين مصر ونظامها المالى والإدارى . وقد سبق أن قدمت دراسة «استيف» Estéve لوحة كاملة عن الدخل العام ، وتوزيع واستخدام الضرائب ومختلف أنواع الملكية ، أى أنها قدمت باختصار لوحة عن كافة أقسام الحكومة التى كان عملها الإشراف على مالية الدولة .

ولقد كانت المهام التى أوكلت إلى الأستاذ استيف هى التى مكنته من أن يرى بعينيه كل شىء ، وأن يسبر فى ثنايا ذلك غور تلك الإدارة البطيئة والمعقدة . علينا إذن فى فصلنا هذا أن نهتم بالدرجة الأولى بالنظم والمؤسسات التى لايدخل فى نطاقها الموضوع الذى عالجه زميلنا ، وأن نبدأ بالقوانين المدنية التى يخضع لها المصريون فى الوقت الحاضر . ولكن من الأمور الملحة قبل أن نمضى فى تمحيص هذه القوانين أن نتعرف على الأشخاص الذين كانوا أعضاء فى هذه المؤسسات أو قائمين على أمر هذه النظم . وحيث إن الشريعة الإسلامية وكتابها «القرآن الكريم» هما القاعدة الرئيسية التى تنهض عليها القوانين المدنية ، فإن رجال

الدين قد أصبحوا فى نفس الوقت رجال القانون . وهؤلاء ينقسمون إلى عدة طوائف ، ومهامهم بالغة التنوع : فبعضهم تقتصر مهمته على العناية بالمساجد ، ومن هؤلاء الإمام ، وهذا النوع من الرجال ليسوا بالأغنياء ولابذوى المكانة ، فبإمكان كل مسلم ملم بالقراءة والكتابة وإقامة الصلاة أن يكون إماما لمسجد . وهو ليس من رجال الدين المتخصصين ولا يرتدى زيا خاصا ، وهذا النوع من العمل وراثى فى العائلات ، ومن الممكن التنازل عن هذه الوظيفة لآخر مقابل جعل من المال .

والقاضى هو الذى يفحص الأئمة ، ويمكنه أن يقبلهم أو يرفضهم حسبما يتراءى له عن المرشح ، وهل هو فى مستوى الوظيفة أو ليس فى مستواها وليس ثمة هيرارشية (هرمية) بين الأئمة ، فهم أئمة المساجد وليس أكثر من ذلك . وللباب العالى عليهم وعلى كل العلماء نوع من السطوة الروحية ، ولكن إذا حدث أن كان ببعض فرماناته مايتعارض مع بعض ماجاء فى القرآن فإنهم لا يلزمون أنفسهم بطاعتها عن اعتقاد ، إذ لا ينبغى عليهم أن يطيعوا إلا الله ورسوله .

ويشكل الأشراف فى مصر طبقة منعزلة ، وهم يتمتعون بنفوذ كبير ، وسبب مكانتهم تلك هو اللقب الذى يحملونه ، فشريف معناه متميز ، وهذه الصفة لاتخلع إلا على أحفاد محمد من ابنته فاطمة ، ويحق لهم وحدهم لبس العمامة الخضراء . ويقول بعض العلماء : ويل لمن يدعى لنفسه الشرف دون أن يكون كذلك، وويل لمن يهجر الأشراف . ونحن نجد أشرافا من مختلف الطبقات ، وثمة أشراف لاتعرف ماهى مهنتهم بالضبط ، بل وثمة منهم من يمارسون أعمالا مرذولة . وينقل النساء هذا اللقب لاولادهن من الجنسين ، وحيث إن من حقهن أن يتزوجن بلا تمييز ، أى سواء من شريف أومن مسلم ليس من الأشراف ، فبإمكاننا أن نستنتج كيف يمكن أن يتضاعف عدد أفراد هذه الطائفة .

ويختار الباب العالى واحدا من أبرز هؤلاء الأشراف ، ليعينه نقيبا للأشراف ،

وهى وظيفة محترمة ، ويقيم من يتولاها فى القاهرة . ويأتى هذا النقيب عادة من القسطنطينية مع القاضى ، ويدفع فى مقابل وظيفته تلك حوالى أربعين ألف مدينى ، ويحصل على دخل عديد من القرى الصغيرة هى بمثابة إقطاع لوظيفته . ولايعهد لشخص ما بهذا المنصب إلا لمدة عام ، يثبت فى نهايته النقيب أو يستبدل به غيره حسب مشيئة السلطان .

ويحاكم كل الأشراف أمام نقيبهم على ما يأتون من أخطاء بسيطة ، لكن ليس من سلطته أن يحكم على واحد منهم بالموت ، فالقاضى وحده هو الذى يختص بمحاكمتهم فى الأمور المدنية والجنائية مثلهم مثل بقية المسلمين . وعندما يحكم على واحد منهم بالإعدام يتولى النقيب تنفيذ الحكم . وللأشراف سجن خاص بهم ، ويستخدم جزء من دخول القرى الموقوفة على النقيب لإطعام المساجين من الأشراف [1] .

وليس ثمة بلد يتمتع فيه الأشراف بامتياز أكبر مما يتمتعون به فى مكة ، إذ لهم الحظوة على سائر المسلمين فى كل الاحتفالات الدينية ، ولهم بخلاف ذلك امتيازات كثيرة ، ومع ذلك فشريف مكة ليس سوى أمير زمنى ، وليست له أية قداسة دينية ، بل إن الصلاة لاتقام مطلقا باسمه ، بل تقام الصلاة على الدوام فى الحرم المكى باسم السلطان .

ولقد سبق لنا أن تحدثنا عن العلماء ، وهؤلاء ينقسمون إلى ثلاث طبقات كبرى : رجال الدين ، علماء الشريعة ، القضاة . والأولون هم الأئمة ، والآخرون هم رجال الإفتاء ، وهم بمثابة محامين استشاريين يبدون آراءهم فى كافة الأمور ، أما الفئة الثالثة فهم قضاة العدل . ويمنح القضاة من الدرجة الأولى لقب مولاى ، ومعناه

---

(١) يوجد كذلك اختلاف فى طريقة إعدام الأشراف ، إذ لا يمكن أن تفصل رءوسهم عن أبدانهم ، ويرسل النقيب إلى السجن من يقوم بخنق المحكوم عليه بالإعدام ، ولا تعلق أجسادهم كذلك بعد تنفيذ الحكم ، بل تدفن على الفور .

سيد أوشريف . أما شيخ الإسلام – أو مفتى االقسطنطينية – والوزير الأكبر (الصدر الأعظم) فهما أهم شخصيتين بعد السلطان فى كل الامبراطورية ، وهما يمثلان السلطان : الأول فى الشئون الروحية ، والثانى فى الأمور الزمنية . وليس من حق السلطان أن يعدم المفتى بنفس الطريقة التى يُعْدَم بها المذنبون العاديون ، وعندما يدان شخص ما وهو يتقلد هذا المنصب الخطير بجريمة كبيرة فإنه يلقى عقابا خاصا ، ربما كان أكبر بكثير من ذلك العقاب الذى يوقع على المجرمين العاديين .

وتعرض على المفتى المسائل العويصة التى قد تظهر عند تطبيق بعض أحكام الشريعة ، ويتوجه إليه للحصول على حكم منه باعتباره رجل الشريعة المكلف بإبداء الرأى فى العقوبات التى تطبق فى بعض الجنايات . وهذا الحكم الذى يصدره عن هذه الأمور الجنائية ، أو فى غيرها من المسائل المدنية ، مثل حقوق أطراف النزاع فى قضية ما – يسمى فتوى ، وهى تماثل منطوقا شرعيا تحدد مسار حكم القاضى . ويحرر هؤلاء فتواهم كتابة ، ولكن عندما يطلب إلى المفتى إيضاحات حول نقطة غامضة فى القانون فإنه يستدعى كبار العلماء ليناقش الحالة معهم ، ومن النادر أن يلجأ قاض ضليع فى الفقه إلى طلب رأى المفتى بل وأكثر من ذلك أن يلتزم بقراراته . ولكن عندما لايكون القاضى ضليعا فى الفقه كما يحدث فى معظم الأحوال ، فإنه يلجأ على الدوام لطلب رأى المفتى قبل أن ينطق بالحكم .

ولكل من المذاهب الإسلامية الأربعة – التى تحدثنا عنها فى الفصل الأول – مفت خاص بها فى القاهرة ، لكن هذه الوظائف لاتمنح ، بل هى لقب أو جدارة تنال بالسمعة . أما فى المدن الأخرى والتى تحظى ببعض الأهمية فإن المفتى يقوم بإرسال قاض يمثله فيها ، ولايمارس هذا «المولى» وظيفته إلا لفترة قصيرة من الزمن ، وأمثاله فى تركيا يغيرون كل شهر ، ويدفعون ثمنا لوظائفهم مبلغا يتفاوت بحسب ثراء المدينة التى سيمارسون فيها عملهم ، والمولى بعد الحاكم هو السلطة الأولى فى المدينة .

وثمة فى مصر نظام للنساك المسلمين ، وينتشر إلى حد ما فى الولايات التركية الأخرى ، ويسمى المنتسبون إليه دراويش . وهم يعيشون فى جماعة ، ويرحلون من خلوة إلى أخرى ، وليس محرما عليهم أن يتزوجوا ، لكن لايمكن قبول زوجاتهم معهم فى الخلوة ، وعلى هؤلاء أن يقمن فى مساكن خاصة . ولكل جماعة من الدراويش دخول ، تأتيها من هبات موصى بها ومن منشآت أوقفها عليهم الخيرون من المسلمين . ولكل طريقة رؤساؤها ، ولكل خلوة رئيس يسمى شيخا ، وفضلا عن ذلك فإن هؤلاء الدراويش يتمتعون باحترام عام ، ولكنهم يتهمون بالتفلسف ، وهذا اتهام خطير عند شعب جاهل يتشبث بأخطائه بحكم التعود الطويل . فالشرقيون يسمون فلاسفة كل العقول التى لايسهل عليها أن تتقبل بسهولة الكثير من الأفكار والآراء ، وبخاصة تلك العقول التى ليست على استعداد للاعتقاد فى معجزات النبى . ومع ذلك فمن الصعب أن نقبل اتهاما كهذا يوجه إلى الدراويش ، فهم ليسوا متنورين للحد الذى يتعمقون معه فى موضوعات جادة ، بل يبدو أن مثل هذه الموضوعات لاتثير اهتمامهم . ومهما يكن الأمر فإنه يظن بكثير منهم الهرطقة وعدم الورع ، ويقول خصومهم بأنهم يجعلون من إيمانهم بالله نهاية المطاف لعقيدتهم ، فلا يلتزمون بعد ذلك بإقامة الصلاة أو الامتثال للفروض ، وبأنهم لايخضعون إلا من حيث الشكل ، وبأن كل مايتظاهرون به فارغ لاقصد منه سوى الرياء . وثمة طوائف دينية أخرى كثيرة من المسلمين ، ولكن حيث إن بعض هؤلاء من النساك العاكفين وبعضهم الآخر حجاج جوابون ، فسوف يكون من الصعب علينا أن نقدم تفاصيل موضوعية عنهم ، ولكننا نكتفى هنا بأن نتحدث بعض الشئ عن الأولياء ، وهم بالنسبة للمصريين موضع تقديس خاص .

ليس ثمة شعب لم يخلط بمعتقداته وممارساته الدينية صورا من صور الامتثال المضحك ، فلقد صور المصريون فى عصورهم القديمة الآلهة فى أشكال بالغة الغرابة والوحشية ، وقدس الإغريق آلهتهم الذين أظهروهم فى شكل النهمين بالملذات الخليعة والمنفرة ، أما الرومان فقد كان لديهم عرافوهم الباحثون عن

شكل المستقبل بفحص أمعاء وجروح الأضحيات . وكم من مرة استسلم الشيوخ العظام لأول جمهورية عرفها التاريخ لشهية الدجاجات المقدسة ، أو لنتيجة استجلاء جروح الأضحيات حتى يقرروا مصير الوطن . أما عبادة الكهنة الغاليين فهى أكثر الأمور المفزعة التى يقدمها لنا التاريخ ، ومع ذلك فقد ظلت لوقت طويل عزيزة على الغاليين . وهكذا - وكأن هذا قدر لا يمكن الإفلات منه ، إذ يبدو أنه لصيق بكل أنظمة البشر - كرس المحدثون ، شأنهم شأن القدامى ، أخطاء ومعتقدات بعيدة عن العقل ، ربما لم يعد من الممكن اغتفارها مع هذا المدى الذى بلغه عقل الإنسان عما كان عليه فى تلك الأزمان الضاربة فى القدم . وفى هذا الصدد لا يقل المصريون المحدثون غرابة عن أسلافهم ، وإن كانوا أقل منهم عبقرية ومهارة ، فهم يقومون بعبادة أمور يمجها العقل ، مثل الأضرحة والأولياء ، حيث يعتقد الناس هناك أن الله قد كلف أولياء بخدمتهم ، وهيأهم للأمر بطريقة شاملة أصبحوا معها لا يبالون - أى الأولياء - بكل ما هو أرضى ، بل إنهم جميعا قد فقدوا الشعور بأحاسيسهم الدنيوية ، وهكذا يلقى البلهاء فى حياتهم الاحترام والإكبار باعتبارهم أولياء وقديسين . وثمة بعض من هؤلاء يتمتعون بقدر ضئيل من المواهب الروحية والخلقية ، لكن هؤلاء ينسحبون إلى الأماكن المعزولة ليعيشوا كنساك زاهدين ، وينهمكون فى الصلوات والتأمل . وثمة أولياء من كلا الجنسين ، ويرى هؤلاء على الدوام وهم يسيرون عراة كما ولدتهم أمهاتهم ، لكن التقديس أو قل هو العمى العام يكون بالنسبة لهم بمثابة الرداء [1] . ويدفن هؤلاء الأشخاص بعد موتهم فى احتفال كبير ، وتصبح مقابرهم بالنسبة للناس أماكن ملأى بالمعجزات . وفى الأرياف ، وكذا فى الأحياء البعيدة عن وسط المدن ، يوجد الكثير من هذه الأضرحة التى تدين بوجودها لهبات المسلمين المتحمسين . وهى

(١) يروى عن كثير من الأولياء أنهم لم يكونوا على الدوام بمنأى عن ملذات الحس ، ويقال إن القداسة التى يتدثرون بها قد سهلت لهم على الدوام وسائل إشباع كل ملذاتهم دون أن تمس قداستهم ، حيث إنهم لم يخدشوا الحياء العام أو يخرجوا على مقتضيات اللياقة .

على شكل قباب صغيرة تتفاوت درجة فخامتها ، وثمة رجال مكلفون بالحفاظ عليها والقيام بوظيفة الإمام فى هذه المساجد - المقبرة ، لكن هذا العمل على الدوام ليس مجزيا . وكثيرا ما نقابل فى الشوارع رجالا تغطيهم الهلاهيل ، يتموج شعرهم المتهدل ويمسكون بيدهم عصا . هؤلاء هم شيوخ مقابر الأولياء ، جاءوا يتكففون الناس .

وفى بعض الأحيان يلعب بعض المخاتلين دور الولى حتى ينعموا بالترحيب والاحترام ، وبخاصة كرم الضيافة ، ولكن بعد وقت - يطول أو يقصر - يتوصل الناس إلى اكتشاف الخدعة ، ويكون الهجر والاحتقار هو نصيب هؤلاء الأولياء المزيفين .

٢

الأعياد الدينية ، المبادئ الرئيسية للعقيدة الإسلامية

سبق لنا أن تحدثنا عن أعياد المصريين أثناء حديثنا عن الاحتفالات وضروب اللهو عند الشعب المصرى ، وعلى الرغم من أن أعياد المصريين كلها تعود إلى أصل دينى ، فليس ثمة سوى عيدين من هذه الأعياد يمكن اعتبارهما بحق أعيادا مقدسة ، وهذان العيدان هما : عيد رمضان (عيد الفطر) ، وعيد أضحية إبراهيم (عيد الأضحى) . ويبلغ طول العيد الأول ثلاثة أيام ، وفى هذا العيد يشكر المسلمون ربهم لأنه قد مكنهم من أن يمضوا فترة الصيام على خير . أما العيد الثانى ، العيد الكبير ، فيتم الاحتفال به فى العاشر من ذى الحجة ، وهو آخر شهور السنة ، ويستمر أربعة أيام بالنسبة لعامة الشعب ، لكن الأثرياء وكبار الشخصيات يحتفلون به لأسبوع كامل ، ويتفق حلول هذا العيد مع وصول الحجاج إلى مكة ، حيث يذبحون على الجبل أضحياتهم . وفى يوم العيد تذبح كل أسرة مسلمة فى كل أنحاء مصر حملا أو أى حيوان آخر بحسب إمكانياتها ، أما

الأغنياء فيذبحون ذبائح عدة بحيث تخصص لكل فرد من الأسرة ذبيحة على الأقل ، لكن الفقراء يكتفون بأضحية واحدة .

ومما هو جدير بالذكر أن الأعياد الدينية التي قررها محمد لا تشبه في شئ أعياد المسيحيين ، إذ هي ليست أياما للراحة ، فهي لا تفترق عن بقية الأيام إلا في الصلوات الإضافية والأدعيات التي تتلى في كل مسجد ، وبخلاف ذلك فإن المحلات تظل مفتوحة ويستطيع العمال أن يقوموا بأعمالهم المعتادة ، لكن الناس يفضلون أن يرفهوا عن أنفسهم ، فيرتدون أجمل ملابسهم ، وتغص الشوارع بأناس انغمسوا في المرح .

وذكرى مولد النبي هي الأخرى مناسبة لمباهج كبرى للعامة ، فتمتلئ الميادين بالمهرجين والحواة والعوالم وباعة الحلوى ، ومع ذلك فلا ينظر لهذه المناسبة باعتبارها عيدا إجباريا، إذ يمكن الاحتفال أو عدم الاحتفال به ، والعادة وحدها هي التي أقرته . وعند حلول المساء يسارع الناس بإضاءة الأنوار ، ويستمر اللهو حتى وقت متأخر من الليل .

وثمة عادة خاصة بمصر لا تشاركها فيها فيما يبدو بقية الدول الإسلامية ، تلك هي عادة إقامة الأعياد للأولياء ، حيث لكل قرية ولكل حي من مدن مصر الكبرى ولي يحتفل الشعب بيوم مولده ، وبرغم ذلك فلا تقام أية صلوات إضافية في المساجد . وعلى الرغم من الدافع الديني لهذه الأعياد فإن رجال الشريعة لا يشاركون فيها على الإطلاق ، ويتركون شئون الاحتفال للسكان من كافة الطبقات ، وهؤلاء نهمون على الدوام بالبهجة وضروب اللهو (١) .

ومع ذلك فشهر رمضان هو أهم الأوقات التي ينغمس فيها المصريون في

(١) يفضل المصريون الاحتفال بأعيادهم ومسراتهم في الليل ، وهذه في الغالب عادة كل الشعوب التي تعيش في جو حار ، فالليل في المناطق المدارية في الواقع هو الوقت الذي تنشط فيه أجسامهم وملكاتهم .

المسرات ومختلف ضروب اللهو ، فهو فى مجموعه شهر صيام وشهر مهرجانات . وقد يبدو من الغريب أن يختاروا مثل هذا الوقت للقيام بممارسات متناقضة : التوبة وتطهير النفس من ناحية ، والملذات من الناحية الأخرى . ولكن ، فلعل المشرع قد أراد بذلك أن يخفف من وطأة تلك التوبة المهلكة ، فعمل على أن تصحبها أوقات تخصص للمسرات (كذا!) ، إذ يستطيع الناس بشكل أفضل أن يتحملوا من ضروب الحرمان تلك التى تعقبها المسرات والملذات .

ولن يكون بمقدورنا أن نكون فكرة تامة عن شهر رمضان ، شهر صيام المسلمين ، إذا اتخذنا من صيام المسيحيين طرفا للمقارنة ، فلقد منح محمد نفسه كامل الحرية فى تقديره لنمط الرجل الفاضل الذى ينشده والذى سيحوز مباهج العالم الآخر ، لدرجة أنه قرر نظاما بهذه القسوة مع أتباعه فى هذا الصيام السنوى . فالصوم يستمر لشهر قمرى كامل ، ويأتى فى أوقات غير محددة ، إذ يأتى أحيانا فى الصيف وأحيانا فى الشتاء ، لكن الشريعة تظل فى كلا الفصلين على قسوتها ، فينبغى على المرء أن يحرم نفسه من كل طعام ابتداء من شروق الشمس حتى غروبها ، ولا يستطيع خلال هذه المدة لا أن يشرب ولا أن يدخن ، ومن السهل أن نتخيل قسوة مثل هذا الصيام ، إذا ما تصورنا كيف يكون العطش فى منطقة مدارية كمصر ، وهو أشد أشكال الحرمان استعصاء على التحمل ، وفى الوقت نفسه يكون على العامة الذين لا يستطيعون الاستغناء عن عملهم اليومى الذى يتكسبون منه عيشهم ، الانتظار حتى نهاية اليوم ليرووا غلتهم ، ويرى المرء فى فترة هذا الصوم حمالين يسيرون – كما فى الأيام العادية – وهم يحملون أحمالا ضخمة ، أو يعملون بطريقة شاقة أطول وقت من النهار ، دون أن يرطب حلقهم الجاف قطرة من ماء ، ودون أن يتناولوا وجبتهم الصغيرة المعهودة لتنشيط قواهم التى هدها العرق والتعب . ولكن ما أن يأتى المساء حتى يتغير المشهد ، إنهم لم يعودوا نفس الرجال ، فالليل بطوله ينقضى فى الولائم وضروب اللهو والفجور . فى النهار يفعل كل امرئ قدر طاقته كى ينهى أعماله

بسرعة ليخصص بضع ساعات للنوم ، فترى الفلاح راقدا تحت النخلة بعد أن أنهى في فترة الصباح عمله ، وترى التاجر يرقد على بنك دكانه ، والعامة ممددين في الشوارع بجوار جدران مساكنهم ، وكذلك الغنى راقد بالمثل ، نعسان ينتظر على أريكته الفاخرة الفترة التي تسبق غروب الشمس . وأخيرا تأتي تلك الساعة التي طال انتظارها! فينهضون على عجل ، ويهرع كل امرئ للحصول على مكان مرتفع ، وتتجمع النساء في شرفات منازلهن ليرين حركة اختفاء الشمس . وتبدأ الشمس تشحب رويدا رويدا ، ويتآكل قرصها ليختفي وراء الأفق، وتتمحى – والناس في مشقة الانتظار – أشعتها ، حتى أن العامة وسكان القصور والقابعات في معاقل الحريم– كل هؤلاء يحيون بصوت جماعي تلك النهاية التي تلكأت طويلا طويلا ، وتعلن الأغنيات البهيجة حلول وقت المسرات ووقت الطعام ، وتدوى من كل المساجد أصوات المؤذنين الجادة تنادي الناس للصلاة ، وتحدث همهمة واضطراب عام ، فيتفرق الناس على الفور ، وتنفض الجماعات ويتبعثر المتجمعون إما إلى المقاهي وإما إلى البيوت أوالمساجد أوالميادين العامة . ويأكل كل امرئ بشراهة ، ويقيم الأثرياء مآدب باذخة ، ويقدمون للفقراء فضلات موائدهم . ويقدم الطعام للجميع – بلا تمييز – لكل الحاضرين ، وهذه العادة الحميدة بلاشك ، تطبق في كل ولايات السلطان .

ويعقب الطعام الاحتفالات والألعاب ، وتسيطر الخلاعة الجامحة على كل ضروب اللهو في ليالي الفسق هذه ، وتظل المساجد مضاءة حتى بزوغ النهار ، ويقضي أفاضل الناس ليلهم في حديث نافع ، لكن الجمهور يذهب إلى المقاهي حيث الرواة والمنشدون يقصون – بحماسة ملتهبة – مغامرات عجيبة تخلب الألباب بطريقة فريدة . ويهرع البعض إلى الحمامات : فهناك على وجه الخصوص تزدهر الملذات ، وتتم لقاءات الغرام ، والعاملون بالحمامات – المعتادون على هذا النوع من الأمور – هم على الدوام عصب هذه المغامرات العاطفية . وهكذا ينتقم الجنس من سجانه وطغاته ، ولكن ينبغي أن تحاط مثل هذه المغامرات بأكبر قدر من السرية ، وإلا فإن غضب الزوج المطعون في كرامته لن يعرف لنفسه حدودا .

ويمكن القول أن الميادين العامة هى الأماكن التى تعرض فيها أكبر م
الفسق مدعاة للخجل . فهناك يقدم بعض الحواة والمشعوذين مشاهد شـ
تنتهى بلوحات بالغة الانحطاط والفظاظة ، تشكل فسادا مدهشا للتقا
والممثلون الرئيسيون فى هذه اللوحات هم على الدوام شيخ وطفل . وبرغم
فلو أننا حكمنا على تقاليد الأمة بأكملها عن طريق الميل الذى يبديه أبناء ا
عادة نحو هذه العروض ، لكونا بالتأكيد فكرة خاطئة وظالمة ، فمثل هذه الع
الماجنة لا تجذب إلا السوقة والرعاع ، ومثل هؤلاء الناس فى كل مكان ، ذ
لرؤية مشاهد الغلمة والفسق بكل عريها ، لكن ما يدعو إلى الأسف حقا
تسمح السلطات بمثل هذه العروض .

بل إن مباهج رمضان تصل إلى معاقل الحريم ، ففى رمضان يـ
للسيدات باستدعاء العوالم وبعض الموسيقيين ، ويجلس الزوج باسترخاء ولا
على أريكته ، ومبسم غليونه فى فمه ، وإلى جانبه أحب زوجاته إلى قلبه ، ليـ
بمتعة شديدة إلى أغنيات العوالم وصوت الموسيقى ، ويحيط الزوجين
العبيد، واقفين من حولهما أو جالسين القرفصاء على حصيرة . ولابد أن
المرء إعجابه بذلك التمثيل الصامت (بانتوميم) للعالمة الشابة وهى تصور فى
وشهوانية ، الصراع بين الفسق وبين العفة . ويحيط بقامتها الرشيقة
معقود برخاوة ، يبدو كأنه الحاجز الوحيد الذى يصد عنها هجمات الحب .
لتعقده من جديد - برخاوة أيضا - كلما بدا أنه قد بدأ يستجيب بفعل قوة لا
وهى ترقص على نغمات الآلات ، لكن الحزام تزعزعه حركات الراقصة فينة
جديد رويدا رويدا . عندئذ تتنبه العفة فجأة بعد أن نومتها الشهوة ، فـ
الراقصة الحزام من جديد ، وبنفس الرخاوة ، ويتخذ الرقص مظهرا أكثر
ووقارا . لكن ذلك يخلى مكانه مرة أخرى لحيوية الإحساسات والشهوة التى
العالمة فريسة لها .. وتتجدد نفس الظروف وتضعف العقدة الرهيفة التى تحوا
الحب ، وتعقدها الراقصة من جديد ، لكن الحب ينتصر ولا يعود أحد يعـ

على انتصاره ، وتستجيب العالمة فى النهاية لعواطفها ، فتبطئ من حركاتها وتبدو غارقة فى هيام لذيذ ، ويصفق الحاضرون لها بحماسة وإعجاب . ويحدث تمثيلها الشهوانى الصامت أثرا يفوق الوصف على مشاهديها ، وبخاصة على الزوجة ، فتخرج عن طورها - كما شاهدنا ذلك عدة مرات - متأثرة بتلك الرقصة الشهوانية ، فتصل صوتها بصوت المغنين وتقلد حركات العالمة .

لن نمضى طويلا فى وصف تقاليد المسلمين أثناء شهر رمضان ، فقد حان الوقت لأن نعود إلى موضوعات أكثر جدية . لنلق نظرة سريعة على الدين بشكل عام ، حيث إن من الصحيح أن للدين فى مصر بصفة خاصة - وأكثر من كل البلدان الأخرى - تأثيرا على كل النظم المدنية والعادات الاجتماعية .

ينبغى على المسلم أن يعتقد بوحدانية الله (١) فى رسالة محمد ، مع الإيمان بكل ما جاء فى القرآن باعتباره كلاما مقدسا (٢) ، وأن يؤدى الصلوات الخمس مع أداء الوضوء الذى لا غنى عنه لممارسة هذه الصلوات ، وأن يحرص على صيام رمضان ، وأن يؤدى للفقراء جزءا من دخوله هو حق لهؤلاء الفقراء (٣) ، وأن يحج إلى مكة مرة واحدة فى العمر .

ويعترف المسلمون - شأنهم شأن المسيحيين - بقدرة الله وعدالته ومعرفته بالغيب ، لكنهم يعتقدون أكثر من المسيحيين بالقضاء والقدر ، وإن كانوا يختلفون فى درجة تمثل هذه الفكرة . ويقودهم هذا الاعتقاد إلى استسلام لاحدود له يميزهم عن سائر الشعوب ، ويعتقدون فى نفس الوقت أن الأفعال الإنسانية وأحداث العالم محددة بنظام ثابت ، حتى أنه ليس بمقدور المرء أن يتفادى ما

---

(١) ينبغى الاعتقاد بصورة مطلقة فى وحدانية الله ، فعلى المسلم الحق أن يؤمن بأن الله أحد وبأنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

(٢) يعتقد المسلمون أن الله أنزل القرآن على محمد عن طريق الملاك جبريل آية آية على مدار ٢٣ عاما .

(٣) من أهم الصدقات الإجبارية التى على المسلم تقديمها ، صدقة عيد الفطر

سيكون ضارا به حتى ولو كان مرضا معديا [١] . ويفسر استسلامهم الطبيعى على الدوام بأنه خضوع أعمى لمشيئة القدر .

ويرى المسلمون أنه لا يمكن تمثل الله على أية صورة ، كما يرون أنه لا ينبغى التعمق فى البحث فى ذات الله ، ولكن ينبغى فقط البحث فى صفاته . ويرى بعضهم أن الروح منبثة فى كل خلايا الجسم ، وأنها تجرى مع الدم فى العروق ، ويرى آخرون أنها مثل الشمس تتوزع أشعتها على كل أجزاء الجسم ، وقد قال محمد عن الروح أنها من أمر الله . وعلى العموم فإن المسائل الميتافيزيقية التى مزقت مدارسنا المسيحية طويلا ، لا يميل إليها علماء المسلمين إلا قليلا ، فمعتقداتهم أفكار مسبقة ، وهم لا يسعون لتفسير ذكاء العقل الإنسانى، وينظرون إلى موسى وإلى المسيح باعتبارهما من الأنبياء . فالمسيح هو روح الله جاء عن طريق نفخة من جبريل فى العذراء ، وبعدما قام برسالته على الأرض صعد إلى السماء حيث الذات العليا ، وحيث يعيش الآن ، وأن الكفرة الخاطئين فى تواطئهم الإجرامى لم يقتلوا أو يعذبوا إلا شبيها له .

ويتفق العلماء على أن اليهود والمسيحيين الذين عاشوا قبل رسالة محمد كانوا مؤمنين بحق ، ولكن حيث إن هذه الرسالة الأخيرة قد جاءت لتغير وتصلح من كل الشرائع التى جاء بها الأنبياء السابقون ، فإن أتباع موسى الحاليين وكذا أتباع عيسى كفار وغير مؤمنين .

ويرى المسلمون أن العالم مخلوق ، وأن الله وحده هو الأزلى ، ولا يعود زمن الخلق إلا إلى ألف عام وبضعة قرون ، والفترة التى ينبغى أن يحياها العالم غير مؤكدة ، وينصح محمد أتباعه ألا يحاولوا مطلقا البحث فيها . وقد خلق الله الخلق فى ستة أيام : فخلق الأرض فى يوم السبت ، وشكل الجبال فى اليوم التالى ،

---

(١) يختلف المسلمون حول هذه النقطة ، فيذهب الأحناف والأتراك عموما إلى أن الإجراءات الصحية تعتبر مظهرا مبينا لقدرة الله ، لكن بقية المذاهب أقل تعنتا .

وفى اليوم الثالث خلق الأشجار والنبات ، وفى الرابع خلق الآلام والفتن الاجتماعية (وهو يوم سئ الطالع) ، وفى اليوم الخامس خلق الظلمات والنور ، وفى السادس خلق الحيوانات . وظهر آدم فى اليوم السابع لأول مرة على ظهر الأرض ، وكان قد تشكل منذ أربعين يوما .

ويؤمن المسلمون أيضا بهذا الاعتقاد الباعث على الأمل والمواساة ، وهو : الإيمان بخلود الروح ، وهذه الفكرة هى بمثابة المحور لكل معتقداتهم . وعند الموت تصعد روح المسلم الحق إلى الجنة ، وهى خضراء على الدوام ، لتنتظر يوم الحساب الأكبر والأخير ، أما روح المسئ فتبقى أسيرة فى المناطق المعتمة والآسنة . ولكن عندما تقوم الساعة ، وتحل ساعة الحساب ، فإن العالم سوف ينقلب رأسا على عقب ، وتتشكل الأرض من جديد ، وتفتح فى النهاية أبواب الجنة وأبواب النار ، ويتفحص الله محاطا بكل رسله أعمال البشر . وتعود الأرواح إلى الأجساد التى ستنهض من تلقاء نفسها بكل حيويتها ، وعندئذ يدخل العادلون فى جنة النعيم لكى لايخرجوا منها ، أما الآخرون فيذهبون ليكفروا عن جرائمهم . ولكن ليس ثمة عذاب أبدى إلا لمن لم يصدقوا برسالة وكلمة محمد (١) .

---

(١) السعادة التى وعد بها محمد أتباعه حسية خالصة ، وهى عبارة عن ملذات شهوانية أبدية . ويقول المسلمون إن كل إنسان يوم البعث سيكون فى قوة وقامة الإنسان الأول ، التى لم تكن تقل - تبعا لأقوالهم - عن خمسين قدما ، وسوف تكون النساء على درجة من الجمال تشعل معها قلوب الرجال بعاطفة تتجدد على الدوام ، ويستطيع الرجل إشباعها إلى مالا نهاية دون نفور أو ملل . أما النساء فلن يحملن مطلقا ، لأن هذه الملذات ستكون على نحو ما ملذات علوية ، ولن يترتب عليها شئ من نقائص الطبيعة البشرية . وسيحتفظ العقل وكل الأطراف بكل حيويتها ، كما أن الذين سيعمرون هذه الجنان سيتمتعون بسعادة لا تحول وبكل مباهج الوجود وملذات الحس ، إذ إن أجسامهم ستظل على قوتها للأبد . ويشيع الاعتقاد فى أوربا أن محمدا قد استبعد النساء من جنته (*) ، وهذا خطأ ، فقد قال مؤلف كلاسيكى . « إن ما قيل عن الرجال بخصوص الجنة هو نفسه ما قيل عن النساء » . وحيث إنهن خاضعات لنفس الفروض الدينية مثل الرجال فينبغى أن يتمتعن بنفس المكافأة .
=

وليس ثمة طريق للحصول على مكافأة الحياة الآخرة إلا الطهارة والصلوات ، ويستطيع المسلم أن يؤدى صلاته فى أى مكان ، فيبسط على الأرض سجادة أو حصيرة أو حتى شال عمامته ، ويستدير بوجهه جهة مكة . وصلاته قصيرة لكنها حية ، وإذا لم يكن ثمة ما يمنعه من الذهاب إلى المسجد فينبغى أن يؤدى صلواته هناك ، فهذا أفضل . أجل إن الله - حقا - فى كل مكان ، لكن من الأفضل أن نعبده فى بيته .

وفى داخل كل مسجد ، ثمة حوض كبير ملئ بالمياه ، هناك يغسل المسلمون الأجزاء المستورة من جسمهم (الاستنجاء) ويطهرون أيضا لحيتهم وذراعيهم حتى المرفقين . وعندما يجوبون صحراوات لا ماء فيها ، فإنهم لا يعفون من أداء نوع من الوضوء ، يحل فيه الرمل الناعم أو التراب الطاهر محل الماء الذى ينقصهم (التيمم) .

=

فالصلوات الخمس وصيام رمضان والحج إلى مكة ، كل هذه فروض إلزامية على الجنسين . لكن النساء لا يستطعن لا أداء الصلاة ولا صيام رمضان أثناء فترات الدورة الشهرية ، لأنهن فى هذه الفترة لا يتمتعن بالطهارة الواجبة للعبادة . ويؤكد الكثيرون أن النساء كان بمقدورهن أن يتوجهن إلى المساجد فى أيام النبى ، لكن الخليفة عمر عندما لاحظ ما يسببه وجودهن من سرحان عند الرجال وما يمكن أن ينتج عن ذلك من فضائح ، أمرهن بأن يؤدين الصلاة فى بيوتهن .

(*) وهذا ما نجده عند منتسكيو حين يقول . « وحيث إن النساء من طبيعة دون طبيعتنا وحيث إن أنبياءنا قد قالوا إنهن لن يدخلن الجنة ... Lettres Persanes, Lettre XVII

بل إن فولنى Volney نفسه - برغم تبحره فى دراساته الشرقية - قد ذهب إلى ذلك حيث يقول فى كتابه : Voyage en Egypte et en Syrie, t. II, p . 323.

« إن محمدا برغم شدة ولعه بالنساء لم يمنحهن شرف معاملتهن كجزء من الجنس البشرى ، فهو لم يشر إليهن لا بخصوص الفرائض الدينية ولا بخصوص مكافآت العالم الآخر . لكن هذا الزعم لم تكذبه كل مؤلفات رجال الدين الإسلامى فحسب ، بل إن القرآن نفسه ليس فيه ما يؤكد صحة هذا الزعم .

والهدف من صيام رمضان بلا شك إرغام المسلمين على أن يولوا اهتماما أكبر إلى واجباتهم الدينية ، حيث إن عليهم فى هذا الوقت أن يحرموا أنفسهم من جزء كبير من الملذات الحسية ، فأرواحهم التى تحررت طيلة النهار من الهموم التى تشغلها عادة ، يمكنها أن تنغمس بحماسة أكبر فى التأمل والصلاة . وهم لا يأكلون إلا فى الليل كما قلنا ، والليل هو كذلك الوقت الوحيد الذى يسمح لهم فيه أن يقربوا زوجاتهم . ومن جهة أخرى فقسوة الصيام لا تمتد لأبعد من ضروب الحرمان هذه ، إذ باستطاعتهم أن يأكلوا كل شئ كما يحدث طيلة العام . ورمضان هو زمن الصوم الإجبارى الوحيد ، وللمسافر الذى يقوم برحلته أثناء الصوم ألا يصوم ، لكنه ملزم بأن يعوض بعد ذلك الأيام التى سيفوته أن يصومها .

والحج إلى مكة واجب إلزامى ، ينبغى على كل مسلم حق القيام به ، ومع ذلك فحيث ليست هناك سن محددة لأداء الحج ، وحيث إنه ليس ملزما بذلك إلا عند المقدرة ، فكل مسلم يؤجل هذه الرحلة ، وقد ينتهى به الأمر بأن يعفى نفسه نهائيا من الحج . ومن هنا يحدث أن كثيرا من المسلمين يموتون دون أدائهم للحج .

ويحرم محمد على أتباعه – وهو الذى يحتم عليهم الطهارة الخارجية فوق كل شئ – الاتصال بزوجاتهم أثناء الدورة الشهرية التى تتعرض لها النساء ، وكذلك أثناء الأربعين يوما التى تعقب الولادة ، لكنهم يستطيعون الاتصال بنسائهم أثناء الرضاعة . ويخول للمرأة التى تحمل أثناء الرضاعة أن تواصل إرضاع طفلها أثناء الأشهر الأولى من الحمل ، على الرغم من أن الأطباء يرون أن لبن الأم فى تلك الظروف لا يكون صحيا .

وتسمح الشريعة الإسلامية بأكل لحوم الحيوانات المجترة ، لكنها تحرم من بين كل الحيوانات ذات الظلفين أكل لحم الخنزير ، ولا يحرم أكل الخيول إلا أتباع المذهب الحنفى ، وينبغى على المرء أن يغسل الإناء الذى شرب منه الكلب سبع مرات قبل أن يستطيع استخدامه من جديد . وتختلف المذاهب حول علة هذا المبدأ ، فيرى البعض أن الكلب دنس بطبعه ، ويرى آخرون أن الدنس فيه فقط هو أنفه

وفمه ، ويرى فريق ثالث أن محمدا لم يقدم هذا النصح إلا خشية أن يكون الكلب قد تناول طعاما أو شرابا غير طاهر . ونحن ندخل فى كل هذه التفاصيل ، كى نعطى فكرة عن نوع عقلية المذاهب المختلفة ، فهى لا تختلف مطلقا إلا حول مثل هذه الأمور الواهية .

وينظر إلى الدم باعتباره غير طاهر ، لذا لا يمكن تناول لحم حيوان نفق بشكل طبيعى ، أو قام البعض بخنقه ، فلا بد أن يذبح وأن تسيل دماؤه . ويخضع لهذه القاعدة أيضا الصيد الذى يقتله طلق نارى ، لذا يسارع المسلمون بقطع رقاب الطيور والأرانب أو الحيوانات الأخرى التى يصيبونها بطلقاتهم ، والسمك وحده لا يتطلب مثل هذا الأمر (١) .

وقد لاحظنا أن ثمة تماثلا كبيرا بين تعاليم المشرع العربى ومحرمات موسى ، ومن الواضح أن محمدا قد استعار عن المشرع اليهودى إجراء صحيا أراد أن يجعله غير قابل للنقض من قبل الناس . صحيح أن لحم الخنزير له آثار بالغة الضرر على بنية من يتعودون عليه فى البلدان شديدة الحرارة مثل أفريقيا وآسيا ، بل إن هناك من يؤكد أن الجذام ليس له من سبب إلا التعود على أكل لحوم الخنزير، وليس لمحمد من هدف فى إلزام أتباعه بالوضوء وطهارة الجسم سوى ضمان صحة أتباعه ، والقرآن ملئ بالمبادئ الحكيمة حول طريقة الحياة ، وكلها تهدف بوضوح لنفس الغاية . وختاما نقول إن المسلمين ينفذون بدقة كل ما فرض عليهم ، ونادرون أولئك الذين يسمحون لأنفسهم من بينهم بالخروج على أوامر النبى . ومع ذلك فلسوف تكون سعادتهم أكبر لو أدركوا المغزى الفلسفى العميق لبعض هذه الأوامر والمعتقدات ، تلك التى تبدو طيعة ومواتية وهى تحدث أثرها المطلوب فى أجسامهم .

---

(١) ليست النباتات ولا الحيوانات دنسة ، ومع ذلك يمتنع المسلمون عن أكل لحوم الفرائس لسبب يعود إلى نفور طبيعى أكثر مما يعود إلى دافع دينى . ويرى المذهبان الشافعى والحنفى تحريم استخدام الزواحف كغذاء ، لكن المالكيين يستثنون من ذلك الثعابين إذا ذبحت .

٣

الحكومة

كانت حكومة الإقليم تتكون قبل مجئ الجيش الفرنسى من : الباشا ، ورؤساء الأوجاقات السبعة ، و٢٤ بك . وكان البك الأول يتولى وظيفة شيخ البلد ، وكان يحكم القاهرة ومصر ، أما المنصب الثانى فهو منصب أمير الحج ، وذلك على الرغم من أن هذين المنصبين – حسب دراسة عن نظام البلاد الإدارى – يمكنهما أن يجتمعا فى منصب واحد . وأمير الحج موكل بحراسة المحمل ، ولايعنى لقبه شيئا آخر سوى أمير الحج أو أمير الحجاج . والشخصية الثالثة فى الحكومة هو الدفتردار أو المستشار . وبعد هذه المناصب العليا يأتى البكوات حكام الأقاليم ، وتتحدد درجتهم بحسب أهمية ولاياتهم ، وعلى هذا كان حاكم جرجا يعد أول هؤلاء البكوات ، وكان يحمل لقب باشا بذيلين (*) ، أما البكوات الآخرون فأقل امتيازا .

وكانت كل السلطة التنفيذية مركزة فى يد شيخ البلد ، وهو فى الواقع حاكم مطلق ، إلا إذا جاءت ظروف غير عادية لترغمه على اقتسام السلطة . وهكذا كان

(*) يذكر الصديق الأستاذ رينيه خورى فى إحدى دراساته المخطوطة – وهو باحث مدقق – أنه كانت هناك درجات لرتبة الباشا هى كما يلى :–

١– باشا بذيل : وهذه الدرجة تعادل رتبة الفريق .

٢– باشا بذيلين . وهى تعادل ما كان يسمى برتبة الميرميدان .

٣– باشا بثلاثة ذيول . وهى تعادل ما يسمى برتبة المشير .

ولم يكن يحمل الرتبة الأخيرة فى كل أنحاء الإمبراطورية العثمانية إلا ثلاثة فقط ، هم : الصدر الأعظم ، قبطان باشا ، والى مصر .

وعند مرور موكب أى باشا كانت تسبقه حربة مرفوعة، مثبت بها عدد الذيول التى تحدد درجته ، كما كانت توضع أمام بيوتهم فوانيس مذهبة أو فضية تنتهى رؤوسها بريشة واحدة أو اثنتين أوثلاث بيضاء أو بنية اللون ، ويتفق عدد هذه الريشات مع درجة الباشا ساكن البيت . (المترجم) .

الأمر وقت نزول الجيش الفرنسى أرض مصر ، فقد كان مراد بك – وهوالذى كان أميرا للحج وشيخا للبلد والذى لم يكن يحتفظ مع ذلك إلا بجزء من اختصاصات هذين المنصبين – يحكم ثنائية مع إبراهيم بك شيخ البلد الأصلى ، وكان يتحتم أن يوقع شيخ البلد كل الأوامر المتصلة بالإجراءات الاستثنائية والضرائب الإجبارية الباهظة على الولايات والمدن حتى تصبح سارية المفعول . وهكذا يمكن القول بأنه قد ركزت فى يده على الدوام قوة وسلطة الحكومة .

وكان حق تحصيل الضريبة المخصصة لمكة من اختصاص أمير الحج . لكن هذه الضريبة أصبحت شيئاً مخالفاً لما كانت عليه فى فترات سابقة ، حيث ظلت تنكمش شيئا فشيئا – بفعل سطو البكوات الآخرين – حتى لم تعد حصيلتها تبلغ إلا مقداراً ضئيلا .

وكان شاغل هذين المنصبين بدرجة باشا بذيلين ، وكذلك كان حاكم ولاية الشرقية ، وإسلام باشى الذى كان مكلفا بالسير أمام المحمل عندما يعود إلى القاهرة ، لكى يمد المسافرين بالمؤن والجمال والخيول والبغال .. الخ ، التى قد يكونون بحاجة إليها بعد سفر بهذا الطول . وفى البداية لم يشأ سليم الذى قسم وظائف الدولة على هذا النحو ، وحدد كذلك اختصاصاتها – أن يتم اختيار هؤلاء الموظفين الكبار من بين المماليك أو السناجق ولا من أبناء البلاد لأسباب أقوى ، إذ كان العثمانلى على الدوام يكنون نوعا من الاحتقار للعرب ، وكان هؤلاء بدورهم برغم ريائهم للعثمانلى وخداعهم لهم يكنون لهم نفس الاحتقار . ويعود تعيين الـ٢٤سنجقا كذلك إلى عهد سليم . وقد خول هذا الأمير لـ٢١منهم بأن يكون لكل منهم فرقة من الموسيقيين ، تتألف من : ٦طبلات ، ٦نقارات (دفوف) ، ٦مزمار ، نفيرين ، وصنجة واحدة . وكانوا يحصلون على عطاء يصل إلى ١٫٠٠٠ أردب من القمح فى العام . أما البكوات الثلاثة الآخرون فلم يكن لهم الحق لا فى الفرقة الموسيقية ولا فى العطاء السنوى . وكان يختار من هيئة الـ٢١ هؤلاء حكام ولايات : الشرقية ، المنصورة ، البحيرة ، المنوفية ، أطفيح ، الجيزة ،

البهنساوية ، الفيوم . وكان بك جرجا يحكم البلاد التى تمتد من المنيا حتى آخر حدود الصعيد . وكان الدفتردار أيضا يخرج من بينهم .

وكانت الوظائف المشار إليها سنوية ، وفى نهاية العام ينتقل شاغلو هذه الوظائف إلى مراكز أخرى ، أو يصبحون أفرادا عاديين ، كما أن بإمكانهم أن يثبتوا ، وهذا ما كان يحدث عادة وخاصة فى السنوات الأخيرة . أما الباشا فكان يتغير على الدوام حسبما يتراءى للباب العالى أو بنصيحة من المماليك . وفضلا عن ذلك ، فقلما كانت تسمح الشقاقات والنزاعات المستمرة التى تهز مصر لأصحاب المناصب البقاء فى مناصبهم تلك ، فقد كانت العصب المتشاحنة على الدوام يقلب بعضها البعض ، وتتبادل السيطرة والمناصب ، وذلك هو ماقدمته حكومات المماليك منذ حوالى نصف قرن .

وكانت للبكوات الثلاثة الأخيرين فى سلسلة الـ ٢٤سنجقا مهام ثانوية . فكان أحدهم كخيا أو وكيلاً للباشا ، وكان الثانى شركة – بك ، وهو يقتسم منصبه مع زميل له ، ولم يكن أى منهما يتمتع بسلطة من أى نوع ، أما المنصب الثالث فكان يشغله كذلك اثنان من البكوات ، وكان أحدهما يحكم البلدة المسماة سقران فى ضواحى الجيزة ، أما الآخر فكان يحكم المنطقة المجاورة للمنصورة .

وقد نظم سليم سبعة أوجاقات أو سبع فرق عسكرية : أولها فرقة (أوجاق) الانكشارية (ومعناها الفرقة الجديدة) ، ويشكل العزبان الأوجاق الثانى ، والمتفرقة الأوجاق الثالث ، والجاويشية الرابع ، والجامولیان الخامس ، والتافكجيان السادس ، وأخيرا يأتى أوجاق الشراكسة . وكان للأوجاقات الأربعة الأولى نظم خاصة بكل منهم ، أما الثلاثة الأخرى فتخضع لقانون عام .

وكانت حراسة القلعة موزعة بين الباشا وأوجاقى الانكشارية والعزبان ، وكان الباشا يحتل بابين من الأبواب الأربعة الموجودة فى القلعة : أحدهما يؤدى إلى الجبل والثانى إلى قراميدان . أما الباب الثالث فيسمى باب الانكشارية ، ويسمى

الباب الأخير باب العزبان . وكان يحرس باب الانكشارية كخيا (متولى) ، وكان تحت إمرته ٦ جاويشية و٥٠ أوده باشي . وكان لكل من هؤلاء الضباط مسكن بالقرب من الباب ، ولهم أربعة رؤساء يختارون من بينهم هم الذين يصبحون جاويشية ، وكان الأوده باشي أو رئيس الحجرة لا يركب إلا الحمار. وكان للجاويش الدلامة السوداء ، وخفان أحمران ، وقاووق أو عمامة من القطيفة السوداء .

والدلامة ليست إلا جلبابا واسعا من الجوخ الأسود . وعندما يصبح هذا الشخص سراجا للأغا ، يضيف إلى قاووقه قطعة من الموسلين الأبيض .

لكن هذه الفرق العسكرية قد دبت فيها اليوم عوامل الوهن ، فالمماليك وحدهم هم الذين يصنعون القانون ، وجنودهم هم الذين يحتلون الميادين الهامة ، ويديرون شئون الفرق الأخرى . ولم نتناول فى حديثنا عن الوظائف الهامة للحكومة اختصاصات القاضى ، ذلك أن اختصاصات القاضى ذات طابع مدنى صرف . وهو يعين من قبل الباب العالى مثل الباشا ، ويختار القاضى قضاة الأقاليم ، وهو يختارهم جميعا من أهالى البلاد ، ومن خريجى الأزهر ، حيث درسوا الشريعة وكيفية تطبيق القانون . ويفضل خريج الأزهر هذه الوظيفة على كل الوظائف الأخرى ، لأنها تقود بسرعة نحو الثروة ، وتحظى باحترام الناس .

وقد حدد السلطان سليم القلعة كمقر إقامة للباشا ، ولا يجوز له أن يختار مقرا آخر .

وكان هو الذى يخلع الخلعة على من وقع عليهم الاختيار لشغل المناصب ، ويتلقى هدية من كل من يعينهم [1] . ولكن بعد أن استعاد المماليك سطوتهم تغير كل شئ ، ولم يعد الباشا فى السلطة إلا مجرد ظل يعانى من كل نزوات المماليك ،

(١) كانت الخلعة عند الأتراك – كما هو معروف – تقدم إلى المحتفى بهم فى حفل تنصيبهم ، وهى عبارة عن قفطان وجبة ، ولم يكن يقدم فى المناسبات الثانوية سوى القفطان ، وهو معطف مفتوح من قماش متين ، بطانته بيضاء بورود صفراء . وقد جرت العادة أن تزدان الجبة بفراء ثمـين ، وأحيانا كان يكتفى بتزيين حوافها ، وكانت الجبات التى يخلعها السلطان غالية الثمن .

بل يمكن القول بأنه كان واقعا تحت رحمتهم ، وهذا هو الحال الذى كانت عليه مصر عندما دخلتها قواتنا .

قلنا إن أميرالحج أو أميرالمحمل كان موكلا بوجه خاص بقيادة الحجاج إلى مكة، وبتأمين طريق العودة لهم . وحيث إن سفر المحمل كان حدثا هاما بالنسبة لمدينة القاهرة بل لمصر كلها، فسندخل فى بعض التفاصيل عن الحفلات التى كانت تتم بهذه المناسبة .

عندما يقترب الموعد المحدد لسفر المحمل يتجمع فى القاهرة كل المسلمين القادمين من أفريقيا، والذين يريدون الانضمام إلى المحمل، ويصل آخرون من القسطنطينية، ومن روميلى، ومن الأناضول، عن طريق البحر، حتى يختصروا جزءا من المسافة التى كان يجب عليهم سلوكها إذا ما اتبعوا الطريق المعتاد . ويعسكر هؤلاء الحجاج خارج المدينة، ويكون عددهم فى بعض الأحيان كبيرا جدا، إذ يخرج من مصر وحدها ما بين ٢٠٠٠ - ٣٠٠٠ حاج . وحيث إن هؤلاء الحجاج مضطرون لاجتياز مناطق شاسعة، تكاد تكون كلها صحراوية، ومبتلاة بعشائر العربان الذين ليست لهم من حرفة سوى السلب والنهب، فإنهم مرغمون على التزود بالسلاح والذخيرة، وتهيئ لهم حكومة مصر فوق ذلك ركبا قوامه ٥٠٠ فارس تحت إمرة أمير الحج، يضيف إليهم هذا القائد بيته العسكرى (مماليكه) وبعض جنود من البرابرة، بالإضافة إلى الرجال العاملين فى خدمة كبار الشخصيات الموجودة بالمحمل . ومن حق أمير الحج أن يرث كل حاج يموت فى الطريق، وليس من حق أحد أن يطالب بشئ من مثل هذه التركات . وتستغرق رحلة الذهاب أربعين يوما، ومثلها فى رحلة العودة، وبذا تمتد فترة المحمل إلى حوالى ثلاثة أشهر . وتبدأ مسيرة المحمل فى السابع والعشرين من شوال، لكن الصعوبة التى نجمت عن فرض إتاوة أصبحت تؤدى - منذ عدة سنوات - إلى تعطيل السفر حتى ٢ أو ٣ من الشهر التالى . ويختار كل حاج أن يركب نوع الدابة التى تروقه، وهم يفضلون

على وجه الخصوص البغال والحمير؛ لأن هذه الحيوانات أكثر من الحصان تحملا للتعب وضروب الحرمان .

وقبل الرحيل بعدة أيام ، تعرض الكسوة أو السجادة المخصصة لتزيين الكعبة فى موكب كبير . وهذاالموكب عيد شعبى كبير، فيذهب كل سكان القاهرة فى جماهير غفيرة إلى الميدان الكبير الذى تطل عليه القلعة والذى يسمى قراميدان، وهناك يسلم الباشا - يحيط به عدد كبير من البكوات مع بيوتهم[1]، ورجال الأوجاقات والأغا وكبار موظفى الحكومة - يسلم السجادة المقدسة إلى يدى أمير الحج بعظمة وخيلاء، وتحرر حجة بهذه الوديعة، وبعد ذلك يكون من واجب كل أئمة المساجد وكل المتدينين بالمدينة أن يصحبوا السجادة، فتحمل على جمل وتمر من باب النصر، ويمضى الموكب إلى معسكر الحجاج، وتوضع السجادة فى صندوق مغطى بأقمشة فاخرة مطرزة تطريزا فاخرا . ومنذ هذه اللحظة يقيم البك أمير الحج وسط المعسكر، ويضرب كل المسافرين تجارا كانوا أو حجاجا خيامهم حول خيمته، ويكون من حق أى منهم أن يشرع فى السفر، لذلك ينتهز كثير من التجار هذه الفرصة الفريدة لكى ينقلوا بضائعهم دون أن يدفعوا رسوم الدخول أو الخروج، فيحملون على ظهور الجمال صبغة النيلة والأصواف وبضائع ثمينة أخرى وكثيرا من الأموال، ويجلبون معهم عند العودة شيلان (شال) الكشمير والموسلين والأقمشة الفاخرة والبن[2] .

(١) يقصد بالبيت عند الحديث عن أحد البكوات كل رجاله ومماليكه .

(٢) من نافلة القول أن تلفت الأنظار إلى أن للحج إلى مكة الذى فرضه محمد أغراضا سياسية أكثر منها دينية، إذ كان يأمل عن طريق الحج أن تزدهر التجارة فى شبه الجزيرة العربية، لتصبح واحدة من أهم أسواق التجارة فى العالم.

وقد تحقق هدفه ولو كان جزئيا، إذ يمكن القول بأن الدافع وراء سفر نصف الحجاج على الأقل ليس سوى مصالحهم التجارية . ويلاحظ مؤلف كتاب : Tableau de l'empire ottoman - ونحن نقره على ذلك - أن « محمدا قد حدد لعيد الأضحى وقت قدوم الربيع حتى يجعل السفر على الحجاج أقل مشقة ، ولكى يسهل فى نفس الوقت نقل وبيع البضائع ، ذلك أن الحج ليس له مبدئيا سوى قصد سياسى يتخفى تحت ستار الدين والغرض الرئيسى منه هو التجارة وإقامة أسواق هائلة ». ولقد تفهم =

ويكون وصول الجمل المقدس [1] إشارة ببدء الرحيل، ويقود هذا الجمل إلى المعسكر جمهور غفير . وعندئذ تطوى كل الخيام، ويتوغل المسافرون فى الصحراء، وبعد أقل من ساعة لا يعود الميدان الواسع الذى كان الحجاج يشغلونه سوى مكان موحش . ويسير أمير الحج فى المقدمة، وتصطف فرق الحراسة على جانبى الموكب، وكذلك عند مؤخرته، ويظلون على هذه الحال حتى وصول الركب إلى مقصده .

ولا نستطيع أن نوفى فخامة هذا الحفل ما يليق بها من وصف، على الرغم من أنها فى الأزمنة الأخيرة قد فقدت الكثير من روعتها التى كانت لها . فقد كان على مراد بك فى معظم الأحيان – وهو الموكل إليه منصب أمير الحج – أن يقاتل العربان فى الصحراء، بعد أن أصبحوا أكثر سطوة بسبب ضعف أسلافه. ولو كان مجرد تأمين طريق المحمل والتجارة التى كانت تحظى برعايته كفيلا بإعادة ازدهارها السابق، لربما كان بمقدور هذا الرجل المقدام أن يفعل ذلك، لكن حوادث السلب، والانتهابات، بالإضافة إلى الحالة المتدهورة للحكومة ... كل ذلك لم يكن يوفر ما يكفى من الأمان للسكان أنفسهم، وهم الذين لم يعد بإمكانهم القيام بأعمال كهذه، أصبحت تعد ضربا من المضاربات غير مأمونة العواقب .

= المسلمون جيدا أهداف المشرع ، بحيث جعلوا من هذه الرحلة أمرا مفيدا فى العلاقات التجارية، ويصعب علينا أن نكون فكرة صحيحة عن الثروات التى تكدست فى مكة، أو تلك التى فى الكعبة وقت الأضحيات. وتتم هناك عمليات تجارية كبرى ، وتكون حركة البيع والشراء والتبادل خلال خمسة عشر يوما عظيمة ، لحد أن الذين يشهدونها لايستطيعون تقدير قيمتها ولو بشكل تقريبى .

(١) يعود ظهور الجمل المقدس فى مواكب الحج بل ووجود هذا الجمل نفسه، إلى خرافات المسلمين وبساطة مفاهيمهم . إذ هم يدعون أن محمدا فى رحلاته قد حمل عرشه (!) على ظهر جمل ، وقد تناسل هذا الجمل بعد ذلك . وقد حرص السلطان على أن يتملك اثنين من هذه الجمال التى تعد مطية النبى المفضلة، ولكن حيث إن من الخطر أن تتعرض هذه الجمال لمتاعب الحج، فإنه يلجأ إلى جمال أخرى يقال إن لها نفس الأصل وتربى فى دمشق وفى القاهرة . وهذه الجمال أقل تكلفة، وتقوم بالرحلة إلى المدينة المقدسة . وتخليدا لذكرى أن محمدا كان يقوم بأسفاره على الدوام من مكة إلى جبل عرفات على جمله فإن الحجاج يحرصون دائما أن يصحبوا جمل القاهرة المقدس، وكذا جمل دمشق المقدس، فى كل الأسفار التى ينبغى عليهم القيام بها فى اليومين اللذين يسبقان ذبح الأضحيات .

٤

القضاء

يرتبط القضاة الموكلة إليهم مهمة إقامة العدالة فى مصر بالهيئة القضائية الإسلامية التى مقرها القسطنطينية، ومن بين امتيازات الباب العالى حق اختيار القضاة من الدرجة الأولى، كما أنه قد احتفظ لنفسه بحق تعيين باشا. ولكن إذا كانت سلطة الباب العالى فى تعيين الباشا ليست سوى وهم، وإذا كان نفوذ ممثله قد تضاءل لحد العدم شبه التام، فإن الأمر لم يكن كذلك بخصوص إدارة القضاء. إذ لم يكن فى هذا الأمر ما يتعارض مع رغبات المماليك، أو ما يضعف من نفوذهم السياسى، لذا فقد قبلوا عن طيب خاطر أن يرسل إليهم السلطان رجالا موكلين بتلك المهمة الصعبة : مهمة تطبيق الشريعة ، بل إنها لمشقة وفرها هو عليهم. وعلى هذا فإنه لم يحدث مطلقا أن عارض المماليك سلطات القسطنطينية القضائية فى حق تعيين رؤساء المحاكم بمصر، بل إنهم باستقبالهم لهؤلاء القضاة الذين لن يؤثروا مطلقا على نفوذهم السياسى، كانوا يهيئون لأنفسهم مزية لا تكلفهم شيئا على الإطلاق، تلك هى مزية تقديم الدليل على الولاء للسلطان.

ويشكل القضاء فى تركيا على نحو ما طائفة مهنية، لها رؤساؤها الخاضعون للإشراف المباشر للمفتى الأكبر (١)، وكل مناصب هذه الهيئة قابلة للتغيير،

---

(١) المفتى والصدر الأعظم هما أكبر شخصيات الدولة بعد السلطان، وتتكون الهيئة القضائية من علماء كبار. وفى عهد السلاطين الأول كان العلماء ينقسمون إلى ثلاث درجات : الأئمة (إمام) وهم الموكلون بالعبادات ، المفتى أى فقيه الشريعة ، ثم القضاة : فقهاء العدل . وهؤلاء الأخيرون هم أكثر الجميع امتيازا، وقد منح مراد الأول أكبر القضاة لقب قاضى العسكر، وأنشأ محمد الثانى منصب قاضى عسكر ثان، وأعلى عليهما سليمان الأول مفتى العاصمة، وهو الآن شيخ هيئة العلماء، ويحمل لقب شيخ الإسلام. و صدارة المفتى مقصورة على قضاة العاصمة، ويشكل قاضى عسكر الأناضول المحكمة الثانية فى الامبراطورية، ويحكم باسمه فى كل القضايا المتصلة بالمواريث فى كل أقاليم آسيا، وهذه واحدة من المهام الأساسية لوظيفته. ويدفع له كل شهر مبلغ يتفاوت قدره من رؤساء قرى ومقاطعات ولايته . وقد أصبحت وظيفة القاضى قابلة للتغيير كل عام عند نهاية القرن الأخير، وكان من النادر أن يشغل الشخص نفسه الوظيفة الواحدة مرتين إلا إذا اتخذت ترتيبات معينة مع خلفه، وكانت وظيفة الصدر الرومى – وهى التى تعلو كثيرا على مركز قاضى عسكر الأناضول – هى وحدها التى تستثنى من هذه القاعدة .

ـغييرات فيها بالغة الشيوع، ويمكن لنفس الشخص أن يصبح - بالتناوب -
ىلا وظيفة أعلى أو أدنى من تلك التى كان يشغلها. ويقوم أحد كبار أعضاء هذه
رة القضائية بتعيين كل قضاة مصر، وعددهم ٣٦ قاضيا بما فيهم قاضى
ـكر المكلف بإدارة شئون القضاء فى القاهرة، والذى يعتبر القاضى الأول فى
يم. وعلى الرغم من صدارته على كل القضاة الآخرين بسبب علو منصبه وكبر
، وما له من اعتبار، فإن القضاة الآخرين لم يكونوا تابعين له، إذ كانوا يتبعون
ـطنطينية مباشرة. ومعظم هؤلاء القضاة يجهلون لغة البلاد، وكان قاضى
ىكر على الدوام يستعين بمترجمين، كانوا يقرأون النصوص ويترجمونها كما
، لهم، كما كانوا يحصلون إتاوات شتى .

وقلما كانت مدة ممارسة أى من هذه الوظائف تتجاوز السنتين، بل كثيرا ما
يخرج القاضى من وظيفته بعد عام واحد . وكان كل واحد من هؤلاء القضاة
ى عند رحيله من القسطنطينية قرارا يحدد الولاية التى سيدير شئون القضاء
، كما يحدد المدة التى سيقضيها فى وظيفته، وإذا لم يتلق القاضى بعد هذا
ر أمرا بتثبيته فإنه يوقف مباشرة أعماله القضائية . وقد جرت العادة فى هذه
ل أن يترك مقره المعتاد كشئ انتقالى إلى أن يتم تثبيته أو وصول بديل له .
هذه الفترة يتولى رجل الشرع العمل نيابة عن القاضى، ويستلزم هذا الأمر
رسم إلى القاضى المساعد بالمحكمة. وكان قاضى العسكر عادة لا يبقى فى
، إلا لعام واحد، ثم يمضى بعد ذلك إلى وظائف أخرى، وعندما يصل القاضى
يد من القسطنطينية، فإنه فى غالب الأحيان يبيع الوظائف التى كانت فى
ته إلى سلفه ، ولسنا نعرف مقدار الثمن الذى يمكن أن يبلغه هذاالنوع من
خيص، ولا المبلغ الذى يفرضه صاحب الوظيفة حتى يتنازل عنها، وكانت هذه
نقات تتم بالتراضى بين الطرفين، وبهذه الوسيلة كان القاضى يظل فى عمله
بلغ أربع أو خمس سنوات .

وإذا ما لاحظ الباشا المقيم فى القاهرة بعد انقضاء عمل القاضى أن مساعد هذا القاضى ليس جديرا بأن يخلفه فى عمله، فإن بإمكانه أن يكلف الإمام الخاص به بهذا العمل الهام، وبهذه الطريقة اختار إبراهيم بك منذ عدة سنوات - عندما كان فى منصب قائم مقام - الشيخ العريشى لكى يقوم بصفة انتقالية بمهام القاضى، بسبب غيبة إمام الباشا .

وكان نفوذ قاضى القاهرة يمتد إلى مصر القديمة وبولاق، أما الجيزة فكانت لها محكمة خاصة بها، وكان القاضى يعين ممثلين عنه فى دوائر القاهرة المختلفة: ٩ فى المدينة، واحدا فى بولاق، وآخر فى مصر القديمة، وكان هؤلاء القضاة المرؤوسون، الذين لهم بدورهم مساعدون، يفصلون فى القضايا باسم القاضى. وعندما كان يتغير قاضى العسكر، كان هؤلاء القضاة يشترون من خلفه حق التثبيت فى وظائفهم. وكان من المتبع فى البداية حسب الأنظمة السائدة أن يفصل فى كل القضايا المقدمة إلى دائرة ما، ثم حدثت فى الآونة الأخيرة مجموعة من التجديدات فى هذا النوع من فروع الإدارة كما فى بقية فروعها، وترفع القضايا الكبرى عادة إلى محكمة القاضى، الذى يكلف أحد ممثليه بالانتقال إلى مكان الجناية، والبدء فى التحقيق .

ويتسلم القاضى عند دخوله الوظيفة فرمانا من الباب العالى يعهد إليه بوظيفة قاض، ويخول له أن يختار العدد الذى يراه مناسبا من المساعدين، ومع ذلك فقد كان هذا العدد محددا بفعل العادة التى لها فى الولاية الإسلامية قوة القانون .

والحكم فى أية قضية لا نقض له [1] ، ومع ذلك فقد وضع الدين شروطا مقيدة تنفى عن هذا الإجراء التشريعى صفة الإطلاق. فعندما تكون القضية خطيرة أو عندما تحظى باهتمام الشخصيات الكبيرة ، فإن القاضى يستضئ بنصائح رجال

(١) نقرأ فى مجموعة فتاوى المفتى بهجت عبد الله أفندى أن كل قضية تحمل إلى القضاء وتفحص ويفصل فيها لا تحمل إلى القضاء مرة أخرى .

الشرع، ويستطيع الأطراف أن يحصلوا مقدما على نوع القرار الذى يصدره المفتى. ويلجأ القضاة عادة إلى هؤلاء المفتين، ولرأيهم سلطة معترف بها، ويصدر المفتى على الدوام فتواه أو رأيه القاطع، وإذا كان حكم القاضى قد صدر فهو عندئذ بمثابة قضاء من عند الله، ومع ذلك فإذا حدث أن أجمع مفتو المذاهب المختلفة على نقض قرارات القاضى، فإن القاضى يعترف بخطئه ويسحب حكمه الأول

والقوانين التى يحكم بمقتضاها كلها مكتوبة، وتستخلص أصولها من القرآن، وتفسيرات هذا الكتاب السياسى والدينى هى ثمرة عمل جمهور كبير من المفسرين، نميز من بينها كتب أئمة المذاهب السنية الأربعة، وهذه المذاهب هى : الحنفى، المالكى، الشافعى، الحنبلى . وكل علماء مصر تقريبا يتبعون المذهب الثالث، ومع ذلك فإن القضاء فى مصر – ومنذ ثلاثة قرون – يتم وفقا لأحكام المذهب الحنفى السائد فى القسطنطينية .

أما مهام قاضى العسكر المختلفة فهى :

١ – الفصل فى القضايا .

٢ – اختيار أئمة المساجد .

٣ – إدارة الأوقاف الخيرية .

٤ – تقسيم التركات .

٥ – تحصيل الرسوم المقررة على بيع ونقل الملكيات .

ومصاريف القضاء – كقاعدة عامة – تحصل من موضوع النزاع، أو من الشخص الذى يحكم لصالحه ، ويعتبر المسلمون أن فرض مصاريف على الشخص الذى لم يحكم لصالحه عمل متناقض وبالغ القسوة. ويفصل فى القضايا عادة على الفور، ومع ذلك فثمة قضايا يستغرق فحصها عدة أيام، بل يصل الأمر أحيانا إلى شهرين أو ثلاثة شهور .

وفى كل قضية نميز أربعة أطراف : القاضى، المدعى، المدعى عليه، موضوع النزاع . ولا يفصل فى أية قضية ، أو تحدث أية إدانة عن الأخطاء ، فى غيبة واحد من هذه الأطراف. وعندما يرفض المدعى عليه الحضور فإنه يستدعى بالقوة، وعندما لا يستطيع أحد الأطراف أن ينتقل إلى المكان الذى تنظر فيه القضية، يقوم القاضى بتعيين شخص مشهود له بالاستقامة والنزاهة ليمثله. وكل طرف يدافع عادة عن موقفه، ويمكنه أن يعهد بذلك إلى رجل شريعة أو إلى صديق. ولا يتلقى الشهود مطلقا أجرا على شهادتهم، ويمكن دعوتهم إلى القسم، لكنهم ليسوا ملزمين بذلك، لكن المذهب المالكى وحده هو الذى يحتم ضرورة القسم .

ولم تكن مصاريف القضاء قبل مجئ الحملة منظمة، وكان قاضى العسكر أو ممثلوه يحصلون حوالى ٢/١ ٢ ٪ من قيمة الأشياء موضوع النزاع، لكنهم فى العادة كانوا يفرضون رسما أكبر، وكان ذلك أمرا بالغ السهولة لدرجة أنهم كانوا يحددون حسبما يتراءى لهم رسوم القضايا . ومن هنا كانت مصاريف الدعوى تصل فى بعض الأحيان إلى ٨ ٪ أو ١٠ ٪ بما فى ذلك أجور الكتبة والمترجم . وقد وضع الفرنسيون حدا لهذه الانتهابات البربرية كما سبق أن قلنا ، ومع ذلك، فإذا كان رافع الدعوى شخصية كبيرة فإن القاضى لا يستطيع أن يفرض رسما أكبر من ٢/١ ٢ ٪ . وفى نفس الوقت لم يكن القاضى يتقاضى شيئا من الفقراء، ونادرا ما كان ينقض ما يعلنه مسلم أمامه من أنه فقير . ومن المبادئ التى تشيع بين القضاة أن الفقير طرف له قداسته .

هكذا وضع العرف والأخلاق حدودا لجشع القضاة، بل لقد لوحظ أن قاضى العسكر – وهو رجل ذو طباع حادة وله سطوته واحترامه – كان يكتفى بما يقدم له دون أن يفرض بنفسه شيئا، حتى يحتفظ بتقدير الكبار وحب العامة . ومنذ أن تغلبت سطوة البكوات فى مصر، اعتاد القضاة ألا يطلبوا رسوما من أولئك الذين يخلع عليهم البكوات حمايتهم (١) .

(١) يحدث عادة ألا تسمح طبيعة الشئ المتنازع عليه بتحصيل رسوم، مثال ذلك عندما تكون الشكوى مقدمة عن أشخاص وليس عن ممتلكات ، لكن أمورا من هذا النوع تنتهى عادة عند الشرقيين بأن تقوم بثمن ، وهكذا أصبح القاضى يحصل رسومه فى مثل هذه القضايا بفرض نوع من الغرامات النقدية .

وكانت الأحكام التى يصدرها ممثلو القاضى ، بالرغم من كونها مختومة بخاتمه ، تخضع فى حالات كثيرة لنوع من النقض، وخاصة فيما يختص بالإجراءات التى تتخذ ضد المتنازعين المتخالفين، أو فيما يختص بالأحكام التى تحدد التعويضات التى يلتزم بها الأزواج ، ويمكن لقضايا من هذا النوع أن تحمل من محكمة لأخرى، وهكذا حتى يأخذ القاضى علما ويصدر فيها حكمه النهائى .

سبق أن قلنا إن قاضى العسكر يشترى وظيفته من القسطنطينية، ويدفع التزامها إلى رئيس قضاة الأناضول وإلى شيخ الإسلام. ولم نستطع أن نستدل على مقدار ما يدفعه للأول، لكن الثانى كان يتلقى منه عشرة آلاف مدينى فى الشهر [1] . ولتعويض كل ذلك كان قاضى العسكر يفرض على ممثليه إتاوة لا تتجاوز فى بعض الأحيان ٩٠٠ مدينى فى الشهر، ويستطيع هؤلاء القضاة المرؤوسون أن يحصلوا فى مقابل ذلك ثروة طيبة فى وقت قصير . وثمة كثيرون منهم يفصلون فى قضايا كثيرة للغاية، لكنهم لا يدفعون أكثر مما هو مقرر، ومن الصحيح أنه لا يسمح لهم بالفصل فى كل هذه القضايا، لكنهم يرفعون رسوم التقاضى إلى ٨ - ١٠ ٪ ، لذا يسهل عليهم على الدوام أن يكونوا ثروات ضخمة فى وقت قصير .

رأينا من قبل أن وظائف القضاة الـ ٣٦ كانت تباع فى القسطنطينية لرجال

---

(١) يشغل وظائف القضاة الستة والثلاثين فى مصر، قضاة من الدرجة الرابعة، وهم ينقسمون إلى ست درجات، وقد جعل سليم الأول من حق بعض هؤلاء أن يستمروا فى مناصبهم . وهؤلاء القضاة هم مساعدون أو نواب، ويشكلون الدرجة الخامسة فى السلم القضائى، وليس من الضرورى أن يكون منصب هؤلاء قابلا للتغيير. وهم يشترون وظائفهم من القاضى فى شكل التزام أو فى شكل مخالف، لذا كانوا يستمرون فى مراكزهم لأية فترة حسب أهواء رؤسائهم . وعندما كانت تنقضى مدة القاضى، كان هؤلاء النواب الذين يرون من صالحهم الاستمرار فى مناصبهم يسارعون بتقديم ولائهم للقاضى الجديد، ونادرا ما كان يرفض واحدا منهم إلا إذا كان ثمة ضده شكاوى من نوع خطير .

مشهود لهم بالاستقامة، وكانت النتيجة الطبيعية لنظام من هذا النوع أن كل قضاة مصر كانوا غرباء على البلاد التى عليهم أن يمارسوا فيها وظائف على مثل هذه الدرجة من الخطورة. وبالرغم من أن أحدا من المواطنين لا يستطيع فى ظل السيطرة العثمانية أن يرنوا إلى وظيفة قاض، فقد رأينا فى السنوات الأخيرة كثيرا من المحاكم يرأسها مصريون، حيث لم يكن الأجانب الذين يصلون إلى مصر ومعهم فرمان تعيينهم فى وظيفة قاض، يلزمون أنفسهم على الدوام بالعمل فى سلك القضاء، بل كانوا يبيعون وظيفتهم، إما إلى سلفهم كما سبق لنا القول، وإما إلى رجل آخر من رجال الشرع يستطيع أن يدفع الثمن. وسعر هذه الوظائف غير معروف لنا على وجه التحديد، ومع ذلك فيبدو أنه لم يكن يجاوز ٤٠ ألف مدينى فى العام لوظيفة تدر دخلا متوسطا .

وفى أثناء احتلال القاهرة من قبل الفرنسيين، أغلقت لبعض الوقت كثير من المحاكم الخاصة فى المدينة، وتوقفت العلاقات المدنية الصرف بين السكان، وحيث إن المصرى بطبعه شكاك وخجول فى نفس الوقت، فقد كتم المصريون شكوكهم، وبدأوا وكأنهم قد انهمكوا فى أعمالهم مراعين نفس الدرجة من الأمن التى كانت سائدة فى الماضى . ولم نعرف - نحن الفرنسيين - إلا بعد وقت طويل حقيقة التأثير الذى أحدثه فى النفوس مثل هذا الإجراء الشاذ، لكن الاعتدال الذى سيطر بعد الغزو قد طمأن بشكل (لاشعورى) من روع هذا الشعب، وهو الذى ما يزال يتذكر فظائع حسن باشا أثناء حملة ١٧٨٦ .

وعندما بدأت الإدارة الفرنسية تحظى بنوع من الاستقرار، أى بعد الاحتلال بعام، افتتحت كل الغرف القضائية التى كانت قد أغلقت بصفة مؤقتة فى البداية، وأعطى القائد العام للجيش أوامره فى هذا الخصوص بعد اطلاع على تقرير قدم إليه، وكلف قوميسير الحكومة لدى ديوان القاهرة بالتأكد من تنفيذ ذلك. وعندئذ نظمت رسوم التقاضى ، وتحددت بنسبة ٢ ٪ من قيمة الشئ موضوع النزاع، وتوزع حصيلة هذا الرسم بين القاضى والكتبة. ولم تحدث أية تعديلات أخرى فى

إدارة القضاء، وسارت الأمور على نفس نظامها فى الماضى، وبدأت ثقة الناس التى كانت قد تزعزعت لحين تعود منذ الآن، ومنذ هذه اللحظة بدأ المنتصرون يجنون ثمار انتصارهم .

ومع ذلك فإن نظام التعيين فى الوظائف القضائية لم يعد هو نفسه ما كان فى الماضى، واتخذت لذلك الإجراءات اللازمة. فثبت كل رجال القضاء الذين كانوا قائمين بالعمل فى مناصبهم، وعزل قاضى العسكر الذى كان من أنصار أمير الحج، وخلفه فى منصبه الشيخ العريشى، وهو الذى ظل فى هذا المنصب حتى نهاية الاحتلال .

وإذا ما تأملنا لحظة نمط الأنظمة القضائية العثمانية وطريقة اختيار رجال القضاء، فإننا سنجد فى هذه الوقائع نفسها منبع المساوئ التى كان ينبغى أن تنجم عن هذه الوقائع بالضرورة . وفى الواقع، فإن رجال القضاء الغرباء، بجهلهم لغة البلاد التى ذهبوا إليها ليرسموا قدر وكرامة ونمط حياة مواطنيها، لم تكن تحركهم أية عواطف من تلك التى تفرض نزاهة القضاء، كما أن اعتبارات المواطنة واعتبارات القربى التى لها على الدوام تأثير كبير على القلوب لم يكن لها على الإطلاق وجود عندهم، وحيث إنهم قدموا قبضات من الذهب حتى يتولوا أمر محكمة ما، فمن الطبيعى ألا يكون سيف العدالة الذى يضعه القانون فى يدهم سوى أداة للإثراء . فكانوا يستخدمونه وسيلة لتعويض الأموال التى أنفقوها، بل ولتكوين ثرواتهم الخاصة، ووجهت الوسائل الكبرى التى فى حوزتهم نحو نفس الغرض، غرض تكديس الأموال، لذلك فإنهم لم يدعوا أية فرصة تفلت دون أن يستغلوها لتنمية ثرواتهم . أما أولئك الذين يخفف حب العدل والإنسانية عندهم من جموح ذلك التعطش إلى المال، فقد كانوا أكثر ميلا للعدالة، بينما لم يكن يكبح جماح الآخرين إلا الخوف من تدهور سمعتهم . وفضلا عن ذلك فإن العادة التى سادت فى مصر، عادة بيع أو تأجير وظائف بمثل هذه الدرجة من الخطورة من شخص لآخر، هى واحدة من تلك المساوئ الشيطانية التى لا يمكن لأية حكومة

عاقلة أن تتساهل فيها، إذ هى نوع من الفوضى أو الخيانة لا يسمح بقيامها إلا البرابرة .

ولنعد إلى ممارسة الوظائف القضائية: يحوز حكم القاضى فى معظم الأحوال قبول كل الناس المتنورين، وقد يكون من الظلم أن نوجه إلى رجال القضاء هؤلاء، ذلك الاتهام القاسى بالمحاباة أو الفساد، وهو الاتهام الذى يوجهه كثيرون إلى القضاة المسلمين عامة، إذ لا يمكن لقاض أن يتجاسر ويصدر حكما قليل التطابق مع روح الشرع، أو منحازا بشكل ما لمصالح الطرف الذى يريد أن يعمل لصالحه، إلا فى حالة واحدة، هى تلك الحالة التى تكون نصوص القانون فيها غامضة، وتحتمل التفسير على وجوه عدة مختلفة أو متعارضة. لكن المساوئ تنجم بشكل أكبر عن ذلك التقدير العشوائى والجائر لتقدير رسوم التقاضى، ويتهامس الناس حول تحصيل هذه الرسوم بشكل غير معتاد. وفى القاهرة تنهض الصفات الشخصية لقاضى العسكر، وكذا الرقابة التى يمارسها العلماء، بل وحكومة المماليك - بحماية الشعب على نحو ما ضد جشع القضاة والكتبة، لكن الأمر لا يسير على هذا النحو فى الأقاليم، حيث يستطيع القاضى هناك أن يستوثق من صداقة وحماية البك حاكم الإقليم عن طريق تقديم الهدايا أو أية وسيلة أخرى، وبذلك يكون حرا من كافة القيود وهو يقوم بتقدير رسم يفوق بكثير ذلك الرسم القانونى. ومع ذلك فمن الصحيح أيضا أنه حتى فى هذه الظروف، كان القضاة يستطيعون كبح جماح جشعهم. وكانوا فى بعض الأحيان يتظاهرون بفرض رسوم لصالح كتابهم ومرؤوسيهم، على الرغم من أن هؤلاء لم يكونوا يحصلون مطلقا إلا على قدر ضئيل من هذه الرسوم، وكان هؤلاء يلجأون فى معظم الأحيان إلى وسائل مشابهة .

سبق لنا القول بأن أحكام القاضى تصدر بلا نقض، وأن الدين يعالج جزئيا تلك المساوئ الناتجة عن مثل هذا التفويض الواسع الممنوح للقاضى بفعل العادة، حيث العادة فى مصر كما فى كل أجزاء الامبراطورية العثمانية هى كل شئ، بل

يمكن القول بأنها هى التى تصنع القانون . لذا فإن العادة التى يعتادها أمير أو رجل قضاء أو حتى ضابط صغير وهو يتعامل مع من هم دونه، تصبح إلزامية لكل من يقومون بنفس هذه الأعمال . وتبرهن مثل هذه المساوئ على ضرورة إرساء النظام القضائى على أسس ثابتة ومستقرة ، وهذه الحاجة التى تتضح أهميتها يوما بعد يوم لا تجد الاستجابة الواعية من جانب الحكام، أو قل إنها بالأحرى تقع تحت رحمة روتين غير قابل للهزيمة، لحد يفضل معه الحكام أن يتحملوا مساوئه تلك عن أن يبتعدوا عنها .

وتنهض العدالة فى مصر على أساس المذهب الحنفى، ولا يمكن أن يحدث الأمر على نحو آخر، حيث إن كل رجال القضاء الذين ترسلهم القسطنطينية يتبعون هذا المذهب، وهو نفس مذهب السلطان نفسه ، وكذا شريف مكة . وقد بدأ هذا الأمر منذ بداية القرن السادس عشر، ومن المحتم أن يكون سليم غازى مصر هو الذى وضع أساس ذلك، حيث إنه هو الذى أقام حكومته على نفس الأسس التى تنهض عليها اليوم . ومع ذلك فحيث إن المذهب الشافعى هو السائد فى مصر، وحيث إن كل شيوخ الأزهر يتبعون هذا المذهب فربما كان من الأفضل الامتثال لأحكام هذا المذهب، وتلك مسألة تتطلب دراسة عميقة أولى بها أولئك الذين يعنيهم الأمر .

وطيلة فترة الاحتلال الفرنسى لم تحصل أية رسوم عن التعيين فى الوظائف القضائية، ويبرر ذلك تواضع الدخول التى يمكن تحصيلها من مثل هذا الأمر.إن من الممكن إلغاء هذه المساومة على وظائف بهذه الخطورة دونما تأثير كبير على خزانة الدولة، ومن المعروف أن هذه المساوئ لم تكن تحدث مطلقا فى عهود الخلفاء، وإنما بدأت مع بداية الحكم المملوكى، ثم دعمتها العادة، ودعمها كذلك وبدرجة أكبر، ذلك النموذج التركى الذى تسوده مثل هذه العادات .

٥

عن الحقوق المدنية

الملكية

لا شك أن النظام الذى يساهم فى ربط المواطنين بمسقط رأسهم، هو واحد من أهم النظم الوطنية، ونحن هنا نتحدث عن نظام الملكية، هذا الحق الطبيعى الذى كرسه كل المشرعين ، ولا يخرقه أو ينكره سوى البرابرة . لكن طغاة مصر، عندما ألقوا تحت أقدامهم بكل مبدأ حكيم وعادل، لم يحترموا هذا الامتياز المقدس، الذى هو فى جملته أساس لضمان السعادة الاجتماعية . فثمة كثير من المزارعين الأحرار على ضفاف النيل قد أصبحوا مجرد فلاحين أجراء، أو عبيدا مطحونين تحت وطأة تلك الضرائب الباهظة، يفلحون هناك - وفى حلوقهم غصة - أراضى خصبة، لكنهم لا يستطيعون أن يجنوا لها ثمارا . فهذا الوادى الخصيب فى الفيوم، وتلك السهول الخصبة فى الدلتا، التى كانت غزيرة الإنتاج تحت حكم الفراعنة والبطالمة بل وتحت السيطرة العثمانية، لا تنتج الآن بالكاد ربع ما كانت تنتجه فى الماضى . ومن السهل أن نلتمس أسباب ذلك التغيير المحزن، لكننا لا ينبغى أن نبحث عن التفسير عند الطبيعة أو عند تقلبات الطقس مهما كانت عنيفة، فالنهر على الدوام هو نفس النهر، وفيضانه السنوى - شأنه شأن الماضى - يأتى كل عام ليروى الوادى . فقط اختفى الأمل، فما عاد يلهب حماسة الفلاح ولا عاد يستثير همته، إذ هو يعلم الآن أن ثمة أجنبيا بغيضا هو الذى سيحصل على ثمن عرقه هو . نعم، ماذا سيعود على الفلاح لو أنه عمل على إنماء محصولات جديدة، ما دامت لن تعود عليه ولا على أولاده خيراتها ؟ إنه يبذر البذور وهو حانق، ويجنى محصوله وهو خائف، ويعمل جهده ليخفى عن نظرات طغاته الجشعين قدرا ضئيلا من الحبوب ، يمكنه أن يحصل به على بعض احتياجات أسرته العديدة . فالفلاح فى هذه البلاد البائسة ليس بمالك للأرض، وليس بمقدوره أن يكون ذلك ، إنه ليس

بصاحب للأرض، ولكنه قن لها منذ ولادته، يعمل لحساب تلك العصبة التى قهرت وطنه واستذلته، إنه رقيق الدولة فى اسبارطة القديمة، وعبد المستعمرات الأمريكية التعس ! .

يرتبط توزيع الأرض فى مصر بعدد قراها، إذ تمتلك كل قرية مساحة من الأراضى القابلة للزراعة تتفاوت مساحتها. وتنقسم أراضى كل قرية إلى ٢٤جزءا. ويبلغ عدد القرى فى كل الوادى ما بين ٢٥٠٠ - ٣٠٠٠ قرية كبيرة أو صغيرة : منها ٤٠٠ من أسوان إلى المنيا ، ٥٠٠ من المنيا إلى القاهرة بما فى ذلك الفيوم، ٦٦٠ فى الدلتا، ١٠٠٠ فى بقية المناطق[١] .

وهناك بعض الأفراد يتسمون باسم الملتزمين (ملتزم)، وهؤلاء هم الذين يمتلكون أراضى هذه القرى امتلاكا فعليا، ويعنى الفلاحون باقتسام هذه الأرض بينهم وبين هؤلاء الملتزمين، ولكن انظر إلى أى حد تضاءلت حقوق الفلاحين، وإلى أى حد وصلت سطوة الآخرين ! .

إن مالك عدد معين من القراريط يحصل من الفلاح الذى يفلحها ضريبة ثابتة كانت قيمتها فى الماضى محدودة، وتسجل هذه الضريبة باسم المال الحر. وبخلاف ضريبة المال الحر التى تلزم القوانين الفلاح بها، قام الملتزمون بتحميل الفلاح بعدد هائل من الضرائب والإتاوات لم تكن موجودة قط من قبل، أو كان ينظر إلى بعضها فى البداية على أنه - على الأكثر - مجرد هدايا، لكنها بمرور الزمن أصبحت ضرائب إجبارية واجبة الدفع، ومسجلة، وتحصل بقسوة بالغة . وتسمى حصيلة كل هذه الرسوم التى ينظر إليها السكان باعتبارها نتيجة لقهر وطنهم : "البرانى"، وتحمل هذه الضرائب أحيانا اسم : "مضاف" ، كما لو كان للإشارة إلى

---

(١) لعل التقدير الأخير مبالغ فيه، ولعل تقدير عدد قرى الدلتا أقل من الواقع . لمزيد من التفاصيل انظر دراسة جاكوتان Jacotin عن مساحة أرض مصر، وكذلك دراسة چومار Jomard عن المقارنة بين سكان مصر فى الزمن القديم وسكانها الحاليين .

أنها مستقلة عن بقية الضرائب، وأنها أضيفت أو زيدت على الضرائب المشروعة . ويحصل الملتزم مجموع هذه الضرائب : المال الحر والبرانى، ومن هذه الحصيلة يدفع الميرى، وهو الضريبة الثابتة والمقررة بموجب قانون إدارى قديم (١) ، وهو يحصل باسم السلطان بواسطة الموظف الذى يمثله. ويتحمل المصريون هذه الضريبة أكثر مما يتحملون الضرائب الأخرى، إذ هى فى نظرهم اعتراف بسيادة السلطان ، ولأن لها طابعا مشروعا .

ويشكل ما يتبقى من المال الحر بعد سداد الميرى ما يسمى بالفايظ (الفائض)، ويكون بالإضافة إلى البرانى مجموع ما يحصل عليه الملتزم من فوائد . لكن عليه فى نفس الوقت أن يدفع - خصما من هذه الفوائد- مصاريف إدارية كبيرة، وفاء لمسئوليات تقع على عاتقه، ليس من بينها أية مبالغ مخصصة للفلاح، لا تعويضا عن فلاحته للأرض، ولا كمقابل لمجهوده أيام الحصاد .

ويورث الفلاح لأبنائه حق زراعة الأرض التى فى حوزته، وعلى هؤلاء أولا أن يدفعوا للملتزم نوعا من رسوم التقلد، وينظر لهذا الرسم باعتباره هدية أكدتها العادة، ومع ذلك فنادرا ما يسددها الفلاحون بالرغم من أن للملتزم حق تحصيلها . وتبلغ هذه الضريبة ثلاثة أمثال عائد الأرض المنزرعة، ويمكن للملتزم حسب تساهله أن يتنازل عن جزء منها أو يتنازل عنها كلية إذا كانت الأرض ضعيفة، ولكن إذا رفض الفلاح المورث أن يسدد هذه الضريبة بالرغم من أوامر وتنبيهات المالك الملتزم، فإن الأخير يستطيع أن يرغمه على ذلك بمنعه من استغلال الأرض التى كانت فى حوزة أبيه. فانظر إذن بأية طريقة وبأى ثمن يستطيع الفلاح المصرى أن يورث أبناءه إرثه التعس .

ومن نافلة القول أن نلفت النظر إلى أن الفلاح لا يستطيع أن يبيع الأرض التى يزرعها ، حيث إن ملكيتها الحقيقية ليست فى يده، ومع ذلك فقد كان له الحق

---

(١) يدفع الميرى عينا أو نقدا ، ويدفع جزء منه فى الصعيد عينا .

فى أن يؤجرها لبعض الوقت، ويظل يحتفظ لنفسه بحق الرجوع إليها. وعندما يكون الفلاح معسرا غير قادر على سداد ما عليه، فإن الملتزم يستدعيه أمام القاضى، ويثبت عن طريق شهود أنه لا يستطيع تحصيل شئ منه، أى من الفلاح، وعندئذ يعزل المسكين من الأرض، ويصبح لسيده الحق فى إحلال فلاح آخر محله. ويرشح الفلاح الجديد عادة عن طريق شيخ أول القرية، ويقبل الملتزم هذا الاختيار، لكن ذلك لا يعنى أن الفلاح القديم قد انتزع من أرضه بغير عودة، فيكفى أن يستطيع دفع الأقساط المتراكمة عليه لكى يحصل من جديد على أرضه. ومن جهة أخرى فإذا حدث أن وقع ضرر بين وبالغ القسوة على الفلاح على يد الملتزم، فإن بمقدور الفلاح أن يهجر حقله ، و فى هذه الحالة يقوم شيخ الفلاحين والملتزم بإحلال فلاح آخر محله .

ولا ينبغى أن ننسى أنه ليست للقوانين الوضيعة – لا فى هذا المجال ولا فى أى مجال آخر بمصر – لا الدقة ولا الفاعلية التى للمؤسسات والأنظمة الأوربية. ويمكن القول بأنه ليست للقانون – المكتوب على ضفاف النيل – إلا أهمية ثانوية، بينما يرسم العرف أوامر وأحكام رجال القضاء، كما أنه هو الذى يبرر تلك الابتزازات الإجرامية للرجال القادرين من كل الطبقات . ونتيجة لهذه السوءة البربرية فإن الفلاحين يعيشون فى شكل عبودية أكبر بكثير مما ينبغى، فأقدارهم تحت رحمة نزوات الملتزم الذى يستطيع – حسبما يتراءى له – أن يودى بهم إلى حالة من البؤس المفزع، أو أن يهيئ لهم عيشا رغدا . إن هذه الأوضاع الشيطانية فى مجموعها ليست أقل سوءا من بقية الأمور التى تستوجب نظاما تشريعيا جديدا فى مصر (١) .

---

(١) يمكن القول بأن الأراضى – فى المنطقة المحيطة بحلب – مقسمة بين السلطان الذى يحصل الميرى من الملاك، والمالك الذى يقدر لنفسه دخلا سنويا عينا ونقدا، والمزارع الذى يحتفظ لنفسه بجزء من ثمرات جهده . وثمة سكان من القسطنطينية يمتلكون أراضى فى هذه المنطقة .

وللملتزم الحق أن يبيع التزامه، وعندما يحدث ذلك يقوم الملتزم الجديد بدفع الميرى بدلا منه . وبخلاف الأرض التى يزرعها الفلاحون فى القرية ، ثمة جزء من أرض هذه القرية لا يخضع لنفس النظام، حيث يمكن القول بأن هذه القطعة مقسمة بين الملاك (الملتزمين) بنسبة عدد القراريط التى يملكونها من أرض القرية ، وتسمى هذه الأرض : الوسية (١) . ولا يقوم الفلاحون بزراعة هذه الأرض بنفس الطريقة التى تنظم زراعتهم للأراضى الأخرى، بل إن الملتزم يستخدم فيها من يشاء بالشروط التى تتراءى له . ومع ذلك فعندما يبيع التزامه فى أرض الفلاحين فإنه يبيع كذلك الجزء الذى فى حوزته والمقابل لتلك فى أرض الوسية ، إذ لا يمكن أن تنفصل هاتان الملكيتان .

ويرث أبناء الملتزم الالتزام عن والدهم، لكنهم لا يخلفونه إلا بعد موافقة الباشا. وفى هذه الحالة يحصل هذا الضابط - باعتباره ممثلا للسلطان- على جعل يصل إلى ثلاثة أمثال قيمة الفايظ السنوى غير مشتمل على البرانى، ويؤكد الباشوات هذه الضريبة بأن يدفعوا إلى بلاد القسطنطينية جزءا من عائد عقودهم هذه . ويعدل الباشوات فى معظم الحالات من المبلغ المفروض كضريبة إرث، ويمارسون فى هذا الخصوص نحو الملتزمين ما يمارسه هؤلاء نحو الفلاحين فى نفس الظروف، وينظرالمصريون إلى ضرائب الإرث هذه باعتبارها استردادا للأرض، وهكذا يصبح أبناء الملتزم أصحاب حق فى الحصول على ممتلكات أبيهم بعد دفع الضريبة المفروضة .

وفيما مضى كانت مصر مملوكة لجمهرة من كبار الملاك، لكن المماليك تخلصوا من هؤلاء حتى يقتسموا فيما بينهم أسلابهم . وقد نتج عن هذا السلب أن أصبح أعضاء الحكومات المملوكية، يمتلكون كل أرض مصر على وجه التقريب، فكانوا

(١) لا توجد وسية فى الصعيد ابتداء من المنيا .

(وقد بين الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم فى كتابه الريف المصرى فى القرن الثامن عشر أن هذا خطأ وقع فيه علماء الحملة الفرنسية) . (المترجم) .

يمتلكون على الأقل ثلثى الأراضى القابلة للزراعة. ولا يمنع هذا من أن هناك بعض الأفراد كانوا يحوزون بعض الأملاك الهامة، نذكر من بين هؤلاء الشيخ همام الذى كان حائزا على أراضى عدد كبير من قرى الصعيد .

وبرغم كل ذلك فسوف نقع فى خطأ بين إذا ما استنتجنا مما تقدم أنه ليست لدى المصريين فكرة صحيحة عن الملكية الحقة، إنهم يعرفون معنى هذه الملكية الحقة بلا ريب، ولكن كيف يمكنهم أن يتمتعوا بها، بينما كل شئ هناك يعترض سبيل سعادتهم ؟. فالعادات وطغيان الحكومات وجشع الملتزمين، كل ذلك عقبات لا يمكن التغلب عليها . لا مفر من إصلاح تام ، بل يمكن القول بأنه لا بد من توزيع جديد للأرض . ولو كان الفرنسيون قد استطاعوا أن يثبتوا أقدامهم فى البلاد، فليس من شك فى أنهم كانوا سيصلحون من مساوئ هذا النظام . وإذا ما حدث ووجد أبناء ريف مصر أنفسهم يعيشون فى ظل حماية القوانين فإنهم سيحصلون فى وقت معا على الأمل والهمة، وعندئذ فكم من الثروات سوف تغل هذه الأرض الخصبة المعطاء، التى استحقت ذات يوم اسم : مزرعة روما (١) .

(١) لكى نقدم فكرة تقريبية عن بؤس الفلاحين فسوف نعتمد على شهادة المعلم يعقوب، المباشر القبطى الذى أكد لنا أن عشرة فدادين من الأرض فى الصعيد تنتج خمسين أردبا من القمح من بذور خمسة أرادب، كما أكد لنا بالمثل أن الأقساط التى يدفعها الفلاحون للملتزم عينا لا تقل مطلقا عن ٢-٥ , ٣ أردب من الحبوب عن الفدان، فإذا قمنا بخصم مصاريف الحرث والبذر، نجد أنه لا يتبقى شئ على وجه التقريب لهؤلاء الفلاحين التعساء .

٦

عن الرق وعن العتق

تحتفظ الشعوب الشرقية بتلك العادة القديمة، عادة استخدام العبيد، ونحن لن نمسك فى هذا الخصوص عن إبداء أى رأى مهما بدا قاسيا . ومهما كانت انتقاداتنا وملاماتنا مشروعة فإنها تقع جميعها على أوربا، كما أن كل واحدة من هذه الانتقادات والملامات ليست سوى نقد حر لتلك التجارة المخزية التى تسامحت فيها أوربا حتى اليوم . فمستعمرات العالم الجديد، وجزر البحر الأفريقى – مسارح همجية الشعوب المتحضرة – تقدم أكثر مشاهد العبودية بشاعة، بل وربما أكبرها إهدارا للحقوق المقدسة للإنسان . إذ ينبغى أن نعترف هنا – وهذا أمر مخز للحضارة والمدنية – أن قدر العبيد فى مصر كما فى كل بلاد الشرق، أقل حافزا على الشكوى من قدرهم هناك فى أمريكا، حيث يروون بعرقهم ودمائهم حقول سوق لا رحمة فيه. أما رقيق مصر – على العكس من ذلك – فيمكن القول بأنهم يقبلون فى العائلات كأفراد فيها، وليس ثمة ما يقومون به من عمل سوى خدمة المنزل، كما أن حالتهم ليست على الدوام بائسة، بل إن الرق عندما يكون السيد واحدا من البكوات، يكون فى معظم الأحوال بمثابة الخطوة الأولى نحو الثروة أو نحو السلطة.

وفى مصر نوعان من الرقيق : السود من وسط أفريقيا ويأتون إلى مصر وإلى المدن الكبرى عن طريق قوافل، والبيض ويأتون من أقاليم آسيا المجاورة للبحر الأسود . وثمة فرق هائل بين ثمن هؤلاء وثمن أولئك ، فقلما يبلغ ثمن الأسود : ٤٠ – ٨٠ قرشا أسبانيا، بينما يعتبرالناس أن من الطبيعى أن يدفعوا فى شراء شاب شركسى ٦٠٠–٨٠٠ سكين Sequin ، وهو عملة ذهبية إيطالية تقدر القطعة منها بـ١٢٠بارة ، أى حوالى ٣٠٠٠ فرنك . وقد كان ثمن الألفى بك ألف سكين ، ومن هنا جاء اسمه : الألفى .

ويعتبرالعبد جزءا مكملا لثروة سيده الذى يستطيع أن يبيعه أو يبادل به أو يعتقه، وذلك حسبما يتراءى له، وليس للعبد أن يمتلك شيئا خاصا به، فكل ما يمكن أن يحصل عليه يكون من حق سيده، ولا يتمتع العبد بأى حق مدنى، ويعتمد فى كل أموره على إرادة سيده . ومع ذلك فإذا قام الأخير - باللجوء إلى العنف أو لأية وسيلة أخرى - بفعل مخالف للقوانين أو الطبيعة ، فإن العبد يستطيع أن يشكوه أمام القاضى الذى يرغم سيده - حسب الحالة المعروضة عليه - على بيعه للآخرين . ومع ذلك فنادرا ما يتهم العبد سيده بالطغيان، فكل ما يفرض عليه من واجبات يتعلق فقط بالخدمات المنزلية، فهو يعنى بمنزل سيده، ويخدم على المائدة، أو يقوم بأية أعمال أخرى تتصل بشخص سيده، لكنه بعيد عن الزراعة وعن كل الأعمال الشاقة . ولعل أشق عمل يكلف به العبيد، هو أن يعهد إليهم سادتهم بالعناية بخيولهم، وهم عامة يعاملون بلطف تام، ونادرا ما لا ينتهى بهم الأمر إلى العتق خلال بضعة سنوات أو عند موت سيدهم .

ويمكن القول بأن العبد الأبيض يعتبر عضوا من أعضاء الأسرة، وعندما يرضى تاجر عن عبده فإنه يشركه فى تجارته ، ويزوجه من ابنته ، ويهيئ له حياة طيبة. أما أولئك الرقيق الذين يكونون فى خدمة البكوات الكشاف أو كبار ضباط حكومة المماليك فإن حظهم أكثر بريقا، فحيث إن سادتهم أنفسهم قد بدأوا حياتهم عبيدا، فإنهم بدورهم يولون عبيدهم جل عنايتهم، ويهيئون لهم نوعا من التدريب العسكرى ليشكلوا فيما بعد جيش المماليك . وتتجلى قوة كل بك فى عدد رجاله وفى شجاعتهم، لذا فهو يعنى بتقدمهم وثروتهم كما لو كانوا أبناءه ، وفضلا عن ذلك فقد كان المماليك يدعمون حزبهم عن طريق نفوذ رجالهم، وهو النفوذ الذى هيأته لرجالهم هذه المناصب التى ولوهم - هم أنفسهم - فيها .

لكن الشجاعة والمميزات الشخصية لعبد ما - ليست على الدوام هى الأسباب الوحيدة التى تحدو بشريف مملوك، أن يهيئ لعبده هذا التقدم السريع، ويؤكد

البعض أن الجمال والصفات الجسمانية تلعب دورا كبيرا فى أقدار هؤلاء العبيد. ويشكل هؤلاء الرجال ذوو الأصل الغامض، والذين نجهل بلاد معظمهم، طائفة النبلاء الحقيقيين برغم كل ما قيل، فهم وحدهم يحوزون المناصب، و يعمرون بيوت وعائلات سادتهم، التى كانت ستخبو فيها بدونهم أضواء الحياة منذ الجيل الثانى. ومن نافلة القول أن نذكر أن الإماء البيضاوات القادمات من نفس بلدان هؤلاء البكوات والكشاف والمماليك الآخرين، يتمتعن هن أيضا باعتبار خاص، ذلك أنهن - عادة - يصبحن زوجات هؤلاء أو إماءهم المفضلات .

وبالرغم من الامتيازات التى أتيحت للعبيد المماليك من وجودهم بالقرب من البكوات، فإن من الواجب أن نلفت النظر إلى أن العرف قد وضع حدا لتقدمهم. ويمكن القول بأن المماليك ومع أنهم كانوا يعدون جزءا من أسرة سيدهم، لم يكونوا ليتمتعوا بأى حق مدنى فى ميراثهم، إذ إن العلاقة التى نشأت بينهم لم تكن تساوى علاقة التبنى . فليس للعبد - حتى إذا أعتق - أى حق فى تركة سيده التى توزع على أبنائه الشرعيين . صحيح أن بمقدور السيد أن يخصص جزءا من ثروته لصالح العبد، لكن هذه الهبة لم تكن لتبلغ مطلقا أكثر من ثلث الثروة، حتى ولو لم يكن للمتوفى أى أبناء . وعلى العكس من ذلك فإذا مات المعتوق دون ذرية، فإن ثروته كلها تؤول إلى سيده القديم .

وتباع الإماء من كلا اللونين بثمن أغلى من ثمن العبيد الذكور، وإذا ما نشأت علاقة بين السيد وبين واحدة من إمائه وأصبحت هذه أما، فإنه لا يستطيع أن يبيعها، إذ تصبح فى حكم الزوجة الحرة حتى يموت سيدها. وعندما تموت هى يصبح ابنها شرعيا ويرث شأنه شأن أبناء الزوجة الحرة، ولكن إذا أراد السيد أن يتخذ من إحدى إمائه زوجة شرعية فعليه أولا أن يعتقها .

ويمكن للمسلم أن يعاشر إحدى إمائه ، دون أن تخرج - من أجل ذلك - من خدمته، فهو يحتفظ لنفسه عليها بكل حقوق الملكية، فيستطيع أن يستردها وأن

يجعلها تقوم بخدمته ، بل وأن يبيعها من جديد ، ولكنه فقط لايستطيع أكثر من معاشرتها . وثمة أمثلة على زواج من هذا النوع ، وإن كان المعتاد أن يقوم الزوج بعتق تلك التى يختارها زوجة له .

ويدرك العبد أنه مملوك كلية لسيده، وهو يقف أمامه ويداه مضمومتان إلى صدره، وعيناه مثبتتان على عينيه ليدرس أقل رغبات سيده، حتى ينفذها قبل أن يعبر سيده عنها. وحالته فى نظر نفسه طبيعية ، وهو لا يستشعر مطلقا لا الرغبة ولا الحاجة فى قطع قيوده، بل إن المعتوق نفسه يظل يحتفظ لسيده القديم بالاحترام والولاء مما يصعب على أى رجل حر قبوله ، لكن العرفان هو الذى يفسره . وقد رفع على بك الشهير بـ (الكبير) كثيرا من مماليكه إلى مراتب البكوات والكشاف، ومع ذلك فقد كانوا - عندما يأتون لزيارته - يظلون واقفين فى مظهر خانع، ولايجلسون مطلقا أمامه إلا إذا دعاهم لذلك ، كما كانوا يحرصون على ألا يجلسوا على نفس الأريكة التى يجلس عليها سيدهم القديم . ويلاحظ نفس التحفظ والمراعاة من جانب المعتوقات نحو السيدات اللاتى كن مملوكات لهن .

ومن المألوف لدى الشرقيين أن يروا العبيد المعتوقين يصلون إلى ذروة المجد، ولايمكن أن يحقر الرجل مطلقا من قبل الرأى العام لأنه كان من قبل عبدا ، ودائما مايسعى الناس لصداقته ومودته. وهكذا فإن الأمر الذى يعد عند الشعوب الأخرى شيئا جديرا بالتحقير، يصبح هنا وكأنه أمرمرغوب، بل ثمة من يؤكد أن نقيب الأشراف فى مكة قد زوج ابنته من معتوق .

سبق لنا أن قلنا إن الرجل الحر الذى يريد أن يتزوج من أمته عليه أن يعتقها، ونفس الأمر بخصوص أولاده، فإنه لابد أن يسمح لابنه بالارتباط بإحدى إمائه (أى إماء الأب) وإلا فلن يتمتع الأطفال الذين يأتون عن طريق هذا الاتصال بأى حق مدنى، بل سيظلون عبيدا حتى موت أمهم إلا إذا اعترف الأب بهم، الأمر الذى يعنى عتق الأم .

وصيغة العتق بالغة السهولة، فهى عبارة عن كلمة من السيد تقال فى أى مكان، فى المنزل أو الشارع أو أى مكان آخر. ولكن إذا خشى العبد من تقلب مزاج سيده فإنه يطلب تحرير وثيقة بالعتق تبرهن على صحة عتقه، ونادرا مايرفض طلب كهذا. وليس لحق السيد على عبده من حد إلا الحق الطبيعى، وعلى سبيل المثال، فإن الأمة التى من واجبها الاستجابة لكل رغبات سيدها تستطيع أن ترفض أى فعل يهين طبيعتها. وعندما يرتكب عبد ما جريمة قتل فإنه يمثل أمام القاضى مع سيده، ويقدم كلاهما للمحاكمة، وإن كان لأسرة القتيل أن تعفو أو تكتفى بتعويض نقدى . وقد سبق لنا القول بأن المعتوق لايرث عن سيده القديم، ومع ذلك فإن سيده إذا ما مات دون ذرية فإن السلطان والقاضى - وهما الورثة فى هذه الحال ، فالأول يرث ثروة المتوفى والثانى يرث وظائفه - يعطيان كل شىء أو جزءا منه إلى معتوقه ، وليس هذا حقا مقررا له، ولكن العرف هو الذى جعل منه نوعا من الإلزام. وفيما مضى ، عندما كان التبنى شائعا، لم يكن الأمر يصل لهذا الحد، ويمكن الآن للرجل أن يتنبى عبده، أو هو على الأقل يستطيع ذلك، على نفس النحو الذى كان يتم فى الماضى.

والعتق هو مكافأة على إخلاص وحماسة وتضحية العبيد، وهذا الفعل شائع لحد أنك لاتستطيع أن ترى إلا عددا بالغ الضآلة من الرقيق وهم يموتون فى ظل حالة الرق، فجميع العبيد رجالا ونساء، بيضا وملونين ، يعتقون على قدم المساواة. وثمة طواشيون عند المماليك، وكان عددهم عند مراد بك يبلغ العشرين، ولكن لم تجر العادة مطلقا فى القاهرة على اللجوء لخدمات هؤلاء التعساء. ويدين الدين هذه العادة ، ولايمارسهابخلاف المماليك إلا عدد بالغ الضآلة من السكان ، فتدمير معين الحياة عند رجل جريمة كبرى فى نظر المسلمين ذوى الحمية الدينية. ويمكن للطواشى أن يعتق شأنه شأن أى عبد، وهو مايحدث فى معظم الأحوال، ولا يحتقر الطواشى إلا إذا كان الاحتقار من نصيب سيده، ولا تجلب عليه حالته كطواشى أى تحقير خاص، بل كان يرى طواشيو الرجل القوى يحصلون لأنفسهم على شىء من التقدير الذى يحظى به سيدهم .

وبعد موت أحد الأثرياء يقتسم الورثة تركته، ويدخل العبيد ضمن هذه التركة شأنهم شأن بقية أجزائها، ولايستثنى من هؤلاء إلا من أعتقهم سيدهم عند موته، أو أولئك الذين كان سيدهم قد وعدهم بذلك من قبل، وفى هذه الحالة فإن الأمة التى صارت أما بفعل سيدها تأخذ كل حقوق الزوجة الحرة، وهو الأمر الذى لم تكن قد تمتعت به حتى هذه اللحظة .

– ٧ –

الوصاية، التركة، الشهود

عندما يموت رجل تاركا أبناء صغار السن، فإن جدهم لأبيهم يصبح هو الوصى الشرعى عليهم، أما إذا لم يكن هذا الجد على قيد الحياة فإن القاضى يختار بمعرفته وصيا على هؤلاء اليتامى ، لكن الوصى ليس له حق التصرف فى ثروة القصر. وتخصم نفقات هؤلاء وكذا مصاريف تعليمهم من ثروتهم، وإذا ما أراد الوصى بدافع من العاطفة أن يستثمر أموالهم، فإنه يقوم بذلك مخاطرة من جانبه يتحمل هو كامل مسؤليتها، وهو ملزم على الدوام بأن يقدم إلى القاضى حساب المبالغ التى فى يديه .

أما التربية فهى مستقلة عن الثروة، حيث يعهد بها إلى الأم حتى سن السابعة بالنسبة للأولاد، وحتى سن الزواج بالنسبة للبنات، ولايفوت الوصى أن يعلم الأولاد القراءة والكتابة ، وأن يهيئهم لنوع من الحياة حسب درجة ثرائهم . ولايحق إلا للأب أو الجد أن يعقد زواجا لأبناء دون سن البلوغ، أما الأقارب الآخرون فغيرمخولين فى ذلك. وعندما يبلغ الأولاد سن الرشد ، فإنهم يستطيعون أن يرفضوا الامتثال للقرار الذى اتخذه الأب أو الجد. وقد سبق لنا أن قلنا إن سن البلوغ للولد محدد بخمسة عشر عاما، وفى هذه الحالة يقدم الوصى الحساب إلى القاضى عن ثروات هذا الولد الذى سيصبح الآن قيما على نفسه، ومع ذلك فينبغى – حسب المذهب الحنفى – أن يُعَيَّن على هذا الولد وصى حتى يبلغ سن الخامسة والعشرين، لكن

القضاة لا يمتثلون لهذا الرأى. ويمكن للابن عند بلوغه سن البلوغ أن يترك منزل الأب ، ولا تعود أسرته ملزمة بإطعامه .

وللابن – فى التركات – ضعف حق البنت، فعندما يكون لرجل بنتان وولد واحد على سبيل المثال ، فإن الزوجة تأخذ لنفسها ٢٤/٣ من التركة ، ويأخذ الابن ٢٤/١٠ و٢/١ (الجزء، أى ٠,٥ ١٠) وكل من البنتين ٢٤/٥ و٤/١ (الجزء، أى ٠,٥ ٢٥). وعندما يكون للمتوفى وريث ذكر، فإنه لا يكون لأخوة المتوفى أو أخواته حق فى الميراث .

وأنصبة الأخوة الذكور متساوية فيما بينهم، واذا لم يكن ثمة ذرية فلا يؤول لزوجة المتوفى إلا ٤/١ تركته ، ويؤول الباقى لأبيه . ولا يحق لأخواته إرثه إلا إذا كان الأب متوفيا. أما إذا ترك المتوفى ابنة فإن نصيب الزوجة على الدوام ٢٤/٣، والبنت فى هذه الحالة ٢٤/١٢، وإذا كان له أكثر من ابنة واحدة فإنهن يقتسمن ٣/٢ ثروة والدهن . وعندما تموت الزوجة يحصل الزوج من ميراثها على ضعف ما كانت ستحصل عليه هى فى الحالة المماثلة .

وقبل الشروع فى تقسيم التركات تجنب مصاريف الجنازة ثم ديون المتوفى، ثم يتم الوفاء بشروط الوصية التى تركها المتوفى ، بحيث لا تتجاوز الهبات بأى حال ١/٣ صافى التركة . أما إذا لم يخلف وريثا فمن حقه أن يهب كل شئ لأحد أصدقائه، وينبغى أن نستنتج أنه فى بلد تتشعب فيه العلاقات الأسرية لهذا الحد، فإن حالة كهذه تبدو بالغة الندرة .

وليس للأبناء الطبيعيين (غير الشرعيين) أى حق فى الميراث، حتى ولو كان الأب قد تزوج من أمهم، إذا لم يكن هو قد اعترف ببنوتهم. ولكن فى هذه الحالة –حالة الاعتراف – يصبح حتى أبناء الأمة أبناء شرعيين، ويستطيعون الإرث كما بينا من قبل .

ونعتقد حتى تكتمل دراستنا عن المواريث، أن من الواجب أن نقدم هنا من القرآن النصوص التى تتصل بالمواريث لنرى كيف عبر محمد عن كل الحالات المحتملة : «يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين، فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك، وإن كانت واحدة فلها النصف، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين، آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله إن الله كان عليماً حكيماً . ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد ، فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين، ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين ، وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم» (*) .

ويمكن لرب الأسرة أن يخصص ٣/١ تركته لصالح من يريد، ولا تعارض القوانين فى ذلك، وتتأكد هذه الهبة كتابة أو عن طريق شهود، بل إن الكتابة تفترض وجود شاهدين. وإذا أنكر الأبناء أن والدهم قد خصص المبلغ المطلوب كهبة، فإنهم يرغمون على القسم، وينبغى أن نلاحظ أن الشريعة تحتم القسم على من ينكر .

وحيث إنه لا يسمح مطلقا بأن يوهب ما هو أكثر من ثلث ما يمكن أن يتركه المرء، فإن ثمة وسيلة للتملص من هذا التشريع لإعطاء كل الثروة كهبة، ولا يحدث هذا إلا عندما يموت رجل دون ذرية . إذ يمكن فى هذه الحالة أن يوقف تركته على أحد المساجد، مع تخصيص حق الانتفاع للشخص أو الأشخاص الذين يفضلهم،

(*) القرآن الكريم، الآيتان (١١، ١٢) من سورة النساء . (المترجم) .

بل حتى لذريتهم ومماليكهم، ولا يمكن أن يوصى بشئ للعبد حيث لا أهلية له حتى يمتلك، إذ إن قميصه نفسه ليس ملكا له .

ويمكن القول بأن الشهادة لازمة فى كل الأمور الهامة، وإذا ما حدث - على سبيل المثال - أن وقع إيصال من جانب المدين وشاهدين، ثم مات هذان الشاهدان، فإن للمدين الحق فى أن يرفض السداد، لكن هذا لا يحدث فى الواقع إلا إذا كان الدين كبيرا . وإليكم كيف يفصل فى الأمر : يستدعى المدين ودائنه إلى القضاء، وعليهما أن يقسما، ولكن إذا افترضنا أن المدين قد يقسم اليمين باطلا فإن الآخر (الدائن) لا يقسم، لأن القسم دائما على من ينكر . ويفترض القانون أن الكتابة يمكن أن تزيف أكثر مما يفترض أنه يمكن للمسلم أن يحنث فى قسمه .

ولا تقبل شهادة المسيحيين أو أى رجل ليس دينه الإسلام أمام المحاكم الإسلامية ضد المسلمين، لذا لا يستدعى الكفار مطلقا عند الفصل فى الأمور المدنية أو الجنائية عند الأتراك، ومع ذلك فيمكن لقائد الشرطة أن يستعلم من كافر عن أمور تدخل فى اختصاصه. وثمة أمر آخر يبعث على الدهشة ، فعندما يدعى - على سبيل المثال - شخص أن ثمة شخصا آخر قد طلب منه مائة خردة، وشهد على صحة هذا الدين اثنان، فإن هذه المائة خردة تستوجب الدفع ، حتى ولو لم يكن قد تم الدين فى واقع الأمر، ولكن إذا ما عاد هذان الشاهدان - بعد أن غلبهما الندم - ليعلنا أمام القاضى أنهما قد حنثا فى قسمهما، فإن القاضى يلزمهما أنفسهما بدفع هذه المائة خردة إلى الشخص الذى دفعها ظلما، ويحتفظ المدعى النهاب بالمبلغ الذى حصل عليه ، ولا يلزمه القاضى بأى التزام، ذلك أن هذا المبلغ غير المستحق قد جاء فقط من جانب الشاهدين سيئى الذمة، ولذا يقع العقاب عليهما وحدهما، أما إذا لم يرجع فى شهادته سوى شاهد واحد، فإنه يقوم بدفع نصف المبلغ المستلب .

ويمكن لرجل ما فى غيبة الشهود أن ينكر دينا مؤكدا، فالشهود وحدهم هم الذين يبرهنون على صحة الدين، ويعفيه القانون لذلك من سداد هذا الدين، وإذا ما ظهر شهود على هذا الدين، فإن المدين يلزم بالدفع ، ويكون الحكم فى هذه المرة بمثابة إيقاف للحكم الأول . وفى الحالة التى يطالب فيها شخص ما بدين لا ينكره المدين ، وإنما يدعى أنه قد قام بتسديده، فإن القاضى يطلب من الطرفين أن يقسما، ولكن إذا أنكر الدائن أنه حصل دينه مهما كانت حقيقة ما حدث، فإن المدين يلزم بالسداد مرة أخرى، لأن القانون – كما سبق أن قلنا – يقف فى صف الشخص الذى ينكر إذا ما أقسم على ذلك .

– ٨ –

عن الدين، وعن الاقتراض بالربا

تعتبر شريعة محمد أن الربا جريمة، وقد حرم هذا المشرع الربا لأنه يطمح إلى أن يعتبر كل أتباعه أنفسهم أخوة ، وأن يتعاونوا فيما بينهم، ومع ذلك، فحيث إن إغراء الكسب أقوى من الخوف من رقابة الدين، فإن المسلمين قد استطاعوا على نحو ما أن يتحايلوا على هذا المبدأ الذى لا يستطيع أن يتبعه شعب من المضاربين والتجار . وإليكم كيف أن محمدا يجعل من وسيلة التعاقد إلزاما شرعيا: «يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أولا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم

ولا يضار كاتب ولا شهيد (*) »«وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته (**) » . وتبعا لذلك فإن المسلم الذى يقترض مبلغا من المال، أوالذى يعقد دينا ما، عليه أن يحرر ورقة إلى دائنه فى حضور شاهدين، ولا يستطيع أن يعفى نفسه من هذا الإجراء، إلا إذا كان الدائن يوليه ثقة كبيرة لدرجة يكتفى معها بكلمة منه . ولا تكفى الكتابة وحدها بدون حضور الشهود لإدانة رجل خرب الذمة، يستطيع أن يحلف أمام القاضى بأنه غير مدين بالمبلغ المطلوب، وهكذا فمن المهم لتفادى مثل هذا النوع من الإنكار التأكد من الشهود، ويكفى الشاهدان وحدهما فى غيبة الكتابة لتأكيد الدين على المدين، وقد سبق أن تعرضنا لذلك من قبل .

ويلزم الشاب البالغ بدفع الدين الذى حرره على نفسه، وتنظر الشريعة لذلك باعتباره أمرا مشروعا، حيث إنها تعتبر أن الشاب يتصرف عندئذ، وهو على دراية تامة بالأمور .

ويسمح القانون بالإرغام الجسدى لسداد الدين، فالمدين ملزم ببيع كافة ما يمتلك، فيما عدا الملابس التى يرتديها، إذا أرغمه الدائن على ذلك . وعندما يشك الدائن أن المدين قد أخفى فى بيت أحد أصدقائه نقودا أو أشياء ليفلت بها من الدائن، فإنه يساق إلى السجن، ويظل هناك حتى يثبت بشهادة شاهدين مشهود لهما بالنزاهة أنه لا يمتلك فى الواقع شيئا، عندئذ يأمر القاضى بإطلاق سراحه حتى يستطيع أن يحصل عن طريق عمله على ما يستطيع به سداد دينه . وما أن يجنى المدين بعض المال، وما أن يبرهن الدائن على ذلك أمام القاضى، حتى يتعرض المدين لإرغام جديد، ولكن لا يسمح للدائن مطلقا باستخدام القوة من جانبه ضد مدينه، ولا أن يفتشه دون تخويل صريح من المحكمة .

(*) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ٢٨٢ . (المترجم) .

(**) القرآن الكريم، سوة البقرة الآية ٢٨٣ . (المترجم) .

ويخضع الفلاح المزارع لكل صرامة القانون، فيمكن إرغامه على بيع كل شئ، حتى ثيرانه ومحراثه، ولكن حيث إن المشرع يطلب من الدائن قدرا أكبرمن الاعتدال نحو مدينه، فإن المدين يتمكن على الدوام تقريبا من الحصول على مهلة للوفاء بالتزاماته، أو يرتب ذلك مع الدائن بطريق ودى .

والشخص الذى يودع لديه مبلغ من المال أو أى شئ آخر أيا كان، لا يعد مسئولا إذا ما برهن أمام القاضى بشهادة شاهدين، أن الوديعة قد سلبت منه عن طريق قوة قاهرة، وفى هذه الحالة نفسها فإن قسمه وحده يكفى - إذا لم يكن ثمة شهود - لتحرره من كل التزام .

ومع ذلك فإن المسلمين فى مصر يبدون الكثير من النزاهة والأمانة فى معاملاتهم، فيصرفون شئون تجارتهم بذمة طيبة ، حتى عندما تكون تجارتهم هذه مع تجار من ديانة أخرى . ويفضل الأوربيون التعامل معهم أكثر مما يفضلون التعامل مع المسيحيين، سواء كانوا من أهل البلاد أو كانوا من السوريين، الذين هم أبعد ما يكونون عن التباهى بنفس الطيبة، والذين يتحتم على المرء أن يتخذ أكبر قدر من الحيطة عند التعامل معهم . ولا نستطيع أن نعطى صورة عن نزاهة المسلمين فى مصر عامة ، أفضل من أن نذكر على سبيل المثال أمانة أناس الطبقات الدنيا ، فنقل الأموال والمجوهرات الثمينة يتم عادة عن طريق قوارب تسبح فوق النيل، ومن النادر أن تتخذ احتياطات للتأكد من أمانة البحارة ، ولم نكد نسمع مطلقا أن أحدا منهم قد أساء استخدام الثقة التى وضعت فيه .

وللتحايل على الإجراءات القانونية التى تحرم الربا ، يمكننا أن نتصور ما يلى:

يقترض رجل مبلغا من النقود يريد أن يستغلها ، فيعتبر الدائن نفسه شريكا له فى المشروع . وعندئذ يحصل على نصيب شرعى من الربح الذى يدره هذا المشروع، ويسمح القانون أحيانا أن يقدم المقترض إلى الشخص الذى يقترض منه هدية سنوية أو شهرية طيلة المدة التى يحتفظ خلالها بالمبلغ، ويمكنه أن يحصل

على هديته هذه بقسم منه ، ونحن نرى أن هذا الإجراء يساوى الربا بشكل تام، بل إنه يفوقه فى أنه غير محصور داخل نفس الحدود .

والشخص الذى يستغل مبلغا من المال، أو الذى يحصل على إيجار منزل ، أو على دخل من ملكية أيا كانت، يلتزم بأن يقدم كل عام للفقراء ١/٤٠ من ربح رأس المال، وللحاكم الحق فى أن يرغمه على ذلك. أما كل الممتلكات التى تستخدم فى الاستعمال الشخصى كالبيت الذى يقيم فيه المرء أو الأرض التى يطعم أسرته من نتاجها ... الخ ، فهى لا تخضع لهذا النوع من الضرائب . ويمكن القول بأن هذه الضرائب ليست إلا أمرا يعود إلى ضمير المرء، ولا تفرض المحاكم ضرورة دفعها، لذا فإن المسلمين ذوى الحمية الدينية، هم وحدهم تقريبا الذين يؤدونها .

قلنا إن الدائن يرتب أموره مع مدينه، ونتيجة لذلك فنادرة هى حالات الإفلاس بالتدليس فى مصر، لكن حوادث المصادرة معروفة وشائعة، وكثيرا ما توضع الأختام على المحلات التجارية ، وبيوت أولئك الذين تريد الحكومة أن تصادر ممتلكاتهم . وتوضع هذه الأختام بطريقتين : إما بواسطة مسمار يضعه موظفو القضاء فى قفل الباب، وعندئذ لا يستطيع أحد أن يخالف هذا المنع دون أن يعرض نفسه لقطع يده ، وإما بوضع قليل من الطين على القفل مع ترك علامة ما. وعند مرورنا فى الرميلة مع فرقة عسكرية من فرقتنا مررنا بمحل يحتوى على كمية هائلة من القمح ، ومختوم بعلامة الطين، وكان من المستحيل علينا وقتها أن نترك حامية فى المدينة، حيث إننا كنا لانزال نحارب المماليك . وحيث إن هذا القمح قد آل إلينا ، بينما نحن لم نصبح بعد فى وضع يجعل الآخرين يحترمون قوتنا، فقد كان من المحتمل أن يقوم العامة – بدافع من الرغبة فى السلب، أكثر منه بفعل الحقد الذى كانوا يكنونه لنا ، وكأمر طبيعى فى الأيام الأولى لقدومنا – باقتحام هذا المحل وسلبه، ومع ذلك فإن شيئا من ذلك لم يحدث، فعندما عدنا إلى المدينة من جديد – أى بعد حوالى شهر – وجدنا المخزن سليما لم تمسسه يد .

٩

عن الزنا وعن الاغتصاب

يبدو أن نبى الإسلام كان ينظر إلى الزنا باعتباره أمرا يبعث على اضطراب الأسرة، وأنه ينبغى لذلك ألا ينتشر أمره لابين العامة ولا أمام المحاكم. صحيح أنه أمر بأن يرجم أى متزوج يدان بهذه الجريمة، ولكنه أرغم الرجل الذى ينتهك عرضة، والذى يريد اتهام زوجته بمثل هذه التهمة، أرغمه على الصمت حين حتم عليه إحضار أربعة شهود عيان، وجلد من لايستطيع تقديم الدليل على هذا الاتهام ٤٠٠(*) جلدة. وقد حانت الفرصة ذات مرة لكى يقوم هو نفسه بتطبيق هذا المبدأ، حين جاءه ذات يوم رجل فاجأ زوجته وهى ترتكب جريمة الزنا ليطلب إليه تطبيق العقاب على زوجته الآثمة، فسأله محمد إن كان له على ذلك أربعة شهود، فأجاب الزوج الذى أهين فى شرفه بالنفى. عندئذ قال له محمد إنه سيعاقبه بتهمة القذف فى حق زوجته.

ولم يرد إلا ذكر امرأة واحدة رجمت لأنها اتهمت بالزنا، وقد تم ذلك لأنها هى نفسها التى اعترفت بجريمتها. وعند تنفيذ حكم من هذا النوع فعلى الحاكم أو الوالى الذى يمثله أن يلقى بأول حجر.

وتقضى الشريعة بجلد العزب الذى يتهم بالزنا مائة جلدة، ويجلد العبد الذى يدان بنفس الجريمة والذى يعيش فى كنف سيده خمسين جلدة فقط.

ويدان الزوج الذى يفاجىء زوجته وهى تزنى ثم قتلها، بالقتل، ويلقى عقاب الموت، فليس له فى هذه الحالة إلا أن يطلقها أو أن يلجأ إلى القاضى. وعندما لايتوافر له الشهود فإنه يقسم أربع مرات بأنه صادق فى اتهامه، وفى القسم الخامس يدعو على نفسه باللعنة إن كان كاذبا. وعندما لاترد المرأة بشئ على هذا

(*) ومن المعلوم أن يجلد ثمانين جلدة. كما ورد فى سورة النور آية ٤. (المترجم).

الاتهام ، فإنها تدان بسبب صمتها ، وعقابها فى هذه الحالة عبارة عن جلدها مائة جلدة وحبسها بقية عمرها، أما إذا برهنت على براءتها بنفس طريقة القسم، فإن القاضى يطلق سراحها. ويكون انفصالها عن زوجها أمرا لامحيص عنه ولا رجعة فيه[1] .

وقد يحدث أن يجد رجل ماعبده فى أحضان زوجته، ومع ذلك فلن يكون له إلا حق عقابه أو بيعه ، أما إذا قتله أو حرمه من أعضائه التناسلية فإنه سيكون قد ارتكب جريمة كبرى . لكن مثل هذه الأفعال العنيفة ستبقى دون شك بغير عقاب ، فى بلد تسيطر فيه العادة والعواطف الجامحة أكثرمما يسيطر القانون، وفضلا عن ذلك فسيكون من السهل على فرد ما أن يخفى جريمة قتل يمكن أن يقترفها داخل منزله، أو يستطيع على الأقل أن يجعل هذه الجريمة تمضى باعتبار أن الموت قد حدث بشكل طبيعى.

ويعاقب على الاغتصاب بمائة جلدة ويلزم لاثباته أربعة شهود.

وبالرغم من أن البغاء جريمة، فإن الشريعة لم تفرض عقابا زمنيا على هؤلاء اللاتى يمارسنه. أما الاضطراب الذى تحدثه النسوة اللاتى يعشن هذه العيشة الدنسة ، فهو من اختصاص الشرطة. وعدد هؤلاء التعيسات فى القاهرة وكذا فى كثير من مدن مصر كبير جدا، والمقيمات منهن بالقاهرة يدفعن ضريبة للوالى. ولم يفرض محمد على الرجال الذين يتصلون بالبغايا عقوبات زمنية، لكنه أنذرهم بعذاب النار بعد الموت .

---

(١) يقول القرآن عن الزوجة التى تتهم بالزنا : «واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا». النساء، آية ١٥.

ويقول عن الأمة المتزوجة التى تزنى :« فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » .النساء، آية ٢٥. (المترجم) .

والفتاة التى تحترف البغاء ثم تصبح أما تفقد فجأة احترام العامة ، ومع ذلك فهى لاتحتقر لدرجة لاتجد معها لنفسها بعد ذلك زوجا . والشخص الذى يتزوجها يقوم بفعل خير فى نظر الله، لأنه ينتشلها من الضياع الذى ستنتهى إليه لامحالة، لكن الرجل الحساس والذى يحرص على تقدير أصدقائه يتفادى ارتباط كهذا ، غير أن أمثال هذا الرجل قليلون.

١٠

عن السرقة والقتل ، وعن القصاص

يعاقب على السرقة بقسوة، وبرغم ذلك فلا يعاقب المذنب مطلقا بالموت، إلا إذا كانت السرقة قد اقترنت بالقتل. والشخص الذى يدان بالسرقة مع استخدام العنف داخل محل تجارى أو داخل بيت أو داخل نطاق ما ، تقطع يده ، ولكنه إذا ارتكب هذه السرقة من شخص أو من معروضات ، وباختصار إذا سرق خارج مكان مسور، فإن القانون يحكم فقط بضربة بالعصا وبإعادة المسروقات. إذن فاقتحام المسكن وانتهاك حرمته هى التى تشكل خطورة فى هذه الجريمة . ولا تصادر حرية المذنب فى كل الحالات ، ويتركه القضاء لحال سبيله بعد تنفيذ الحكم عليه.

وليس ثمة عقوبات أخرى للخادم أو العبد الذى يسرق سيده، وكذلك لاينظر للشخص الذى يسرق مسجدا باعتباره أكبر جرما من الشخص الذى ارتكب السرقة فى أى مكان آخر.

ولاتضيف العودة إلى السرقة شيئا إلى الجريمة، فالمجرم يلقى فى جريمته الثانية نفس العقاب الذى تلقاه على جريمته الأولى ، إذا ما تمت السرقة فى ظروف مشابهة. فإذا كان قد فقد يده اليمنى تقطع له اليسرى، ويلزم وجود شاهدى عيان لإثبات السرقة، ولاتقبل شهادة النساء مطلقا . وعندما لايستطيع المدعى أن يحضر شهودا ، فإن القاضى يلزم المدعى عليه بأداء اليمين ، فإذا رفض يدان، أما إذا أقسم فيعفى عنه.

وإذا تخلص اللص من الأشياء المسروقة ولم يستطع أن يردها ، فإنه لايودع السجن من أجل ذلك ، وإنما يدخل ضمن طائفة المدينين المعسرين ، ويمنحه

القانون نفس التساهل . ويحكم على من يقوم بإخفاء المسروقات بإعادة الأشياء التى تسلمها إلى صاحبها، لكن الشرطة تستطيع عقابه بطريقة أخرى . فإذا كانت هذه المسروقات قد بيعت وتعرف عليها صاحبها وأثبت أنها تخصه فى الواقع، فإنه يستعيدها دون أن يكون ملزما بتعويض مشتريها .

وكانت حوادث السرقة منتشرة قبل مجئ الفرنسيين، و كان عدد كبير منها يرتكب داخل البيوت بالرغم من بشاعة العقاب ، و لكن ما أن أصبح على رأس السلطة موظفون فرنسيون حتى أصبحت هذه الجرائم نادرة تماما .

ولاشك أن أكبر وأبشع الجرائم التى على المجتمع أن يقمعها و أن يعاقب عليها، هى جرائم القتل . ويتفق محمد فى الرأى حول هذه النقطة مع كل المشرعين القدامى والمحدثين ، وحكم على القاتل بالموت . لكنه مع ذلك يتميز عن أسلافه ، إذ هو أكثر منهم حنكة فى ذلك الفن الصعب، فن سياسة الأمم، ويتجلى ذلك فى تلك النصوص التى جاء بها حول هذه الجريمة، ليخفف من وقعها ، وليغير من أثرها . فقد أباح لأهل القتيل أن يكتفوا بتعويض مالى ، و ذلك عندما ترك لهم الخيار بين هذا الإجراء ، و بين إنزال القصاص بالمذنب ، فنحن من جهة نقرأ فى الجزء الأول (*) من القرآن : "يأأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شئ فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم " . ومن جهة أخرى نقرأ فى الجزئين الثالث والرابع (**) : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلّمة إلى أهله إلاّ أن يصّدقوا ، فإن كان من قوم عدوٍّ لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله» . وفى الجزء الخامس (***) : «من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » .

(*) صحتها فى الجزء الثانى، الآية ١٧٨ البقرة . (المترجم)

(**) صحتها فى الجزء الخامس، الآية ٩٢ النساء .(المترجم)

(***) صحتها فى الجزء السادس ، الآية ٣٢ المائدة .(المترجم)

وتبعا لهذه النصوص المختلفة فإننا نرى أن محمدا مع اعترافه بضخامة الجريمة، ومع تشريعه بعقابها، يميل نحو التخفيف ويحبذ التسامح . ومع ذلك فإن مشاعر اللياقة هذه من جانب المشرع، ليست بذات سطوة كبيرة على عقل وروح الشرقيين، فهذه الشعوب تفضل الانتقام أكثر مما تحبذ هذا التعويض البسيط(١) فليس المال هو الذى يرضيهم ، وإنما يرضيهم رأس القاتل، لذلك فحوادث القتل نادرة فى بلادهم . وينظر إليه رجال الدين باعتباره تعديا على الله ، وعلى أهل البيت ، وعلى الحكومة ، ولكن إذا عفا الورثة بقبول مبلغ على سبيل التعويض، فإن الله بدوره سيعفو لأنه غفور رحيم، وستعفو الحكومة أيضا لأنها لا يمكن أن تكون أكثر تشددا من الطرف الذى يهمه الأمر . من هنا يأتى قانون حق الدم (الدية) ، وهو نوع من الإتاوة يفرض على القاتل فى مقابل رأسه، وينظر إليه كإرث حقيقى. وينتج عن ذلك أن كل من لهم الحق فى إرث القتيل يمكن لهم أن يوقفوا تنفيذ القصاص فى قاتله، وإذا كانت زوجة القتيل حاملا فإنهم ينتظرون إلى اليوم الذى يستطيع فيه الوليد أن يعقل ليفصل فى مصير القاتل .

ويكفى أن يطالب أحد الورثة - مهما كان نصيبه فى الإرث ضئيلا - بحق الدم، لكى لا ينفذ حكم القصاص ، حتى ولو كان الآخرون قد أجمعوا على عقابه .

---

(١) الانتقام هو العاطفة المسيطرة على المصريين . وبينما كنا فى قرية شنديا (مركز إيتاى البارود) كان بعضنا يتنزه ذات يوم مع القائد فى حديقة منزله، عندما جاء شاب يبلغ من العمر ١٤ أو ١٥ سنة ليرتمى تحت قدمى القائد راجيا مستعطفا ويداه مضمومتان إلى صدره وهو يصيح فيه : الانتقام ! فأنهضه القائد وسأله عن سبب صراخه فقال : كان والدى شيخا لشئت الأنعام فذبحه شيخ البلد الحالى منذ أربع سنوات ليتولى منصبه، وإنى أطلب منك الانتقام لذلك «فأجاب القائد وقد أخذه ثبات الشاب وحزمه : «هل لديك شهود؟» فصاح الشاب :«أما شهودى فهؤلاء هم ! » وفى اللحظة أخرج من صدره قميصا مصبوغا بالدم بعث منظره بالفزع إلى قلوبنا : «هذا قميص أبى وقد اخترقته الطلقات التى تلقاها وهو مغطى بدمائه، إننى أحمله فوق قلبى وسيظل فى مكانه هذا حتى أنتقم له» .

وتوصلنا إلى تهدئة هذا الابن البائس واعدين إياه بأننا سندرس الأمر وتركنا وهو نصف راض لأنه كان يظن قبل مجيئه أنه يرى بعينه يوم الانتقام .

وإذا كان أحد الورثة غائبا فإن القاضى يؤجل تنفيذ القصاص، وإذا كان القاتل معروفا ومن السهل العثور عليه، يطلق سراحه، أما إذا كان يخشى من هروبه فإنه يسجن أو على الأقل يفرض عليه أن يقدم كفيلا. ويتحاشى القانون على الدوام وبقدر الإمكان إصدار حكم بالموت، ولكن إذا لم يرد أهل القتيل قبول أى تعويض، فإن القاضى يصدر فى النهاية ذلك الحكم على القاتل ويسلمه للأسرة ، ويسأل ما إن كان أحد من أفرادها يريد تنفيذ الحكم بنفسه . فإذا لم يتقدم أحد، وإذا لم ترشح الأسرة جلادا من عندها، يكلف الوالى الأغا بتطبيق العقوبة .

وتستطيع الأسرة أن تتقدم بعفوها فى أى وقت حتى وقت التنفيذ، وحيث إن الحكم لم يصدر إلا برجائها هى ، فهى حرة فى أن تعفو عن القاتل فى الوقت الذى يتراءى لها . ويبرهن كل هذا بوضوح على أن القانون لا ينظر إلى القتل باعتباره جريمة اجتماعية بقدر ما ينظر إليه باعتباره جريمة فى حق الأسرة، حيث إن القاتل لا يطارد إلا بطلب من أهل القتيل . بل إن الأغا نفسه – وهو يمارس واجباته – لا يستطيع أن يأمر بموت رجل مهما كانت جريمته دون موافقة الحاكم، وينبغى لكى يسمح لنفسه بالتصرف على نحو مخالف، أن يكون المذنب متشردا وليس له أهل ولا نفوذ . وهكذا لم تكن اختصاصات الشرطة فى الأزمان الأخيرة تصل لحد الإعدام، إلا إذا كان الأمر يمس رجالا مجهولين لا أهمية لهم .

ولا يصدر القاضى مطلقا حكما بالإعدام على قاتل إلا إذا قدمت البراهين التامة على الواقعة، وإلا إذا عرفت الظروف كلها وسمعت شهادة الشهود. ويلزم وجود شاهدين على الأقل يشهدان بأنهما رأيا ارتكاب الجريمة، ولا تقبل شهادة واحد بمفرده مهما كان مركزه أو نفوذه، ولا يمكن للنساء أن يشهدن فى قضايا الإجرام ، ولا يلقى بال لشهادتهن إلا فى الأمور المدنية .

وتعتبر شهادة اثنين من دين مخالف ضد مسلم صالحة ومقبولة . وفى الحالة التى لاتكفى فيها الأدلة لإدانة المتهم، فإنه يستطيع بتقديم مبلغ من المال لعائلة القتيل

أن يمحو عن نفسه هذه الوصمة التى يلطخه بهاعادة مثل هذا الاتهام الخطير.

ويعاقب على قتل المرأة بنفس الطريقة التى يعاقب بها على قتل الرجل، ولايضع المذهب الحنفى أية تفرقة كذلك بالنسبة لقتل العبد.

وإذا ما قتل غريب ولم يطلب أحد ثمنا لدمه فإن وارثه - أى الحاكم - يرفع القضية الجنائية عن طريق ممثليه. كما يلاحق السيد الذى يقتل عبده كذلك باسم الحاكم، الحافظ لحقوق المجتمع حسب رأى المذهب الحنفى، أما المذاهب الأخرى فترى أن السيد قد عوقب بما فيه الكفاية بفقده عبده .

وموت الفلاح المدين تحت ضربات عصا المالك، يعرض الأخير لنتائج العمل الإجرامى، ولكن النفوذ وسطوة الثروة الكبيرة أو سطوة أصدقاء لهم نفوذ، تجعله فى معظم الأحوال فوق القانون .

وإذا كانت الشريعة لم تقرر إلا عقابا بسيطا للمسلم الذى يقتل كافرا، فإن الحكومة - وهى يعنيها أن تحمى كل الناس بما فيهم الأجانب شأنهم فى ذلك شأن رعاياها أنفسهم - تحكم بالإعدام على قاتل المسيحى أو اليهودى. وفى عام ١٧٧٠ أو ١٧٧٢ اغتيل أحد الفرنسيين بيد قواس أحد الكشاف ، فأمر أغا الانكشارية بقطع رأس القواس ونفى الكاشف .

وإعدام القاتل لا يحقر من شأن أولاده، فالجريمة عند المصريين وعند كل المسلمين شخصية، بينما تبدو مصادرة الثروات باعتبارها شيئا بشعا وظالما لورثته، لكن هذا الإجراء كان يحدث فى بعض الأحيان أثناء حكم البكوات، وكان ذلك إحدى السوءات التى أدخلوها مع ما أدخلوه من سوءات .

وتحكم الشريعة بالقصاص على الشخص الذى يجرح قرينه «النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص» (*) .

(*) القرآن الكريم، الآية ٤٥،المائدة . (المترجم) .

والشخص الذى يدان بارتكاب هذا الفعل العنيف، يستطيع أن يفتفر فعلته بأن يدفع إلى المجروح نصف المبلغ الذى كان سيضطر لدفعه لو أنه قتله .

ولايمكن أن يحكم بالموت على من قتل خطأ، ولكنه يدين لأسرة القتيل بثمن حق الدم، باعتباره قد حرمها من أحد أفرادها .

وحسبما يرى العلماء فإن الشريعة فوق الحاكم، لذا فإنه لا حق لأحد فى أن يحكم على إنسان مثله بالقتل، إلا إذا كان القاضى هو الذى أصدر هذا الحكم. وفى عهد السلاطين الأول، كان لأهالى الشخص الذى أمر رئيس الشرطة بقتله، الحق فى استدعاء هذا الضابط أمام القاضى ليطلبوا القصاص منه، بل إن السلطان نفسه لايستطيع أن يحكم بالموت كما يتراءى له على مذنب فاجأه هو بنفسه وهو يرتكب جريمته. فقد رأى الغورى سلطان مصر بعينيه واحدا يرتكب جريمة زنا، فجمع القاضى والمذنبين ، وأمر الأول بأن يقتل الأخيرين ، فأجابه القاضى : «أعرف أنك شاهدت هذين اللذين تتهمهما، وكان فى يدك السيف لكى تضرب عنقهما ، لكننى ليس لى الحق فى أن أدينهما بلا أدلة، أحضر لى إذن شهودا حقيقيين أفحص لك القضية » . ويقدم لنا التاريخ مثالا آخر أكثر دلالة على سطوة الشريعة على كبار الأمراء فى أزمنة الإسلام الأولى، فقد استدعى الخليفة هارون الرشيد فى قضية ، وعندما حضر إلى المحكمة استقبله القاضى جالسا، وفحص القضية وأنهاها بشكل ودى ، ثم نهض القاضى– الذى لم ينهض عند حضور الأمير إذ كان من المحتمل أن يكون مذنبا – بعد الحكم، وصحبه إلى حصانه وساعده على الركوب.

ومع ذلك فتحت الادعاء بأن الصالح العام يحتم على الدوام اتخاذ إجراءات عاجلة، فقد كان الوالى أو رئيس الشرطة الليلية يقطع رأس الشخص الذى يجده متلبسا بارتكاب جريمته ، دون بحث أو تحريات قضائية، ولم يحدث مطلقا منذ أن استقر الأتراك بمصر أن تجاسرت أسرة رجل مات بهذه الطريقة أن تتقدم بشكوى

إلى القاضى، فسيف الوالى صريح وخارج القانون كما يقول العامة . ولكن سلطة رؤساء السلطة - كما سبق أن نوهنا - قد أصبحت فى الآونة الأخيرة أقل استبدادا، فلم يعد رجال الشرطة يقتلون أى شخص إلا إذا حصلوا مقدما على تفويض بذلك من شيخ البلد.

وليس ثمة مأوى له حرمته لقاتل، فهو يلاحق فى كل مكان حتى فى المساجد وحجرات الحريم، ومع ذلك فإن الرجل الكريم الذى يخفيه من غضب الأسرة المكلومة يمتدح بأنه قد قام بفعل خير سوف تكافئه عليه السماء ذات يوم، خاصة إذا لم يكن قد آوى القاتل إلا لكى يلتمس من ملاحقيه توضيح العقاب الذى يطلبونه، أما إذا أصر أهل القتيل على طلب رأس القاتل فإن حاميه يضطر لتسليمه طواعية، وإلا يرغم على ذلك بقوة السلطة.

وحوادث القتل نادرة للغاية فى المدن الكبرى وبخاصة فى القاهرة، وربما لايعود الأمر إلى قوة القانون بقدر مايعود إلى الطابع الخجول للسكان، وإلى يقظة لشرطة المتحفزة على الدوام ، والتى تنقض كالصاعقة . ولكن فى الأقاليم حيث لاتوجد شرطة عمومية، و حيث ترين البلادة والخمول والجهل على الفلاحين وقبائل عربان التى تعمر الريف، فإن حوادث القتل أكثر انتشارا.

وقد دخلت فى عهد محمد بك عادة همجية سببت عددا لايحصى من الجرائم، ففى موسم البرسيم كان سياس (جمع سايس) المماليك يذهبون إلى حقول البرسيم لرعاية الماشية وجمع الكلأ ، وقد تسببت هذه الانتهابات فى كثير من حوادث القتل، وكثرت الشكوى من ذلك لدرجة أن الحكومة تساهلت فى الأمر حتى توفر على نفسها مشقة قمع هذه الأمور الجامحة. وحتى لايعود الأمر يسبب لها من الضيق ماهى فى غنى عنه ، خولت الفلاحين على نحو ما قتل السياس النهابين، كما خولت هؤلاء كذلك حق الدفاع عن حياتهم، شريطة ألا يستخدم أى طرف من الاثنين الأسلحة النارية، ولم يكن القاتل من أى من الطرفين يلقى أى نوع من العقاب .

الفصل السادس

عن التجارة والصناعة والزراعة

١

تجارة مصر منذ العصور القديمة حتى اليوم

كانت مصر على الدوام مركزاً لتجارة هامة، وهى تدين بذلك لموقعها الجغرافى بقدر ماتدين به كذلك لكثرة وتنوع منتجاتها الزراعية، فهى تقع على بحرين، ويمكن القول بأنها تشكل نقطة التقاء بين ثلاث قارات كبرى من العالم القديم، وعلى هذا فقد كانت سوقا كبيرا لمختلف الأمم، حيث سهلت لها سبلَ الاتصال الملاحةُ فى نهرالنيل وفى ترعه وفروعه التى لايحصيها عد . لذلك يخبرنا الكتاب المقدس بنبأ أولئك التجار الإسماعيليين الذين جذبتهم التجارة إلى مصر، فساروا إليها ومعهم أشهر أبناء يعقوب الذى اشتروه. ويبرهن هذا النص الهام - بالإضافة إلى الحكاية التى تليه ، وبطريقة لاتقبل الجدل - على أن بلاد الفراعنة كانت منذ الأزمنه البعيدة مزدهرة ازدهارا كبيرا بفضل التجارة والصناعة. ومع ذلك فإن الخرافات والروحانيات قد وضعت لذلك حدودا، إذ اتخذت شعوب مصر- حسبمايقول هيرودت ومؤرخون آخرون جديرون بالثقة - من البحر عدوا، ونظروا للأسفار التى تتم عن طريقه باعتبارها أفعالا تدنس مقدساتهم. ومن الممكن تفسير هذه الفكرة العجيبة بنفور المصريين الطبيعى من بقية الأمم ، أو بالرجوع إلى البحث فى أنساب آلهتهم . لكن بحثا من هذا النوع سوف ينأى بنا كثيرا عن موضوعنا . ويكفى هنا أن نقول بأن مصر إذا كانت قد ظلت - برغم هذا التحريم - تحتفظ بأهميتها فى مجال التجارة، فإن هذه التجارة تدين برواجها لخصوبة أرض مصر، ولاحتياجات الشعوب المجاورة التى كانت تجد فى مصر، ليس فقط كل ماتحتاج إليه من مواد غذائية، بل كانت تجد كذلك مختلف المنتجات التى تساهم فى إضفاء طابع الفخامة على مدنها الكبرى .

ولعل أول تجارة شهيرة يذكرها التاريخ هى تجارة الفينيقيين مع المصريين، وتجارة المصريين مع الأحباش والجزيرة العربية فى موانى البحر الأحمر. وكان الفرس والهنود يجلبون إلى الجزيرة العربية أقطانهم وعطورهم وأحجارهم الكريمة وبضائع أخرى، وكانوا يحملون معهم عند عودتهم المنتجات الصناعية الفينيقية المصرية. وفضلا عن ذلك كانت توجد فى هذه الفترة وسائل للتبادل التجارى، لم تنتقل تقاليدها إلينا على الإطلاق. أما بخصوص اليونانيين ، فعلى الرغم من أنهم يدينون بأصلهم جزئيا إلى المستعمرات المصرية، فإنهم لم يبدأوا إلا جد متأخرين فى ممارسة علاقاتهم التجارية مع مصر. وقد سمح لهم فى عصر أمازيس بأن يتخذوا من نكراتيس(*)مستودعا لتجارتهم، وهو امتياز لم يكونوا قد حظوا به حتى ذلك الوقت. وقبل هذه الفترة، كانت المستعمرات اليونانية فى آسيا تستطيع الاتصال بمصر ، وبخاصة منذ الدعم الذى قدمه الأيونيون والكاريون Cariens لأبسماتيك على منافسيه، لكن العلاقات بين مصر واليونان لم تصبح طليقة من القيود إلا فى عهد أمازيس .

ومن بين كل الشعوب كان أبناء قرطاجة – بعد الفينيقيين – هم الشعب الذى أثرى ثراء كبيرا عن طريق التجارة، بل ويتفق مؤرخو الأزمنة القديمة على وضعهم فى الصف الأول . وكانت الأساطيل التجارية لهذه الجمهورية القوية تجوب كل أنحاء البحر المتوسط وموانى أسبانيا والشواطىء الغربية من أفريقيا.

ويقول العلامة Huet فى زمن فتوحات الإسكندر: «كانت سفن القرطاجيين والفينيقيين – التى كانت فى ذلك الوقت تحت سيطرة الفرس – تغطى البحار من الهند والحبشة حتى المحيط الغربى» . لكن تخريب مدينة Tyr (حاليا:صور) وانتصارات البطل المقدونى وتأسيس مدينة الأسكندرية قد أحدث ثورة كبيرة فى مسار التجارة البحرية . فقد أصبحت هذه المدينة الجديدة المقر الرئيسى لتجارة الهند فى عصر (فيلالفوس بطليموس الثانى)، وصارت فى ذلك الوقت من أغنى

(*) حاليا : كوم جعيف (المترجم) .

دول العالم، فكانت هى التى تمون كل موانى البحر الأبيض، إذ كانت اليونان وايطاليا وآسيا وأفريقيا تأتى إلى أسواق الأسكندرية للحصول على تموينها . وقد بنى بطليموس الثانى مدينة بيرنيس على البحر الأحمر، وقد سهل ذلك نقل البضائع التى كانت تصل إلى مصر من الهند، فكانت تفرغ فى بيرنيس ، ومن هناك تنقلها القوافل إلى قفط Coptos على النيل، ومن هناك تنزل إلى النهرحتى المكان الذى تبدأ منه ترعة الأسكندرية . وقد اهتم هذا الحاكم كذلك بإنشاء محطات مريحة فى الصحراء للقوافل ، مما جعل هذا السفر الطويل أقل مشقة مما يبدو لأعيننا الآن، ولم يهجر طريق بيرنيس إلا فى أواخر عهد البطالمة .

وكانت كورنثة – فى اليونان – مزدهرة فى الوقت الذى كانت الأسكندرية فيه فى قمة مجدها تحت حكم البطالمة، وقد استطاع أهالى كورنثة الذين أثروا من عملياتهم التجارية، أن يجعلوا من مدينتهم السوق الرئيسية فى الغرب . لكن الوقت لم يطل بها حتى عانت من الآثار البغيضة لغيرة روما، فسلب منها القنصل موميوس Mummius (*) مجدها التجارى بنفس الطريقة التى تدهورت بها مدينة صور فى الماضى بفعل إنشاء الأسكندرية، ففى هذه الفترة أصبحت جزيرة ديلوس Délos (**) – التى كانت لاتعرف حتى ذلك الوقت إلا بمعبدها وآلهتها – المركز الرئيسى لتجارة البحر الأبيض .

وفى العام الـ ٧٢٥ من تأسيس روما تضاءلت مصر لتصبح مجرد إقليم رومانى، ومنذ ذلك الوقت استغل الرومان – وكانوا قد أصبحوا سادة مطلقين للبحار– تجارة الهند لحسابهم، ومع ذلك فلم تكن أساطيلهم تبحر إلى ما وراء الهند حسب شهادة مؤرخى ذلك العصر . وكان اليهود والرومان – كما يذكر بلين Pline– يرحلون من الأسكندرية فى منتصف الصيف، أى فى الأيام الأولى لفيضان النيل

(*) قنصل الرومان عام ١٠٦ قبل الميلاد، وقد استولى على كورنثه وأخضع اليونان . (المترجم) .

(**) من جزر الأرخبيل .(المترجم) .

بلا شك، وكانوا يصلون إلى بيرنيس بعد ٢٤ يوما، ويستغرقون ٧٠ يوما ليصلوا إلى الهند، ولم يكن يلزمهم أقل من عام فى رحلة الذهاب والعودة . واستمرت هذه الحال حتى الغزو العربى أى منذ أغسطس حتى قسطنطين، ذلك لأن إنشاء القسطنطينية على يد هذا الحاكم قد أضر كثيرا بازدهار تجارة مصر، وفيما بعد، عندما عمل الخليفة عمر على إنشاء البصرة على نهر الفرات، وأصبحت تجارة الهند وقفا على هذه المدينة الجديدة، ويمكن القول بأن التجارة قد أصبحت محصورة بحدود الخليج الفارسى. لكن مصر لم تكن قد فقدت بعد ازدهارها القديم: إذ كانت القاهرة التى بناها بعد ذلك الخليفة الفاطمى المعز لدين الله عام ٩٨٤ قد أصبحت مدينة هامة . وفى القرن الثانى عشر استردت الأسكندرية جزءا من امتيازها ، وأصبحت تنهال عليها بضائع الهند من كل جانب، لكن اكتشاف البرتغاليين لطريق يؤدى إلى الهند عن طريق المحيط الأطلسى ورأس الرجاء الصالح، كان هو القشة الأخيرة التى قصمت ظهر مصر، ويمكن القول بأن ذلك قد قلص مكانتها التجارية لدرجة لم تعد تنشغل معها إلا بتجارتها المحلية. وقد تأثر بذلك وبنفس القدر أهالى البندقية وجنوة الذين كانوا قد أثروا لفترة طويلة عن طريق تجارتهم مع القسطنطينية والبحر الأسود وآسيا الصغرى، ثم أضيروا بسبب النتائج التى أدت إليها فى آسيا الاكتشافات البحرية البرتغالية. فقد كان تجار البندقية وحدهم – على وجه التقريب – هم الذين يستحوذون على كل تجارة مصر ، حيث كانوا يأتون إلى الأسكندرية للحصول على كل المواد الغذائية اللازمة لأوروبا، ويحملون إلى مصر أخشاب البناء والمعادن والأصواف والسلاح والزجاج ..الخ . وفى القرن الرابع عشر، عندما استطاع أهالى فلورنسا الارتفاع بمستوى صناعة الحرير والزجاج لحد كبير، فإنهم توسعوا فى علاقاتهم ومبادلاتهم، فكانوايأتون إلى الأسكندرية ويقتسمون التجارة مع أهالى البندقية، وقد كان هؤلاء من قبل لايلقون أية منافسة، وأنشأ أهالى فلورنسا البنوك، واحتلوا مركزا بارزا بين الأمم التجارية فى ذلك العصر.

هذه هى كل عصور التجارة المصرية ، منذ العصور الضاربة فى القدم حتى العصور القريبة من عصرنا . فلنر الآن ماذا أصبحت عليه التجارة تحت الإدارة المخزية للمماليك، وتحت تأثير العثمانيين، وهو لايقل عن تأثير المماليك دمارا .

مما لاجدال فيه أنه لو كانت حالة التجارة لبلد ما تعتمد على الحكومة التى تحكمه ، لكانت مصر قد أوقفت منذ زمان طويل كل أنوا ع التبادل مع الشعوب المجاورة . ومع ذلك فقد كان ثمة تجارة شأنها شأن كل فروع الأعمال التى يحترفها شعب من الشعوب، لقد كان هذا الضرب من ضروب النشاط يسير نفسه بنفسه، لأن كل إنسان يشعر بحاجته إليه. إن من الممكن إعاقتها ولكن يستحيل القضاء كلية على أثرها النافع، وهذا هو ما حدث تحت استبداد المماليك، فكانت المبادلات التجارية تتم على الدوام . وبالرغم من أن عدد البيوتات الأوربية التى استقرت فى القاهرة أو الأسكندرية قد أصبح ضئيلا، فإنه كان ما يزال كافيا للقيام بنشاط كبير فى مجال المعاملات التجارية بين مصر وأوربا . وبخلاف هذه التجارة كان ثمة تجارة أخرى- لاتقل أهمية - بين مصر والقسطنطينية، تلك هى تجارة الرقيق الأبيض من كلا الجنسين ، والذين يبدلون بعبيد سود قادمين من أعماق أفريقيا . وكانت القوافل تجلب إلى مصر من سوريا وفلسطين المواد الغذائية والبضائع المختلفة، لتحمل معها بضائع أخرى عند عودتها .

ولكن أهم فرع من فروع التجارة المصرية كان هو استيراد وتصدير البن القادم من الجزيرة العربية، فكانت السفن تقوم برحلة سنوية من السويس، لتتجه إلى جدة، لتحمل من هناك البن الذى كان عرب اليمن قد جلبوه إليها ، كما كانت تحمل الأقمشة والتوابل والبخور القادمة من الهند ، إما عن طريق الإنجليز من البنغال وسورات ومدراس ، وإما بواسطة الهنود أنفسهم. وكانت السفن المصرية تبحر من السويس فى الفصل الذى تهب فيه رياح الشمال ، وكان يلزمها ١٧-٢٠ يوما للوصول إلى جدة . ولم تكن ترفع شراعها إلا أثناء النهار، وكانت تلقى مراسيها فى الليل ، وكانت تحرص على التزام الشاطئ ، ونادرا ما كانت تتوغل فى عرض البحر، وكانت رحلة العودة تستغرق شهرين .

وكانت القوافل القادمة من دارفور وسنار، وكذلك القادمة من بلاد النوبة، تجلب إلى مصر بخلاف العبيد السود من كلا الجنسين، أصنافا عديدة من المواد الثمينة ، مثل : تراب الذهب والعاج والمسك والأبنوس والعنبر وريش النعام والصمغ من مختلف الأنواع . ويفترض ماييه Maillet أن مصر تحصل من فرنسا وايطاليا فى العام الواحد على ٤٠٠ - ٥٠٠ ألف قرش، وأنها تحصل من أعماق أفريقيا على ١٠٠٠-١٢٠٠ قنطار من تراب الذهب، وعلى أكثر من مليون ريال فرنسى (écus) من القسطنطينية وآسيا، ثمنا لأقمشتها وبنها وأرزها ومختلف الأنواع من البقول .

وتشتمل تجارة التصدير المصرية أساساً على : الأرز والبن وجلود الماعز والأقمشة والقطن والسكر والقمح والعقاقير الطبية والخضروات الجافة . وكانت الحنة - وهى نبات يستخدم فى صبغ الأظافر والأقدام والأيدى باللون الأحمر البرتقالى - مرغوبة بكثرة فى كل البلاد، لأنه كان من عادة المسلمات بصفة عامة استخدامها .

وكان جزء من مالية مصر يذهب إلى تركيا لتسديد الجزية التى يدفعها الباشا للسلطان، مع ما يرسل من هدايا كان يقدمها للوزراء والمقربين من السلطان، حتى يثبت فى مكانه . وكان جزء كبير من مال مصر كذلك يختفى عن طريق أبنائها الذين يخشون على الدوام من السلب، وقد انتهت هذه العادة المحزنة - وهى شائعة عند كل الشرقيين - بتسرب كثير من الأموال إلى خارج مصر، وبهذه الطريقة ضاعت على مصر مبالغ طائلة، وإلى الأبد .

وكان ميزان العلاقات التجارية بين مصر وأوربا لصالح مصر بشكل كبير، إذ لم تكن مصر تدفع أموالا على الإطلاق، وكان المقابل يتم دائما فى صورة بضائع، بينما كانت أوربا مضطرة فى معظم الأحيان إلى دفع الأموال . وكانت فرنسا ترسل الأصواف وصبغة النيلة والأسلحة ومختلف المواد اللازمة لصناعة الحدايد

والنحاس ، أما البندقية فكانت تصدر لمصر العملات الذهبية الإيطالية (سكين Séquins) والخرز والمرايا، أما ألمانيا فكانت ترسل البورسلين والأوانى الزجاجية والمواد اللازمة لصناعة الحدايد والنحاس .

وكانت مصر ترسل فى مقابل ذلك : السنامكى ، والصمغ، وكثيرا من المنسوجات القطنية الخشنة، وغزل القطن، والسكر الخام ، والبن إلى مرسيليا. وكانت ترسل إلى البندقية : كميات كبيرة من البن ، والعقاقير الطبية. وكانت ترسل إلى ألمانيا: العاج ، والأبنوس ، والصمغ .

وكان من المفيد فى السنوات الأخيرة إرسال النقود إلى مصر، لأن قيمتها الإسمية كانت فى ارتفاع، ويرجع السبب فى ذلك إلى ندرة النقود، وإلى أن قيمة العملات الوطنية كانت فى تدهور مستمر. أما البضائع الضرورية كالأصواف ونحوها، فكان يفضل الحصول فى مقابلها على بضائع، حيث كان سعر هذه الأصواف قد ارتفع .

أما تجارة الهند وجدة، فكانت – على العكس من ذلك – مكلفة لمصر، لأنها لم تكن تصدر فى مقابلها إلى هناك إلا أصوافا رديئة، ولأن تجارة البن كانت تقتضى منها أن تدفع ٤/٥ ثمنه نقدا . أما تجارة قوافل أفريقيا فلم تكن تتطلب قطعة واحدة من النقد، وكانت هذه القوافل تجلب – كما سبق القول – العبيد ، والصمغ ، وسن الفيل ، وريش النعام ، وتراب الذهب. وتحصل فى مقابل ذلك على : الأصواف الفاخرة ، والمجوهرات ، والأسلحة النارية المصنوعة فى أوربا .

ولكى نعطى للقارىء فكرة موضوعية عن تجارة مصر، نضع تحت يده جداول مختلفة ، نوضح فيها بالتفصيل كل مواد الاستيراد والتصدير التى تغذى هذه التجارة، وتعود هذه الأرقام إلى عام ١٧٧٥ .

تفاصيل البضائع المستوردة

من : لندن ، مارسيليا، ليفورنيو ، البندقية ، تريستا ، القسطنطينية ، وأزمير ، ومدن تركية أخرى – إلى القاهرة للاستهلاك السنوى بمصر عام ١٧٧٥

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	نوع النقود	السعر	ديوانى	الوزن والمقياس
جوخ إنجليزى سوبر فاين (فاخر)	طرد	٥٠	قطعة ذهبية	٢ – ٢ ١/٤	٩٠	ذراع مقاس القسطنطينية
« فرنسى « «	»	٥٠	»	١ – ١ ١/٤	٩٠	»
« هولندى « « «	»	٢٠	»	٢ – ٢ ١/٢	٩٠	»
« فرنسى خشن وعريض	»	٢٥٠	ديوانى	٧٥ – ٩٠	٩٠	»
« إنجليزى « «	»	٢٥٠	»	٦٠ – ٧٥	٩٠	»
« فرنسى عريض	»	١٥٠	»	٥٥ – ٧٠	٩٠	»
« منقوش للأرائك والمخدات	»	١٠	»	٦٠ – ٩٠	٩٠	»
أقمشة صوف إنجليزى	»	٢٠٠	»	٣٢ – ٣٥	٨٥	»
فلفل	»	٣٠٠	–	٣٠ – ٣٥	٦٠	قنطار ١٠٠ رطل
زهرة القرنفل	»	١٠	ديوانى	١٦٠ – ١٨٠	٩٠	رطل ١٤٤ درهم
الحشيشة المغربية	بالة	١٠	»	٤٦٠٠ – ٤٧٠٠	٩٠	قنطار ١١٠ رطل
ورق بثلاث هلالات وارد فرنسا أو جنيف	»	١ر٠٠٠	–	١٧ – ١٣	٦٠	بالة ٢٤ رزمة
صوف فاخر من انجلترا يسمى باشماوت	»	٥٠	قطعة ذهبية	٢ – ٢ ٣/٤	٩٠	وزنة القسطنطينية
« من لندن موديل فرنساوى	»	١٥٠	ديوانى	٧٥ – ٩٠	٨٥	»
« ألمانى	»	٦٠	قطعة ذهبية	٢ – ٣	٩٠	»
ورد الشمس ومشروبات روحية أخرى وارد ألمانيا والبندقية	»	١ر٠٠٠	ديوانى	٤٣ – ٤٨	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
نحاس مستعمل	»	١٠٠	»	٢٥ – ٢٨	٩٠	»
ورق تبغ وارد سالونيكا وقولة	»	٥ر٠٠٠	فندقلى	٦ – ١٢	١٤٦	أقة
أقمشة قطنية وارد بورصة	»	٢٠٠	ديوانى	٣٤٠ – ٣٦٠	٨٥	القطعة
مناديل من الموسلين	»	١٠	»	٦٠ – ١٠٠	٩٠	الواحدة
سجاجيد متنوعة من القطيفة وسجاجيد سادة	»	٥٠	قرش	١٧ – ٥٠	٤٠	»
قطيفة منتقاة مطعمة بالذهب أو الفضة أوسادة	»	١ر٠٠٠	بوطاقة	٣ – ١٢	٩٠	الزوج
أقمشة قطنية وحريرية من دمشق وحلب	»	١٠٠	ديوانى	٤٥٠ – ٥٠٠	٩٠	القطعة
صابون سورى درجة ١	»	١ر٠٠٠	»	٣٠ – ٣٢	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
« نقى من كريت	»	٢ر٠٠٠	بوطاقة	١٠ – ١٢	٩٠	قنطار ١٢٠ أقة
تبغ سورى	»	٤ر٠٠٠	فندقلى	١٥ – ١٦	١٤٦	قنطار ٤٠ أقة
تين مجفف من ستانخيو ورودوس	»	١ر٠٠٠	ديوانى	٥ – ٧	٩٠	أقة دراهم

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	نوع النقود	السعر	ديوانى	الوزن والمقياس
حرير خام من بورصة	بالة	١٠٠	بوطاقة ألمانية	٥ – ٦	٩٠	أقة دراهم
« « زاجورة	»	٢٠	»	٥ – ٦	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
« أبيض وأصفر من قبرص	»	٥٠٠	»	٥ – ١٤	٩٠	أقة ٤٥٤ درهم
« « « « بيروت	»	٥٠٠	»	٤ – ٤١/٢	٩٠	رطل ٢٢٩,٥ درهم
« « « « طرابلس	»	٥٠٠	»	—	—	—
قطن من عكا أو من قبرص وسالونيكا	»	٦٠٠	قرشا	٤٥ – ٦٠	٣٠	قنطار ١٠٠ رطل
تبغ ورق من هنجاريا	»	٣٠٠	فندقلى	١٠ – ١٢	١٤٦	أقة ٤٠٠ درهم
ورق رفيع بثلاث هلالات	»	١٠٠٠	مدينى	٩٠ – ١٠٠	٩٠	الرزمة
ورق خشن	»	٥٠٠	»	٦٠ – ٧٥	—	»
« أصناف أخرى	»	٢٠٠	»	٥٠ – ٦٥	—	»
« من ألمانيا	»	١٠٠	»	٨٠ – ١٠٠	٩٠	»
حديد من ألمانيا	الطرد	٥٠٠	—	١٠ – ١٢	٧٣	قنطار ٢٣٣,٥ رطل
زفت من ستانجيو ورودس	صندوق	٢٠٠٠	—	—	—	—
زنجينا	الطن	١٠	ديوانى	١٢٠٠ – ١٢٥٠	٩٠	قنطار ١٥٠ رطل
حبوب للمسابح والعقود – عادى	»	٢٠٠	—	١٠ – ١٢	٦٠	« ١٢٠ «
« « «	»	١٠٠	قطعة ذهبية	١٠ – ١٢	٦٠	« بالأرطال
« « « وارد هولندا وألمانيا	»	١٠	»	١٨ – ٢١	٦٠	—
أوراق معدنية رقيقة	»	١٠٠	ديوانى	٥٥ – ٦٠	٩٠	الباكو
لوندة فرنسية	»	٦٠	زرمحبوب	١٠ – ١١	١٢٠	قنطار ١١٠ رطل
علب كبيرة	»	١٠	ديوانى	٤٠٠ – ٤٥٠	٩٠	لكل مائة
زيت من كريت	البرميل	١٠٠٠	»	٢٢ – ٢٤	٩٠	أقة بالدراهم
كسرولات فاخرة	الطن	١٠	مدينى	٧٥ – ٨٠	٩٠	»
أسلاك حديدية متنوعة	ط صغير	١٠	بالذهب	٢٦ – ٣٦	٩٠	القنطار ١٥٠ رطل
« نحاس أصفر متنوعة	»	٥	فندقلى	١٨ – ٢٠	١٤٦	« بالأرطال
« نحاسية	»	٢	»	١٦ – ١٨	١٤٦	« «
زئبق	»	٥٠	مدينى	٦٠٠٠ – ٦٤٠٠	٨٥	« ١٢٠ رطل
سلال من مختلف الأنواع	صندوق	٦	ديوانى	٥٠ – ٦٠	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
أقراط – سكاكين من أحجام مختلفة – علب للنشوق – زهور صناعية	»	٥٠	—	—	—	السعر حسب الصنف
حبات مسبحة بيضاوية ألوان مختلفة نمرة ٢، نمرة ٣		١٠	ديوانى	٩ – ١١	٩٠	المسبحة
حبات مسبحة بيضاوية نمرة ٤		١٠	»	٤ – ٥	٩٠	»
حبات مسبحة بيضاوية زرقاء وخضراء		١٠	»	١٩٠ – ٢٠٠	٩٠	بالألف
حبات مسبحة بيضاوية منقطة	»	٥	»	٨٠ – ٩٠	٩٠	»

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	نوع النقود	السعر	ديوانى	الوزن والمقياس
حبات مسبحة بيضاوية ألوان مختلفة	صندوق	٥	ديوانى	٩ – ١١	٩٠	بالمسبحة
« « من العقيق الصناعى	»	١٠	»	١٩٠ – ٢٠٠	٩٠	بالمسبحة ١٢ – ١٤٠ح
« « « الياقوت نمرة ٢، نمرة ٣	»	١٠	»	١٠ – ١٢	٩٠	» » »
أوراق فضية رقيقة	»	١٠٠	–	٢٤ – ٢٦	٦٠	بالصندوق
رقائق نحاسية	»	١٠	قطع ذهبية	٩٠ – ٩٥	٩٠	الباكو ٥ حزمات
مبارد نمرة ١، نمرة ٢	»	٥	ديوانى	١٢ – ١٤	٩٠	بالباكو
سيوف عريضة ذات حدين	»	١٠	»	٨٠ – ٨٥	٩٠	لكل
مواسير بنادق	»	١٠	»	٩٠ – ١٠٠	٩٠	»
نحاس جديد مصنع	»	٢٠٠	»	٦٠ – ٦٥	٩٠	أقة بالدراهم
كلور الزئبق	»	١٠	»	٣٦٠ – ٣٨٠	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
معدن مضروب إلى رقائق خفيفة	»	١٠	»	٢٠٠ – ٢٢٠	٩٠	بالباكو
شيلان من قماش الأنجورا	»	٣٠٠	نقد ألمانى	١٧ – ١٨	٩٠	بالقطعة
كركم فى علب صغيرة	»	٢٠	ديوانى	٤٣ – ٥٠	٩٠	الأقة ١١٠ درهم
« غير معبأ	»	١٠	»	٨٠ – ٩٠	٩٠	« بالدراهم
أحذية بدون كعوب (بابوش) وارد القسطنطينية وأزمير	»	١٠٠	»	٦٠ – ٨٠	٩٠	الزوج
مستكة وارد خيوس	»	٤٠٠	مدينى	١١٥ – ١٢٠	٩٠	الأقة ٤٠٠ درهم
صلب عادى	»	١٠٠٠	»	٣٠٠ – ٣٤٠	٩٠	القنطار ١٠٥ رطل
« صنف أجود	»	٥٠٠	»	٣٠٠ – ٣٤٠	٩٠	قنطار بالأرطال
أكسيد الرصاص وارد فينسيا	»	٥٠٠	»	٨ – ٩	٦٠	الصندوق
كبريتات الزئبق	»	٢٠	»	٨٤٠٠ – ٨٦٠٠	٩٠	القنطار ١٠٢ رطل
سكاكين ذات مقابض وارد سوريا	»	.	–	–	–	السعر حسب الصنف
سكاكين بدون مقابض	»	١٠	مدينى	٤٠ – ٤٣	٩٠	الحزمة
مقصات ضخمة	»	٥	»	١٣ – ١٩	٩٠	الدستة
أمواس ممتازة وعادية وارد ألمانيا	»	١٠	»	٢٠ – ٢٥	٩٠	–
أكواب زجاجية ومرايا متنوعة وارد فينيسيا	»	٥٠	ريال ألمانى	٣ – ٥٠	–	كل حسب حجمه
مرايا وارد ألمانيا	»	٢٠	»	٦ – ٤٠	–	» »
أكواب زجاجية ومرايا وارد بوهيميا	»	١٠	–	–	–	السعر حسب الصنف
مشروبات روحية وارد أسبانيا	»	٥٠	مدينى	٢٤ – ٣٠	٩٠	الصندوق
زجاج مرايا بدون إطار	»	٢٠٠	فندقلى	٦ ١/٢ – ٨	١٤٦	»
رصاص على شكل سبائك	»	٢٠٠٠	ديوانى	٤٧٠ – ٤٩٠	٩٠	القنطار ١٤٠ رطل
زرنيخ أصفر وأبيض	»	٢٠٠	»	٥٠٠ – ٥٦٠	٩٠	« ١٢٥ »
أكسيد النحاس على شكل قطع	»	٢٠	»	٧٠ – ٧٥	٩٠	الأقة ٤٠٠ درهم
إبر نمرة ١، ٢، ٣، ٤	...	١٠٠٠٠	»	٣٥٠ – ٣٨٠	٩٠	بالألف
دبابيس	–	١٠٠٠٠	»	٣٠٠ – ٣٥٠	٩٠	»
سنارات أنواع مختلفة	–	١٠٠٠٠	»	٢٠ – ٣٠	–	»
رقائق نحاسية وأسياخ حديد	–	٢٠	مدينى	٢٢٠٠ – ٢٣٠٠	٩٠	القنطار ١٥٠ رطل

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	نوع النقود	السعر	ديوانى	الوزن والمقياس
ألواح زجاجية من البندقية سادة ومنقوش	–	–	–	–	–	–
الصنوبر (للصباغة باللون الأحمر)	صناديق	١٠	ديوانى	٨٤٠٠ – ٨٦٠٠	٩٠	قنطار ١٢٠ رطل
حلوى من فرنسا وجنيف	العلبة	٢٠٠	»	٨ – ٣٠	٩٠	العلبة
تبي مخفف من أزمير	»	٨٠٠٠	»	٨ – ١٢	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
قطران (زفت) من ستانخوس ورودس	القربة	٥٠٠	–	–	–	–
صبغة النيلة	البرميل	١٠٠	قطعة ذهبية	١٠ – ١٦	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
جوزة الطيب	»	١٠	ديوانى	١٦٠ – ١٧٠	٩٠	رطل ١٤٤ درهم
قصدير باللفة	»	٣٠٠	»	١٢٠٠ – ١٣٠٠	٩٠	قنطار ١٠٢ رطل
عقاقير لعلاج العيون	»	٢٠٠	»	٤٧٠ – ٤٩٠	٩٠	قنطار ١٥٠ رطل برميل
جيلامين لتنظيف الأسنان	»	٢٠٠	»	١٤٠٠ – ١٤٦٠	٩٠	» ١٠٢ » »
ألواح قصدير	»	١٠٠	–	٣٦ – ٤٠	٦٠	البرميل ٤٥٠ لوح
أكسيد الرصاص الأحمر	»	٢٠	ديوانى	٥٢٠ – ٥٤٠	٩٠	قنطار ١٣٠ رطل
سكر من لشبونة	»	٤٠	قطعة ذهبية	١٠ – ١٣	٩٠	» ١١٠ »
شبة من انجلترا	»	١٠٠	ديوانى	١٠٠٠ – ١٠٥٠	٩٠	» ١٥٠ »
كبريتات	»	٥٠	»	١٦٥ – ١٧٥	٩٠	» ١٥٠ »
مسامير كبيرة الحجم	»	١٠٠	قطعة ذهبية	١٩ – ٢٤	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
آنية حديدية	»	٢٠	مدينى	٢٢ – ٢٥	٩٠	» » »
» نحاسية	»	١٠	»	٧٠ – ٧٥	٩٠	» دراهم
زيت من المغرب وتونس	الجرة	٤٠٠٠	ديوانى	٢٤ – ٢٨	٩٠	» ٤٠٠ درهم
صابون رخو من المغرب	»	٥٠٠	»	٢٢ – ٢٤	٩٠	» دراهم
تبغ مدقوق	»	١٠٠	مدينى	٥٠ – ٦٠	٩٠	» »
مزاول	الواحدة	٢٠	قطعة ذهبية	٣٠ – ٤٠٠	–	الواحدة
بندول	»	٥٠	»	١٥ – ١٠٠	–	»
أقمشة من البندقية أرجوانية اللون تسمى ساى	القطع	٢٠٠	»	٣ ١/٤ – ٣ ٣/٤	٩٠	ذراع القسطنطينية
أقمشة أرجوانية اللون	»	٥٠	»	٤ ١/٢ – ٥	٩٠	»
» تسمى بدوانيل نصف فاخرة	»	٢٠٠	»	٢ – ٢ ١/٢	٩٠	»
أقمشة حريرية وكتانية سادة للقمصان	»	١٠٠٠	نقود ألمانية	٥ – ٧	٩٠	القطعة
أقمشة قطنية خشنة من القسطنطينية	القطع	١٠٠٠	ديوانى	٨٠٠ – ٨٥٠	٩٠	»
فلانيلة منقوشة من ألمانيا	»	٥٠٠	مدينى	٣٠ – ٣٥	٩٠	ذراع القسطنطينية
جوخ خشن وارد ألمانيا	»	٢٠٠	»	٥٨٠	–	–
مناديل متنوعة وارد ألمانيا	»	١٠٠	ريال ألمانى	٨ – ١٠	٩٠	القطعة
» كتانية » »	»	١٠٠	»	٢ ٣/٤ – ٣	٩٠	»
قماش أبيض سادة ومنقوش	»	١٠٠٠	–	–	–	حسب الصنف
» مشمع سادة ومنقوش	»	١٠٠٠	ريال ألمانى	٨ – ٦	٩٠	القطعة

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	نوع النقود	السعر	ديوانى	الوزن والمقياس
ساعات ذهبية وفضية	الدستة	٢٠	قطعة ذهبية	٢٠ – ٢٠٠	–	الواحدة
عقيق صناعى	»	٢٠٠٠	ديوانى	٢٤ – ٣٠	٩٠	–
مناديل أنواع مختلفة	»	٢٠٠	مدينى	٥٨٠ – ٦٠٠	٩٠	الدستة
ورق مذهب	الرزمة	١٠٠	ديوانى	٢٩٠ – ٣٢٠	٩٠	الرزمة
» »	»	١٠٠	»	٤٩٠ – ٥٢٠	٩٠	»
» مفضض	»	١٠٠	»	٨٠ – ١٠٠	٩٠	»
ساتان من فلورنسا درجة أولى وثانية	الذراع	١٠٠٠	»	٩٥ – ١٠٠	٨٥	ذراع القسطنطينية
ساتان من فرنسا درجة أولى وثانية سادة ومنقوش	»	٥٠٠	»	١٠٠ – ١٢٠	٨٥	»
أقمشة مذهبة ومفضضة من فرنسا وفلورنسا	»	٦٠٠٠	قطعة ذهبية	٣ – ١٠	٨٥	»
ساتان عريض وسميك	»	١٠٠٠	ديوانى	٦٠ – ١٠٠	٨٥	»
» خفيف وغير عريض	»	١٥٠٠	»	٤٥ – ٦٠	٨٥	»
» عريض ومتين من ألمانيا	»	٥٠٠	»	١٢٠ – ١٥٠	٨٥	»
» تفتاز أسود وأبيض من البندقية	»	٤٠٠	»	٩٥ – ١٠٠	٨٥	»
ساتان من فرنسا نمرة ١ و نمرة ٢	»	٥٠٠	»	١٠٠ – ١٢٠	٨٥	»
قطيفة مضلعة وسادة	»	٢٠٠	قطعة ذهبية	١ ١/٢ – ٢	٨٥	»
ساتان مضلع وسادة	»	٦٠٠٠	مدينى	٦٠ – ٨٥	٨٥	»
ساتان مذهب ومفضض	»	٤٠٠٠	»	١٥٠ – ٣٦٠	٨٥	»
أقمشة مذهبة ومفضضة من البندقية	»	٢٠٠٠	ريال ألمانى	٣ – ١٢	٩٠	»
أقمشة متجانسة من دمشق	»	٢٠٠٠	مدينى	١٠٠ – ١٦٠	٩٠	»
كبريت عمود	القنطار	٢٠٠٠	ديوانى	٢٠٠ – ٢٥٠	٩٠	قنطار ١٥٠ رطل
عنبر أبيض نمرة ١	الأقة	١٠٠٠	»	٥٥٠ – ٦٥٠	٩٠	رطل ١٤٤ درهم
مرجان وارد فرنسا وراجوزة وليفورنيو	الرطل	٢٠٠٠	»	٧٢٠ – ٣٤٠٠	٩٠	رطل ١٥١ درهم
عنبر أصفر نمرة ١	الأقة	٤٠٠٠	»	١٨٠٠ – ٢٠٠٠	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
شرائط من القصب أو الحرير مذهبة ومفضضة	المثقال	٦٠٠٠	»	٣٠ – ٣٥	٨٥	ذراع القسطنطينية
رقائق ذهب وفضة	»	٢٠٠٠	»	٢٨ – ٣٢	٨٥	مثقال
خيوط ذهب وفضة	»	٥٠٠٠	»	٢٥ – ٣٠	٨٥	»
شرائط قصب وحرير ذهبية وفضية من كل الأنواع	»	٣٠٠٠	مدينى	٣٠ – ٣٥	٩٠	»
حديد من السويد ومسكوفيا	قضبان	٦٠٠٠	–	٨ – ٩	٧٣	قنطار ١/٣ ٢٣٣ رطل
فرنامبوك (خشب الطلاء)	الكتلة	٢٠٠٠	ديوانى	٨٥٨ – ١٠٠٠	٩٠	» ١٢٥ رطل
خمور من كل الأنواع من أسبانيا وفرنسا وتوسكانيا	–	–	–	–	–	الثمن حسب الصنف
بنادق صيد وطبنجات إنجليزى أحجام صغيرة	–	–	قطعة ذهبية	١٠ – ٥٠	–	–

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	نوع النقود	السعر	ديوانى	الوزن والمقياس
ألواح خشبية للمبانى من كل نوع	–	٦	–	–	–	الثمن حسب الحجم
أخشاب من روديتا والبحر الأسود وقردوغلى	الحمولة	١٠	–	–	–	» » »
فستق من سوريا بكميات صغيرة	–	–	ديوانى	٣٠ – ٤٠	٩٠	أقة بالدراهم
راتنج (صمغ صنوبر) من سالونيكا بكميات صغيرة	–	–	–	–	–	–
أقمشة تيلية للقلاع مستوردة من روسيا وبكمية صغيرة من تريستا	–	–	–	–	–	–
أنواع نحاسية ونحاس بكميات صغيرة وارد تريستا	–	–	–	–	–	–
أقمشة دمشقية مختلفة الأنواع	–	–	–	–	–	–

مجوهرات القسطنطينية مجهزة أو غير مجهزة

الماس، زمرد، لآلئ من كل الأصناف .

١٠٠٠ قيراط من الألماس الأحمر من حلب ، ويفقد القيراط من ١٠ – ٣٠ خردة حسب الصنف، تفقد اللآلئ من ٢ – ٨ خردة فى المثقال الواحد ، أما اللآلئ الكبرى فحسب النوع .

الجلود : جلد الجبة ، وتأتى من روسيا ، وتشمل جلود الذئب الأبيض والأصفر والسمور ، وتساوى الواحدة من ١٠ – ٢٠٠ خردة .

الخمور: من قبرص وجزر أخرى من الأرخبيل.

موازين البضائع المختلفة بشكل عام فى القاهرة

الأقة فى القاهرة = ٤٠٠ درهم ، وهى تساوى أقة القسطنطينية إلا بخصوص الحرير الوارد من بورصة Bursa وراجوزة وقبرص ، حيث تساوى الأقة ٤٠٤درهم.

الرطل = ١٤٤ درهم .

رطل الحرير السورى = ٢/١ ٢٢٩ درهم .

وعند وزن مختلف الأنواع يخصم الوزان العيار العديل (وزن الوعاء) عن كل الطرود والبراميل ... الخ .

ومع ذلك فإنه يوجد على الدوام فضلات أكبر مما يفترض فى الواقع، حيث يصل القنطار إلى ١٠٢، ١٠٥، ١١٠، ١٣٠ رطلا من كل ١٠٠ . وينبغى أن نلاحظ أن هناك بضائع يبلغ القنطار فيها بعد خصم العيار العديل إلى ١٥٠ أو ١٣٣.٣/١ بدلا من ١٠٠ .

١٠٠ رطل فى القاهرة تساوى بالضبط ١٠٠ لبرة فى لندن .

و = ٢/١ ١١٢ لبرة (Livra) فى مارسيليا .

و = ١٣٠ لبرة (Livra) في ليفورنيو، = ١٥٠ لبرة صغيرة في البندقية، و١٠٠ لبرة كبيرة في البندقية أيضا، وفي تريستا نفس الشئ .

١٠٠ فوندى في تريستا أو البندقية = ٢/١ ١١٧ لبرة كبيرة في البندقية، و١٨٥ لبرة كبيرة في تريستا .

١٠٠ رطل في القاهرة = ٣٦ أقة في القسطنطينية وأزمير .

النقود التي يفضل استخدامها في عمليات الشراء

قطعة ذات ٧٣ مديني أو ديواني

قطعة ذات ٧٠ مديني أو ديواني

قطعة ذات ٦٠ مديني أو ديواني

قطعة ذات ٣٣ مديني أو ديواني

قطعة ذات ٦٠ مديني أو ديواني

الفندقلي ويساوي ١٤٦ ديواني .

المجوهرات الذهبية والفضية

١ قيراط = ٤ حبات

١ درهم = ١٦ قيراطاً

١ مثقال = ٢٤ قيراطاً

١ أوقية = ٢/١ ٨ دراهم

١٠٠ قيراط بنغالي = ١١٢ درهماً .

وتباع المجوهرات المجهزة دون وزن ، وتباع الأحجار الكريمة بالقيراط دون

خصم العيار العديل ، وتباع اللآلئ بدون خيط وبدون خصم العيار العديل ، أما إذا كانت ملضومة فتوزن ١٠٥ فى مقابل ١٠٠ ، ويوزن المرجان مع أحبال حريرية صغيرة ، والعيار العديل هو ١٥١ درهماً مقابل ١٤٤ ، ويباع بالرطل أو الدرهم .

١٠٠ درهم من وزن القسطنطينية من المجوهرات الذهبية أو الفضية =١٣٣درهماً فى القاهرة ، أما جواهر البندقية التى تزن فى أوربا ١٨ قيراطاً فيجب أن تعطى فى القاهرة ٢/١ ١٨قيراطاً، وهذا الفرق يساوى مقدار ربع حبة.

١٠٠ قيراط بوزن البندقية لا بد أن تساوى فى القاهرة ١٠٢ قيراط .

والقطعة الذهبية من المجر تزن نفس وزنها الأصلى، أما الدينار الذهبى الأسبانى (دوبلون) فيزن فى القاهرة ٩دراهم، ويزن الفندقلى ١٨قيراطاً، ويزن الواحد من الزر محبوب ٢/١ ١٣قيراطاً ، وتزن قطعة الخردة ٩ دراهم .

أما المقاييس المستخدمة فى القاهرة بالنسبة للأقمشة فهى ذراع القسطنطينية ، أما ذراع القاهرة فهو أقصر، ويستخدمه التجار لبيع القطاعى .

قيمة العملات الأجنبية التى تصل القاهرة عن طريق التجارة

السكين Séquin البندقى = ٢ خردة و ١٣ – ١٨ مدينى حسب المنطقة، القطعة الألمانية = ٢ قطعة ذهبية و٥ – ١٠ مدينى، ويبلغ سعر الدوبلون الأسبانى والسكين البربرى والمراكشى والجزائرى والتونسى والطرابلسى ١٣٠ – ١٤٠ مدينى، أما الدولار الأسبانى ذو العمودين أو القرشين فيساوى ١ خردة (بوطاقة) و٣ – ١٥ مدينى ، ويستخدم بخاصة فى الفكة . وهذا بخلاف كميات كبيرة من أنواع أخرى من النقود ومن تراب الذهب والسبائك التى تجلبها القوافل . وتراب الذهب عادة رخيص الثمن، لكنه منذ فترة قصيرة بدأ يستخدم بكميات كبيرة فى صنع قطع النقود الصغيرة فى القاهرة .

المقاييس الأجنبية مقارنة بمقاييس القاهرة

الذراع الإنجليزى ١ ١/٤ من ذراع القسطنطينية ، وهو المقياس المستخدم فى القاهرة .

ذراع مرسيليا = ١ ٣/٤ من ذراع القسطنطينية، ذراع البندقية = ذراع القسطنطينية بالنسبة للأقمشة الصوفية، أما بالنسبة للأقمشة الحريرية فإن ١٠٠ ذراع بندقى = ٩٣ من ذراع القسطنطينية ، و١٠٠ ذراع تريستى = ١٠٤ ٣/٤ من ذراع القسطنطينية .

البضائع التى تصدرها مصر

إلى: لندن ، ومارسيليا، وليفورنيو، والبندقية ، وتريستا ، والقسطنطينية، وأزمير، وسالونيكا، وبلاد أخرى فى تركيا .

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	العملة التى تباع بها	السعر	ديوانى	الأوزان والمقاييس
بن وارد اليمن	بالة	٣٠٠٠٠	دولارتوسكانى	٢٣ – ٢٨	٨٥	قنطار ١٠٥ رطل
خشب السنط	–	–	»	٢٠ – ٢٠	٦٠	قنطار ١١٠ رطل
خشب السنط وخشب زغرتا	–	–	»	٢٨ – ٣٢	٦٠	قنطار ١٠٠ رطل
جوز القئ	–	–	»	١٩ – ٢١	٦٠	»
المر بأنواع مختلفة	–	–	»	٤٣ – ٢٤٦	٦٠	»
مر فقط	–	–	»	٧٨ – ٨٢	٦٠	»
الحلتيت (صمغ لتسكين التقلصات)	–	–	»	٢٨ – ٣٣	٦٠	»
جذور الزعفران	–	–	»	٢٨ – ٣١	٦٠	»
قرفة	–	–	»	٢٨ – ٣٣	٦٠	»
قرفة شرقية	–	–	»	١٨ – ٢٢	٦٠	»
كتان مغزول	–	٣٠٠	»	٤٠ – ٤٥	–	بالة ٢٠٠٠٠ كيس
فلفل طويل	–	–	ديوانى	٧٥ – ٨٥	٩٠	أقة بالدراهم
جلود ثيران بأحجام مختلفة	–	٤٠٠٠	مدينى	٢٢٠ – ٣٠٠	–	للجلد الواحد
» » » »	–	٦٠٠٠	»	١١٠ – ١٣٠	–	»
جلود بقر	–	٣٠٠٠	»	٩٥ – ١١٠	–	»
قماش خشن أزرق يسمى مذون	بالقطع	٤٠٠٠	»	٩٠ – ١٠٠	–	للقطعة
قماش خشن أبيض	»	٤٠٠٠	»	٦٥ – ٨٠	–	»
لآلئ	–	–	ديوانى	١٥٠٠ – ١٦٥٠	٩٠	
صمغ عربى من سنار	–	–	دولارتوسكانى	١٦ – ٧٣	٧٣	قنطار ١٣٣ ١/٢ رطل
صمغ عربى من جدة	–	–	فندقلى	٥ – ٦ ١/٢	١٤٦	»
» » » »	–	–	دولارتوسكانى	١٣ – ١٥	٨٥	قنطار بالرطل
» »	–	–	»	١٠ – ١٣	٨٥	»
غاز الأهليلج (للأفران الطبية)	–	–	قطع ذهبية	١١ – ١٣	٦٠	–
بخور	–	–	»	١٣ – ١٨	٦٠	قنطار ١١٠ رطل
بخور من مختلف الأنواع		–	»	٨ – ١٠	٦٠	قنطار
سن الفيل	القنطار	–	»	٦٠ – ٦٥	٦٠	قنطار ١١٠ رطل
زهور الزعفران قطفة أولى وثانية	»					
زراعة الصعيد	»	٢٠٠٠٠	»	١٨ – ٢٢	٦٠	قنطار رطل
تمر حنه		٢٠٠٠	»	١٩ – ٢٢	٦٠	قنطار
ملح النشادر إنتاج الجيزة نمرة ١	»	٢٠٠٠	دولارتوسكانى	٥٠ – ٥٥	٨٥	٧٢ أقة أو ٢٠٠ رطل
ملح النشادر إنتاج المنصورة ورشيد نمرة ١		٨٠٠٠	»	٤٠ – ٤٨	٨٥	» »

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	العملة التى تباع بها	السعر	ديوانى	الأوزان والمقاييس
البلح	قنطار	٣٠٠٠	دولار توسكانى	٤ - ٢ ١/٢	٨٥	قنطار ١٢٠ رطل
السلمكة	»	١٠٠٠٠	القطع الذهبية	٣٠	٦٠	» ١١٠ »
الجراب	»	٢٠٠٠	»	٣٥	٦٠	قنطار بالرطل
بودرة السلمكة	»	٢٠٠٠	»	٥	٦٠	»
قطن مغزول	»	٦٠٠٠	زرمحبوب	١٤ - ١٠	١٢٠	»
الفتنة	»	٣٠٠٠	دولار توسكانى	٤ - ٣ ١/٢	٨٥	قنطار ١٥٠ رطل
صوف بعبله	»	٤٥٠٠	–	–	–	–
كتان أصناف متعددة	»	٣٠٠٠٠	–	–	–	–
لونده هندى من الهند	–	–	ديوانى	٢١٠-١٩٠	٩٠	أقة بالدراهم
كركم	–	–	»	٢٢-١٨	٩٠	»
حبهان كبير	–	–	»	١٦٠-١٤٠	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
حبهان صغير	–	–	»	٤٥-٣٥	–	أقة بالدراهم
دم التنين	–	–	مدينى	١١٥-١٠٠	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
دم التنين ناعم وارد الهند	–	–	»	١٣٠-١٢٠	٩٠	»
شمع جديد	قنطار	٢٠٠٠	»	٦٠-٥٠	٩٠	»
أفيون نمرة ١، ٢	–	–	»	٤٠٠-٣٦٠	٩٠	»
حنة للصباغة بالأحمر	زكيبة	٨٠٠٠	»	٥١٠-١٤٠	٨٥	الزكيبة ٣٥ أقة
حنة للصباغة بالأصفر	»	٨٠٠٠	»	١٢٠-١١٠	٨٥	»
حب اليسر	–	–	فندقلى	٢١-١٩	١٤٦	–
أرز دمياطى	الأردب	٣٠٠٠٠	بالقطع الذهبية	٤٠-٣٨	٣٠	الأردب ٢٢٥ أقة
أرز رشيدى	»	٢٥٠٠٠	»	٢٥-٢٣	٣٣	الأردب ١٥٣ أقة
كميات كبيرة من الأقمشة الكتانية والقطنية من الصعيد وإمبابة ورشيد ودمياط	–	–	–	–	–	–

العملات المتداولة فى القاهرة

يستخدم المدينى والديوانى فى الفكة، أما الزر محبوب فيساوى ١٢٠ مدينى، ويساوى القرش ٤٠ – ٦٠ مدينى .

وثمة عملة أخرى من راجوزة تقيم بـ ٦٠ مدينى ، وهى عملة مطلوبة فى آسيا، وترسل منها كميات كبيرة إلى سوريا حيث تلقى إقبالا كبيرا .

أما الـ بوطاقة أو الخردة فإن سعر استبدالها العادى يبلغ فى رشيد والأسكندرية ودمياط ٨٦ مدينى، ويصل فى القاهرة إلى ٨٥ مدينى ، وبسبب ندرتها ارتفع سعرها الآن إلى ٩٢ مدينى . أما فى تجارة المواد الغذائية الغالية فهى تساوى ٨٥، ٩٠، ٩٢ مدينى . أما الدولارات التوسكانية التى تعرف باسم البوطاقة فتتداول بسعر ٨٠، ٨٢ مدينى ، وهى تساوى قطعة الخردة، وتفضل فى آسيا .

وتصل قيمة فندقلى القسطنطينية ١٦٠ مدينى ، ولكنه نادر .

ويتفاوت مقدار الرسوم المفروضة على البضائع المستوردة من أوربا وآسيا بحسب أثمانها، فهى تبلغ ٨٪ على المجوهرات ، وبالنسبة لصبغة النيلة وبضائع أخرى ثمينة ٩٪، الجوخ والورق ... الخ ١٣٪، الرصاص وبضائع أخرى رخيصة القيمة ١٥ – ١٦٪ ، البضائع الواردة من تركيا ٢٠٪ . أما بالنسبة للرسوم الجمركية فتتراوح بين ٨ – ١٥٪ ، أما الأخشاب وورق التبغ والصابون والفواكه فتدفع رسومها نقدا .

أما البضائع المصدرة من مصر إلى أوربا. فتبلغ الرسوم المفروضة عليها من ١٥ – ٢٠٪ ، وينبغى على هذه البضائع أن تدفع رسوما إلى القناصل وإلى أشخاص آخرين حتى تحصل على تصريح بالخروج . وكان تصدير البن والأرز والحبوب ممنوعا فى معظم الأحيان . وتحصل البضائع المصدرة إلى تركيا على بعض التسهيلات حسب الظروف. وكانت حسابات البن والأرز والصمغ العربى وارد

سنار والبخور والفتنة وملح النشادر الجيد وأخشاب السنط الممتازة وبضائع أخرى – كانت تسوى نقدا، وفى بعض الأحيان كانت تقايض ببضائع أخرى، ويمكن شراء البضائع الأخرى عن طريق المقايضة مع تقدير سعرها بحسب سعر السوق.

وتختلف تجارة مصر اختلافا بينا عن تجارة أوربا، بسبب الاضطرابات الكبيرة التى تتعرض لها الحكومات، وبسبب أحداث أخرى تتعرض لها التجارة، فتنخفض حركتها بشدة أثناء بعض هذه الأحداث، أو تزدهر خلال أحداث أخرى، لذلك ينبغى أن يكون التاجر يقظا ، وعليه على الدوام اقتناص الفرص المواتية .

وشهر رمضان هو الشهر الملائم لبيع المنسوجات الصوفية والحريرية، ففى هذا الوقت يشترى العامة وكذا أبناء الطبقة العليا ملابس جديدة لأنفسهم ولزوجاتهم وخدمهم .

وتجلب سفن وقوافل جدة البن والبخور والصمغ وبضائع أخرى من الهند والجزيرة العربية والحبشة، وعندما تعود إلى جدة، تحمل معها النيلة والرصاص والحديد والحلى الزجاجية وبضائع أخرى تستورد من البندقية، خاصة باليمن والحبشة والهند .

وكانت بضائع الهند تأتى دوما مع محمل الحج، وهذا ما يعفيها من دفع الرسوم فى القاهرة، إذ كان للمحمل امتياز عدم دفع أية رسوم على الإطلاق .

وكانت قوافل النوبة تجلب الصمغ العربى من سنار، وسن الفيل وبضائع أخرى من هذا البلد أيضا، وتأخذ عند عودتها الجوخ الفرنسى المسمى لوندران والجوخ الإنجليزى والورق والقرنفل والمرجان .. الخ وأنواعا مختلفة من خزف المحلة وطنطا الذى تقوم عليه تجارة كبيرة . وتجلب هذه القوافل أيضا كمية كبيرة من تراب الذهب ، الذى يباع عادة بـــ ٢٠٠ – ٢٠٨ بوطاقة لكل ١٣٥ درهم، ولكن منذ عهد محمد بك استخدم تراب الذهب بكميات كبيرة فى ضرب النقود ، مما جعل سعر هذه الوزنة يرتفع إلى ٢١٢ – ٢١٦ حسب الجودة .

وشهرا يوليو وأغسطس هما وقت الزعفران والحناء والبلح، أما سبتمبر وأكتوبر فهما شهرا الأرز والكتان، وديسمبر ويناير للسنامكى والفتنة، وفى هذه الفترة ينبغى على المرء أن يختزن بضائع جيدة سيبيعها بربح مضمون ومجز لحد كبير .

وسوف يكون الأمر مجحفا بالنسبة للذين يرسلون بضائعهم من أوربا لوتعجلوا بيعها فى الحال، ذلك أن التجار المصريين المتفهمين للأمور سيبخسون هذه البضائع حقها، كما أنهم سيحاولون – فى نفس الوقت – أن يبيعوا بأغلى سعر يستطيعون الوصول إليه ، تلك البضائع التى يراد إرسالها فى مقابل البضائع التى اشتروها بهذه الطريقة .

ولقد كانت هذه عادة الفرنسيين فيما مضى، ولكنهم عندما تبينوا العاقبة السيئة لذلك ، أنشأوا لأنفسهم محلات واتخذوا لهم وكلاء ، ووصلت بذلك تجارتهم لدرجة مزدهرة، لحد أنهم استطاعوا أن يكتسحوا – على وجه التقريب – كل الأجناس الأخرى .

٢
عن حالة الصناعة

لا يمكن لملكات شعب من الشعوب – ذهنية كانت أم روحية – أن تنمو، وأن يجنى هو بالتالى ثمرات ذلك، إلا فى ظل أنظمة ترعاها، وينطبق هذا القول نفسه على الصناعة، وإلا فإنها ستظل راكدة حيث لا اختراع ولا تحسن . وهكذا، فإن الحرف والمنتجات الصناعية فى وادى النيل تشى بحضارة لا تزال فى طور الطفولة، أو تشى بالأحرى بتقاعس العمال وأصحاب الأعمال، فليس ثمة شئ دقيق، أو معتنى به يخرج من المصانع المصرية إذا ما استثنينا التطريز، فالمنسوجات القطنية والصوفية و بقية الأشياء ذات الاستعمال الطويل، تظهر بشكل خشن وغير دقيق، لحد سوف يذهلنا إذا نحن لم نلق بالا لتلك الظروف التى يحياها الشعب الذى أنتجها. فلقد ظل المصريون المحدثون – برغم كل العناصر التى كان يمكنها أن تؤدى للنماء والازدهار – متخلفين، لأن سطوة الطغيان قد حصرت عقولهم، بل يمكن القول بأنها شلت قدرتهم على التفكير . وليست مصر هى الدولة الوحيدة فى كل دول الشرق التى تحيا فى مثل هذه الحالة المحزنة ، بل إننا نرى – للأسف الشديد، فى كل مكان من الشرق – نفس التدهور ، ونفس الجمود، ونفس النتائج .

ومع ذلك، وبالرغم من تلك الحياة المنحطة التى قدر على المصريين أن يحيوها فى ظل حكومة المماليك، فإنه لم يفتهم حتى الآن أن يستغلوا شيئا من المصادر الهائلة التى تهيئها منتجات أرضهم للصناعة ، فصناعة الأقمشة الخشنة من القطن والكتان، تتيح فرص العمل لألوف الأيدى . وتقوم المحلة الكبيرة – وهى مدينة يبلغ تعدادها حوالى ثمانية آلاف نفس – بصنع أقمشة حريرية وشيلان من الحرير تعرف باسم شيت وحرير، وبعض المنسوجات القطنية الخشنة، ونوع من التفتاز الأسود تستخدمه زوجات البكوات كنقاب يتخفين به . ويعمل فى هذه المصانع ٨٠٠–١٫٠٠٠ عامل من كلا الجنسين، ومن مختلف الأعمار.

وتصنع سمنود – وهى مدينة لايبلغ تعدادها بالكاد ٢٫٠٠٠ – ٣٫٠٠٠ نسمة – بعض المنسوجات الشعبية من الكتان . وتصنع منوف كثيرا من هذه المنسوجات نفسها ، كما تصنع أجمل حصر البلاد . أما مدينة طنطا الشهيرة بأسواقها وبضريح السيد البدوى، فتصنع كثيرا من المنسوجات الكتانية لكنها منسوجات بالغة الدقة والإتقان ، وتعرف باسم قماش (١) .

وبخلاف هذه المنسوجات – بالإضافة إلى التطريز الذى يبرع فيه المصريون كما سبق القول – يصنع المصريون كذلك كثيرا من الآنية الفخارية الشعبية، والقلل(وهى آنية مرطبة) ، والآنية الزجاجية وهى خشنة ، كما يصنعون السجاجيد، وأحجار النارجلية من الطين المحروق، ويصدر إلى كل دول الشرق، ويصنعون فى نفس الوقت أجواخا شعبية، ونوعا من اللباد المخلوط بالصوف، يستخدم فى صناعة الخيام. أما كل التركيبات التى لها صلة بالكيمياء مثل صناعة ملح النوشادر وتقطير الخمور والعطور، فهى صناعات ماتزال بعد فى طور الأمنيات، أما أجهزتهم فهى منفرة بقدر ماهى عاجزة، وكثيرا مايستخدمون البوص المثقوب بدلا من الأنابيب الزجاجية، أما الآلات المائية التى يستخدمونها للرى، ففيها شىء من الدقة، والميكانيكا عندهم ماهرة فى بعض الأحيان، وهى تستطيع – لولا

---

(١) هذه الكلمة باللغة العربية تعنى كافة أنواع المنسوجات

معوقات الروتين - اختراع ماكينات تستطيع أن تعطى نفس النتائج فى وقت أقل وباستخدام عدد أقل من الرجال. وباختصار، فنحن نلاحظ فى كافة ضروب الأعمال بساطة كبيرة سواء فى الأدوات أو فى التنفيذ. ويستخدم العمال أقدامهم بنفس المهارة التى يستخدمون بها أيديهم، وهذا مما يزيد فى سرعة إنجاز العمل، وهذه العادة شائعة عند النجارين والنحاسين والنساجين وصناع القياطين ، وعند كل الحرفيين عموما . ومن الطريف أن نلفت النظر برغم ذلك، إلى أن أقدامهم عارية ، وتغطى فقط بأحذية واسعة للغاية يتركونها عند دخول الورشة، وتعمل الغالبية منهم وهم جالسون، وهذا مما يسهل استخدام أقدامهم .

ويستخدم الخراطون قوسا يحركونه بيد ، بينما هم باليد الأخرى يشكلون الآلة القاطعة على الشىء الذى يريدون تشكيله، وهم يديرون هذه الآلة بإبهام القدم اليمنى التى يستخدمونها بالمثل كنقطة ارتكاز، وبهذه الطريقة يصنعون أجزاء وقضبانا حديدية وشبكات تستخدم فى صنع أشكال أكبر.

وليس ثمة شىء غير عادى فى إعدادهم للجبس، فقد ينبغى أن نلاحظ أننا فى بلاد نصف بربرية كهذه، كنا نتوقع أن يكون الناس فى هذا المجال - شأنهم فى ذلك مثل شأنهم فى بقية المجالات - أكثر تخلفا ، وأقل حذقا ، فى الوسائل التى يستخدمونها لسحق هذه المادة ، عما نحن عليه. فالإنسان عندنا فى أوربا هو الذى يتحمل عبء هذا العمل الشاق، برغم أنه من المؤكد أن سحق الجبس يضر بصحة العمال الذين يقومون به، لكن المصريين استطاعوا تفادى هذا الخطر،إذ يقومون بسحق الجبس المحروق بواسطة طاحونة يحركها حصان . وهذه الأداة بالغة البساطة لكنها فعالة ، وهى مخروطية الشكل وذات ثقل هائل .

ويلزم الكثير بالنسبة للطواحين المخصصة لطحن القمح ، حتى تصبح فى دقة وفاعلية طاحونات أوربا، فرحاها صغيرة لايزيد قطرها عن ٢ - ٢ ١/٢ قدم، وطحنها غير ناعم ، ولاتقوم بفصل الردة عن الدقيق، لذا فيكاد يكون مستحيلا أن تأكل فى مصر خبزا يماثل خبز باريس أو بروفانس فى جماله وخفته .

ويستخدم البيطاريون أداة خاصة لقطع حافر الخيل، وهذه الأداة التى لاتشبه فى شىء تلك التى نستخدمها فى أوربا لنفس الغرض، تعمل كذلك بشكل مخالف، وتتطلب طريقة فى العمل تتعارض مع طريقتنا .

وحرفة الحدادة قليلة الانتشار فى هذه البلاد، حيث إن الفحم نفسه نادر، وهم لايستخدمون عادة إلا أقفالا خشبية صنعت بعناية. وعدد الصاغة وتجار المجوهرات قليل، وهم لايصنعون إلا حليا متواضعة. ومن السهل أن نلاحظ أن المصرى الحديث يستطيع – بفضل الاستعداد الطبيعى للعمل، وبفضل المهارة والذكاء اللذين زودته بهما الطبيعة – أن يرتفع إلى مصاف الشهرة التى تمتع بها أسلافه، لولا تلك العقبات التى لايحلو للتعصب والطغيان إلا أن يكدساها فى طريقه.

وعما قليل سنتحدث عن الفلاح، وستكون الزراعة موضوعا لفقرة مستقلة، أما بخصوص الحرف الأخرى التى لم نتعرض لها مطلقا فى هذا الفصل، فقد وصفت فى شرح لوحات الحرف والفنون Explication des planches d'arts et métiers فى دراسات خاصة مثل معامل التفريخ، صناعة ملح النوشادر.. الخ . ونحن نحيل القارىء إليها، وسيجدها مشروحة بكل تفاصيلها .

طريقة صنع جلد السختيان الأحمر (الفاسى) فى القاهرة

لصناعة جلد السختيان (الجلد الفاسى أو المراكشى) لاتستخدم إلا جلود الماعز، ولكى يتم ذلك يبسط العامل على السطح الداخلى لهذه الجلود، طبقة من معجون الجير، ويتركه هكذا لمدة أربعة أيام، ثم يضع الجلود بعد ذلك فى ماء الجير، حيث تبقى لمدة عشرة أيام ، فى الصيف أو ١٥ يوما فى الشتاء، وبعد هذه التجهيزات ينزع الشعر، وتجرد الجلود بسكين مقوسة لها مقبضان، وتسمى داس، ثم توضع الجلود فى حوض، وعلى كل جلد منها طبقة من زبل الحمام، وتبقى على هذه الحال لمدة ٢٤ساعة، ثم تغسل بعد ذلك بعناية فائقة مع دوسها بالأقدام، ومع

تغيير ماء الحوض عدة مرات، وعندما تنظف جيدا توضع فى حوض آخر مملوء بمياه مخلوطة بالردة، وتترك هناك حتى تختمر، وعندئذ تسحب وتغسل من جديد بالمياه العذبة، لتوضع مرة أخرى فى ماء العسل المخلوط بالردة لمدة خمسة أيام فى الصيف أوعشرة فى الشتاء، وعند سحبها تكون منتفخة تماما، ثم تبسط ويرش فوقها الملح، وبعد دوسها بالأقدام حتى تعود إلى سمكها الطبيعى، تجرد من جديد وبخاصة من سطحها وقد كان أقل نعومة من سطحها الآخر فى العملية الأولى، ثم تبسط الجلود واحدا فوق الآخر على حصيرة نظيفة بعد أن ترش الجلود مرة أخرى بالملح، وتنتقل بعد أن تجهز بهذه الطريقة إلى يد الصباغ .

ويغمرها الصباغ فى دن من الخشب صب فيه السائل الملون، ثم ينتشلها ويغمرها عدة مرات فى هذه الصبغة ، ثم يعلقها لتتساقط منها نقاط الصبغة، ويكررنفس العملية حتى تأخذ الجلود اللون الأحمر، وعندما تحصل على درجة اللون المناسبة ، يعلقونها لتتساقط منها نقاط الصبغة من جديد، ثم تغمس فى دن به ماء بارد وحبوب القرض المصحون، وتبقى الجلود لمدة يوم كامل فى هذا الدن شتاء، ثم يجرد بعد ذلك سطحها الداخلى لثالث مرة، ثم يغمس الجلد مرة أخرى فى نفس الدن ثلاث أو أربع مرات، ولاتتطلب هذه العملية الأخيرة إلا يوما واحدا فى الصيف، وأخيرا، وبعد أن يمر الجلد بكل هذه العمليات ، يغسل بالماء العذب وهو لايزال رطبا، ويدهن السطح الداخلى بزيت الكتان، ويلقى فى الهواء الطلق حتى يجف تماما، ثم يُلَمَّع بين اسطوانتين من الخشب .

أما عن الصباغة فإليكم كيف يعدونها، وبأية عناصر يكونونها: توضع حوالى عشر قرب من الماء فى دن من النحاس ، وينقع فيها على البارد لمدة ليلة كاملة كمية معينة من عشب القرض الذى يجمع فى ضواحى الأسكندرية، وبعد ذلك تسخن المياه حتى تبلغ درجة الغليان، فيسحب العشب ليوضع فى الدن حفنة من قشر الرمان وأوقيتان من الشبة ، ثم ٥٠٠ درهم من مسحوق دودة القرمز، وبعد ذلك يغمس الصباغ جلدا فى الدن ليتأكد من سلامة الخلطة، فإذا لم تثبت المادة الملونة بشكل جيد يضيف مرة أخرى أوقية من الشبة أو أكثر أو أقل ، فإذا كانت

الخلطة فاتحة أكثر ممايتبغى تزود كمية مسحوق الدودة القرمزية قليلا، وعند استعمال الصبغة ينبغى أن تكون حرارة السائل معتدلة لدرجة تتحملها اليد .

والجلد الذى يستخدم فى صنع نعال الأحذية هو عادة من جلد الجاموس، ويصل هذا الجلد عادة إلى المدبغة وهو مملح، ويوضع فى أحواض مليئة بماء الجير، ويمكث هناك لمدة حوالى عشرة أيام، وبعد ذلك ينزع شعره ويوضع من جديد لمدة يومين أو ثلاثة أيام، ويجرده العامل بسكين ذات مقبضين، ويغسله بالماء العذب عدة مرات، وبعد ذلك يضعه فى أحواض حجرية مع نوع من الحب المصحون، ويبدو أن هذه الحبوب هى والجير المجففان الوحيدان اللذان يستخدمان، وتبقى الجلود لمدة ١٥ يوما فى الحوض الأخير، ثم تسحب لتغسل بعناية ، ثم ترش ببذر الكتان، وبعد أن يمر الجلد بهذه العملية وبعد أن يجف يباع لصناع الأحذية .

ومن نافلة القول أن نلفت النظر إلى أن أحذية المصريين ليست لها نفس المتانة التى لأحذيتنا، فهى مجرد«شباشب» أو أخفاف من السختيان متعدد الألوان، أما نعول جلد الجاموس فهى تسمح بتسرب الماء على الدوام كما لو كانت من الأسفنج ، لكن هذا العيب الذى ينظر إليه فى أوربا – حيث الأمطار تهطل على الدوام – على أنه عيب خطير، ليس كذلك فى مصر، فالأرض جافة باستمرار . وحيث إن جلد الجاموس مرن بطبعه فإنه يناسب الأرض المنبسطة الرملية والخالية من الأحجار، وتختلف أحذية شعوب الشرق قليلا عن أحذية المصريين .

وقد وصل فن الصباغة إلى أرقى درجة عند قدماء المصريين بالنسبة لتنوعها وبريقها، وبخاصة فى طول مدة ثبات الألوان، لكن الصباغة فى مصر اليوم شأنها شأن الصباغة فى كل مكان، ولم يحتفظ الذين يمارسونها هناك اليوم إلا بالقليل النادر من فن أسلافهم، فهم يكتفون بغمس المنسوجات أو غزل القطن الذى يراد صباغته فى المادة الملونة وهى تغلى، كما أن ورشهم غاية فى البساطة، كماأن الألوان التى يستخدمونها تعد بشكل مجاف للذوق . وأكثر المواد الصابغة استعمالا

هى النيلة، وهم يصبغون كذلك بالألوان: الأحمر، والأصفر، والأخضر، ويستخدمون على وجه الخصوص ألوانا يستخرجونها من الحبوب والحشائش .

٣

عن الزراعة، وعن الفلاحين

كانت الزراعة هى السبب الرئيسى فى ازدهار مصر، وهى تشكل حتى اليوم العنصر الأساسى لتجارتها وصناعتها، ولولا تلك المصادر الهائلة التى يستمدها المصريون من خصوبة تربتهم لكانوا أبأس شعوب الدنيا، خصوصا فى ظل حكومة قاهرة مثل حكومة المماليك . ومع ذلك فينبغى أن تلقى الزراعة كما سبق القول العناية التى تليق بها لكى تصبح زراعة بمعنى الكلمة، فينبغى الاستفادة من كل الأراضى التى يمكن استصلاحها . إن هذا الإهمال المحزن لهو النتيجة الطبيعية لهذا اللون من العبودية الذى تضاءل فى ظله قدر المصريين ، وسوف نرى عما قليل بشاعة ظروفهم، وسنستنتج بسهولة أن مثل هذا السلوك المجافى لأصول الحكم والسياسة من جانب الملاك والسلطات الحاكمة ، لا يمكن أن تكون له نتائج أخرى.

ولا تنتج الأراضى المخصصة لزراعة القمح عادة إلا محصولا واحدا، وباستطاعتها أن تعطى محصولين، فهناك فى جزيرة الفنتين على سبيل المثال تحصد الأرض ثلاث مرات فى العام بانتظام، وتنتج الأرض مثل الكمية المبذورة ١٤ مرة، ويلزم لبذر الفدان ٢/١ أردب من الحبوب.

ويكفى ثمن الأردب الواحد لسداد مصاريف الزراعة والحصاد، ويبقى بعد ذلك خمسة أرادب هى بمثابة عائد الفدان الواحد. أما فى فرنسا فإن فدان القمح ينتج من خمسة إلى ثمانية أرادب ، ومن جهة أخرى فإن أحدا لا يجهل أن كمية كبيرة من البذور التى تبذر فى الأراضى الفرنسية لا تنبت مطلقا، فالحكم هنا إذن فى

صالح خصوبة أرض مصر، حيث يحصل الفلاح هناك – وبدون أن يكلف نفسه ذلك القدر من العناء الذى يتكلفه فلاحنا كل عام – على هذه النتيجة المزدهرة . وينبغى أن نضيف كذلك أن غلة الأرض تقل أو تزيد حسب طبيعة المحصول، إذ تنتج الذرة على سبيل المثال ٢٠ مرة من مثل الكمية المبذورة.

ولا يمكن أن نحصى فى مصر أكثر من ١٠٠٠ فرسخ من الأرض المزروعة، ويوجد فى الفرسخ المربع حوالى ٣,٣٣٠ فدان ، وهكذا فإن فرسخا واحدا من الأرض المزروعة قمحا يغل أكثر من ١٦,٠٠٠ أردب من القمح كعائد صاف، وإذا افترضنا أن الأردب يساوى ثمانية فرنكات فإن العائد يبلغ ١٣٣,٠٠٠ فرنك . ويمكن مضاعفة العائد إذا ما استبدلنا بزراعة القمح مزروعات أخرى أكثر ربحا، مثل السكر والنيلة ، فالمحصول الأول يعطى عائدا أكبر من القمح ١٥ مرة و لكنه يتطلب رأس مال أكبر بكثير، وبمقارنة الربح فى الحالين نجد أن ربح السكر أقل نسبيا من ربح القمح، أى أن ربح الأموال المستغلة فى زراعة السكر أقل بكثير من ربح نفس المبلغ إذا ما استغل فى زراعة القمح، والفائدة الوحيدة التى تحسب لصالح السكر، بل التعويض الوحيد الذى يمكن أن تقدمه هذه الزراعة هو أن محصول السكر يحتاج لمساحة صغيرة من الأرض، بينما يحتاج القمح إلى مساحة كبيرة .

وقد يكون من السهل كذلك زيادة مساحة الأرض القابلة للزراعة، ولكن برغم أن ذلك أمر ميسور فإننا لا نظن أن مصر فى قبضة ملاكها الحاليين ستدر أكثر من ١٥٠ ميلون فرنك، وينبغى أن نخصم من هذا المبلغ ٤٠ مليونا كمصاريف بذر وحصاد، فيصل صافى الربح إلى ١١٠ مليون فقط . ونحن على يقين من أن الصناعة الأوروبية كلها قد تتوصل بصعوبة بالغة إلى إنتاج ثلاثة أمثال بل حتى ضعف هذا الإنتاج الذى تدره أرض مصر . ولكن فى نفس الوقت فعلى مصر أن تفعل الكثير، إذا ما افترضنا أنها ستكون قادرة على ذلك ذات يوم، لكى تقترب من ثروة فرنسا الزراعية، بالرغم من خصوبة أرض مصر الهائلة، حيث إن الضريبة على الأراضى وحدها فى فرنسا تصل لأكثر من ٣٠٠ مليون فرنك.

والمنشآت الخيرية التى يقرها الباشا ممثل السلطان تعفى من دفع الميرى، بينما تخضع كل الملكيات العقارية لهذه الضريبة التى سبق أن تحدثنا عنها بالتفصيل فى الفصل السابق.

ويبذر الكتان والقمح فى نوفمبر بمجرد أن تنحسر مياه الفيضان، ويتم البذر مبكرا عن ذلك فى الصعيد، حيث تكون مياه الفيضان على جانبى النهر أقل كثافة، ويزرع القطن فى نهاية شهر مارس وبداية شهر أبريل، ويحصد فى يولية وأغسطس، أما المحصولات الأخرى فتنضج بعد خمسة أشهر.

ويستخدم المصريون المحدثون، وعلى منوال أسلافهم، الرى فى زراعة الأراضى، ولكن هذه الطريقة الماهرة التى مضى بها الأقدمون إلى أعلى درجة من الرقى، قد فقدت الكثير عند استخدام المحدثين لها. وفضلا عن ذلك فالمحراث تقريبا هو نفس المحراث الذى وجدناه مرسوما فى الكهوف، أو على الأقل ثمة تشابه كبير بينه وبين المحراث الذى يستخدمه المزارعون فى مصر اليوم، وهو بالغ البساطة، حيث إن الأراضى فى كل مكان لا تبدى إلا مقاومة ضعيفة. ويلاحظ أيضا ذلك التشابه الكبير بين الطرق القديمة والطرق الحديثة فى درس القمح، ومع ذلك فإنهم يستخدمون اليوم عددا أقل من الأبقار فى درس القمح، وهى تقوم بفصل الحب فى الوقت الذى تجر فيه النورج .

ومن المفيد بعد أن تحدثنا عن الأرض وعن زراعتها أن نقول شيئا عن هؤلاء الذين يفلحونها، وهؤلاء هم الفلاحون البؤساء الذين تكرر اسمهم كثيرا على صفحات هذا المؤلف، وهم لا يشبهون فى شىء فلاحى أو مزارعى البلدان الأخرى، ولم يول الرحالة الذين عبروا مصر خلال القرن الأخير أى اهتمام بهذه الطبقة العاملة المضطهدة، ، وسوف تكون التفاصيل التى نقدمها هنا جديدة على أكبر عدد من القراء .

والفلاح المصرى هو أكثر الناس حياء، وطبيعته الخوافة هى بلا جدال نتيجة

طبيعية لحالة القهر التى حصره فى داخلها سيدان لا سبيل إلى قهرهما: إذ إن متاعبه من ملاحقة البكوات والضباط لا تنتهى إلا لتبدأ مع العربان. فعندما يحصل هؤلاء على كفايتهم، يتعرض الفلاح لانتهابات وابتزازات جديدة من جانب البكوات والكشاف، تأتى لتسلبه ما قد يكون قد تبقى له، وهكذا يظل الفلاح المسكين بلا أى دعم أو سند، فريسة لنزوات كل هؤلاء الناس من راكبى الخيل، والمسلحين على الدوام بسلاح الحرب ، ولو كانوا فى نزهة صغيرة. ويقدم الفلاح لهؤلاء الكثير من الأبقار والخراف ومكاييل الحبوب التى يجنيها، ثم يذهب ويئن من وطأة الجوع مع زوجته وأولاده، ومع ذلك فإن تعقل الفلاح واعتداله يسمحان له بتدبير ما هو لازم لمعيشته ومعيشة أسرته، وهو يستغل وقته، ويتلقى كأجر عددا متفقا عليه من مكاييل الذرة والحبوب. وفى كل مساء يجهز لنفسه خبزه ، وهو يطحن الحبوب بواسطة رحى ، وينضج الخبز على رماد ساخن، لأنه لا يمتلك فرنا على الإطلاق. ولكى يحصل على البلح والبصل والزبد والبيض واللبن ، فإنه يستبدل ذلك مع فلاح آخر ببعض القمح والفول اللذين يتلقاهما من المالك. وهو قانع بهذا النمط من الحياة ، حيث إن الشقاء الذى اعتاده جعله يعيش فى طور الفطرة، وهو يتناسى الماشية التى يسرقها منه البدو، كما ينسى الإتاوات المتزايدة التى يفرضها عليه طغاته. وعندما يدر العمل عائدا كبيرا ويحصل بالتالى على أجر أفضل يستطيع أن يوفر منه شيئا، فإنه يشترى من جديد حمارا وبعض الخراف وأدوات زراعية ويعود إلى مسكنه الأول، ويرد الشيخ إليه الأراضى التى كان يفلحها من قبل.

وملابس الفلاحين عبارة عن قميص بسيط ، وهذا الملبس مشقوق من الرقبة حتى أسفل البطن، وليست له أكمام، وينزل حتى الركبتين، ويثبت بالجسم بواسطة حزام من الجلد، وهو من القطن ولونه أزرق، وبخلاف ذلك يغطون رأسهم بغطاء من اللباد الأحمر يسمى طربوشا . أما الفلاح الميسور بعض الشىء، فيغطى رأسه بعمامة تتكون من شال من قماش قطنى مخطط يلف حول الطربوش، وما عدا ذلك فإن أذرع الفلاحين وسيقانهم وأقدامهم عارية تماما، بل إن كثيرين منهم لايمتلكون

حتى القميص الذى تحدثنا عنه. ويكتفى هؤلاء بأن يثبتوا بحزامهم قطعة من القماش تلف حول وسطهم، ويرتدى الأغنياء منهم طربوشا وسروالا ومعطفا أسود اللون من الصوف فوق القميص، ويطلق على هذا المعطف اسم: بشت.

وعندما نعرف بؤس وهوان وتدهور حال الفلاحين، فإننا نستطيع أن نُكوّن فكرة عما ستكون عليه ملامح وجوههم. فهل يمكن أن يكون لأناس كهؤلاء حُكِم عليهم بهذا التحقير وتلك العبودية، وبأن يظلوا على الدوام لعبة فى أيدى عدد كبير من السادة – هل يمكن أن يكون لهم نظرة صريحة جريئة، ووجه صاف بشوش، ولقاء حر مفتوح ؟. إن مظهر هؤلاء البؤساء ليعلن عن حيرتهم، والخوف يقرأ فى عيونهم، وهم يمشون بقلق، ورؤوسهم محنية إلى الأمام، وإذا ما ظن الفلاح عند لقائه شخصا ما، أن هذا الشخص يحوز ولو قدرا ضئيلا من الجاه أو الثروة، فإنه يقترب منه ويده مبسوطة ، كما لو كان ليستجدى حماية أو يطلب إحسانا.

يا له من تناقض يبعث على الإثارة بين وضعهم الذليل والمستجدى، وبين ملامح الخشونة والجد التى ترتسم على وجوههم التى تعطى لها لحيتهم الطويلة قدرا كبيرا من النبل! وشكلهم فى عمومه جميل، وتتميز جباههم – برغم أن جزءا منها تغطيه العمامة – بالاتساع، ولوجنات خدودهم نتوء شديد الوضوح، وخط الأنف واضح بشدة ، أما الذقن فممشوقة، ويبدو الأمر وكأن ثمة رجالا قد منحتهم الطبيعة هذا الملمح الوقور، لكن عليهم أن يعانوا من كل عوامل القهر والجبن والإذلال. فكل ما فيهم يشهد ببؤس حالهم، فلست تراهم إلا باسطى الأيدى مكررين عبارة : فضة، فضة – أى أعطنى بارة ، بارة واحدة. وقد لا يدرك الغريب – الذى لا يعرف عادات البلاد – أن هؤلاء الذين يتسولون بهذا الإلحاح، يدفعون إيجار أراض عديدة يفلحونها، وأنهم يمتلكون ماشية وحميرا وخيولا، وأنهم يعولون عائلة كبيرة العدد، عن طريق زراعتهم الفاكهة والخضار، التى يعرفون كيف يعودون منها بالنفع عليهم وعلى أسرتهم وقت الحصاد.

وهكذا فسوف نقع فى خطأ بين إذا ما حكمنا على الحالة الحقيقية للفلاح استنادا إلى مظهره الخارجى، فهو لا يلجأ لهذا التسول المظهرى إلا ليخدع مضطهديه، فمن المهم بالنسبة له أن يظنه الناس بلا مورد رزق وبلا وسيلة للعيش، ذلك أنه يرتجف على الدوام خوفا من أن يرى نفسه وقد انتزع منه القليل الذى يملكه، لهذا فإنه يشهد العالم كله على فقره وعوزه، ويرتدى من الملابس ما ينسجم مع الانطباع الذى يريد أن يحدثه فى مشاهده، فهو داخل قميصه هذا عار كما ولدته أمه، ويقبل بنهم على أى طعام يقدم له، ويجمع قطع المدينى التى يحصل عليها بعناية فائقة فى طرف منديله، ويقاسى الأمرين حتى لا ينفق قطعة واحدة من نقوده إلا عند الضرورة الملحة، وباختصار فإنه لا يفوته شىء مطلقا يمكن أن يساهم فى إقناع الناس ببؤسه الشديد.

وعندما لا يكون الفلاح فى حقله، فإنه يجلس القرفصاء أمام منزله. وحول كل القرى المصرية تشاهد آلاف الأكوام الطينية الناتجة عن الخرائب والهدم، وهذه الأطلال كثيرة فى هذه البلدان ، أكثر منها فى أى مكان آخر بسبب رداءة بناء الأكواخ، وكذلك رداءة الخامات المستخدمة فى ذلك، فهى على الدوام من الطين أو من الطوب النيئ . وعندما يكون الفلاح بلا عمل، فإنه يصعد هذه الأكوام ، ويظل جالسا أكبر فترة من النهار، ويدخن الغليون، وينظر إلى الخلاء . وفى بعض الأحيان يقوم بغزل القطن أو الكتان ، بينما تعجن زوجته روث الماشية، لتشكل منها نوعا من الأقراص ، تجففها بلصقها على جدران كوخها ، وبهذه القاذورات يحصل الفلاح على وقوده ، وينضج خبزه وطعامه.

وقد يظن المرء وهو يلاحظ بلادة وخمول هؤلاء البؤساء الذين يعيشون وسط خطوب لا تنتهى، أنهم شبه محرومين من موهبة الفكر، ولكن، لعل من الأصوب أن نقول بأنه يبدو أن العناية الإلهية، بينما هى تهيئ للإنسان ملكاته الروحية والذهنية التى تنسجم مع الظروف التى وضعته فيها ، فإنها قد شاءت أن تقرن البلادة بالفقر، كما لو كان بغرض أن تخفى عنه الشقاء الذى قدر عليه أن يحيا فيه.

٤

عن الحرف

ينقسم العمال في مصرحسب حرفهم ، وليس ثمة قواعد لاحتراف الحرف، فالأب الذي يريد أن يعلم ولده حرفة يسلمه لمحل أو عند معلم، ويحمل الصبي معه وجبات ليمضي اليوم ثم يعود في المساء إلى بيت والده. وبمجرد أن يتعلم فإنه يحصل على أجر يزيد بزيادة مهارته.

وتنقسم الحرف المختلفة إلى طوائف لها رؤساء، ويشرف على معظمها وكيل الانكشارية (الكخيا المتولى) وهو رئيس الشرطة في القاهرة، وتخضع بعض هذه الطوائف لإشراف أغا العزبان والمحتسب، وللأخير حق الإشراف الخاص على المواد الغذائية. وثمة حرف لا ترتبط بأي من هؤلاء الرؤساء، وتشكل طوائف هامشية، مثل : الراقصات والراقصين على سبيل المثال ، وعازفي المزامير ، وباعة الحدايد ، وعموما كل تجار الخردة.

ويرأس شيخ الحمامات ٢٤ شيخا من مختلف المهن ، مثل: صناع الخيام ، والجمالين ، ولاعبي العصا ، والمغنين ، ومنشدي الشوارع ، والحمارين . وهو يحكم في الخلافات الصغيرة التي تنشأ بين هذه الطبقة من الناس في موضوع حرفتهم، ويتوجه الناس إليه عند طلب عدد كبير من دواب النقل لغرض ما، ويحصل من أتباعه عددا من الضرائب الصغيرة، بعضها ثابت وبعضها طارئ. ولكي يحصل على هذا الامتياز فإنه يلزم بدفع إتاوات ثابتة لمختلف ضباط الأوجاقات، نقدا أو في شكل أشياء تدخل في تشكيل أثاث البيوت. ولا ينبغي أن ننسى أن هذه الرسوم التي يحصلها الملتزمون أو مساعدوهم، إنما هي في الغالب رسوم استبدادية، مثل كل ما يحدث تبعا للعادات الإسلامية . ولكن شيخ الطائفة بالرغم من اتساع سلطته في زيادة الضرائب التي يفرضها، يلتزم مع ذلك بحدود الاعتدال حتى لا يفقد الاحترام العام، فيفقد بالتالي عمله وأمله في أن يشغل وظائف أخرى .

وإذا لم يكن لدى الصناع ما يشكون منه من شيخهم، وإذا رغبوا فى الاحتفاظ به، فإن الكخيا المتولى لا يستطيع فى نهاية العام أن يبدله، كما أنه ليس فى مقدور هذا الأخير زيادة مبلغ الالتزام الذى يحدد بشكل لا يقبل التغيير. وعندما لا يكون الصناع راضين عن شيخهم، يضطر الكخيا لتعيين شيخ آخر، ويطلب إلى الطائفة أن تحدد له شخصا بعينه، ويتم ذلك بطريق النداء ، وبدون أية صيغة أخرى ، وبدون اللجوء إلى طريقة الاقتراع ، على الرغم من معرفة الأتراك لهذه الطريقة. وعندما يريد الكخيا أن يرغم الصناع على اختيار شيخ معين، يجتمع كل مديرى الحمامات ليعترضوا على هذا العنف غير المشروع.

وفى الفصل الأول من مؤلفنا هذا قدرنا عدد عمال اليومية بـ ١٥ ألفا فى مدينة القاهرة، ويمكن تقسيم هذه الكتلة من الناس إلى ثلاث طبقات: الأولى: وهى أكثرهم بؤسا وتضم ١٠ آلاف شخص، وهؤلاء يستخدمون فى أعمال ثانوية ، ولا يحصلون إلا على أجر بالغ التواضع يفى بالكاد لمعيشتهم، وهم يرتدون قميصا بسيطا أزرق اللون من الصوف ، ويحزم بحبل عند وسط الجسم، وتغطى رؤوسهم بلبدة بيضاء، أما مسكنهم فعبارة عن كوخ يكلفهم إيجاره الشهرى ١٠ بارات، وكل أثاثهم عبارة عن مزقة من الحصير ينامون عليها مع زوجاتهم وأولادهم، ويمكن للعامل من هذه الطبقة أن يكسب حوالى ١٥ بارة فى اليوم، وتشتغل زوجته (إذ ليست له إلا زوجة واحدة) بأعمال أخرى أقل كسبا، تدر عليها على الأكثر ٤–٥ بارات، ولا يأكل هؤلاء البؤساء اللحم على الإطلاق، وهم يشترون الخبز وشيئا من الحبوب المطبوخة والبيض. وينفق الرجل بعض نقوده فى المقهى، ويدخن تبغا بالغ الرداءة، ويخدر نفسه بأكل القنب الأخضر المعد، فقد أصبح الخدر بالنسبة له شبه ضرورى. وترتدى المرأة كذلك قميصا أزرق اللون، ويسير الأطفال عراة أو تغطيهم بعض الهلاهيل.

وتضم الطبقة الثانية حوالى ٣ آلاف عامل يومية، ظروفهم ليست أقل من ظروف الأولين مدعاة للشكوى، برغم أنهم ليسوا على نفس الدرجة من البؤس، وأجرهم ليس أكبر من أجر الأولين مع أنهم يعتبرون نوعا من وكلاء الأعمال، لكنهم يحصلون على بعض المكاسب البسيطة لا يحصل عليها الأولون، ومسكنهم أكثر راحة وأحسن تأثيثا، ويتكون رداؤهم الطويل من قميصين أو ثلاثة يرتدونها فى بعض الأحيان الواحد فوق الآخر ، وبخلاف ذلك فإن طريقتهم فى الحياة هى نفس طريقة الأولين.

ويمكننا أن نضع فى صفوف الطبقة الثالثة ٢,٠٠٠ من العمال، وهم فى حالة أكثر يسرا من الأولين بقليل، ويعمل هؤلاء كرؤساء ورش، ويسكنون فى مبنى كبير به دهاليز عديدة تؤدى إلى مساكنهم، وهذه المبانى تشبه الأديرة، ويقطن كل عامل فى حجرة، ويعد طعامه فى مسكنه، وزوجته هى التى تقوم بهذا العمل، ويدفع ٣٠ مدينى كإيجار شهرى، ويمتلك حصيرة خشنة من ألياف الكتان، وبعض المخدات التى لها غطاء ردئ ، بالإضافة إلى إناء للطبخ أو إناءين، مع آنية أخرى رخيصة الثمن . لكن ما يميزهم على وجه الخصوص أنهم يرتدون ملابس أكثر وأفخم : شال من الموسلين أوالصوف حول طربوش ليشكل عمامة، وملابسهم الداخلية من التيل، ويمتلك الواحد منهم دفية زيادة على الجلباب الطويل، وهذه الدفية عبارة عن معطف من الصوف الأسود، كما يرتدى ملاية ، وهى قطعة طويلة من قماش قطنى بها مربعات بيضاء وزرقاء، وكل هذه الأشياء التى يعنى بتجديدها عندما تبلى يمكن أن تكلف العامل من ٩ - ٢٠ بوطاقة (خردة)، ومع ذلك فأجر هؤلاء العمال ليس أكبر بكثير من أجر الأولين، لكن ما يجعلهم يعيشون فى بحبوحة أكثر، هو أنهم يعملون طيلة العام باعتبارهم أكثر شهرة وأكثر دراية . وترتدى زوجاتهم قميصا أسود للزينة ، وقميصين أو ثلاثة لبقية الأيام . وهن يعملن فى غسل ونسج القطن ، ويعود عليهن هذا العمل بأجر متواضع .

ويبلغ عدد الخدم العاملين بالقاهرة - كما سبق أن قلنا فى الفقرة الخاصة بسكان هذه المدينة فى الفصل الأول - ثلاثة آلاف، ويمكن أن ننظر إليهم باعتبارهم يشكلون ثلاث طبقات متمايزة فيما بينها ، بسبب طبيعة أعمالهم ، وهم : السياس (السايس)، الفراشون (الفراش)، القواسون (القواس) .

وينام السايس بالقرب من الخيول التى يوكل إليه أمر العناية بها ، ويكاد السايس لا يتقاضى أجرا، إذ لا يعطى إلا ١ - ٢ بارة فى اليوم، وكمية من الخبز تبلغ ٢/١ ١رطل، لكنه يحصل على عدد لايحصى من المكاسب الصغيرة المحظورة، ويحصل فى معظم الأحيان على هدايا بمناسبة الأعياد (عيدية) ، وباختصار فهو يعيش فى بحبوحة . ومعظم هؤلاء الخدم لا يتزوجون، وهم نظفاء، وملابسهم حسنة، ويتميزون بمهارتهم فى معاملة الجياد، وهم متكبرون وقحون بطبعهم، وعنيدون، لكنهم لا ينساقون لغضبهم إلا فيما بينهم، وهم يبدون الكثير من الخضوع نحو أسيادهم .

ويمكن أن نشبه الفراش بالـ Valet de chambre عندنا، فهو الذى يعنى بالأثاث، وهو الذى يسهر على نظافة البيوت وعلى الإضاءة، وهو يقيم عند سيده ، ولا يترك مسكنه إلا عند زواجه ، ولكى يحصل على هذه المرتبة فإنه ينتظر حتى يصبح رئيسا للفراشين، وهو على الدوام حسن الملبس. وهذه الطبقة هى التى تساهم فى إعداد ملذات سادتهم المنحطة، وهم يندفعون فى القيام بهذه الخدمات لأبعد مما كان السادة يرغبون، وأجرهم ليس محددا، وإنما يتوقف على مشيئة السادة .

وعندما يصبح هؤلاء الخدم رؤساء، يصبح لهم منزل ، وأحيانا منزلان قليلا الاتساع ، تقيم فى كل واحد منهما زوجة، وأثاثهم فاخرلحد ما، وتمتلك زوجاتهم بعض الحلى .

ويسير الشرقيون من ذوى المكانة أمامهم خدما، يسبقونهم سائرين على الأقدام، وحاملين عصا لإبعاد الجمهور، وليهيئوا لسادتهم مكانا . ويسمى الخادم من هذا النوع : القواس، وهم ينقلون سيدهم فى داخل المدينة وإلى القرى المجاورة، ويختار لهذا العمل فلاحون ورجال من أبناء الريف ، لأن مظهرهم وقامتهم أكثر مهابة من مظهر وقامة سكان المدن . ولا يدفع للقواس أجر، ولا يحصل هو إلا على الخبز، لكنه يعوض هذا الغرم إلى حد كبير، على حساب الذين يحمل إليهم أوامر أو رسائل من طرف سيده ، وبخاصة إذا ما كان لسيده نفوذ كبير . وليس ثمة أى نوع من المغارم أو الإتاوات إلا ويحصلها لحسابه . والقواس عند الكبار هو الذى يقوم لحسابهم بارتكاب أحداث السلب والانتقام، وهو الذى يهوى بعصاه على من يريد سيده أن يعاقبه أو يهينه ، كما أنه الذى ينزل الشخص الذى يخضع لهذه الإهانة من فوق ظهر حصانه . وكل هؤلاء الخدم على وجه التقريب متزوجون ، وترتدى زوجاتهم مثلما ترتدى زوجة حرفى ميسور، وملابسهم على الدوام من قماش خشن من الصوف الأسود، وهم يرتدون شالا من الصوف أو ملاية تتدلى على كتفهم، ويغطون رؤوسهم بلبدة بيضاء، ثم بطربوش أحمر، وهم يحرصون على أن يضعوا بينهما كثيرا من الورق وقطعا من أقمشة رديئة لتمتص ضربات العصا التى تنهال عليهم عادة من ساداتهم، ويسمى رئيس هذه الطائفة من الخدم : مقدم، ويفرض هؤلاء الرؤساء عددا كبيرا من الإتاوات ويغتنون بسرعة.

أما السقاءون فهم على نحو ما رسل الحريم، وينتهى بهم الأمر بأن يكونوا ثروات كبيرة، والنساء هن اللائى يخترنهم ويتبادلنهم فيما بينهن . ويتمتع هؤلاء الخدم عامة بحظ أوفر من الآخرين، ويوليهم أرباب البيوت أكبر قدر من الرعاية، وتبسط النساء عليهم حمايتهن، ويحرصن على راحتهم. ويمكن أن يكون لهذا التكريم أسباب عديدة، فالنساء - وهن بطبعهن رقيقات وشفوقات - لا يمكن أن يسلكن هذا المسلك إلا ربما بدافع من شفقة حميدة، وربما بسبب من تصنع الدافع الإنسانى، ومع ذلك فيحتمل أن تكون ثمة نواحى ضعف خفية هى التى تحدو بهن إلى إكرام رجال يكنن لهم قدرا من العاطفة .

وفيما عدا ذلك، فإن الخدم فى مصر يلقون معاملة طيبة على وجه العموم ، وإذا ما نحينا بعض المحن البسيطة، وبعض العقوبات التى قد تكون قاسية بعض الشئ فى بعض الأحيان، والتى يوقعها عليهم السادة بسبب تقلب أهوائهم، أو بسبب نفاد صبرهم، فليس ثمة فى حياة هؤلاء الخدم ما يمكنهم أن يشكوا منه، فالسادة يولونهم الكثير من العطف، بل ويرى السادة فى معظم الأحيان يتخذون جانب خدمهم بحماسة فريدة، سواء كانوا مخطئين أو كانوا على صواب، وسواء كان الأمر بدافع من العطف عليهم أو بدافع من كبريائهم وكرامتهم هم . وتذكر كثير من الأمثلة على بكوات تشاجروا بغضب فيما بينهم بسبب مشاحنات خدمهم .

وطابع هؤلاء الخدم عادة سئ مرذول، والذين يتوصلون منهم إلى الحصول على نوع من الثراء يصبحون وقحين متعاظمين، وهم وشاة غدارون ومخاتلون ماكرون، وويل لمن لا حماية لهم أو جاه حين يتعاملون معهم ! إنهم أكثر غلظة وقسوة من المماليك الذين يخدمونهم. والفراش والسايس والمقدم والسقاء مرتبطون بسادتهم، وهم راضون عن حظوظهم ولا يكادون يغيرون سيدهم . وهؤلاء السادة يعاملون خدمهم برقة فى غالب الأحيان كما سبق القول، وهم يعنون بأبناء هؤلاء الذين يولدون فى كنفهم، لأن المصريين جميعا مولعون بالغلمان ويتبادلونهم فيما بينهم. وتستقبل هذه الهدايا بسرور بالغ، فلماذا إذن والأمر كذلك، لا تكون بقية الأمور متسقة مع هذه الميول الطبيعية، والملذات البريئة الظاهرة ؟.

الملاحق

١

نبذة عن الحفل الذى يقام عند مولد الأطفال

سنقدم هنا مذكرة طبعت بالفعل فى القاهرة، وتعطى فكرة دقيقة عن العادات التى تتم عند مولد الأطفال الذكور . ويعجب المرء من أن الأب لا يدخل مطلقا وبأية طريقة ضمن إطار هذا الحفل الشيق .

فى اليوم السابع لمولد الطفل تجمع الوالدة صديقاتها ، وتمضى اليوم كله فى لهو معهن .

وتنقضى الفترة بين الوجبتين فى غناء ورقص تقوم بهما العوالم ، وبعد الغداء يتم حفل تعميد الطفل الجديد، ويطلق على هذا الحفل اسم : السبوع. وهو عبارة عن نزهة فى كل حجرات مسكن الحريم، وتمشى واحدة من الخادمات الرئيسيات على رأس الاحتفال حاملة صينية من النحاس ، وضع فوقها وبشكل دائرى عدد من الشموع يعادل عدد النساء اللاتى يشاركن فى هذا الاحتفال، وهذه الشموع مضاءة وألوانها متعددة. وتسير بعدها القابلة الموكلة بالطفل وعلى جانبيها خادمتان، تحمل صغراهما موقدا من النحاس الأصفر، وتحمل الأخرى طبقا يحتوى على حبوب شعير وقمح وعدس وفول وأرز وملح بحرى وبخور ، أى سبعة أصناف بعدد الأيام التى انقضت منذ مولد الطفل .

وتمشى الأم بعد ذلك تحيط بها العوالم وأقرب صديقاتها إليها ، وتشكل الزوجات الأخريات آخر مجموعة فى الموكب . وفى أثناء السير تعزف موسيقى صاخبة للغاية، وفى كل مرة يدخل فيها الموكب حجرة من حجرات الحريم، تأخذ القابلة حفنة من الحبوب والبخور بيمناها وترمى بجزء منه فى الحجرة، ويرد عليها بزغاريد طويلة جدا ، ويصبح إيقاع الموسيقى أسرع وأكثر صخبا ، وتحاول النساء السير فوق الحب المنتشر فى كل مكان .

وعند العودة إلى حجرة الحريم الرئيسية، توضع صينية الشموع على كرسى بدون مسند، موضوع وسط الحجرة، وتأتى كل واحدة من المشتركات لتضع قبضة من البارات، وترتمى الفتيات الصغيرات والخادمات على الشموع ليتنازعن عليها . وبعد ذلك تحمل القابلة الصينية، وتحصى دخلها من النقود التى تجدها فيها، والتى ألقيت هناك من أجلها .

وينتهى الحفل بزيارة للطفل، وتزين رأسه بقطع من النقود الذهبية التى تقدم له كهدية، أو توضع فى مناديل غالية تحت رأسه .

٢

جهل المصريين والنوبيين بخصوص رسم الصور الإنسانية

سبق أن تحدثنا عن قلة معرفة المصريين المحدثين بكل ما يتصل بالفنون الجميلة، ولكن يتبقى علينا أن نقول كلمة عن أى حد يبلغ عمق هذا الجهل فى موضوع الرسم والتصوير نتيجة للمعتقدات التى تصاحب الدين الإسلامى، إذ سوف يوضح ذلك كثير من الأحداث التى وقعت أمام أعيننا، أكثر مما توضحه الأفكار أو الآراء التى يمكن أن نقدمها .

كان الأستاذ ريجو Rigo الرسام وعضو المجمع العلمى المصرى، قد بدأ سلسلة من الدراسات حول ملامح السكان . وقد كان وصول قافلة النوبة إلى القاهرة عام ١٧٩٩ فرصة طيبة بالنسبة له، ينبغى الإمساك بها، وكان قائد القافلة عبد الكريم على وجه الخصوص يلفت النظر بقوة الملامح النوبية المرتسمة على وجهه . ونجح الأستاذ ريجو فى أن يجذبه إليه بإغراء النقود . وبعد مفاوضات طويلة - كثيرا ما انقطعت - جاء عبد الكريم إلى المرسم فى حراسة ١٠ - ١٢ شخصا من مواطنيه، مع كل الاحتياطات التى يمكن أن يقوم بها رجل مقتنع بأنه

مستدرج إلى كمين . ومع ذلك فلقد أمكن طمأنته فى النهاية وإقناعه بصرف حراسه، وبدأ الأستاذ ريجو فى عمل صورة له بالحجم الطبيعى، وبدا النوبى فى أول الأمر مسرورا بالخطوط الأولية فى الرسم، وكان يشير بأصبعه إلى أجزاء الرسم، وإلى الأجزاء التى تقابلها فى وجهه وهويقول: طيب . طيب . ولكن عندما بدأ الفنان يضع الألوان على الصورة، كان التأثير مختلفا تماما، فلم يكد عبد الكريم يلقى عليها نظرة حتى تراجع وهو يصرخ صرخات مرعبة ، وكان من المستحيل تهدئته، وما أن فتح باب المرسم، حتى أطلق لساقيه العنان، وصاح فى الشارع بأنه قادم من بيت نزعوا فيه رأسه ونصف جسده .

وبعد ذلك بعدة أيام ، جاء ريجو إلى المرسم بنوبى آخر، يعمل بوابا لأحد بيوت المعهد، فلم يكن أقل من مواطنه شعورا بالرعب عند رؤيته للرسوم، وجرى يقص على كل جيرانه، بأنه شاهد عند رجل فرنسى عددا هائلا من الرءوس والأطراف المقطوعة، فسخر إخوانه منه، وتجمع عشرة منهم ليتأكدوا من صحة الواقعة، ولكن لم يكن ثمة واحد من بينهم لم يتملكه الفزع عند دخول المرسم، ولم يشأ واحد منهم أن يبقى فى المرسم لحظة واحدة .

وقد رسم الأستاذ ريجو سيدة من نفس هذه البلاد جاءت إلى القاهرة مع عبد الكريم ، وكان على الرسام أن يرغمها حتى تقتنع بأن تدع نفسها تُرْسَم، وما أن انتهى الفنان من رسم الرأس والذراعين حتى قالت له : «لماذا تأخذ رأسى؟ ولماذا تنزع عنى ذراعى ؟» . وبدا أنها مقتنعة بأن كل أجزاء جسمها التى انتقلت صورتها إلى اللوحة، سوف تذبل .

ويعتقد المسيحيون من أهل البلاد أن كل الرسوم تمثل قديسين، وكان يوجد فى هذا المرسم لوحة لفرنسى، كان الأقباط يخرون أمامها ساجدين عند دخولهم المرسم، كما كانوا يقبلونها فى خشوع شديد (١) .

(١) انظر : Le Courrier d'Egypte, an 25

٣

فن الأفاعى أو سحرة الثعابين

أعتقد أن علينا – قبل أن ننهى هذا المؤلف – أن نتحدث عن هؤلاء الرجال غير العاديين ، الذين يحترفون اكتشاف الثعابين وتطهير المنازل منها . وعلى الرغم مما هو واضح فى عملهم هذا من دجل وشعوذة، وعلى الرغم من أننا نقر مقدما أن قليلا من القراء فقط هم الذين سيولون الثقة بهذه المعجزات المزعومة، فإنه مما لا مندوحة لنا عنه أن ندخل فى تفاصيل حول هذا الموضوع . ونحن نعترف – دون أن يعنى ذلك بساطة مفاهيمنا، أو أننا من بين أولئك الذين يسهل إقناعهم – بأننا كنا بأنفسنا شهودا على بعض الوقائع بالغة الغرابة ، لدرجة أننا لا نستطيع أن ندخل فن الأفاعى ضمن إطار الأمور المتوهمة والخيالية، بل إن واحدا مثل بروسبير ألبان Prospére Alpin ذلك الطبيب ذائع الصيت – ولا يمكن أن نصفه بأنه واحد ممن يعتقدون فى الخرافات – قد نقل إلينا أنه رأى رجالا يتعاملون دون أن يصيبهم أدنى أذى، مع الزواحف السامة والعقارب .

وقبله عرف سترابون Strabon الحواة الذين كان المصريون القدماء ينظرون إليهم، على اعتبار أن لديهم موهبة سحر الثعابين، وكل ما نقله إلينا المؤلف بخصوص هؤلاء الحواة يتجدد هذه الأيام .

أثناء وجود الجيش الفرنسى فى مصر، أراد عديد من الأطباء المهرة أن يتأكدوا بأنفسهم من حقيقة تلك الثقة التى يوليها الرحالة لهؤلاء السحرة . وكان من السهل عليهم فى البداية أن يعترفوا بشعوذة البعض، على الأقل فيمايتعلق بتلك الممارسات الغريبة التى يستغلون بها بساطة مفهوم جمهور جاهل أبشع استغلال. فلكى يدخل هؤلاء المشعوذون شخصا ما فى رفقتهم، ولكى يجعلوه فى مأمن من لدغات الثعابين، فإنهم يقومون بصب بعض الماء فى إناء، ثم يضيفون إليه الزيت والسكر، ويحاولون عمل مزيج من هذا الخليط، وبعد تلاوة بعض الأدعيات يبصقون

فى الإناء، ويأمرونه بشرب هذه الجرعة المنفرة، وبعد ذلك يعلقون فى أذنيه ثعبانين كبيرين من أسنانهما، ويظل الثعبانان متدليين هكذا لمدة ربع ساعة، وبعد انتهاء العملية، يخرج هذا «المأذون» من كيسه ثمن الخدمة الجليلة التى أسديت إليه، وينسحب، وهو شديد الاقتناع بأن ليس عليه أن يخشى بعد اليوم من لدغات الثعابين .

ولعل هذا الاقتناع الذى حصل عليه هذا «المأذون» ، والذى جعل منه المشعوذون اقتناعا تاما بمثل هذه العملية الشائعة، هو الفائدة الوحيدة التى جناها هذا الرجل، إذ إننا فى الواقع نستطيع بسهولة أن نتجاسر على الأشياء التى تقل خشيتنا لها، وهذه الثعابين تشبه نوعا من الحيوانات لا يصبح ضارا، إلا عندما تظن أن من يقترب منها - بسبب اضطرابه غير الواثق وتردده - يريد إيذاءها . إننا مضطرون للتفكير على هذا النحو، على الأقل حتى يمكننا أن نفسر النتائج الغريبة لهذا التلقين الغريب لهؤلاء السحرة، إذ كيف يستطيع هؤلاء الناس أن يحملوا فى ملابسهم، بل وعلى صدورهم، زواحف من كل نوع يلتقطونها بالصدفة، دون أن تقع لهم أحداث مؤلمة ؟ كيف يمكنهم أن يضعوا - دون أن يصيبهم أدنى أذى - عقارب حية تحت عمامتهم الحمراء التى تغطى رءوسهم الحليقة ؟ . لقد ظننا فى البداية أنهم كانوا ينزعون أسنان الثعابين أو فكى العقارب، لكن واحدا من زملائنا مر بتجربة تثبت العكس . فقد أراد ذات يوم أن يتأكد من الحقيقة، ونقل شكوكه هذه إلى واحد من هؤلاء الرفاعية، فما كان من الأخير إلا أن تناول أصبعه على الفور، ودسها فى فم الثعبان الذى يمسك به بين أصابعه، وأخذ زميلنا بفعل المفاجأة، وشعر بأسنان الثعبان الدقيقة والناعمة للغاية . صحيح أن كل هذا يمكن تفسيره، إذا ما تبنينا رأى بوكوك Pococke : فهذا العالم الرحالة كان يزعم أن ليس ثمة ثعابين سامة فى مصر . ولكن هل تأكدت صحة مثل هذا الزعم ؟ وهل الأفعى العادية، أو الأفعى ذات القرون، وهى المعروفة بخطورتها فى أوربا، تكون أقل خطورة منها فى أفريقيا ؟ وهكذا فلا يمكن أن يكون زعمه صحيحا، وفضلا عن ذلك، فقد حدثت تحت ناظرنا أمور برهنت على عكس هذا الرأى .

يبقى علينا أن نتحدث عن فن استدعاء الثعبان من شقه، وهو أمر أكثر مثارا للدهشة، بل إنه يشبه المعجزة . وقد واتتنا هذه الفرصة لنرى هذا المشهد الفريد لأول مرة فى طهطا بالصعيد عند آباء الدعوة . كان ثمة رجل يمر بالشارع وثمة سلة تتدلى من ذراعه، ويعلن بصوت عال أنه يطهر البيوت من الثعابين التى يمكن أن تحتويها ، وأردنا أن نضع نداء الرجل موضع الاختبار، فى الدير نفسه، بالرغم من تعليمات رجال الدين، الذين يُعلّمون تلاميذهم ألا يكونوا على استعداد مطلقا لتقبل مثل هذه الأفكار . ومع ذلك فقد كان ثمة واحد من الآباء أقل تشددا من إخوانه، وحبذ فكرتنا، واستدعى الرجل الذى نحن بصدد الحديث عنه إلى فناء صغير من أفنية الدير ، وكانت سلته تحتوى على ثعابين كبيرة ومن أنوا ع مختلفة، قال إنه أخرجها من البيوت المجاورة التى دعى إليها . وسألناه ما ان كان ثمة زواحف بالدير، وما ان كان بمقدوره أن يخرجها، عندئذ شكل قسمات وجهه، وجهد لكى يضفى على وجهه مسحة من الغموض، وجال ببصره فى كل الأماكن المحيطة به، وكانت كل إشاراته توحى بالجدية والخطورة، وكان يتخذ هيئة الرجل الملهم، ثم أوقف بصره فى النهاية على حجرة معتمة للغاية وهو يتشمم الهواء، كما لو كان بإمكانه أن يستدل على وجود الثعابين عن طريق الشم، ثم أجاب بأنه لا توجد زواحف إلا فى هذه الحجرة . وفتح باب الحجرة وتقدم بخطى بطيئة ، حاملا فى يده عصى صغيرة ، وكان يغمغم بكلمات بنغمة خاصة وبصوت خفيض، ولم يفهم رجال الدين من كلماته إلا كلمة : السلام عليكم، وبعد هذا النوع من «التعزيم» الذى استغرق خمس دقائق على الأكثر، وضع إحدى قدميه فى الحجرة، وبصق على الأرض، وانحنى، ثم نهض على الفور، وقدم إلينا ثعبانا يبلغ طوله أربعة أقدام، وكان يمسك به من ذيله، ويسنده بعصاه . ولم يكن هذا كل شئ ، فقد قام بهذه الطقوس مرتين وأحضر ثعبانين آخرين من حجم صغير، وضعهما مع الثعبان الكبير فى السلة . وصرفنا الرجل، ودفعنا له ثمن المشهد الذى قدمه لنا . ونحن نعترف – برغم قلة ميلنا إلى تصديق ما حدث – بأن الخداع كان كاملا، وأننا منذ

ذلك الوقت، أصبحنا أكثر ميلا للاعتقاد فى وجود السحرة الذين عقدوا صلات مع الشيطان، حسب أفكار الأقباط الدينية .

ولعل من الممكن الاعتقاد بأن هذه العملية ليست سوى حيلة من حيل السحرة أو الحواة – وهو ما اعتقده كثيرون – لكننا كنا قد اتخذنا كل الاحتياطات الممكنة، التى لا يمكن معها خداعنا، بل ويمكننا أن نؤكد بأن الحاوى لايخبئ مطلقا ثعابين فى ملابسه . وفضلا عن ذلك فقد أرغم البعض منا – كى نبدد كل شك – هؤلاء الرجال على أن يتجردوا من ملابسهم، ومع ذلك فقد حازوا نفس النجاح فى عملهم، ونستطيع أن نقدم على ذلك الكثير من الأدلة، لدرجة لايمكن معها أن نتهم بعدم الكفاءة . لكن ذلك يعنى أن نتوقف طويلا حول هذا الأمر، ومع ذلك، فلكى نفسر بطريقة صحيحة وموضوعية وقائع خارجة عن المألوف مثل تلك الوقائع، فنحن نعتقد أن بالإمكان الافتراض بأن الحواة المصريين لديهم القدرة على أن يعطوا لأصواتهم نغمة قادرة على جذب الثعابين، بنفس الطريقة التى يستطيع بها الصياد أن ينغم صوته لكى يخدع فريسته التى يجذبها إلى شباكه . ويؤكد الأستاذ دى لاسبيد de Lacépède فى كتابه Histoire naturelle أن الثعابين عامة، تفرز رائحة قوية، وأن بعض الناس يفرزون بالمثل رائحة مسكية . ويذكر واقعة تؤيد ما ذهب إليه، يمكن أن نستنتج منها أن الرائحة تخدم الرفاعية عند اكتشاف الزواحف، بنفس القدر الذى يخدمهم صوتهم .

ويبدو أن هؤلاء الناس قد عرفوا تأثير اللعاب على هذه الحيوانات الخطرة، وكل العمليات التى يتبعونها توضح ذلك بجلاء، وتتفق كثيرا مع رأى جاليان Galien الذى يدعى أن اللعاب سام بالنسبة للعقارب والثعابين ، وقد شاهدنا كثيرا من العلامات التى تدعم ما ذهب إليه هذا الطبيب العالم . فالواحد من هؤلاء الحواة، يعرض أمام الناس ثعبانا ضخما، ويظل يهيجه حتى يوشك الحيوان أن يعضه، وعندئذ يبصق فى فمه فيتوقف غضب الثعبان على الفور، بل يظل بلا حراك تقريبا . وهذه التجارب التى تتكرر مرات كثيرة، وبنفس النجاح، لا تسمح

مطلقا بإثارة الشك حول مفعول اللعاب، إن لم يكن كسم للثعبان، فعلى الأقل كمخدر، وقد اتبع بعض أطباء الجيش نفس هذه الطرق مع العقارب، فحصلوا على نفس النتائج .

وأشهر الثعابين المصرية على الإطلاق هو بلا جدال ثعبان الصعيد، الذى يعرف باسم الشيخ هريدى . وقد تحدث كل من نوردن Norden وبروس Bruce وسافارى Savary عن هذا الثعبان الشهير، الذى رفعته سذاجة العامة واحتيال المشايخ المسلمين إلى مرتبة ولى من الدرجة الثانية. ويمكن أن نرجع هذا التقديس غير المألوف، إلى أزمنة ضاربة فى القدم، حيث كانت شعوب مصر - كمايقول هيرودت واليان Elien - تولى للثعبان بشكل خاص، قدرا كبيرا من التقديس، فكانوا يتخذون منه رمزا للخصوبة . وقدتحدث دوبوى Dupuis عن تلك العبادات العالمية التى اتخذت الثعبان موضوعا لها ، وعن الدور الذى لعبته الثعابين فى كل الرموز العالمية التى أدت إلى نشأة العبادات المختلفة . لكن ما سوف يدهش عددا كبيرا من القراء بلا جدال ، هو أن يظل الثعبان هريدى، يلقى فى مصر، وتحت سيادة المبادئ الإسلامية، نفس المكانة التى كانت له فى الماضى عند عبدة إيزيس وأوزوريس، رمز الخصوبة، وأنه لا يختلف فى شئ ، لا فى الشكل ولا فى الطبيعة، عما وصفه اليان . وقد أخطأ هيرودت عندما خلط بين هذا الثعبان ، وبين الحية ذات القرون . وتأتى النساء العقيمات لزيارة الأماكن التى كانت مخصصة له، لكى يحصلن بفعل القرابين والأضحيات على نهاية لعقمهن ، كما تذهب إليه الفتيات ليسررن إليه برغباتهن فى أن يصبحن عما قريب زوجات وأمهات . وسوف نلزم الصمت عن كل الخدع المقززة للمشرفين على مزار هذا الثعبان - الإله، وكذلك عن المشاهد الشهوانية، التى هى نتيجة طبيعية لعبادة غريبة، بعيدة عن العقل لهذه الدرجة، ويكفينا أن نقول بأن النساء بعد أن يذبحن أضحية عند باب المزار، يصعدن عند دخول الليل إلى قمة سلم يبلغ عدد سلماته ١٠ - ١٢سلمة، وما أن يحل الظلام، حتى ينزلقن بطريقة غامضة إلى داخل المزار ليقضين بقية الليل مع

شيخ . ومن نافلة القول، أن نذكر أن هؤلاء السيدات ينجحن فى معظم الأحيان فى تحقيق الهدف الذى قمن بهذه الزيارة من أجله .

ويحكى عن أصل اسم الشيخ هريدى ، أن شيخا بهذا الاسم كان معروفا بفضائله، قد ظهر من جديد - بعد موته - فى صورة ثعبان. وهذه الخرافة التى يجد شيوخ البلاد مصلحتهم فى نشرها وتدعيمها، أصبحت طعما يسهل بلعه، وتلك هى نشأة كل الخرافات [1] .

---

(١) فى نهاية هذا المؤلف علينا أن نبدى عرفاننا إلى الأستاذ فورييه Fourier السكرتير الدائم للمعهد العلمى المصرى، للمجاملة التى أبداها نحونا، عندما أمدنا بمذكراته عن مصر، والتى كانت مصدرا لكثير من أدق الأفكار . وكان مركز القومسيير الفرنسى عند ديوان القاهرة - وهو المنصب الذى كان يشغله أثناء الحملة - قد جعله على صلة يومية بكبار المشايخ ورجال الشريعة ، وأكثر أهل البلاد تنورا ونفوذا . كما أن المخطوطات التى تركها المرحوم الأستاذ جلوتييه Gloutier - عضو المعهد المصرى ، قسم الاقتصاد السياسى - لم تكن بأقل نفعا لنا، فقد استطاع جلوتييه - بوصفه مديرا للمالية - أن يحصل على كل المعلومات الدقيقة . كما لا ينبغى أن نلزم الصمت إزاء الأفضال التى ندين بها للأستاذ جومار Jomard ، عضو المعهد، بخصوص كل المعلومات القيمة التى قدمها لنا، وللعناية الخاصة التى أبداها بمراجعته هذا المؤلف .

كما أننى فى النهاية، أتقدم بخالص شكرى، إلى السادة : بارسيفال جرانميزون Parseval Granmaison ، و روييه Rouyer ، وبوديه Boudet ، ودالماس Dalmas ، الذين زودونى - بالمثل - بالمعلومات الهامة التى جمعوها فى ظروف مواتية .

كما أن الرحالة المدقق نيبور Niebuhr ، قد قدم ملاحظة بالغة الإثارة عن الرياضة والألعاب عند المصريين، وعن ملابسهم، وعندما حانت لنا فرصة مراجعة دقة هذه الملاحظات، أخذنا عنه الكثير وأدخلناه فى دراستنا هذه .

الكتاب الثاني

دراسات تكميلية

مذكرة مقدمة من المسيو بانكوك
إلى سيمون وزير الداخلية بخصوص إعادة
طبع كتاب «وصف مصر» (*)

كانت مصر موضوعا لعدد ضخم من المؤلفات، كما وصفت من قبل مرات كثيرة، لكن أحدا لم يتمكن، حتى وقت قريب، من الحصول على معرفة تامة ودقيقة عن هذه المنطقة من العالم . كان ذلك فى الحقيقة يتطلب حدثا غير عادى، وظروفا مواتية لا يستطيع أن يهيئها إلا جيش منتصر، حتى تتهيأ الوسائل اللازمة لدراسة مصر بالعناية التى تليق بها . لقد كانت هذه البلاد، التى زارها أشهر فلاسفة الزمن القديم ، هى النبع الذى اغترف منه الإغريق، بل الرومان كذلك، مبادئ القوانين والعلوم والفنون، ولم يك مسموحا للأجانب فى عهد الإغريق والرومان أن يتوغلوا فى هذه البلاد حتى يبلغوا معابدها، ولم تعد هذه المنشآت فيما بعد- بعد أن حاق بها الإهمال بفعل الثورات الدينية والسياسية المتوالية - أكثر منالا بالنسبة للرحالة الأوربيين منذ أن استقرت الديانة المحمدية هناك.

أما أن توصف وترسم الصروح القديمة التى يمكن القول بأنها كانت تغطى أرض مصر، وأن تجمع وتفحص كل منتجاتها الطبيعية، وأن توضع خرائط دقيقة ومفصلة عن هذه البلاد، وأن تجمع الشظايا القديمة (من آثارها)، وأن تدرس الأرض والطقس والجغرافية الطبيعية، وأخيرا أن يلم الناس بكل ما يتصل بتاريخ المجتمع، وتاريخ العلوم والفنون - فلقد كانت تلك هى غاية هذه المهمة التى تطلبت إسهام عدد كبير من الدارسين، كانت تحركهم جميعا نفس الغايات. وهذا العمل الذى ننشر منه اليوم طبعته الثانية ، هو الثمرة المشتركة لجهودهم.

(*) نشرت هذه المذكرة بدون أى عنوان .(المترجم) .

وما أن عاد إلى أرض الوطن هؤلاء العلماء والرياضيون والفلكيون والمهندسون وعلماء الطبيعة والمستشرقون ورجال الأدب، والمعماريون والرسامون، بعد أن تعرضوا – خلال مايقرب من أربع سنوات – لكل أخطار هذه الحملة العسكرية الخالدة، وهم السادة :برتوليه Berthollet، مونج Monge، كونتيه Conté ، كوستاز Costaz، ديليل Delile، ديجينيت Desgenettes، ديفلييه Devilliers، فورييه Fourier، چيرار Girard، جولوا Jollois ، لانكريه Lancret، جومار (١) Jomard، أندريوسي Andréossy، بلزاك Balzac، بليتست Belleteste، بيرتر Bertre، بوديه Boudet، كريستي Caristie ، كاست Castex ، سيبل Cécile ، دى شابرول de Chabrol. ، كورابوف Coraboeuf ، دى كورانسيه de Corancez، كوردييه Cordier ، كوتل Coutelle، دى لابورت de laporte، ديكوتيل Descotils، دى بوا ايميه Dubois-Aymé ، دوشانوى Duchanoy ، دوترتر Dutertre ، فافييه Favier ، فاى Faye ، فيف Fève، جراتيان لوبير Gratien - Lepère، جيوفروى Geoffroy، جاكوتان Jacotin، جوبير Jaubert، لارى Larrey ، ليسيسن Lecesne، لوجنتى Legentil ، لنوار Lenoir، لوبير الأكبر Lepèr ainé ، لوبير المهندس المعمارى Lepère architecte ، مالو Malus، مارسيل Marcel ، مارتان Martin، نورى Norry، نويه Nouet، بروتان Protain، رافينو Raffeneau، ريج Raige، ريدوتيه Redouté، روييه Rouyer ، سان جينى Saint-Genis، صامويل برنارد Samuel Bernard، سافينى Savigny، فيار Viard، فيوتو Villoteau، فانسان Vincent – ما أن عاد هؤلاء إلى أرض الوطن حتى أنفقوا سبعة عشر عاما فى إعداد وتصنيف المواد التى كانت قد تجمعت لديهم .. وإننا لنأسف لأننا لم نتمكن من أن نذكر هنا أسماء كل أولئك الذين سقطوا ضحية لحبهم للتضحية أو سقطوا بفعل الحرب أو الطقس.

---

(١) كل هؤلاء أعضاء فى اللجنة التنفيذية التى كان يرأسها المسيو برتوليه والتى يتولى سكرتاريتها جولوا، أما المسيو جومار قوميسيير الحكومة، فقد تولى إدارة وتنسيق العمل منذ وفاة المسيو لانكريه . وقد توفى عشرة من الباقين منذ عودتهم (من مصر حتى الآن) .

لقد حشدت فرنسا كل جهودها لفتح هذه البلاد، ولقد وظفت كذلك كل جهود الفنون من أجل وصفها، ولقد أكب عدد كبير من الخطاطين والرسامين ورجال الطباعة المهرة والميكانيكيين، وما يقرب من أربعمائة من الحفارين .. عملوا جميعا بمثابرة تدعو للإعجاب فى إقامة هذا الصرح (وصف مصر) ، الذى يجمع ما بين مجد فرنسا الحديثة وكل ذكريات مصر القديمة . إن هذا العمل المخصص لوصف الكثير من روائع المنجزات العملاقة، هو نفسه إنجاز عملاق فى مجالات الآداب والفنون والعلوم، ولقد تجاوز هذا الإنجاز العظيم الحدود المألوفة حتى الآن بالنسبة للمجموعات المحفورة (اللوحات) . فقد كان يلزم الورق قوالبُ وأشكالٌ (فورمات) لم يسبق استعمالها، بل لقد تطلب الأمر أن نعثر لها حتى على اسم جديد . إن مصانع أوربا لم تصنع حتى اليوم أوراقا بهذا الحجم أو على هذه الدرجة من الجمال، بل لقد اصطنعت وسائل جيدة لتطوير فن النحت أسرعت بتقدمه، كما أثرى فن الطباعة بطرق مستحدثة طورته .

وفى النهاية، وبعد الكثير من العناء والمثابرة، وبعد مجهودات من كل نوع شغلت أو نالت عناية أكثر من ألفى شخص كل عام فى فرنسا، وبعد أن أسهمت العديد من الفنون الهامة بالكثير، وبعد أن نفذت – بعناية ومثابرة – خطة لم يتناولها أى تغيير، بعد ذلك كله أتمت لجنة مصر Commission d'Egypte هذا المؤلف الضخم، الذى لا يمكن أن نجد ما يضارعه فى حوليات العلوم .

لقد كان بوسعنا أن نطلق عليه اسم «موسوعة مصر»، فهو يعرف بها تاريخا ومنشآت ومنتجات، وليس ثمة بلد يحوز وصفا بهذه الدرجة من التمام والكمال فى كل مناطقه، وليس هناك من سبيل فى أن نأمل أن تتوفر على الإطلاق مثل هذه الظروف المتآلفة والإرادة القادرة على إنتاج سلسلة مماثلة من الإنجازات ، أو أن تقيم مثل هذا الصرح. إن فرنسا لتستحق – دون جدال – أن تكون موضوعا لوصف يتم بنفس هذا النسق .

ولقد أثار هذا العمل إعجاب كل أوربا، لكن هذا الإعجاب كان بالأحرى ناتجا عن عواطف ود ارتبطت به، أكثر منه ناتجا عن معرفة حقيقية بمحتوياته. فلقد ظل شأنه شأن آلهة مصر، حبيسا داخل محراب الفنون، ولقد كان هذا العمل جديرا

بالأمة التى أنجبت المقاتلين والعلماء والفنانين الذين ندين لهم بهذا العمل، كما كان جديرا بالحكومة التى أمرت بإتمامه، لكنه مع ذلك ظل شبه مجهول من الفرنسيين أنفسهم . وكم تمنى الرسامون والمعماريون والعلماء ورجال الأدب أن يستمتعوا بهذا العمل الذى لا يمكن لأية إمكانيات فردية أن تحصل عليه، لكن الطلب يشتد عليه، وكان ينبغى له أن يحمل منذ زمن طويل إلى الأجنبى أمارات لا حصر لها على المجد الذى حازه الفرنسيون .

وحين نغض الطرف عن المبالغ الضخمة التى أنفقت على وضع هذا السفر، ونقتصر على حساب المصاريف الجديدة التى تتطلبها إعادة طبع تسعمائة لوحة، إلى جانب النصوص التى تكون هذا السفر، وإذا ما نشرناه فى شكل أجزاء صغيرة، مقدمين بذلك تسهيلات طيبة للكثيرين من ذوى القدرة المحدودة، فلا بد أن نكون على ثقة من إمكانية انتشار هذا المؤلف ورواجه فى كل أوربا .

كانت تلك هى الدوافع التى عرضها المسيو س . ل . ف بانكوك C.L.F Panckoucke على صاحب السعادة وزير الداخلية الكونت سيميون Siméon .

ونرفق فيما يلى إجابته، وكذلك الأمر الملكى الذى أجاز نشر هذه الطبعة الثانية .

سيدى ..

لقد وضعت تحت تصرف الملك اقتراحاتكم المتعلقة بإعادة طبع المؤلف الكبير الذى وضع عن مصر، وقد وقفت فى صف هذه الاقتراحات، وقد شاء جلالته أن يوافق عليها، وأرسل لكم هذه النسخة من المرسوم الصادر فى هذا الخصوص، وعليكم أن تتخذوا فيما يخصكم كل إجراءات التنفيذ .

إنها لمهمة نبيلة، ولست أشك فى أنكم ستقومون بها، بطريقة تحقق الثقة التى وضعت فيكم .

سيميون

(توقيع)

مرسوم ملكى

لويس ، بحمد الله، ملك فرنسا ونافار

إلى كل من سيطلع على هذه الأوراق :

حول تقرير وزيرنا سكرتير الدولة للشئون الداخلية، ومستشار دولتنا المختص،

أمرنا ونأمر بما يلى :

مادة أولى : يقبل الاقتراح المقدم من المسيو س . ل . ف . بانكوك بإعادة طبع «وصف مصر» ، والمرفوع إلينا من قبل وزير داخليتنا، ويلحق هذا الاقتراح بهذا المرسوم .

مادة ثانية : بالنسبة للحصيلة التى ستعود على الحكومة من عائد هذا العمل : توزع حصة (يحددها وزير الداخلية) على الذين ساهموا فى الطبعة الكبيرة والتى تمت على نفقة الخزينة، ويخصص الباقى لتشجيع العلوم والفنون الجميلة وبخاصة فن الحفر .

مادة ثالثة : يكلف وزيرنا سكرتير الدولة للشئون الداخلية بتنفيذ هذا المرسوم.

صدر بقصر التويليرى فى ٢٣ يونية من عام الشكر ١٨٢٠ العام السادس والعشرين من عهدنا .

لويس

(توقيع)

الدراسة الأولى :

دراسات موجزة حول

البنية الجسدية للمصريين

البـــــــارون لارى

العنوان الأصلى للدراسة: «دراسة موجزة حول البنية الجسدية للمصريين ولمختلف الأجناس التى تقطن مصر، وتليها بعض أفكار حول تحنيط المومياوات» ، تأليف المسيو البارون لارى، دكتوراه فى الجراحة من باريس .. ودكتوراه الطب من جامعة بينا ، وعضو المجمع العلمى المصرى، وعضو العديد من الأكاديميات، والجراح الأول فى حرس صاحب الجلالة الامبراطور الملك، والمفتش العام بمصلحة صحة الجيوش، وأحد القادة الحاصلين على وسام الشرف والفارس من طبقة التاج الحديدى .

كان من الضرورى، فيما بدا لى، حتى أستطيع أن أميز الملامح الجسدية للمصريين الحقيقيين، عن ملامح بقية سكان مصر ، أن أبدأ بفحص مختلف هؤلاء السكان، فى صلاتهم الأساسية . ولكى أسترشد فى فحصى هذا بشئ من المنهج، فسوف أميز هؤلاء السكان، كما فعل رحالة فرنسى من قبل، فى أربع طبقات (أو أجناس) تشتمل على : المماليك، الأتراك أو التركمان، العرب، وأخيرا الأقباط .

لقد استقر المماليك فى مصر، وهم حكامها اليوم، عند حوالى القرن العاشر، وتنحدر سلالة هؤلاء من جبل القوقاز، وقد وصلوا إلى هذه البلاد بعد جولات قاموا بها فى سوريا . ويمكن لنا تمييز هؤلاء، الذين أشار إليهم مقاتلونا الصليبيون بالاسم الذى لا يزالون يحملونه حتى اليوم، عن بقية السكان الآخرين فى مصر بميزاتهم الجسمية وبطابعهم العسكرى العدوانى ، وهم جميعا ذوو قامة مديدة وبنية شديدة ، وتقاطيع خلقتهم جميلة متناسقة، ويتمتعون بوجه بيضوى ، وجمجمة ضخمة، وجبهة عريضة، وعيون واسعة نجلاء، وأنف مستقيم، أو أقنى بعض الشئ، وفم متوسط، وذقن ناتئة على نحو خفيف : أما شعرهم وجفونهم ورموشهم فسمراء داكنة أو كستنائية اللون، كما أن بشرتهم بيضاء فى غير لمعان. ولنسائهم – وهن قادمات من نفس البلاد – نفس الملامح، مع تغيرات كبيرة، ونجد من بينهن نسوة بارعات الجمال .

وتلفت رؤوس المسنين من هؤلاء الشرقيين النظر، إذ يضفى نتوؤها عليها روعة، يزيد منها جمال ملامح الوجه، وبياض لحيتهم الأخاذ، والتى يتركونها تنمو حتى تلامس أسفل الصدر : ويعد مراد بك النموذج الأمثل لهذه البنية الجسدية الجميلة. أما طبع هؤلاء المماليك ففخور، جسور فى غير غلظة، وهم

يشتهرون بالكرم، وحسن وفادة الضيف. ولا يتزوج الواحد منهم إلا إذا بلغ مرتبة عالية، وفى النهاية، فإنهم جميعا متمرسون على فنون القتال. واعتقد من جانبى أن الناس محقون حين ينظرون إلى هؤلاء باعتبارهم الفرسان الأول فى العالم .

ويتكون الجنس التالى (من سكان مصر) من الأتراك أو التركمان، القادمين من تركيا أو من بلاد التركستان، وتقترب بنية هؤلاء من بنية الجورجيين أو الشراكسة المماليك الذين كنت أتحدث للتو عنهم، وإن كان لون بشرتهم يميل إلى سمرة برنزية ، كما أن وجههم أكثر تسطحيا، وجمجمتهم محدبة على نحو أكبر، وهى كذلك أكثر كروية، وعيونهم أكثر صغرا، ونظراتهم غامضة معتمة، وحاجبهم أسود حالك سواده، كما أن لحيتهم بالمثل سوداء . وطابع هؤلاء الترك أو التركمان أقل حيوية ، مع شئ من غلظة . ورجال هذا الجنس كثيرون بعض الشئ فى القاهرة، وهم يأتمرون بأوامر الباشا مباشرة.

وتتكون الطبقة (الجنس) الثالثة من العرب، وهؤلاء يمكن لنا أن نقسمهم إلى ثلاثة فروع مختلفة : فرع العرب الشرقيين القادمين من حواف البحر الأحمر أو من الجزيرة العربية، والعرب الغربيين أو الأفارقة، وينتمى هؤلاء فى الأصل إلى موريتانيا أو سواحل أفريقيا، ثم أخيرا العربان البدو أو الـScénites القادمين من الصحراوات .

وللأفراد من الفرع الأول – وهم الذين تحوروا إلى الأبد فى طبقة الفلاحين والصناع أو الحرفيين فى كل مصر السفلى – قامة فوق المتوسطة بقليل، وهم متينو البنية، جميلو الخلقة على نحو كاف، وبشرتهم جافة داكنة ، تكاد تكون سوداء ، ولهم وجه نحاسى بيضوى ، وجبهة عريضة ومحدودبة ، وجفنان متباعدان أسودان، وعيون لها نفس اللون صغيرة ولامعة وغائرة، وأنف مستقيم متوسط

الحجم ، وفم مخروط فى شئ من الحسن ، وأسنان منتظمة حسنة القطع ، بيضاء كالعاج. ونلحظ عند نسائهم اختلافات طيبة، ويعجب المرء فيهن – بصفة خاصة – محيط أطرافهن الرشيقة ، والتناسب المنتظم لأيديهن وأقدامهن، كما يعجب بما فى مشيتهن ووقفتهن من اعتداد .

ويشارك العرب الأفريقيون سابقيهم فى مجمل شكل البنية الجسدية ، وكذلك فى لون العيون وحيويتها، لكن صلتهم بأبناء ساحل أفريقيا تتضح فى شكل الأنف والفك والشفاه، ويتماثل طبع هؤلاء مع طبع الأجناس الأخرى من العرب . وينتشر هذا النوع من العرب فى مصر العليا، وهم هناك يزرعون الأرض ويمارسون الحرف كالأولين .

وعادة ما ينقسم البدو أو العربان الرعاة إلى قبائل متناثرة على مشارف الأرض الخصيبة عند مداخل الصحراوات . وهم يقيمون تحت خيام يحملونها من مكان لآخر حسب الحاجة ، ولهم بعض صلات شبه بالآخرين ، وإن كانت عيونهم أقل بريقا فى العادة ، كما أن ملامح الوجه أقل وضوحا، وهيئتهم أكثر جمالا ، فى حين أن قامتهم أقل حجما، وهم أكثر خفة وأشد نحولا، ومع ذلك فهم أشداء متينو البنية، ذوو روح متوثبة، وطبع فخور. لكنهم حذرون جفولون، كما أنهم نفعيون كتومون هائمون يضربون على غير هدى، وفضلا عن ذلك فسرعان ما يصبح الواحد منهم فارسا ماهرا، تمتدح مهارته فى استخدام السهام والحراب . وتقاليد وعادات هؤلاء العرب هى هى غلى وجه التقريب ، وهم يربون قطعان الضأن والجمال والخيول من صنف ثمين للغاية .

أما الطبقة الرابعة من سكان مصر، والتى كانت الموضوع الرئيسى لأبحاثى، فتتكون من الأقباط الذين يوجدون بأعداد كبيرة فى القاهرة ومصر العليا . وهؤلاء – دون شك – هم أنسال المصريين الحقيقيين والقدماء ، ولقد احتفظوا من هؤلاء بخلقتهم الجسدية ، ولهجتهم (كذا) وتقاليدهم وعاداتهم ، ويبدو أن أصولهم قد

ثابتة فى عصور بالغة القدم . وقد كانوا يقطنون مصر العليا من قبل عصر ومانيانوس بزمان طويل ، ويؤكد هيرودت أن المصريين من سلالة الأحباش والأثيوبيين ، ويتفق كل المؤرخين فى هذه النقطة مع هيرودت، وتدعونى الأبحاث التى قمت بها فى هذا المجال إلى تبنى هذا الرأى .

وتضرب بشرة الأقباط إلى الصفرة وإلى العتمة مثل الأحباش، ووجههم ممتلئ فى غير انتفاخ، وعيونهم جميلة ، لوزية الشكل، ذات نظرات ذابلة واهنة، أما الوجنات فناتئة ، ويكاد يكون الأنف مستقيما ، مستديرا عند قمته، لكن المنخارين واسعتان ، والفم متوسط، والشفاه غليظة ، والأسنان بيضاء منتظمة ، وإن تكن ناتئة بعض الشئ، ولحيتهم وشعر رأسهم أسود جعد، وللنسوة نفس الملامح مع الاختلافات تأتى لصالحهن . ويبرهن كل ذلك – وهوعكس ما رآه فولنى Volney– على أن هؤلاء القوم لا ينحدرون مطلقا من جنس الزنوج فى أواسط أفريقيا، إذ ليس ثمة أى نوع من التشابه بين هؤلاء الأخيرين وبين الأقباط. وفى الواقع فإن الزنوج الأفريقيين أسنانا أكبر حجما وأكثر بروزا، كما أن تجويفهم الصدرى أكثر اتساعا وأكثر تحديدا، وشفاهم المدلاة أكثر غلظة، كما أن خدودهم أصغر، وعيونهم كابية على نحو أكبر، كما أنها أكثر استدارة، ولشعرهم شكل الزغب أو الصوف . أما الحبشى فعلى العكس من ذلك عيناه واسعتان، ونظرته مريحة، وزاوية صدره تنحنى نحوه، ووجنتاه أكثر نتوءا، وتشكل خدوده مع الزوايا المحددة للفك والفم مثلثا أكثر انتظاما ، والشفاه غليظة حقا لكنها غير مدلاه مثلما عند الزنوج، وكما سبق لى القول فإن الأسنان جميلة وأقل نتوءا، أما تجويف الصدر فأقل اتساعا ، وفى النهاية فإن بشرة الأحباش نحاسية اللون .

وكل هذه الملامح تلاحظ مع فروق لا تكاد تحس بها لدى الأقباط، أو المصريين الحقيقيين، ونجد نفس هذه الملامح مرة أخرى فى رؤوس التماثيل القديمة وبخاصة تماثيل أبى الهول . ولكى أتحقق من هذه الظواهر قمت بتجميع عدد محدود من الجماجم من مقابر عديدة للأقباط ، كان لا مفر من إزالتها لمقتضيات المصلحة

العامة، ثم قارنتها بغيرها من جماجم الأجناس الأخرى، التى جمعت منها [illegible] مجموعات كبيرة (١)، وبخاصة جماجم لأحباش وأثيوبيين حصلت عليها [illegible] الطريقة، وقد اقتنعت بأن هذين النوعين من الجماجم يمثلان نفس الخلقة على [illegible] التقريب .

ولقد مكنتنى الزيارة التى قمت بها إلى أهرام سقارة من وضع سمح لى [illegible] أنقب عن عدد كبير لحد كاف من المومياوات ، قدمت لى جماجمها نفس [illegible] التى قدمتها الجماجم الأولى، مثل نتوءات الوجنات ، وأقواسها ، والشكل [illegible] للفتحات الأنفية ، والبروز القليل لأقواس الصدر.

وتبدو مختلف الموازنات التى انتهيت من إقامتها، وكذا العلاقات التى [illegible] على الدوام، والتى لا تزال موجودة حتى اليوم، بين الأحباش وبين الأقباط [illegible] والتوافق بين تقاليد وعادات هؤلاء وأولئك، بل وديانتهم، كل ذلك يبدو كافيا [illegible] يبرهن على أن المصريين إنما ينحدرون حقيقة من الأحباش والأثيوبيين. وزيادة على ذلك، فمن الطبيعى أن نتخيل أن الأثيوبيين قد اتبعوا مجرى النيل منذ الأزمنة الأولى ، وأنهم كانوا يتوقفون أولا بأول فى البلاد التى يخصبها هذا النهر، [illegible] هذه الإقامة كانت على التوالى، وهكذا فقد انتشر هذا الشعب بالتتابع من [illegible] إلى طيبة إلى ممفيس إلى هليوبوليس، أما المدن الأخرى شمال هذه المدن ، [illegible] تتكون إلا بعد ذلك بوقت طويل .

وقد لاحظت كذلك ثلاثة أنواع من المومياوات، تنتمى – فيما بدا لى – إلى [illegible] ثلاث طبقات من المواطنين ، بل ربما إلى ثلاثة أجيال مختلفة . فمومياوات [illegible] العليا فى العادة أكثر جمالا، وتلقى عناية أكبر من مومياوات مصر السفلى ، [illegible]

---

(١) حيث أتى الطاعون على الأشخاص الذين تركتهم بمنزلى فى القاهرة أثناء سفرنا إلى الأسكندرية، وحيث غادر الجيش هذه المدينة ليعود رأسا إلى فرنسا ، فإننى لم أستطع إنقاذ هذه المجموعات كما لم أتمكن من إنقاذ أبحاثى .

المومياوات التى أضعها فى الصف الأول فمتماسكة متينة، مطلية بالقار، ومحنطة بنفس المادة، وتحاط بأشرطة من قماش الكتان، مشكلة عددا من ضمادات الجراحة والتشريح مساويا لعدد أجزاء جسم الإنسان . وهى مغلفة بغلاف كرتونى، تنتثر عليه الكتابات الهيروغليفية .

ويضم كل هذه الأجزاء صندوق من خشب الجميز، رسمت على غطائه صورة الشخص (المتوفى) .

وكما قال هيرودت ، فيبدو أنه بعد أن كانت تفرغ التجاويف الثلاثة الرئيسية للجسم، كانت هذه التجاويف تملأ بالقار، كذلك كانت تحقن به الأطراف ، وكل الأجزاء الخارجية . وحين تكون هذه المادة فى كامل انصهارها فإنها تنفذ داخل هذه الأجزاء بعمق ، لحد تتشربها معه عظام هذه الأجساد ، حتى أنها استطاعت - ولا تزال تستطيع - البقاء بالمثل لوقت أطول، ما دامت توجد فى طقس تندر فيه الأمطار، وحيث تظل الأماكن التى أودعت بها شديدة الجفاف، محرومة من التهوية. وبعد انتزاع أغلفة المومياوات، نجدنا نتعرف أولا على جنس صاحب المومياء وملامحه الرئيسية ، ونجد أن وجه وأيدى وأقدام بعضها مغطاة بأوراق من الذهب ثبتت فوقها بشكل فنى حاذق، وتحت ذراعى أو فى داخل جسم هذه المومياوات وجدنا هذه الكتابات النادرة التى عرفت باسم البرديات ، والتى لا تزال حروفها مجهولة بالنسبة لنا حتى اليوم . وتحمل كل واحدة من هذه المومياوات، بالإضافة إلى ذلك، كل شواهد الحرفة أو المهنة التى كان يمارسها صاحبها فى حياته، وتحفظ آنيته معه فى التابوت . ويخصص هذا النوع من التحنيط لكبار المواطنين فى الدولة، وكان يتطلب استعدادات طويلة وشاقة، كما كان يتطلب توفير الكثير من العناصر المقومة ، مما كانت تجعله ولا بد بالغ التكلفة .

وكانت الطبقة الثانية من المومياوات أقل جمالا وأقل تماما، وكانت ضماداتها من قماش أقل نعومة، ومثبتة بدرجة أقل من الفن، ولم تكن لهذه المومياوات أغلفة

كرتونية . أما التابوت المصنوع من خشب الجميز، والذى كان يحويها، فكان مصنوعا بشئ من الخشونة، كما لم يكن مزدانا بالرسوم شأنه شأن النوع الأول .

وكان أفراد الطبقة الثالثة يحنطون بمصاريف أقل، وتختلف أساليب تحنيط هؤلاء لغير ما حد، وقد أعدت كل المومياوات من هذه الطبقة بالحقن بمواد ملحية، تتفاوت درجة قابليتها للذوبان، وكانت توضع داخل تجاويف الجسم ، مثل محلول النطرون أو الملح البحرى . وبعد أن كانت تملح الأجساد جيدا على هذا النحو، كانت تترك لتجف فى الشمس، أو كانت تعرض لتأثير النار حتى تبلغ درجة اليبوسة التامة، ثم توضع بعد ذلك فى صناديق من خشب الجميز ، خرطت بشكل خشن .

وكانت كل هذه العمليات تتم دون جدال تحت إشراف رجال متبحرين فى علم التشريح .

* * *

لكى تكتمل هذه المذكرة الموجزة، سوف نضيف إليها ملخصا مركزا حول الطريقة التى حفظنا بواسطتها فى أوربا أجساد بعض مقاتلينا الذين ماتوا فى ميدان الشرف .

إذا كان الشخص (الحالة) الذى ينبغى أن يحنط جسمه قد مات نتيجة مرض مزمن، مع هزال، شريطة ألا يشك مطلقا فى وجود ترسبات قيحية فى الأحشاء، وألا يكون التحلل أو التعفن قد بدأ، وأن يكون الجسم سليما من الظاهر، فإن من الممكن حفظ الأحشاء فى تجاويفها الخاصة (بالجسم) فيما عدا المخ الذى ينبغى على الدوام إخراجه .

وفى هذه الحالة نبدأ بغسل كل أجزاء الجسم بالمياه النقية والطازجة، ونمرر بالأمعاء الغليظة غسولا من نفس السائل ، ونمتص بحقنة خالية الأشياء الذائبة التى لن يكون بالإمكان خروجها إما بسبب ثقلها الخاص، وإما بسبب الضغط الذى نمارسه أسفل البطن، كذلك فإننا نمتص المواد التى تحويها المعدة بنفس الوسيلة،

وقد يكفى أن نعد مسبارا بلعوميا عند شجاح (مشعب) الحقنة التى ندخلها إلى هذه الأجزاء الداخلية عن طريق الفم أو عن طريق فتحة نحدثها فى البلعوم من الجهة اليسرى للرقبة . وبعد ذلك نملأ المعدة والأحشاء بمادة قارية توضع منصهرة، وتغلق الفتحات، ثم نفعل نفس الشئ عند حقن العروق. ومن أجل ذلك تمزق شريحة من الجزء الداخلى والجانبى على يسار الصدر ، تجاه أخمص الأورطى، ويقطع واحد أو اثنان من الغضاريف التى تغطيه، ويوضع بداخل هذا الشريان ثجاجٌ ذو صنبور، ندفع عن طريقه حقنا دقيقا ملونا بالأحمر، لملء الأوعية الشعرية لكل النظام الغشائى، وبعد ذلك مباشرة وبنفس الطريقة، نقوم بحقن ثان، وبدفعة أكبر، لكى نملأ الشرايين والعروق التى ترفد عنها، ثم بحقن ثالث بالنسبة للأوردة، وينبغى أن يمرر هذا الحقن عن طريق أحد أوردة الفخذ، ثم تترك الجثة لتبرد ولتتخثر مادة الحقن . ولكى تخلى الجمجمة يثبت بها تاج واسع بواسطة مثقب للعظام عند زاوية اتحاد الدرز (*) السهمى بالدرز القذالى (أى درز القفا)، بعد أن نكون قد صنعنا حزا طوليا بالجلد دون مساس بالشعر، الذى نعنى بالاحتفاظ به، شأنه فى ذلك شأن زغب وشعر بقية الجسم . وعندما تتم هذه الفتحة، نقوم بقطع التحامات وطوايا الأم الجافية (**) بواسطة مبضع طويل وضيق، ذى قاطعين ، وتنزع مزق هذا العرق بواسطة خطاف متثلم (غير حاد ولا قاطع) ، ثم نخرج كل كتلة المخ والمخيخ بنفس هذه الأداة . وعن طريق حقنات بالماء البارد، نذيب على وجه السرعة كل ما تبقى من المادة المخية، وبعد ذلك تضم حداف فتحة الأغشية مع بعض نقاط الدرز .

أما إذا كان الشخص (الحالة) سمينا فى كثير أو قليل، وإذا كان قد مات بمرض عفن أوخبيث، وخلال فصل حار، فقد يكون من المستحيل حماية الأحشاء

(*) الدرز هو خياطة حافتى الجرح، وهو كذلك خط الالتحام أو الانفصال . (المترجم) .

(**) الأم الجافية هى الغشاء المغلف للدماغ والحبل الشوكى . (المترجم) .

من التعفن . وفى هذه الحالة، نستخرجها بواسطة حز هلالى، يتم فى الجنب الأيمن عند المنطقة القطنية (الحقوية)، وتفصل أولا الأمعاء والمعدة والكبد والطحال والكليتان، ثم يقطع الحجاب الحاجز بشكل دائرى ، ثم المنصف (*) والقصبة الهوائية والبلعوم عند دخوله إلى الصدر، وبعد ذلك تنزع الرئتان والقلب دون إتلاف العضو الأخير، الذى ينبغى أن يجهز بشكل منفصل وأن يحفظ بعناية. ولا بد أن يجفف هذان التجويفان بالأسفنج، ثم نضع كمية معينة من موريات الزئبق المشبع بالأوكسجين المحولة إلى مسحوق، على المناطق اللحمية من جدرانهما، وبعد ذلك يملأ هذان التجويفان بالوبر المغسول والمجفف، ثم يعاد شكل البطن إلى حالته الطبيعية، وتثبت حافتا الحز عن طريق خياطة ذات نقاط حددت سلفا . وبعد إعداد الجسم على هذا النحو، يغمس فى كمية كافية من محلول موريات الزئبق المشبع بالأوكسجين على أقوى درجة من التركيز يمكن الحصول عليها . وتترك الجثة مغمورة داخل هذا السائل لمدة تسعين أو مائة يوم، وبعد أن تتشبع جيدا بهذا المحلول، توضع فوق غربال، وتتعرض لتأثير متزايد لفرن تصدر عنه حرارة ، ومقام فى مكان جاف ومعرض للهواء . وبمجرد أن تجف هذه الأجزاء تدريجيا، يثبت من جديد الشكل الطبيعى لملامح الوجه ، وكذلك الوضع الطبيعى للأطراف ، وتأخذ الهيئة المناسبة، وتثبت عينان من الميناء بين بؤبؤ العين التى سحبت إلى الداخل وبين الجفون، ويعطى للشعر صبغة تتناسب مع لونه الطبيعى إذا ما وجدنا ذلك ضروريا ، ثم نمر على كل الجسم ببرنيق (طلاء لامع) ، خفيف اللون ، كى يعطى حيوية لصبغة الجلد، وكى يحفظ له مظهرا من الطزاجة، وأخيرا يوضع الجسد داخل صندوق زجاجى ليعرض على الجمهور، أو يدفن داخل تابوت .

وهكذا نستطيع أن نخلد لآلاف السنين، أجساد الأبطال أو رجال الدولة العظماء .

(*) المنصف هو الحيز الذى يشتمل على القلب وكل ما فى الصدر عدا الرئتين (المترجم) .

الدراسة الثانية

مصر .. والحملة الفرنسية

مقـــــدمة تاريخيـــــة

بقلم المسيو فوريـــــه

تشغل مصر – بموقعها بين أفريقيا وأسيا، وباتصالها الميسور بأوربا – قلب العالم القديم، لكن هذه البلاد اليوم لاتقدم سوى ذكريات مجيدة، فهى وطن الفنون، وهى التى ما فتئت تحتفظ لهذه الفنون بصروح لا تحصى ، ولا تزال قائمة حتى اليوم أهم معابدها، وكذا القصور التى سكنها ملوكها، على الرغم من أن أحدث هذه الصروح قد شيد قبل حرب طروادة. ولقد ذهب إلى مصر كل من هوميروس وليكورج ، ودرس فيها سولون وفيثاغورث وأفلاطون العلوم والدين والقانون، وأسس الاسكندر هناك مدينة بالغة الثراء حظيت لوقت طويل بالسيطرة على عالم التجارة، وشاهدت بومبى وقيصر ومارك انطونيو وأغسطس يقررون فيما بينهم قدر روما وأقدار العالم بأسره. ومن خاصية هذه البلاد أنها تسترعى الانتباه بكل المبادئ الباهرة والمتألقة التى تنظم أقدار الأمم.

لم تنشأ فى الغرب أو فى آسيا أية قوة كبرى لم ترن ببصرها نحو مصر، أو لم تنظر إليها باعتبارها – على نحو ما – إقطاعية طبيعية بالنسبة لها، كما أن كل الأحداث الكبرى التى كان لها تأثيرها على تقاليد وتجارة وسياسة الامبراطوريات قد صحبت معها الحروب إلى ضفاف النيل، ويمكننا أن نلاحظ أن الفرس والمقدونيين والرومان والعرب والعثمانيين قد استقروا بمصر بمجرد أن تفوقوا على الشعوب التى كانت معاصرة لهم.

وفيما مضى، أوصى الدين إلى ملوكنا بالرغبة فى الاستيلاء على مصر. وقد بذل العديد من الأمراء الصليبيين، وكذلك البابا انوسان الثالث Innocent (*) وهو

(*) تولى البابوية من ١١٩٨ إلى ١٢١٦، وقد خاض صراعا ضد فيليب اغسطس ، واتخذ المبادرة فى قيام الحرب الصليبية الرابعة ، كما حارب مذهب الـ Cotharés الذى انتشر فى جنوب فرنسا حتى قضى عليه عام ١٢٠٩. (المترجم) .

الرجل الذى حكمت مواهبه كل أوربا، كل جهودهم لتحقيق هذا المشروع. وقد جدد هذا المشروع واحد من الوزراء الذين يعرفون أكثر من غيرهم المصالح المختلفة للدول المسيحية، هو الكاردينال هيمنيس Himenès (*)، وتحالف لهذا الغرض مع كل من فرديناند الكاثوليكي، وايمانويل، وهنرى السابع، وهم الذين تميزت جهودهم بالحكمة وذيوع الصيت. أما ليبنتز Leibnitz الشهير، والذى لم يخلق إلا من أجل المهام الكبرى فقد شغله هذا المشروع لزمان طويل، وقد وجه إلى لويس الرابع عشر مؤلفا ضافيا، ظل مخطوطا، عرض فيه المكاسب التى تتحقق من وراء هذا الغزو (**).

وقد كتب بوسويه Boussuet فى نفس الفترة عن التاريخ الطبيعى، وبعد أن أعاد إلى الأذهان عظمة مصر، وروعة الأنظمة والمؤسسات التى نشأت بها، أضاف هذه العبارة اللافتة للنظر: «والآن، حيث يقتحم اسم الملك أشد مناطق العالم غموضا، وحيث يبسط هذا الحاكم إلى نفس المدى البعيد تلك الأبحاث التى أمر بإجرائها عن المؤلفات الرائعة التى تدور حول طبيعة الفن، ألن يكون أمرا جديرا بهذا الفضول النبيل أن نكتشف ضروب الجمال التى يضمها الصعيد فى صحراواته، وأن نثرى فن العمارة عندنا بما سبق أن أنجزته فى هذا المضمار مصر؟». ولقد تحققت أمنية هذا الرجل اللامع خلال فترة من حرب خالدة، أصبحت مصر على الفور مسرحا لها.

(*) كاردينال أسبانى ولد عام ١٤٣٦ ومات ١٥١٧، وكان رجل دولة كبير، لكنه أسال الكثير من الدماء. (المترجم).

(**) هكذا يفصح السيد المؤلف عن روحه ونواياه منذ البداية، ولابد أن نضع هذا فى اعتبارنا على الدوام ونحن نقرأ باهتمام هذه المقدمة بوصف مصر. فما يقوله الآن يفسر الكثير من آرائه الغريبة، ويبرر الكثير من التناقضات الصارخة التى وقع فيها وبخاصة عندما يتحدث عن العرب والإسلام، و التى تبلغ أحيانا حد الاستهانة بالعقول، ولدرجة تثير من السخرية والإشفاق أكثر مما تثير من جدل جاد لا تستحقه فى الواقع، فى الوقت الذى تظل فيه تفسر لنا الكثير من النوايا، مما لايزال موجودا ربما حتى اليوم. (المترجم).

إن الناس – ولابد– يتذكرون ذلك الانطباع الذى أحدثه فى أوربا هذا الخبر المدهش عن قيام حملة فرنسية تتجه إلى الشرق، فلقد أُعِدّ هذا المشروع الذى أنعم فيه الفرنسيون النظر طويلا وفى صمت، بكثير من العناية والسرية ، حتى أن يقظة أعدائنا التى لاتغفو قد خدعت، لقد عرف هؤلاء فى وقت واحد تقريبا أنه قد ووفق على هذا المشروع، وأنه قد أعد ونفذ. ولقد بررته ضرورة تأمين تجارتنا من المظالم التى لم يكن يكف البكوات (المماليك) عن ممارستها ضدها، ولقد خامرنا الأمل فى تصالح يتم مع البلاط العثمانى ، عندما نقدم له – نتيجة لحملتنا هذه نفسها – زيادة فى الدخل وتعاظما فى النفوذ . ومهما تكن الصعوبات التى بدت فى هذه المفاوضات، فقد كان من الممكن أن نأمل فى مخرج سار ، مادام نجاحنا هناك كان مواتيا للغاية للصالح المشترك للدولتين الحليفتين (تركيا وفرنسا) . وفى الواقع فإن معاونة قوة أوربية (فرنسا) عندما تستقر فى مصر، كانت تعاونا على تغيير الحالة فى مصر بطريقة شبه فجائية (*).

إن هذه البلاد التى نقلت معارفها إلى كثير من الأمم، هى اليوم غارقة فى الهمجية، وبقدر ما تنال هذه البلاد اهتمامنا المتزايد – بفضل موقعها الجغرافى، وبفضل خصوبة أرضها البالغة – بقدر ماتكون ماسّة بالنسبة لها المكاسب التى تحققها لها القوانين والفنون . وحين كانت تذود عنها فيما مضى قوى عسكرية عديدة، تتكون من محاربيها الخاصين بها، كانت مصر منيعة مهيبة من الأمم المجاورة، لكنها فقدت منذ زمان طويل – مع فقدها لأنظمتها ومؤسساتها – استقلالها ومعارفها، بل إنها لم تعد بقادرة على أن تذكر بعظمتها الأولى. ولقد ظلت على الدوام منذ هذه الفترة خاضعة لقوة أجنبية، وأخذت كل الثورات التى هزت أوربا وآسيا تزودها بسادة جدد، وتنتقل بشعبها إلى أقصى درجات المذلة والشقاء.

(*) يقصد أن فرنسا لو أنها كانت قد استقرت فى مصر لعاونت على دعم سلطة الباب العالى هناك ، لأنها كانت ستحطم نفوذ المماليك وتضع حدا لخروجهم على السلطان . (المترجم) .

كانت مصر، فى عهد ملوكها الأول، تطيع وتستجيب لمبادئ وأخلاقيات ثابتة لا تحول، وكان ثمة حكومة مثابرة تسهر على رعاية القوانين والعادات والتقاليد، كان كل شئ يوحى بالحرص على المستقبل ويدعو إلى الشروع فى أعمال يكتب لها الخلود، وهذه هى اليوم تئن تحت أشد السلطات استبدادا فى العالم، بل وأكثر القوى الموجودة على ظهر الأرض انعداما للبصيرة، كما لو كان قد قدر على هذه البلاد أن تمر بأشد الأحوال التى عرفها المجتمع الإنسانى تناقضا، لقد نقلت الحضارة إلى كولشيد القديمة(*) إذا لم يكن تاريخ العصور القديمة يخدعنا، لكن نفس هذه المنطقة تبعث إليها اليوم بحكام بشعين نسوا عائلاتهم وأوطانهم، ويلفظون ذرياتهم، ويعيشون وسط عبيد (مماليك) جاحدين متمردين لايمكن لهم احتواؤهم، وحيث إنهم عارون عن الحيطة وعن نور المعرفة، فلن يقدر لهم مطلقا أن يعرفوا كيف يثبتون سلطتهم وكيف يسارعون إلى التمتع بها، فهم يقمعون كل صناعة، ويهملون أويخربون الترع والمنشآت العامة، وها هى الرمال تغزو الأراضى الصالحة للزراعة، كما أن القرى تعيش تحت وطأة تهديد عصابات السلب القادمة من الصحراوات. لقد حكم على الإنسان فى ريف مصر أن يقوم بعمل جاحد لا يمكن أن يجنى منه- هو - ثماره، كما أن الإنسان فى كل مكان من أرض مصر، إنما هو فريسة للظلم والمهانة والمجاعة والأمراض المعدية.

وقد يكون من المستطاع إصلاح حال الشعب، لو أن سلطة حكامه أصبحت ثابتة ووراثية، لكن السياسة العثمانية تتفادى مثل هذا الإصلاح، إذ هى تثير فى هؤلاء الأجانب عداوات وخصومات تضعف من قدرتهم هم، وتجعلهم شتى متفرقين، لا يحوزون الوسائل التى تجعلهم يلحون فى الحصول على استقلال تام: كما أنها فى نفس الوقت تقف ضد القوة العسكرية الطموح، التى للباشوات. ووسط هذه القلاقل تظل غائبة على الدوام سلطة الحاكم (السلطان)، أو أنها لا

(*) مدينة تقع إلى جنوب القوقاز، ذهب إليها أبطال أرجوس للحصول على جزات من الذهب. (المترجم).

تثبت وجودها إلا فى شق صفوف مغتصبى حكم مصر، فلا هى قادرة على تأمين إرسال الضرائب، ولا على حماية الشعوب، ولا على ضمان تنفيذ المعاهدات التى تبرمها مع القوى المتحالفة معها . وهذه الظروف الأخيرة بوجه خاص هى التى جعلت هذه الحملة الخالدة من قبل الفرنسيين أمرا لابد منه، ومع ذلك، فإن ذلك الذى قاد هذه الحملة لم يقصر أغراضه فقط على عقاب الذين أعاقوا تجارتنا، بل إنه أعطى لمشروع هذا الغزو سموا وعظمة جديدتين، كما طبعه بطابع عبقريته الخاصة. لقد قدر منذ البداية ما سيكون لهذا الحدث بالضرورة من سطوة على علاقات أوربا مع الشرق ومع أواسط أفريقيا، وعلى الملاحة فى البحر المتوسط ، بل وكذلك على أقدار آسيا . ولقد اتخذت الحملة لنفسها هدفا، هو تأديب المماليك والحد من طغيانهم، والتوسع فى مشروعات الرى والزراعة، وأن تحقق اتصالا دائما بين البحر الأبيض والخليج العربى (البحر الأحمر)، وأن تقيم مؤسسات تجارية وأن تقدم إلى الشرق المثال النافع الذى للصناعة الأوربية، وأخيرا أن تجعل ظروف وحياة السكان أحسن حالا، وأن تمدهم بكل المزايا التى أنتجتها حضارة متطورة .

ولم يكن من المستطاع بلوغ هذه الغاية دون تطبيق مستمر ودائم للعلوم والفنون. وقرر قائد هذه الحملة الفرنسية – سعيا وراء تحقيق ذلك – أن ينشئ فى مصر مؤسسة تسعى إلى نهوض وتقدم كل المعارف النافعة، وحدد – وهو لايزال بعد فى عاصمة فرنسا – كل أولئك الذين ينبغى عليهم الإسهام فى تحقيق أغراضه، ودعم – عن طريق ما أبداه من أمارات الرعاية والترحيب – هذا الحلف غير المعتاد بين الأسلحة وبين العلم . وقد عهد بإنشاء هذه المؤسسة الجديدة إلى عضوين شهيرين(*) من الأكاديمية السابقة للعلوم، وكانا منذ وقت طويل قد شرفا وخدما وطنهما باكتشافاتهما المدوية، كما كانت أعمالهما وعبقريتهما قد ساهمت فى إعطاء الأمة الفرنسية تفوقا مجيدا فى علوم الهندسة والطبيعيات.

(*) يشير المؤلف إلى العالمين : مونج وبرتوليه. (المترجم) .

ولقد أخذت أكاديمية القاهرة (أى المجمع العلمى) على عاتقها - مثلها مثل أكاديميات أوربا - أن تستزرع العلوم والفنون وأن تطورها وأن تبحث فى كل تطبيقاتها النافعة، وكان عليها بصفة أساسية أن تسعى للتعرف على احتياجات ومصالح مصر وكذا الوسائل الكفيلة بالحصول عليها، لذلك فقد كان من الضرورى بالنسبة لها أن تتفحص بكثير من العناية تلك البلاد التى ستصبح خاضعة لإدارة جديدة: تلك كانت الدوافع التى حملت على القيام بالأبحاث التى ننشر اليوم نتائجها.

ومع ذلك فقد كان الحرص على الفنون الجميلة والأدب يقتضى منا كذلك وصفا مخلصا وتاما للصروح التى تزدان بها، منذ قرون، ضفاف وادى النيل، تلك التى تجعل من هذه البلاد أغنى متاحف الدنيا . ولقد قام علماؤنا بأخذ مقاسات كل أجزاء هذه المنشآت بدقة صارمة، وألحقوا بالتصميمات المعمارية خرائط للأماكن التى كانت تقوم عليها المدن القديمة، كما قدموا فى رسوم خاصة النقوش الدينية والفلكية والتاريخية التى تزين جدران هذه الصروح، وبالإضافة إلى الدراسات والرسوم التى من شأنها أن تعرفنا بالحالة القديمة لمصر، فلقد جُمع أولئك الذين كان عليهم أن يقدموا لوحة عن حالتها الراهنة ، وأنشئ عدد كبير من الخرائط الجغرافية التى تحدد - بطريقة دقيقة ومفصلة - مواقع السواحل والموانى، ومواقع المدن الحالية والمدن القديمة والقرى والكفور، وكذلك مواقع النقاط الهامة الأخرى، ومجرى النيل ابتداء من شلال أسوان حتى البحر المتوسط، وقد تأسس هذا العمل على ملاحظات فلكية . وأخيرا فقد أكب العلماء على فحص كل المنتجات الطبيعية أو على الأقل، على فحص الظواهر بالغة الأهمية ، أو غير المعروفة لنا من الحيوان والنبات والمعادن.

وقد ضمت نتائج هذه الأبحاث المختلفة حول التاريخ الطبيعى وجغرافية مصر، وحول عصورها القديمة ، وحالتها الراهنة، فى مؤلف واحد، إذن فلقد كان الهدف من هذه الموسوعة - التى سيعمل سخاء حكومة فرنسا على إمتاع أوربا بها - هو

أن تقدم معرفة دقيقة ومتعمقة عن مصر، فتضع بذلك العناصر الحقيقية التى تنهض عليها دراسة طبيعية وأدبية وسياسية لواحدة من أهم مناطق المعمورة وأكثرها جذبا للانتباه.

لقد تمتعت مصر - خلال سلسلة طويلة من القرون - بحكومات قوية ومتنورة، وكانت كل القوانين والعادات العامة والتقاليد الأسرية والأخلاقية تسهم كلها فى نفس الغاية، إذ إنها تأسست على معرفة بتقاليد الإنسان، وعلى مبادئ راسخة للنظام والعدالة، نقشت فى كل القلوب.

أما الدين، الذى كان متوحدا مع دراسة الظواهر الطبيعية، فقد كان عقليا وطبيعيا فى وقت معا، وفى حين كان يكشف لبعض العقول الحكيمة عن المبادئ المجردة للأخلاق، فقد كان يقدم هذه المبادئ إلى الجميع فى أشكالها المحسوسة، لقد كان ينظم الأحداث والأفكار، ويحتوى الناس فى حزم، ويعير المؤسسات المدنية دعما من سلطة مستقرة.

كانت الحكومة ملكية، وتنهض على قوانين عريقة ومقدسة، ولقد حول القوم الأمثلة التى تقدمها المبادئ بالغة الحكمة إلى عادات لا سبيل إلى تغييرها.

وكان المصريون يقدسون بصفة خاصة فضيلة العرفان باعتبارها منبع كل الفضائل العامة والخاصة، وباعتبارها كذلك أكثر الميول الطبيعية عدالة ونفعا، وكانوا يجاهدون فى تخليد ذكرى أجدادهم عن طريق إقامة صروح رائعة تقاوم الفناء، أما الروح الأسرية فقد مضت إلى أبعد حد، ويمكن القول بأنها قد جعلت من كل الأجيال أجيالا معاصرة. وكانت تتقى مخاطر البطالة والفراغ عن طريق إقامة الاحتفالات والأعياد، وكذلك عن طريق القيام بأعمال ضخام تستهدف الصالح العام. وكانت الزراعة مزدهرة، كما كانت الفنون المتطورة تحبذ جهود الصناعة، وكان العدد الأكبر من الناس يراعون - بدافع دينى - مبادئ الصحة العامة، التى اهتدوا إليها بفعل خبرة طويلة.

أما عبقرية الفنون الجميلة فقد خطت خطوات أوسع من ذلك بكثير، لكنها كانت تخضع لقواعد ثابتة، وكان للعمارة طابعها الوقور والمتسامى، كما كان الشعر والتاريخ والموسيقى والنحت والفلك، يطبع الخوفَ من الآلهة فى النفوس، ويوحى بالورع والإعجاب. وكان يحتفظ داخل المعابد بتماثيل الملوك وكبار القوم ، كما كان يحتفظ هناك بالحوليات العامة واستقراءات السماء، وكان ينقش فوق هذه المنشآت المشهد المتتابع لدورات النجوم. ولازالت هذه النقوش باقية حتى اليوم، وسوف تستخدم - هذه - عند دراسة تاريخ مصر فى الاستدلال على الفترات التى لازالت مجهولة حتى اليوم، من هذا التاريخ.

وكان يسكن آسيا - فى نفس ذلك الوقت - أمم قوية ، مضت أمجادها القديمة إلى زوايا النسيان، وكان العقل البشرى قد ارتقى لحد توصل معه إلى الاعتقاد فى وحدانية الله ، وإلى مبادئ الأخلاق السامية، وكان يراقب سماء الكلدانيين رهبان تكونوا فى مدرسة المصريين، وكانت الحقائق الأساسية للهندسة والفلك قد اكتشفت، وأوشك الناس أن يعرفوا النظام الحقيقى للكون، كما كانوا قد أقاموا خرائط جغرافية، وتعهدوا قياس حجم الكوكب، كما كانت المدن الموسرة تزدان بما أنتجته عبقرية الفنون الطبيعية التى كانت تتخذ من المعادن والألوان وكل المواد الطبيعية خامات لها . وكانت هناك علاقات بين مختلف شعوب الشرق، وبخاصة بين شعوب الهند وفارس ومصر، وكان موضوع هذه العلاقات هو الدين، والعلوم، والحكومة، والتجارة.

وفى ذلك الوقت كانت تنقص أوربا - وهى اليوم بالغة الرقى - القوانين والتقاليدالراسخة، وعندما كانت أضواء الفنون قد بدأت تنتشر فى الغرب كانت المدن الأترورية(*) قد تأسست، وقدمت المستعمرات المصرية والفينيقية إلى الإغريق فكرة مؤسسات وأنظمة جديدة ، وحصلت العمارة والنحت على مبادئهما وأنماطهما

(*) نسبة إلى أتروريا التى كانت تقع قديما غرب ايطاليا. (المترجم)

من طيبة وممفيس ، ثم قامت بعد ذلك بقفزات تثير الإعجاب . وتشكل الدين من مبادئ غامضة ومختلطة فى نفس الوقت بالثيولوجيا المصرية، وبعد أن قام خيال المؤرخين والشعراء بتجميل هذه الألغاز المقدسة، لم يعد بمقدور المرء أن يكتشف فيها معنى واحدا يعز على الفهم. وفى اليونان احتفى الشعر - معلم البشرية الأول - بالفضائل والأبطال والآلهة ، وجلبت عبقرية هوميروس الشهرة إلى ايونيا، فبرقت بوميض خالد، وأصبحت معلما للحكام والشعوب.

لقد جاء الوقت الذى لم يعد ينبغى على مصر فيه أن تقاوم الأمم المنافسة التى تزايدت قوتها سريعا، وبدأت مصر تقاسى من ولوج العادات الأجنبية إليها، كما بدأت تعدل عن المبادئ الأساسية السائدة فى المملكة . فمنذ وقت طويل وأخطار الخرافة تحيط بالدين وبالعلوم، وأصبح الفرس - وهم أكثر عددا وأكثر مهارة فى فن الحرب، والذين تمرسوا بثورات عسكرية كبيرة - سادة لهذه البلاد قبل العصر المسيحى بنحو ستة قرون، ونهبت المدن الرئيسية، وتركت نهبا للنيران، وسقطت أسر الملوك فى السبى، وخربت أو بعثرت الحوليات وصروح الأدب، وعبثا يحاول المصريون أن يتخلصوا من سيطرة بشعة، لكن مجهوداتهم الطويلة هذه قد زادتهم شقاء على شقاء.

وفى نفس هذا الوقت، كانت روما تبذر بذور عظمتها، وتتهيأ للسيطرة على العالم، كانت قد استعارت دينها وتقاليدها من الاتروريين والإغريق ، وقد دافع الأخيرون دفاعا مجيدا عن استقلالهم ضد جيوش لا تعد ولاتحصى، وكانت لهم عندئذ صلات عديدة مع مصر، وزار العديد من فلاسفتهم هذه البلاد، وإن لم يغترفوا منها إلا تعليما منقوصا، لأن الدين والقوانين والعلوم قد خربت ربما بشكل تام.

ومنذ هذا الغزو الأخير، ظلت مصر تعانى على الدوام من السيطرة الأجنبية، فدانت على التوالى لملوك الفرس، والبطالمة، وللخلفاء الأول لأغسطس، ثم لأباطرة

بيزنطة، وللخلفاء (المسلمين) الأول ، ثم لخلفاء القاهرة ، ولسلاطين المماليك ، وللسلاطين العثمانيين. وهكذا نجد تاريخ مصر، بدءا من الفرس حتى الحملة الفرنسية ينقسم إلى ثمانى فترات، طول كل واحدة منها يبلغ نحو ثلاثة قرون.

وبعد أن استطاعت اليونان الحرة أن تصد محاولات الفرس، قاد الاسكندر بعض محاربيه لفتح آسيا، وتعهد الاسكندر - وهو الذى لم تكن مواهبه السياسية أقل شهرة من نجاحاته العسكرية - أن يقدم امتيازات للأمم البعيدة (فى امبراطوريته المترامية) ، وأن يؤسس مدنا حتى أقاصى العالم. ويمكننا القول بأنه قد اكتشف المحيط الهندى، وأدرك ما للملاحة والتجارة من أهمية، كما اختار الأسكندرية لتكون مركزا للاتصالات التى أراد لها أن تقوم بين الشعوب.

وبعد موت هذا الرجل العظيم، ظلت مصر خاضعة للمقدونيين، وظلت موانيها تستقبل أثمن منتجات الجزيرة العربية والهند ، كما امتدت بعلاقتها إلى أعماق أفريقيا، وأمنت - عن طريق تجارة بالغة الاتساع - ثراء باذخا لملوكها، وجاءت المتاحف اليونانية لتزين العاصمة الجديدة، وظهرت الفنون من جديد فى وطنها القديم، وإن كانت تعد على نحو ما علما جديدا، ذلك أنه لم يعد باقيا من المذهب المصرى (فى الفن) إلا ذكرى باهتة، ومع ذلك فقد بقيت الحفلات والأضحيات، كما ظل استخدام اللغة ساريا، وإن كان استخداما ناقصا. لكن الجهل والخرافات المنفرة كانت قد حطت من ذوق الفلسفة المصرية، وبالكاد يعثر المرء منها على بعض آثار منسية فى سراديب المعابد، لقد انقطعت إلى الأبد سلسلة العلوم والتاريخ.

ولم يكن بمقدور مصر أن تفلت من المرامى الطموح لروما، وهكذا عانى آخر سلالة البطالمة من نفس القدر المشترك الذى كتب على كثير من الملوك ، ولقد أديرت هذه البلاد بحكمة ، وقفزت إلى الأمام قفزات موفقة كل من الزراعة والملاحة والصناعة. كان كل شئ يساهم فى دعم مكانة هذا الإقليم الجديد (من أقاليم

الإمبراطورية الرومانية) ، خصوبة أرضها، وتجارة الهند ، وبقايا الازدهار القديم، والعلاقات مع الجزيرة العربية والحبشة، وظل الناس ينظرون إلى الأسكندرية لوقت طويل باعتبارها العاصمة الثانية للإمبراطورية.

ومن بين كل فنون الإغريق، كانت العمارة هي أكثر الفنون ملاءمة لسادة العالم (الجدد)، ولقد استثمرها الرومان في الأغراض المتصلة بالصالح العام، وكذلك لتخليد ذكرى انتصاراتهم، ولكي يضاعفوا في أنظار الأمم من الشهادات (المحسوسة) الدائمة التي تذكر بالقوة التي أخضعتهم. أما المسرح المصري فقد سما بأفكارهم، وحملهم على أن يتعهدوا منشآت أكثر رحابة، وحين استوحوا هذه الطرز القديمة، فقد حرصوا على أن يجمعوا إلى نبل التصميمات ورحابتها، تلك الرقة التي كانت تميز الأعمال الإغريقية .

وكان لإلغاء الوثنية أثره الهائل في مصر، فحرمت الأضحيات، وهجرت المعابد أو حطمت، وأوشك أن يمحو خليط الروحانيات والأساطير الوافدة ذكرى المبدأ المقدس ، فلم تبق منه سوى ظلال باهتة ، جاهدت سلطة الأباطرة في محوها مع كل عناصر الديانة القديمة. ومنذ أصبح هذا البلد إقليما رومانيا، أخذ يفقد عددا هائلا من المنشآت المنحوتة، فنقلت إلى أوربا تماثيل وأحجار منقوشة، ومسلات ثمينة نحتت من حجر واحد كانت تنتسب إلى مدن طيبة وممفيس والأسكندرية، وارتفعت في ميادين روما والقسطنطينية مسلات كان الفراعنة فيما مضى قد أقاموها تمجيدا لآلهتهم . وأعمال كهذه فريدة وغير قابلة للتقليد، لجديرة حقا بأن تزين عواصم العالم.

ثم انتقلت مصر، التي لم يعرف الأباطرة الروم لا أن يسوسوها ولا أن

(*) استخدمت كلمة رومي ورومية ترجمة لكلمة Romain, Romaine عندما يتناول السياق الإمبراطورية الرومانية الشرقية، ترجمة لنفس الكلمة روماني ورومانية عندما يتناول السياق الإمبراطورية الرومانية بشكلها القديم . (المترجم) .

يدافعوا عنها، إلى سيطرة المسلمين. قبل ذلك كانت السلطة الرومية (*) قد أخذت تلفظ أنفاسها فى كل مكان، وهكذا كانت قد تهيأت بالفعل تلك الأسباب التى عجلت بالضرورة بانتهاء هذه الإمبراطورية، وهكذا أمكن لبعض من القبائل العربية نصف المتحضرة أن تستولى على أجمل أقاليم الشرق .

ومع ذلك فإن الانتصارات السريعة للمسلمين الأوّل لا ينبغى لها أن تقارن مطلقا بالحملات العسكرية والسياسية لروما، كما أنها تختلف عن الغزوات المتبادلة بين الأمم الشمالية. إن الرومان لم ينتصروا فقط بفعل قوة السلاح، إذ هم يدينون بجزء كبير من نجاحاتهم لمبادئ فى الحكم كانوا يتبعونها بثبات جدير بالإعجاب، إنهم لم يكتفوا بإخضاع الشعوب، فقد يمنحونهم الإدارة العامة، كما كانوا يجعلون هذه الشعوب – على نحو ما – تنسى أصولها بفعل التغيير المتتابع للدين والعادات واللغة والقوانين . أما البرابرة الذين دمروا أوربا، تاركين أوطانهم الثلجية سعيا وراء أجواء أكثر لطفا، ومدن ثرية زاهرة، فقد تعاقبوا دون نظام، وبدون غرض آخر سوى سلب المغلوبين، وحيث لم يكن لدى هؤلاء على الإطلاق مؤسسات راسخة، فإنهم لم يحتفظوا إلا ببعض عاداتهم وأنماط سلوكهم، وانتهى بهم الأمر أن تمثلوا الثقافة والتقاليد والفنون التى وجدوها مستقرة فى مناطق إقامتهم الجديدة . وعلى العكس من ذلك كانت للعرب عادات وأفكار أكثر رسوخا، وكانت معهم رواسب مشوشة مختلطة وخرافية من ديانات الشرق القديمة، وحيث إنهم كانوا على اقتناع تام بأن ما يعرفونه هو الصحيح والنافع، فقد لفظوا فى البداية عادات وفنون الشعوب المغلوبة . ولم تكن لدى محمد لا النية فى تأسيس امبراطورية ، ولا المرامى السياسية التى نسبها إليه كتاب كثيرون (*) ، ولأنه لم يحدس مطلقا تلك الانتصارات الهائلة التى سيحوزها خلفاؤه فإنه لم يترك لهم أى شكل أو أى مذهب للحكم (كذا!) ، وكان شاغله فى كل جهاده أن تتصدر قبيلته(!)

(*) بدءا من هنا نجد الكاتب يعبر بوضوح عن أفكار لا تستحق النقاش مطلقا، فهى ليست سوى أصداء للروح التى تقف وراءها ، والتى بدرت منه فى بداية مقاله ، والتى لفتنا إليها النظر فى حينها. (المترجم).

وأن يعلى من شأنها فوق شأن القبائل المنافسة لها (!!)، وحين أكسبته نجاحاته الأولى شجاعة ، فقد بدأ يثرى رجاله بسلب القرى المجاورة. لم تكن له مطلقا معرفة الأمم المتحضرة، وكان ينظر إليها باعتبارها أمما من المشركين أو الملحدين ، ولقد ربط بين مواطنيه عن طريق تذكيرهم بمعتقدات كانت مقدسة فيما مضى، ثم مضى من الحماسة إلى الغواية (*) ، ومع ذلك فقد استخدم كتابه (القرآن!) ، وهو يضم عددا من المبادئ النافعة ، وعددا أكبر بكثير من أفكار تستعصى على الفهم (كذا!) وعارية من أى معنى (!!) وتفتقد إلى الترابط فيما بينها (!) ، استخدمه قاعدة يتجمع حولها أتباعه ، ومنحهم بذلك اسما ، وهدفا وصالحا مشتركا .

وحيث لم تعد تدعم السلطة الرومانية لا بأس القوة ولا حكمة المستشارين ولا فضائل الجنود ولا ثبات العادات أو ثبات السياسة والدين، فقد كان من الميسور أن تغزو كل أقاليمها عشائر شبه متوحشة، أبيدت منذ قرون عديدة عند حدود الامبراطورية . وجاء العرب الذين يمكن أن نطلق عليهم اسم Les Scythes(**) القادمين من الجنوب ، جاءوا للإسهام فى اقتسام هذه الغنيمة الواسعة، ولقد فعل هؤلاء الرجال الجهلاء، وإن كانوا مقاتلين أولى بأس، ومتمرسين على مواجهة الصعاب، والذين هم كذلك فقراء نهمون للسلب، فعلوا ما كان يمكن أن يفعله الجرمان لو كانوا فى نفس موضعهم ، بل وربما على نحو أسرع من ذلك(***).

(*) هذه ترجمة مخففة للفظ المستعمل، ولم نجد من اللائق تقديم الترجمة الصحيحة للفظ ، وواضح للقارئ مدى جهل الكاتب بالإسلام ومدى تحامله كذلك أيضا عن غير معرفة عميقة أو حتى كافية . (المترجم).

(**) من الشعوب البربرية القديمة ، وكانوا فى معظمهم رعاة قدموا من شمال أوربا وآسيا . (المترجم).

(***) يشير المؤلف هنا إلى ثلاثة من الشعوب الجرمانية هى على الترتيب : الغوط Goths ، وقد احتل فريق منهم جنوب شرق أوربا أما الجزء الذى بقى منهم فى غرب أوربا فقد غزوا الإمبراطورية الرومانية عام ٤١٠، ثم الـ Gépides وكانوا مستقرين فى دلماشيا حيث استأصلهم اللومبارديون فى القرن السادس، ثم اللومبارديون Lombards ، وكانوا يقيمون فيما بين الألب ونهر الأودر، ثم غزوا ايطاليا فى القرن السادس وأسسوا فيها دولة قوية انتصر آخر ملوكها Didier على شرلمان عام ١٧٧٤. (المترجم).

ولم يكن أقل من ذلك سهولة على هؤلاء العرب، أن يتوغلوا فى بلدان آسيا الأخرى، ذلك أن الفرس – الذين زعزعتهم انشقاقاتهم الخاصة، وحروبهم الخارجية – لم يعد بمقدورهم أن يدافعوا عن أنفسهم ضد أشد أعدائهم ضعفا (*) . ومع ذلك فإن هذا الكتاب المقدس نفسه (القرآن)، على مر الزمن، هو الذى سيحد من ازدهار عبقريتهم(!) ، فى حين كان هو السبب الأول فى اتحادهم ومن ثم نجاحهم. ولو أن كان لدى العرب – مثلما كان لشعوب أوربا – تلك الميزة التى لاتقدر بثمن، ميزة الحصول على ديانة محبذة للفنون وللمعارف النافعة(كذا!) لكانوا قد أثروا وطوروا كل فروع الفلسفة . فلقد ظهروا فى البداية حاذقين مهذبين، وقفزوا قفزات واسعة فى مجالات الشعر والعمارة والطب والهندسة والطبيعيات والفلك، ولقد حفظوا ونقلوا إلينا عددا كبيرا من المؤلفات الخالدة ، كان من شأنها أن تجلب أضواء المعرفة إلى أوربا، لكن الديانة الإسلامية لا تهيئ مطلقا مثل هذا التطور الروحى والعقلى(!!) . وهكذا أصبح محتما على العرب إما أن ينكصوا عن ديانتهم ، وإما أن يعودوا إلى جهالة أجدادهم (كذا وبكل وضوح !) ، فهم يجهلون بشكل خاص فن الحكم، وكل مايستخدم فى تأسيس ودعم الامبراطوريات، فحتى البربر الذين اتحدوا معهم وعانوا من سوء استخدامهم للسلطة لم يستطيعوا بعد اعتناقهم الإسلام إلا أن يزدروا هم أيضا الفنون والعلوم والصناعة وكل اختراعات الغرب(!) .

لقد قدمت مصر المسيحية نفسها بنفسها ، بعد أن كانت قد مزقتها الانشقاقات الدينية لوقت طويل، لتدخل تحت سطوة الخلفاء الأول، واقتسمت بذلك نفس المصير الذى جرى على كل الولايات الإسلامية . هكذا تخلص الأقباط من

(*) سوف يظل المؤلف يقدم من المغالطات التاريخية ما يستخف حقا بالعقول، فالنصر الذى أحرزه العرب، ثم المسلمون بعد ذلك أيام الحروب الصليبية، يعود إلى سلبيات فى صفوف الخصم وليس إلى إيجابيات فيهم، ولكن حتى هذه الفكرة المغلوطة نفسها لاتلبث أن تقع فى تناقضات من صنع المؤلف . (المترجم) .

الروم حين استدعوا الغازي، لكنهم سقطوا بعد ذلك في الهوان والإذلال، وتناقصت أعدادهم إلى حد كبير. ولقد حدث في بداية هذا التطور أن دمرت حماسة المسلمين القدر الضئيل من الثروات الأدبية الذي كان لايزال باقيا بالأسكندرية، فالكتب التي كان البطالمة قد جمعوها في هذه المدينة أوجلبوها من كتب ملوك برجام Bergame(*) كانت قد هلكت في الجزء الأكبر منها أثناء حملات قيصر وخلفائه، كما أن ضروب العنف من كل صنف والتي كانت تتجدد طيلة ستة قرون، وسط حروب مستمرة أو اضطرابات يفضي إليها الجدل الثيوقراطي، كان كل ذلك قد أتى على مستودعات معارف العصور القديمة، ومستودعات أخطائهاكذلك(**) .

ولقد استشعرت مصر أثر الأسباب التي تقسم امبراطورية العرب منذ نشأتها، فلم تتردد مطلقا في أن تصبح ولاية مستقلة. وأسس الخلفاء المسمون بالفاطميين عاصمة لهم في مدينة القاهرة ، التي كانوا قد بنوها وزينوها ببعض المنشآت العامة، لكن دولتهم قد دالت على يد صلاح الدين الشهير الذي كانت أعماله الباهرة بمثابة نذير لأوربا، والذي حكم مصر وسوريا لمدة طويلة. وقد تسبب هذا التطور في حدوث حركات تمرد وفي انتقامات، وتلته تغييرات هائلة في الممارسات الدينية وفي نظام الحكم، لكن قيام دولة المماليك وضع نهاية لهذه الأسرة الحاكمة (الأيوبيين) . فمنذ وقت طويل كان الخلفاء والحكام يعهدون بمهمة الدفاع عن دولهم ، وبمهمة حماية أشخاصهم إلى رجال وجنود أغراب، تنتمي أصولهم إلى غرب آسيا، ولقد أساء رؤساء هذه الفرق العسكرية - الذين دفعوا بلا روية لاحتلال المراكز العليا في الدولة، وتحت تعلات مختلفة - استخدام سلطة سادتهم، وأصبحوا (في النهاية) مستقلين . إن أحداثا من هذا النوع هي التي أصبحت أحد الملامح المميزة لتاريخ الشعوب الآسيوية، كما أن التمرد الذي أودى بحياة آخر

(*) مدينة في آسيا الصغرى ، وكانت بها مكتبة شهيرة . (المترجم) .

(**) بينا في الجزء الثالث من الترجمة العربية، في الدراسة الخاصة بمدينة الأسكندرية كيف أن الكثير من الأوربيين أنفسهم لايقرون فكرة حرق العرب لمكتبة الأسكندرية . (المترجم) .

خلفاء صلاح الدين كان له دويه فى أوربا . فقد كان الأمراء الصليبيون شهودا عليه، ومع ذلك فقد كانت هناك، فى مصر، أحداث مماثلة طيلة أربعة قرون خلت، وظلت هذه البلاد الجميلة، بعد انتهاء الأيوبيين، خاضعة لعبيد عسكريين، ولدوا فيما بين بحر قزوين والبحر الأسود . ويمكننا القول بأن حكومة الأمراء المماليك لم تكن لا وراثية ولا انتخابية، ففى بعض الأحيان، كان المنشأ يضع إنسانا ما فى مركز الصدارة ، ومع ذلك فقد كان قاتل الأمير هو فى معظم الأحيان خليفته . وكان هناك عدد من الثورات أو أحداث التمرد تعادل عدد العهود (التى تعاقبت على مصر) ، وكان هناك كثيرون يتصارعون على السلطة ، فى نفس الوقت ، ويدعونها لأنفسهم فى سوريا وفى القاهرة أو فى الصعيد . ولقد حكم بعض زعماء هذه الفوضى بتألق، وحين استولوا على سوريا أذلوا كبرياء المغول، ودفعوا الأوربيين، وحملوا أسلحتهم الظافرة إلى اليمن وجزيرة قبرص وأرمينيا، لكننا لا نلحظ فى كل هذه الأحداث سوى ملامح الجرأة ، والرغبة فى الثأر، والمخاتلة ، والجهالة ، والطموح المتوثب . ومع ذلك فليس باستطاعتنا أن ننكر أن الدين الإسلامى، إن لم يكن قدخفف من آلام وأحزان هذه الأيام، فقد ولّد فى نفوسهم الضعيفة بعض المشاعر الإنسانية ، وأوحى لكل من الحاكم والرعية بأعمال مشرفة.

ومن بين كل الأسباب التى عكرت صفو فلسطين ومصر، لا نجد سببا أكثر تأثيرا من حملات الأوربيين ضد هذه البلاد ، ومع ذلك فإن هذه الحملات ذائعة الصيت، والتى هزت طوال قرنين كل أمم الغرب، لم تحقق أيا من النتائج التى كانت هذه الأمم ترغب فيها، ولقد سببت الكثير من الاضطرابات التى استمرت لزمان طويل، وإن كانت فى نفس الوقت قد شحذت عبقرية التجارة، ووسعت آفاق الرؤية ، وضاعفت من عمليات الصناعة والملاحة، وأدت فى دول عديدة إلى سقوط النظم والحكومات الإقطاعية ، حين دعمت من سلطة الملك ومن الحريات المدنية، فى نفس الوقت الذى أعلت فيه من المكانة السياسية لروما إلى درجة لم تستطع أن تتوازن عندها.

ولقد حدث أن استولى مائة ألف فارس- دون جدوى- على دمياط، وعندما واصلوا زحفهم فى وقت غير موات ، حصرهم المسلمون بين ترع رافدة عن النيل، وحيث قد اضطروا للتسليم فقد تخلوا عن انتصارهم. وبعد ثلاثين عاما من ذلك ، أدت نفس الأخطاء إلى نفس النتائج مسببة آلاما أكبر، فلقد قاد لويس التاسع - شرف عصره، والذى مارس على رعاياه بل وعلى أعدائه، السلطة الطبيعية التى تمنحها الفضائل الكبرى - قاد ستين ألف مقاتل إلى ضفاف النيل. كان قد اجتاز البحر المتوسط مع ١٨٠٠ سفينة، وكان تحت إمرته صفوة أبناء فرنسا، وبعد أن استولى على دمياط بوقت طويل، بدأ يتوغل إلى أعماق الدلتا، فحاصره المماليك فى معسكره ، حيث انتشرت الأمراض المهلكة، وقطعوا اتصالاته مع السواحل، وعندما فقد الملك كل أمل أمر بالانسحاب، لكنه لم يستطع تنفيذه. وكان بقية الفرنسيين على وشك أن يهلكوا والسلاح فى أيديهم، حين أعلن أحد الأبطال وسط المذبح - إما من تلقاء نفسه، وإما لأنه قد تلقى أمرا بذلك - أنه لم يعد بالإمكان إنقاذ حياة الملك إلا بالاستسلام للأسر، ثم سقط فى الأسر الملك نفسه ، وهو الذى لم يشأ مطلقا أن يدع مؤخرة جيشه فريسة فى يد أعدائه، ويعرف الجميع بأية عظمة عسكرية شرف هذا الملك أسره(!) ، وبعد ذلك افتدى رجاله، وقدم دمياط فدية لنفسه ثم أبحر إلى عكا بفلسطين .

فى هذه الأوقات كانت الأمم الأوربية تتساوى بالكاد مع الأمم الآسيوية، ولم تكن قد اكتسبت بعد مطلقا هذا التفوق فى القوة الذى يميزها اليوم، والذى نتج عن تقدم كل الفنون، أما عادات وسلوكيات الحرب فكادت تكون هى نفسها، وهى هنا وهناك غير تامة، وهكذا كانت الشعوب التى وهبتها الطبيعة شجاعة تعز على الإخضاع، والتى كانت تتمتع بميزة الحياة فى ظل نظام أفضل، قادرة بالضرورة أن تزود عن نفسها بنجاح فوق أرضها هى (!) ، ولذلك أبادوا جيوشا لاحصر لها، وإن كانت مضطربة، كان الغرب يجددها بلا انقطاع على الرغم من فقده ملايين عديدة من أبنائه. لكن الأحوال الخاصة بالأمم قد تغيرت منذ القرن السادس عشر،

فطور البعض منها نظام الحكم المدنى، والتاكتيك العسكرى ، وتقدموا فى فن استخدام المدفعية ، وتكوين وصيانة وقيادة الجيوش . لكن الشرقيين، على العكس من ذلك، قد أهملوا كل الاختراعات التى تسهم فى نجاح الحروب ، أو هى لم تتقدم فى هذا المضمار إلا لمدى بالغ الضيق . هكذا كانت سطوة المعارف ونفوذ وقوة العادات العسكرية والفنون، لحد أن نفس هذه البلدان التى صدت شعوبها لمدة قرنين من الزمان جهود كل أوربا مجتمعة، لم يعد بمقدورها اليوم أن يدافع حكامها الحاليون ضد جيش واحد من جيوشنا، ولحد أن ممتلكات هؤلاء الحكام فى هذه البلدان نفسها لم يعد لها من ضمان سوى المعاهدات وسوى التناقضات القائمة والمتبادلة بين أمم الغرب الكبرى .

لم يعد يحكم مصر منذ بداية القرن السادس عشر ملوك مستقلون، فقد استولى عليها العثمانيون بعد أربعة وستين عاما من استيلائهم على القسطنطينية.

كان سليم الأول - والد السلطان ذائع الصيت سليمان الثانى - قد اعتلى العرش بواسطة الانكشاريين، كان تمردهم هو الذى منحه العرش، وحافظ عليه بقتله لوالده، وبعد ذلك أمر بإعدام إخوته قبل أن يتصدى لمشاريعه الواسعة فى آسيا، ولم يتردد مطلقا فى تهديد فارس ومصر وسوريا ، وسرعان ما استولى على القطرين الأخيرين اللذين كانا خاضعين لحكم سلاطين المماليك ، ولم يكن هؤلاء يتمتعون إلا بسلطة غير أكيدة ، كما كانوا بالكاد يستطيعون الدفا ع عن أنفسهم ضد خيانات صغار ضباطهم . خاض سليم معهم معركتين : أولاهما فى حلب ، حيث فقد السلطان قنصوه الغورى حياته، أما فى المعركة الثانية فكان خليفته طومان باى هو الذى فقد حياته على مسافة قريبة من القاهرة . لم تكن القوات العثمانية كبيرة العدد لحد كبير، وكذلك لم يكن المماليك قد تبنوا بعد استخدام البنادق ، وسلم آخر سلاطينهم للغازى وشنق تحت أحد أبواب المدينة. وجمع عدد كبير من المماليك وذبحوا أو ألقى بهم فى النهر، ولم تلبث الأسكندرية أن استسلمت، وامتلأت الشعوب المجاورة رعبا ، وجاء شريف مكة ليقدم الهدايا إلى

سليم الذى أعلن نفسه حاميا ورئيسا وراثيا للإسلام، مؤكدا بذلك إرادته فى أن يجمع إلى القوة العسكرية السلطة الدينية ، كما أرسل الشاه إسماعيل الصفوى إلى القاهرة سفارة باذخة سعيا وراء السلام .

لكن موت سليم أوقف مسار انتصاراته، وساهم سليمان، ابنه، كثيرا - سواء بحروبه أو بسياساته - فى ازدياد نفوذ العثمانيين، وخصص سنوات عديدة لتنظيم الحكم الداخلى فى ولاياته، وتبعا لأوامر صادرة منه، وضعت الأنظمة الخاصة بمصر والتى لاتزال حتى اليوم تستخدم فى الإدارة الأقليمية لهذه البلاد . ومع ذلك فإن هذه الأنظمة تنسب فى بعض الأحيان إلى سليم، الذى يصح القول بأنه لم يساهم فيها على الإطلاق، ذلك أن سليما قد أنفق وقتا قصيرا فى مصر خصصه كله للحرب هناك، وعندما عاد إلى القسطنطينية لم تكن تشغله إلا استعدادته ضد فارس ووسط أوربا ، كان يفكر فى تدمير بغداد، ولم يتوقف مطلقا عند وضع الأنظمة وتنظيم الميرى فى مصر. ولقد نشرت وثيقة التسليم التى أبرمها المماليك معه، لكن قصاصة الورق هذه لا يمكن أن تحوز أى قدر من الثقة، فكل ما هو جدير بالملاحظة فى سلوكه السياسى هو تفاوضه مع شريف مكة، وكذا الحرص الذى أبداه فى أن يصحب معه إلى القسطنطينية خليفة العباسيين.

إن سليما الذى حصل على الاسم اللائق بكل من هو بشع وفظ ، والذى أرسل وزراءه إلى الهلاك لأنهم لم يحدسوا إلى أية جهة من العالم ينبغى عليه أن يبعث بجيوشه، والذى ظل يأمر طيلة سنوات عهده بإعدام أصدقائه وأعدائه دون تمييز، والذى كان قاتلا لوالده ولإخوته ولثمانية من أبناء إخوته - كان يربط الروحانيات بالقسوة . فليس هناك أى امبراطور عثمانى آخر قد ذهب به الحقد ضد الأديان الأجنبية إلى المدى الذى ذهب هو إليه، كان على وشك أن يرغم رعاياه المسيحيين على اعتناق الإسلام، لكن امبراطورية التقاليد سرعان ما عادت من جديد إلى التسامح مع الديانات الأخرى، وهو المبدأ الأساسى الذى تقوم عليه الدول الإسلامية ، والذى لولاه لربما ما كانت قد تكونت إطلاقا . وقد أعطى سليم لمصر،

كما أعطى لكل الولايات التى هزمها ، حكومة تنهض على دعامات من حاميات تركية، لكن العسكر بدأوا يتمردون، ويطالبون بزيادة رواتبهم، ويذبحون رؤساءهم، وسعى الباشوات إلى الحصول على استقلال تام. أما المماليك، فعلى الرغم من أنهم قد بقوا بأعداد ضئيلة، فقد حصلوا على ميزة كبرى ، استمدوها من ذكرى سلطتهم وسطوتهم ، ومن صلاتهم بالعربان وبالقوى المحلية . هذا هو أصل حالة الفوضى التى تكونت عقب الغزو، ولقد استمرت هذه الحالة حتى انتصرت شجاعة البكوات وجرأتهم على الانكشاريين الذين أغضبتهم رخاوة الجنود، ودعة حراس القلاع القاعدين.

وفى الوقت الذى كانت مصر وسوريا تخضعان فيه لسادة جدد، كانت الحالة السياسية، وكانت تجارة الدول تتعرض لقلاقل واسعة وغير متوقعة، وليست هناك فترة أخرى من التاريخ ذاخرة لهذا الحد بالأحداث الكبرى . كانت القوة العثمانية تنشر الفزع فى أوربا وآسيا، وكف الكثير من الدول الأوربية عن الاعتراف بسلطة الحبر الأعظم فى روما، وكان الإسلام يستشعر حاجة إلى ثورة مماثلة، وكان هناك مذهب جديد، رحب به الصفويون، يشق البلدان الإسلامية، وكانت فرنسا تستجلب الفنون الجميلة التى أضاءت سماء ايطاليا، وكانت أسماء فرانسوا الأول وسليمان وشارل تملأ العالم أجمع . وطورت أوربا ، ممارسة فى النهاية عبقريتها الخاصة ، أنظمتها المدنية ، وجعلت ممالكها قوية عن طريق إقامة جيوش ثابتة، وقطع فن الطباعة وكذا المعارف البحرية والعادات العسكرية أشواطا غير عادية من التقدم، وتعلقت كل العقول بالحملات التى قام بها كولومب وفاسكو دى جاما ، ولقد دهش البرتغاليون والأسبان عندما تلاقوا عند الطرف الأقصى لآسيا ، بعد أن كانوا قد خرجوا من موانيهم متبعين اتجاهين متضادين . كانت الرغبة فى الاستيلاء على تجارة الشرق هى التى بعثت على هذه الاكتشافات، وفى الواقع فقد كانت منتجات الهند الثمينة تتبع حتى ذلك الوقت طريقا غير معروف . وفقدت مصر – وهى التى كانت تتجمع فيها هذه المنتجات ، ثم تنقلها إلى مختلف بلدان أوربا وأفريقيا – تلك المميزات التى آلت إليها من مؤسس الأسكندرية، كما أضرت حملات البرتغاليين

بالبنادقة على وجه الخصوص، أولئك الذين لم يستطع مطلقا حلف قوى من أمم عديدة أن يحطمهم، والذين كانوا موجودين عند كل منافذ التجارة، لقد وجد هؤلاء عظمتهم تضمحل وتغرب دونما رجعة، وأخيرا فسرعان ما تقطعت العلاقات التى كانت تربط ما بين عدد كبير من الدول والمدن .

وفى الوقت نفسه ، كانت العبقرية القلقة والطموح للأوربيين تؤسس علاقات جديدة بين أشد مناطق العالم تباعدا، واستخدموا – وهم جد مشغوفون باستعمال أدوات قوتهم الجديدة – البوصلة للتوجه فوق أراض مجهولة ، كما استخدموا الأسلحة النارية لترويض شعوب هذه الأراضى، وعثروا فى مناجم أمريكا على المعادن النفيسة التى كانت لازمة لمضاعفة المبادلات التجارية مع الشرق، كما جلبوا من أفريقيا سكانا لزراعة الممتلكات الجديدة .

أما البنادقة، فقد بذلوا – متحالفين في ذلك أولا مع المماليك، وبعد ذلك مع الحكام العثمانيين – جهودا بائسة لتدمير المنشآت البرتغالية فى البحار الشرقية، وشرع الأولون فى نقل الاخشاب من دلماشيا إلى ضفاف النيل، ثم من هناك إلى السويس لبناء أسطول . وفى البداية أمكنهم أن يحصلوا على بعض الفوائد من جراء استخدام ضروب القوة هذه، لكن حملات السلاطين الغورى وسليم وسليمان لم تتمكن من إيقاف تقدم غزاة الهند، وإذا ما ألقينا بالا لما جاء بتقارير بعض الرحالة، فقد كانت مصر نفسها فى هذه الفترة ، مهددة بتطور أكثر دمارا ، بحيث لا يمكن أن يتلوه تطور آخر، إذ يؤكد هؤلاء الرحالة أن حكام الحبشة المتحالفين مع بلاط لشبونة، قد عزموا على تحويل مجرى النيل نحو البحر الأحمر ، ليجعلوا قاحلة إلى الأبد تلك الأراضى التى يغطيها النيل كل عام بفيضه السنوى . لقد كان فى الواقع أمرا لاجدوى من ورائه أن يلجأ فاتح جوا وملقا وهرمز إلى هذا المشروع الخيالى ، فلقد خدم بلاده بطريقة أفضل عندما حطم كل الأساطيل المعادية. ولقد توغلت سفن الملك ايمانويل تحت قيادة البوكرك وخلفائه فى البحر الأحمر حتى طرف الخليج، بحيث لم تعد هناك نقطة واحدة على شواطئ المحيط الآسيوى الواسعة لاتعترف بالسيطرة البرتغالية .

ولقد اقتضى الأمر أن يكون ظهور هذه القوة المتعاظمة لفترة قصيرة، ومع ذلك فقد كان لظهورها هذا أثره الهائل على أقدار الغرب . وفى واقع الأمر، فقد كان بمقدور العثمانيين - وقد أصبحوا سادة لمصر- أن يستحوذوا على ثروات الهند، وكان بوسع هذه التجارة أن تمنحهم أسطولا بحريا هائلا ، بالإضافة إلى كل المصادر التى يتطلبها تمويل الجيوش العديدة، وفى ذلك الوقت، كان يحكمهم حكام طموحون، مقاتلون وسياسيون، وكانت أوربا المنقسمة على نفسها تواجههم بمقاومة غير مؤكدة . ولو أن اكتشافات دى جاما لم تكن قد حرمتهم من مصادر زيادة القوة هذه، لربما كانوا قد غزوا الجزء الأكبر من الأقطار المسيحية، ولكانت هذه الدول، بالغة الازدهار وبالغة التمدن، تئن اليوم تحت سطوة أجنبية معادية للمعارف النافعة، وللفنون الجميلة على حد سواء.

وهكذا فإن بداية القرن السادس عشر تحدد بداية فترة مشئومة فى تاريخ مصر، فلم تعد هذه البلاد - بعد أن هزمت ونهبت وعزلت عن سوريا- تشكل دولة مستقلة، لقد تركت لشح الباشوات الطموح ، ثم سقطت بعد ذلك فى أتعس أنوا ع الفوضى . كان يساهم فى مهام الحكم هناك مجلس أعلى ، يتكون من أهم رؤساء الفرق العسكرية ، ويرأسه نائب الملك (الباشا)، وعهد بإدارة وحكم الأقاليم إلى كثير من البكوات المماليك التابعين لهذا المجلس (الديوان) ، والذين لم يكن يحق لهم أن يمارسوا سوى سلطة محدودة . وقد حملت نوبات العصيان والتمرد التى قام بها باشوات عديدون، ديوان القسطنطينية على تحبيذ نفوذ رؤساء الفرق العسكرية، وكان هؤلاء الأخيرون يكونون بيوتهم من العبيد الأجانب، الذين يعدون منذ شبابهم الباكر على استعمال السلاح، والذين كانوا فى معظم الأحيان يرتقون سلم الوظائف بالغة الأهمية.. وعند نحو منتصف القرن الأخير (الثامن عشر)، دفع إبراهيم ورضوان رئيسا الانكشارية والعزب عددا كبيرا من مماليكهما إلى وظائف الصدارة، وبعد أن وحدا مصالحهما، استوليا على الحكم، ولم يدعا للباشا إلا سلطة شكلية، لكنهما فى واقع الأمر قد سلباه ممارسة السلطة الفعلية.

ومارس على بك، الذى خرج من بيت إبراهيم، سلطة السيادة باسم حاكم العاصمة، وبعد أن عمل على قتل أعدائه ومنافسيه، وبعد أن دعم قوته بالصعيد، عمل على احتلال مدينة مكة، ونصب عليها من جديد شريفها السابق عبدالله، وسعى (على بك) لكى يحصل على اعتراف منه بأنه سلطان مصر، وشرع فى أن يقيم فى ميناء هذه المدينة منشأة ثابتة تتولى تجارة الهند . وسهلت مشروعاتِ على بك تلك الحربُ التى كان على الباب العالى أن يخوضها ضد روسيا، بالإضافة إلى التمرد الذى قام به الشيخ ضاهر الذى كان معه حزب كبير فى فلسطين، فأرسل على بك قوات إلى سوريا، وأرغمت قواته بعد أن تحالفت مع قوات الشيخ ضاهر باشوات الألوية المجاورة على الفرار . ولكن سرعان ما أدت نصائح إسماعيل بك وإغراءات الباب العالى إلى تمزيق حزب على بك ، فانشق عليه معتوقه محمد بك (أبو الدهب) الذى كان قائدا لجيشه فى سوريا، وعاد إلى القاهرة . وبعد أن نفاه سيده لبعض الوقت، أمكن له (لمحمد بك) أن يكون لنفسه حزبا قويا، عندئذ ترك الصعيد ليستقر بالعاصمة . وانسحب على بك إلى حليفه الشيخ ضاهر، والتمس النجدات من روسيا، لكنه فقد قوته قبل أن تنتهى المفاوضات، فأسرع بالعودة إلى مصر بعد أن خذلته وأضلته الخيانات المحيطة به، وجرح فى إحدى المعارك؛ التى خاضها فى الصالحية ضد عبيده القدامى، ثم مات بالقاهرة متأثرا بجروحه .

بدا محمد بك أكثر خضوعا لأوامر الباب العالى، فحصل الضرائب، وبعد أن حصل على لقب باشا زحف إلى سوريا ضد ذلك العربى، الشيخ ضاهر العمر، وأمكنه الاستيلاء على يافا، ثم قاد جيوشه الظافرة إلى عكا، لكنه مات ميته شبه فجائية من أثر إصابته بمرض معد . وخلفه فى السلطان اثنان من مماليكه ، هما إبراهيم ومراد، فقلدا سلوك على بك (تجاه تركيا)، واستثير ضدهما بفعل الإغواء إسماعيل ، وهو الذى سبق له أن خان على بك ، فكون عصبة قوية كانت كافية لإرغام غريميه على ترك العاصمة. وبعد أن لجأ إلى الصعيد، توصلا إلى عقد صلح مع الكثيرين من بكوات الحزب المنتصر، ولم يتوانيا بعد ذلك فى تجريد إسماعيل

من السلطة، وعندئذ ارتكبا من المظالم المتضاعفة ما جعلهما أكثر بغضا من ذى قبل، وتملصا بكافة الوسائل الممكنة من الرضوخ لسلطة السلطان . عندئذ كلف حسن باشا - من قبل بلاط السلطان - بمعاقبة المتمردين ، فوصل إلى القاهرة مع قوات قليلة العدد، وأقصى إبراهيم ومراد، وأرسل إلى القسطنطينية جزءا من الأسلاب التى حصل عليها، سواء من أتباع الأميرين الفارين أو من الابتزازات التى ارتكبها. وحين استدعته الحرب التى نشبت من جديد مع روسيا، أنهى حملته بأن وهب البكوين جزءا كبيرا من الصعيد، أما حكومة القاهرة فقد تركها فى يد إسماعيل بك، لكن الأخير مات بالطاعون فى عام ١٧٩١، حيث حصد الوباء فى ربيع هذا العام ثلث سكان القاهرة، وقضى - بتأثير هذا المرض نفسه - على نصف المماليك المرتبطين بإسماعيل، وفقدت المدينة أكثر من ستين ألفا من أبنائها فى الفترة الواقعة ما بين السادس والتاسع من أبريل من نفس العام .

وهكذا استعاد إبراهيم ومراد من جديد سلطتهما بالعاصمة، على الرغم مما كانت تفرق بينهما من حزازات قديمة، فقد ربط بينهما الإحساس بمصلحتهما المشتركة، وانغمسا بعد ذلك فى أعمال عنف جموح، مزدريين أوامر السلطان، فارضين ضرائب جديدة عن غير روية أو بصيرة، وبدون مبالاة بأثر ذلك على التجارة والزراعة والصناعة، ومنتزعين الحبوب اللازمة لأقوات الفلاحين الذين هلك منهم عدد كبير بدون أن يتلقوا عونا من أحد.

لم يكن التجار الأجانب مطلقا بمنأى عن هذه المظالم، وتعرض الفرنسيون بصفة خاصة لمظالم ومغارم ظلت طويلا بلا عقاب، وبدا أن البكوات قد ظنوا أن الحالة السياسية التى كانت تمر بها فرنسا حينئذ هى مبرر لهذه الإهانات، كما كانوا- فيما يبدو - على ثقة بأن حكومتها الجديدة لن تكون فى وضع يسمح لها بأن تحصل على أية ترضية عن هذه الإهانات ، وفى واقع الأمر ، فإن الوفود التى أرسلت فى هذا الصدد إلى بلاط القسطنطينية كانت عديمة الجدوى، فهذه القوة

(تركيا) لم تبذل أى جهد لعقاب طغاة مصر ، أو لقمع سلوكهم العنيف المعادى لحلفائها ، وتجددت الإهانات والابتزازات مما جلب الخراب لبيوتنا التجارية.

لم يكن من المستطاع مطلقا أن ندع هؤلاء، بدون أن نسلم للأمة المنافسة لنا (انجلترا) مميزات كانت لها فى معاهدات بالغة القدم، وبدون أن نقدم مثالا على ضعف (من جانبنا) قد يغدو قاتلا بالنسبة لكل المؤسسات الفرنسية. لقد كان الأمر إذن يقتضى منا إما أن نرضى عن طيب خاطر بأن نستبعد عن تجارة الشرق، ونتسامح فى المظالم التى تلحق بنا ، وإما أن نجد أمننا فى ممارسة قوتنا الذاتية.

كانت هذه هى الظروف التى دعت الفرنسيين إلى المجئ إلى مصر، وهكذا أصبحت هذه البلاد مسرحا لواحدة من أهم الأحداث الكبرى فى التاريخ الحديث. وتضاف إلى الدوافع التى انتهينا من ذكرها تلك المزايا التى يعد بتحقيقها قيام مؤسسة ثابتة لنا فى المشرق، مع الأمل فى توافق يتم مع الباب العالى ، ما أن نبصره بمصالحه الحقيقية، مع تقديم كل الضمانات التى يمكن له أن يطلبها .

وفى الواقع، فقد كان يمكن لإسهام فنون أوربا ، بالإضافة إلى قيام حكومة منظمة فى مصر ، أن يغير على وجه السرعة من الأوضاع هناك . كان يمكن للزراعة إذا ما رعتها إدارة مستنيرة أن تحرز هناك - فى وقت قصير - قفزات هائلة، فمن المعروف أن خصوبة أرض مصر، تتجدد من تلقاء ذاتها بفعل الفيضانات السنوية، فى حين ترتكز أعمال الزراعة بصفة أساسية على نوبات الرى، لكن توزيع المياه اليوم غير منتظم وغير تام، فقد شقت الترع التى تجلب هذه المياه دون تبصر أو حذق، وهكذا تصل المياه فى مناطق بعينها بوفرة تزيد عن الحاجة ، فى الوقت الذى تظل فيه مناطق أخرى تتعرض لجفاف طويل، وفى مناطق ثالثة يؤدى حفر روافد أنشئت عن غير ترو إلى إضعاف مقاومة مياه النيل تجاه مصابه ضد مياه البحر، ويكون من أثر ذلك أن تتحول فجأة إلى مساحات رملية لا نفع فيها أراض ثمينة كانت توفر حتى ذلك الوقت أفضل الحاصلات. ولا

يتم رفع مياه الرى هناك إلا بواسطة بعض الماكينات الخشنة، وأثر هذه بالغ الضآلة بالغ التواضع، وعن طريق تعرض الحيوان أو بالأحرى الإنسان ذاته لصعوبات ومتاعب متزايدة. وحيث إن المقاطعات المختلفة - وسط ظروف الاضطرابات السياسية - لم تكن تخضع لإدارة موحدة، فقد كان يحدث في معظم الأحيان أن يتصرف القوم في المياة بدون روية، وهكذا كانت تحول مجارى المياه، وتجفف الترع ، وتفتح الجسور بدون سند من أى حق، وهكذا أيضا لم يستطع القوم أن يفيدوا مما حبتهم به الطبيعة، واستخدموا كل حذقهم ليستحوذ عليها كل منهم لصالحه بالتبادل . كان يمكن تحاشى هذه الفوضى عن طريق توزيع للمياه أكثر انتظاما، وهو الأمر الذى كان سيزيد - فى وقت معا - مساحة الأرض القابلة للزراعة، وكذا خصوبتها . وقد يكون من اليسير أن نروى الأماكن الأكثر ارتفاعا، بوضع نظام أفضل لعمل الحيوان، بل ربما بدون اللجوء لعملها على الإطلاق، وذلك إما بأن نرفد (الترع والقنوات) من المياه العالية ، وإما باللجوء إلى القوى الميكانيكية التى تنتج عن الرياح أو عن مجرى النهر ذاته.

وبخلاف القمح والأرز، ومختلف نباتات المحاصيل والفواكه من كل نوع ، التى تنتجها مصر بوفرة، فمن الممكن الحصول على فوائد أكبر من ذلك بكثير عن طريق زراعة قصب السكر والكتان والنيلة، كما يمكن لهذه البلاد أن تمد أوربا بالنطرون الذى يتكون من تلقاء نفسه فوق سطح أرضها، وكذلك بأجمل مواد الصباغة والعطارة والعطور بمبالغ ضخمة، وبالبن والعطور القادمة من الجزيرة العربية، وبالتبر (تراب الذهب) والعاج وكل المواد التجارية الأخرى الواردة من أفريقيا . أما النباتات الوطنية - بمعنى الكلمة - فهى قليلة العدد، وإن كانت هذه الأرض الخصيبة والتى تتدرج حرارتها اللطيفة بدءا من البحر حتى حدود النوبة، يمكن أن تدخل فى عداد البساتين الفسيحة ، القادرة على أن تستوعب وأن تحفظ أثمن منتجات العالم .

تلك هى المزايا الطبيعية التى لمصر ، والتى لم يكن من المستطاع إفناؤها ،

ولو بفعل سطوة طويلة لإدارة بالغة السوء، فلا يزال الناس هناك يستمتعون حتى اليوم بثروات الزراعة والصناعة والتجارة، كما أن القاهرة، من جوانب كثيرة ، تعد مدينة ثرية ، ويبلغ عدد سكانها أكثر من ٢٥٠ ألف نسمة ، كما تحتفظ بعلاقات متزايدة مع الجزيرة العربية وكل وسط أفريقيا ، وكذلك مع تركيا وفارس والهند وأهم بلدان أوربا . لقد حولت الاكتشافات البرتغالية طريق التجارة عن الأسكندرية، ومع ذلك فقد ظلت الاتصالات مع الهند مستمرة ، إما عن طريق البحار الشرقية وإما عن طريق البر، وهكذا احتفظت مصر بكل عناصر عظمتها القديمة، كما ظلت هذه بذورا تعد بازدهار جديد، سوف ينمو بشكل سريع لو أن قد خصبتها عبقرية أوربا ، وحسن إدارة حكومة عاقلة وقادرة .

أما عن خواص الطقس، فقد لايكون بالإمكان أن نُعَرِّف بها إلا عن طريق عرض مفصل لا يتفق مطلقا مع طبيعة هذه المقدمة، لكننا نكتفى هنا بالقول بأن ملاءمة هذه البلاد (للصحة) لا يمكن أن توضع موضع ارتياب، ويتطابق مع هذه النتيجة كل تاريخ مصر، وكذا التجربة الحاسمة للجيش الفرنسى (هناك) ، كما تتفق مع الوضع الراهن لتعداد السكان، حيث يعيش نحو مليونين وثلاثمائة ألف شخص، منتشرين على مساحة ١٨٠٠ فرسخ مربع.

وكان من بين أعظم المنجزات التى يمكن لاحتلال مصر أن يحققها ، هو ما يتمثل فى ربط الخليج العربى (البحر الأحمر) بالبحر الأبيض المتوسط عن طريق قناة ملاحية، وهو مشروع نال شهرة واسعة منذ زمن طويل، وكان يمكن له اليوم أن يتحقق باقتدار. وفى الواقع، فمهما يكن المستوى المتبادل لمنسوب البحرين، ومهما تكن النتائج التى تم التوصل إليها عن طريق ما سبق القيام به من أعمال تتصل بنفس هذا المشروع، فلعل من الميسور على المهندسين الأوربيين أن يقيموا مثل هذا الاتصال ، وأن يحافظوا عليه . ويمكن القول بأن هذا الاتصال سوف يقرب الأقطار الشرقية بتلك التى تقع على ضفاف البحر المتوسط، وبدون أن نغير كلية من طرق التجارة الحالية ، فإن هذا الاتصال سوف يؤثر على علاقات أوربا بالهند

والجزيرة العربية وأفريقيا، ويمكن لنا أن نقارن هذه النتائج (المتوقعة) بتلك التغييرات التى تمت، فى اتجاه مضاد، بعد الحملات البحرية للبرتغاليين.

ومن جهة أخرى، فإن لمصر - التى تتجمع فيها كما لو كان من تلقاء نفسها، ثروات الزراعة وثروات التجارة - مزايا أخرى لا يمكن أن تتوفر مطلقا فى أية مستعمرة أخرى بعيدة، إذ لايفصلها عن فرنسا سوى بحر قليل الاتساع، تبدو الملاحة فيه كما لو كانت حكرا لهذه القوة ولحلفائها الطبيعيين، كما أن مصر تدخل ضمن نطاق نظام للدفاع المشترك عن الجزر المجاورة لايطاليا، ولتلك التى تقع بالبحر الأدرياتيكى والأرخبيل، بالإضافة إلى أنها لا تتعرض مطلقا لغزو غير متوقع، ولا يمكن أن تهاجمها إلا قوات هائلة، بحيث إنه لو أمكن لتلك القوة الأوربية (فرنسا) التى احتلت مصر منذ وقت طويل، أن تظل على علاقة حميمة بالباب العالى، وأن تحصن هذه المنشأة (المستعمرة) لكان بمقدورها الاحتفاظ بها. وبالإضافة إلى كل هذا، فإن هذه البلاد توفر للفرنسيين ميزة بالغة الأهمية، هى حصولهم على موقع متوسط، فحين يجد الفرنسيون أنفسهم على أبواب آسيا فسيغدو بإمكانهم من هناك أن يهددوا على الدوام ثروات وممتلكات أمة معادية (انجلترا)، وأن ينقلوا القلاقل، بل والحروب، إلى نفس مصادر ثرائها.

وسوف تحقق العلاقات التى سرعان ما ستنشأ بين مصر (كمستعمرة فرنسية) وبين المؤسسات القائمة فى الجزيرة العربية وفارس والهندستان وأفريقيا، مزيدا من المبادلات التجارية، مما يعود بأكبر الفوائد على فرنسا والشعوب التى تمارس الملاحة فى البحر المتوسط، وبذلك نستطيع أن نحترف تلك المهنة الرابحة التى يدين لها البنادقة بثرواتهم، والتى منحتهم لوقت طويل قوات بحرية تفوق القوى البحرية لمعظم دول الجنوب، فى حين توقف كل ذلك على الفور حين تغيرت مقادير مصر.

وفى الواقع فقد كانت تجارة الهند مع الدول الأخرى تتم مبادلة بالمعادن

النفيسة، وهذه صلات مستمرة منذ وقت لا تعيه الذاكرة، ولقد كان على كل الدول الثرية أن تدفع هذه الضريبة عندما كانت تدفع ثمنا لمنتجات الشرق كمية هائلة من الذهب، وبخاصة الفضة ، التى كانت تتكدس هناك دون سبيل لاستعادتها. ومع ذلك فقد استطاع البنادقة - فيما يبدو - أن يقيموا مع هذه البلدان علاقات من طبيعة مختلفة، وكانت مصر - وقد أصبحت بالنسبة لهم المستودع الرئيسى لثروات العالم أجمع - تحصل، بالإضافة إلى الأخشاب والمعادن النافعة، على أشياء من منتجات مصانع هذه البلاد نفسها، وكان البنادقة يستجلبون منها السلع الثمينة التى تنتجها الهند والجزيرة العربية وسوريا وفارس، ثم يوزعونها على كل أنحاء أوربا.

وهكذا لم تعد مصر مفيدة بما تملكه فقط ، بل هى نافعة بما ينقصها كذلك. ومن المؤكد أن بوسعنا أن نصنع فى هذه المستعمرة الأقمشة النفيسة، والأجواخ الناعمة ، والخمور ، بالإضافة إلى منتجات صناعية متنوعة، وقد ننقل إليها الحديد والرصاص، وعلى وجه الخصوص الخشب الخاص بإنشاء المساكن وبناء السفن، ونستطيع بشكل جزئى عن طريق هذه المبادلات أن نحصل على أثمن سلع الهند، ونتزود بها كذلك عن طريق اتصالات مباشرة. وبخلاف الموانى التى ستفتح أو ستنشأ على شواطئ البحر الأحمر، فقد نرى قيام منشآت أخرى فى مختلف مناطق هذا الطريق التجارى المؤدى للهند، تجعل الملاحة أكثر يسرا وأكثر أمانا، حيث تتبادل هذه المنشآت الدعم فيما بينها.

ولسوف نستطيع كذلك (لو تحقق كل ذلك) أن نسموا إلى اعتبارات أكثر عمومية وشمولا، وأن نحدس النفوذ الذى قد تمارسه مستعمرة فرنسية ، لها مثل هذا الموقع المناسب ، على ظروف وأحوال البلدان المجاورة، وستكون الجزيرة العربية وسوريا من أوائل البلدان التى ستفيد من المزايا التى ستتحقق من وراء ذلك. فسوف تتمتع التجارة هناك ومنذ البداية بأمن ظل مجهولا حتى هذه اللحظة، وسوف تعرف الزراعة والصناعة ازدهارا جديدا، وقد نستطيع عقد تحالفات مفيدة ودائمة مع فارس وممالك آسيا الأخرى، وسوف نتوغل من كل جانب إلى داخل

قارة أفريقيا الواسعة، وسوف نكتشف الأنهار التى تجرى داخلها، وكذا الجبال ومناجم الحديد والذهب التى تحتويهما بوفرة، وفى النهاية فسوف يكون بمقدورنا أن نأمل فى أن حكومة مصر ستعمل جاهدة على أن يسود الأمن والنظام على سواحل أفريقيا الشمالية، وذلك بجعلها السكان هناك يخضعون لإدارة أكثر إنسانية وأكثر حكمة، عندئذ سوف يكون البحر المتوسط ، للأبد ، قد أصبح بحرا فرنسيا، فى حمى من غارات القراصنة.

من كل ذلك نرى كيف يختلف إنشاء هذه المستعمرة الجديدة على طرف بحر ضيق ومجاور، وفى واحدة من أجمل بقاع العالم، عن هذه المغامرات البعيدة التى تسعى لخلق منشآت باهظة التكاليف، معرضة لكل الاحتمالات والشكوك التى تجلبها الحرب، والتى لا يمكن الاحتفاظ بها حتى فى وقت السلم دون أن نضاعف من ضحايا المناخ غير الصحى (هناك). ولن نكون بحاجة على الإطلاق أن ننقل إلى هناك (إلى مصر إذا أصبحت مستعمرة فرنسية) مزارعين أجانب باعتبارهم عبيدا، بل إننا - بعيدا عن ممارسة أى عنف ضد الأهالى هناك - قد نعيد كل ماسلبته منهم حكومات رعناء ومستبدة.

وعلى هذا فقد كان المشروع الذى نعرض له الآن يستحق فى واقع الأمر التأمل من جانب رجل دولة، فليس فى هذا المشروع إلا ما هو نافع ومجيد، كما أنه مناسب لحلفائنا ، ويضمن للشعوب المجاورة مقادير أفضل، وسيوحد بين الفوائد السياسية التى ستتحقق لوطننا والمصالح الحقيقية للأمم الأخرى، وهو أمر لا يقدر بثمن.

لكن الأحوال فى أوربا لم تسمح لمصر مطلقا بأن تحصل على العطايا التى وعدت بها، ومع ذلك فإن ذكرى الحملة الفرنسية لن تمضى مطلقا دون أن تؤتى ثمارها، ولسوف تعرف حكومة القسطنطينية كل المزايا التى كان بمقدورها أن تحصل عليها لو أنها أعطت لهذا الإقليم إدارة أفضل، كما ستتبين بكل سهولة أية مرام أو نوايا كانت ترمى إليها تلك القوى الأوربية التى سعت لإعادة تثبيت سلطة

المماليك، فلا يمكن أن تكون هناك وسيلة أكثر ضمانا لحرمان مصر من الميزات الخاصة بها إلا بإعادتها إلى طفاتها الأول، أولئك الذين يتساوى عداؤهم للصالح العام بعداوتهم للسلطة الشرعية، وأخيرا فإن البلاط العثمانى سوف يغترف نصائح مفيدة من السفر الذى ننشره اليوم، وسيكون بمقدوره أن يلجأ إلى فنون الغرب، وأن يستخلص من هذه الموسوعة نفسها القدر الأكبر من النتائج التى تؤكد له ما قدمته جيوشنا من إسهامات، وأن يضع موضع التطبيق تلك النوايا الطيبة التى كانت فرنسا قد كونتها.

وإذا سعينا الآن إلى تمييز الوسائل التى يمكنها أكثر من غيرها أن تسهم فى نجاح هذه الأهداف، فلسوف ندرك كم كان مهما أن نمهد السبل لتقديم العلوم والفنون، إذ لا يمكن فى واقع الأمر أن تكون هناك ظروف أخرى أكثر إلحاحا من تلك لتطبيق العلوم والفنون . كان من الضرورى أن نثرى الزراعة ، وأن نتوسع فيها، وأن يدرس مجرى النهر ، وأن تخضع الزراعة لخطة شاملة، وأن نعمل على اتصال البحرين ، وأن نؤمن الملاحة فى الخليج العربى، وأن تنشأ الترسانات البحرية والموانى.. كان ينبغى أن نرقب طقسا يكاد يكون مجهولا (بالنسبة لنا فى أوربا)، وأن نمتد بأبحاثنا فى مجال التاريخ الطبيعى والجغرافيا لتشمل البلدان المجاورة، وأن ندير التجارة، ونطور المنسوجات والصباغة وطرق استغلال النطرون وتصنيع السكر وملح النوشادر والنيلة، وباختصار أن نخلق صناعة جديدة وأن نضع فى خدمتها كل اكتشافات أوربا.

وهكذا أثيرت فكرة اصطحاب العلوم – التى تمثل المعرفة الشاملة – إلى وادى النيل ، بعد أن نفيت عنه لوقت طويل ، كانت هذه الفكرة تستوحى الأمجاد القديمة لطيبة وممفيس ، واستقرار آلهات الفن والعلم والأدب الإغريقية فى عاصمة خلفاء الاسكندر، كما عرفت بشكل أفضل فائدة ومدى نطاق المشروع الذى كنا على وشك تحقيقه. وبعيدا عن أن نتقبل فى العلوم تمييزا لا يتفق مع تسامى الغايات ، فإن أولئك الذين يستعينون بها للإسهام فى انتصاراتهم لم ينظروا إليها (العلوم) إلا

باعتبارها تنتمى جميعا إلى نفس العائلة . لقد أراد القائد أن نستزرع فى وقت واحد كل فروع الآداب والفلسفة ، ولجأ إلى العلوم الرياضية التى تشكل مبادئ دقيقة فى كل المجالات بالغة الأهمية، كما لجأ إلى العلوم الفيزيائية التى تهدف إلى دراسة و وصف الطبيعة، كما التجأ إلى الفنون ذات الفوائد المباشرة والمحسوسة، وكذلك إلى تلك التى لا تقل عن ذلك قيمة ، والتى تساهم فى تألق الحكومات ، وتمدنا بأنبل مباهج الأرواح والعقول. وكان يمكن لمصر فى وقت قصير بفضل هذه الإدارة الحكيمة ، لا أن تصبح مستعمرة فرنسية فقط، بل بشكل ما إقليما فرنسيا، وأن تقدم لسكانها الجدد صورة من وطنهم هم .

لقد كانت تلك هى الاعتبارات التى أوحت بمشروع إقامة هيئة علمية فى عاصمة البلاد التى ذهبت جيوشنا لإخضاعها. ولقد انتهينا للتو من تذكر مختلف عصور تاريخ مصر ، بالإضافة إلى الوقائع التى سبقت الحملة الفرنسية ، كما استعرضنا المرامى والأهداف التى تعهدنا بمقتضاها هذه الحملة وأدرناها، ويلزمنى الآن أن أقدم إلى القارئ الظروف الأساسية لهذا الحدث الكبير.

كان الفرنسيون الذين وجب عليهم أن يسهموا فى هذه الحملة قد حشدوا فى نقاط مختلفة على سواحل البحر المتوسط، لكنهم كانوا يجهلون الهدف الذى سيقادون من أجل تحقيقه، وأبدوا فى هذا الخصوص تخمينات بالغة التعارض. لكن التوقد العسكرى وحمية الشباب ، بالإضافة إلى عدم اليقين، كانت تجعل القلوب تخفق بشدة، وإن كان ظهور فاتح إيطاليا قد أوحى بثقة تامة وعامة، كان اسمه وحده كفيلا بأن يثبت الأمانى كأنها بالفعل قد تحققت.

وبعد أن خرج الأسطول الفرنسى من خليج طولون وانضم إلى الفرق التى تشكلت فى موانى ايطاليا، توقف فور رؤيته لمالطة التى كانت حكومتها قد أعلنت نفسها منذ وقت طويل فى حالة عداء معنا، لكن هذه الجزيرة التى هوجمت بشدة لم

تبد إلا مقاومة ضعيفة لا طائل من ورائها، وسرعان ما أذعنت وأقيمت بها حامية فرنسية، وكانت ثمانية أيام بالكاد قد انقضت منذ ظهرت سفننا أمام مالطة، ثم تقدم هذا الأسطول الضخم سريعا نحو مصر. وحين وصلنا إلى ساحل الأسكندرية، كان البحر يضطرب بقوة وعنف مما جعل دخولنا أمراً عسيراً ومع ذلك فقد كان أدنى تأخير يمكن أن يصبح كارثة مميتة ، وسرعان ما تم الإنزال، وزحفت فرقة من القوات الفرنسية على الأسكندرية قبل انتهاء الليل، وكان القائد العام نفسه على رأس الصفوف، وأبدى السكان مقاومة حامية وعنيدة ، ولم نستطع عندئذ إقناعهم بأن هذه الحرب موجهة فقط ضد المماليك ، وليس ضد رعايا السلطان المخلصين . لكن أية عقبة لم تكن لتوقف حمية قواتنا، فاخترق جنودنا المدينة واستولوا عليها، وعندئذ مارس المنتصر سلطة وصاية، وقدم إلى الأهالى السلام والأمن، واستقبل بترحاب رسل القبائل البدوية، أو الـ Scénites الذين يسكنون الصحراوات المجاورة.

وفى هذه الأثناء كان هناك أسطول معاد يعبر مختلف مناطق البحر المتوسط، وظهر أمام ميناء طولون بعد أن كنا قد غادرناها ، ثم ظهر فى مالطة بعد رحيلنا، وبعد ذلك ظهر فى الأسكندرية قبل مجيئنا، ثم ابتعد ليمسح الخليج فى نفس الوقت الذى كان الجيش الفرنسى فيه يخترق الصحراء متقدما نحو العاصمة.

لقد جذبت الأحداث العسكرية التى أصبحت هذه البلاد عندئذ مسرحا لها، انتباه العالم أجمع، فقد انتشر خبرها على الفور فى الشرق وأفريقيا، وتملكت كل النفوس فى أوربا حالة من الترقب، وأخذ الناس يرقبون إلام تؤول المغامرة ؟. ولقد أثارت أمارات الشجاعة والصبر المتضاعفة والتى ميزت هذه الحملات ، وكذا المخاطر التى كان الجيش الفرنسى يتعرض لها بدون انقطاع، والمتاعب التى لا سبيل إلى شرحها والتى ظل يواجهها، وكفاءة القواد وتضحياتهم- أثار كل ذلك فى فرنسا إعجابا وعرفانا عامين. ولم يكن هناك شخص واحد لم تهزه جدة وحداثة الظروف الغريبة للغاية على أجوائنا ، أو هذا الإسهام غير المعتاد من

جانب أحداث الحرب الباهرة فى الاكتشافات الحاذقة ، وبصفة خاصة هذه الأوضاع العسكرية والمدنية والسياسية الكثيرة التى فرضت على القائد العام مهمة أن يغزو وأن يحكم فى نفس الوقت.

لا تسمح لنا طبيعة هذه المقدمة إلا بالإشارة إلى تسلسل هذه الأحداث، ومن شأن التاريخ وحده أن يتصدى لها ، وهذه معروضة بكل فخار واعتزاز فى مراسلات وروايات حملتى مصر وسوريا . وكان واضع هذه الدراسات المتألق - وهو الذى كان أمينا بصفة مباشرة على أفكار ومرامى القائد العام - يقود كل التحركات، ويحدس كل العقبات، ويسهم بفخار وعظمة فى كل النجاحات، وهكذا اكتسبت صروح الشرف الفرنسى - التى تولى بنفسه نقلها إلى الأجيال المقبلة - مزيدا من الصدق والأصالة ، ومزيدا من التألق فى وقت واحد .

وما أن تم إخضاع الأسكندرية حتى توغل جيشنا فى أعماق مصر، وأصبحت رشيد فى حوزتنا ، وأخذت سفننا المسلحة تصعد النهر، ويقدم تاريخ هذه الحملة سلسلة متوالية من التقدم السريع والمعارك والنجاحات، ولم يستطع أن يبطئ من الاندفاع الجسور لقواتنا ، لا لهيب الصحراء ، ولا النقص التام للمياه وللمؤن فى منطقة قاحلة ومجهولة بالنسبة لنا . لقد تشتت العربان، وخسر المماليك معركتين نظاميتين، واحتل مكان الثقة العمياء التى كانت لديهم كل من الفزع واليأس، فتركوا القاهرة، وهكذا كانت عشرة أيام كافية كى تحسم قدر مصر . أما مراد وإبراهيم فقد انفصل كل منهما عن الآخر، كانا قد فقدا سلطتهما ، لكن عداءهما لنا قد استمر، ولاذ أولهما - وهو أكثر ميلا للقتال من زميله - بالصعيد، أما الثانى فقد اندفع فى عجالة نحو صحراوات سوريا، وكان آخر عمل من أعمال القوة قام به هو انتهابه لإحدى القوافل . وجَدَّ الفرنسيون فى أثره، وأمكن للقائد العام نفسه، مع بعض رجال من طلائع جيشه، أن يلحق بمماليك هذا البك الهارب، فهاجمهم وشتت شملهم ، وأرغمهم على الإسراع بالتقهقر بعيدا عن حدود غزوه .

عندئذ علمنا أن أسطولنا الذى كانت الأوامر قد صدرت إليه إما بدخول ميناء الأسكندرية أو الانسحاب إلى مضيق كورفو، وإن كان قد نفذ الأوامر على نحو مخالف للغاية - قد هوجم للتو، وتحطم بشكل شبه تام فى خليج أبى قير. وأوحت هذه الانتكاسة غير المتوقعة، والتى لم تنل من عزيمة وشجاعة الفرنسيين، أوحت لهم بعزم أكثر ثباتا وبإصرار شبه إجماعى.

وفى الوقت الذى كان الفاتح فيه مشغولا بأمر إصلاح الحكومة المدنية بالقاهرة ، تفجرت روح العصيان فى هذه المدينة، فتسلح عدد كبير من الناس، ولقى كثير من الفرنسيين الذين فاجأتهم الأحداث وهم فى داخل بيوتهم أو فى الميادين العامة، حتفهم برصاص المتمردين ، لكن قوة السلاح أعادت استقرار النظام، ولقى بعض الزعماء عقابا قاسيا، وتم العفو عن الألوف الجاثية. كانت مصر حتى ذلك الوقت لم تعرف حقيقة سادتها الجدد، ثم أحست فى هذه المناسبة بتفوق قوتهم، كما أدركت الدرس الذى لابد لها أن تستخلصه من تسامحهم ورأفتهم، وهكذا أخلت هذه الاضطرابات الدامية مكانها لأمن دائم.

غدت قواتنا تحتل الساحل الشمالى، وكل الأقاليم الداخلية ، وقد أمكن لفن ولصناعة حاذقين أن يخلقا - ربما بشكل مباغت - أعمالا ومنتجات خاصة بالدفاع العسكرى عن البلاد . كانت هذه الإنشاءات التى تتناسب مع نوع الحرب التى قدر علينا أن نخوضها ، تهدف إلى التصدى للمشاريع الأولى للعدو، وإلى توفير كافة المؤن والمواد التموينية التى تتطلبها تحركات الجيش .

بدأت مصر، فى النهاية، وبعد أن تخلصت من طغاتها، تتمتع بنعمة القوانين، ومارست هذه القوانين هناك - تحت رعاية الجيوش الفرنسية - سطوة لم تكن لها فى العادة، ودعى القادة الوطنيون لتولى الوظائف المدنية، وعادت العلوم- بعد نفى طال أمده - لتزور مسقط رأسها ، وأخذت أهبتها لتطوير وتجميل وطنها الأم،

وتوسعت الجغرافيا بأبحاثها لتشمل المواني والبحيرات والسواحل، وحددت بدقة مواقع كل الأماكن الهامة، وأقامت مقاييسها على أساس الملاحظات الفلكية، ودرست الفيزياء خواص الطقس، ومجرى النهر ، ونظام الرى، وطبيعة التربة، والحيوانات والمعادن والنباتات . أما الفنون الجميلة فقد عثرت على نماذجها القديمة، وتأهبت لتنقل إلى أوربا – بأمانة – هذه الآثار الخالدة لعبقرية مصر. كان ثمة قائد لامع يخلع على كل هذه الأمور بريق مجده الشخصى، وكان يشجع بحضوره كل الاكتشافات، بل كان بالأحرى يحض عليها ، واستوعبت عقليته الواسعة، فى وقت معا ، وبسهولة لا تكاد تصدق، مشاكل الحرب والسياسة وشئون القوانين والعلوم .

ولقد شرعنا تحت رعايته فى إجراء الأبحاث التى ننشر اليوم نتائجها ، وقد عاون فى هذه الأبحاث جميعا القادة والمهندسون والضباط الفرنسيون، لقد تمت فى بعض الأحيان تحت إشرافهم، وكان الكثيرون منهم يخصصون – لصالح تقدم العلوم – كل وقت الفراغ الذى أمكن أن تتركه لهم العمليات العسكرية. ولقد نشرت بالفعل دراسات بالغة الأهمية عن الجغرافية الطبيعية للدلتا ، وعن الوضع السياسى لمختلف طبقات السكان، وكذلك عن مجرى النيل ، وطبيعة التربة، ووصف العصور القديمة ، ولقد أفدنا من كل التسهيلات التى أمكنها أن تعرض لنا كى نجتاز ونلاحظ البلاد التى احتلتها جيوشنا ، ولم تكن أية عملية استطلاع عسكرية لتتم إلا ويسارع عضو أو عدة أعضاء من المجالس العلمية المختلفة فى الانضمام إليها ، بغية القيام ببعض كشوف مفيدة . وكان العربان الهلوعون يفرون من كل مكان، تاركين المسرح الذى اعتاد على ما يلحقونه به من دمار، وكانوا بذلك يخلون المكان لتلك الجرأة التى تستعصى على الهزيمة ، لواحد من ألمع قادة جيش الشرق، قدر له أن يسهم بفخار ومجد فى الانتصارات التى تمت فى سوريا وأبى قير (الجنرال مينو)، والذى جعلت يده الراعية، والحاضرة على الدوام، الجزء الغربى من مصر، يحظى بأمان لم يكن معتادا عليه.. كذلك أصبحت عمليات

التفتيش على السواحل أو الصحراوات المجاورة، وكذا الحملات التى تمضى إلى أماكن بعيدة، وعمليات الزحف التى تقوم بها سرايانا ، والمفاوضات أو حتى المعارك التى تخوضها مع هذه القبائل الهائمة ، أو الأعمال الإدارية .. أصبح ذلك كله مناسبة بل وأحيانا غاية ، للقيام ببحث جديد .

كنا قد أحضرنا معنا من أوربا كل الأدوات اللازمة للطباعة، وجمعت هذه فى القاهرة فى مبنى كبير، كانت تسهر على إدارته حماسة نشطة متنورة، وكان هذا الفن، الذى كاد أن يكون مجهولا كلية من جانب الشرقيين، يثير اهتمام كل المصريين، وقد ساعد على مضاعفة عمليات الاتصال، سواء فيما بين الفرنسيين أنفسهم، أو بيننا وبين السكان، كما سهل فى نفس الوقت من نجاح الحملة وتقدم العلوم.

ولقد وضعت الأنظمة بالغة الدقة فى كل أجهزة الحكومة الداخلية، وهكذا لم يقتصر الأمر على أن السكان لم يتعرضوا قط لعمليات الإهانة والإذلال التى تميز النجاحات العسكرية فى الشرق عادة، بل لقد احترمت تقاليدهم الدينية والمدنية،. وعوقبت أتفه إهانة أو سباب (وجه إليهم من جانب جنودنا) بقسوة مدوية، وحل نظام معتدل للضرائب، وزعها بعدالة بين طوائف السكان ، محل الابتزازات والمظالم التى كانت تقع من جانب سادتهم القدامى. أما الدين والشريعة فكانا موضع تبجيل وتقديس من جانب الفاتح، وحظيت هيئاتهما بفضائله ، وتحقق لهم ما يريدون من قبل أن يفصحوا عنه، أما حق الملكية، الذى كان يخرق أو ينكر على الدوام ، فلم يمسسه سوء ، وسادت العدالة واستتب النظام فى المدينة فأمنت المعاملات التجارية ، وفتحت الحكومة كل مصادر الازدهار الزراعى، وتمت بالعناية الواجبة صيانة الترع التى تنقل مياه النهر ، والجسور التى توقف مجراها، وافتتحت خطوط اتصال جديدة، وعهد بإدارة هذه المشروعات الكبرى، والتى سددت تكاليفها بكل نزاهة ، إلى اثنين من خيرة كفاءاتنـــا ، ونشرت الأسلحة الفرنسية – الرادعة فقط لأعداء مصر– الرعب والفزع بين عصابات لصوص الصحراوات، وعقدت العدالة مع القوة حلفا دائما .

لقد كان كل واحد من التغيرات السابقة التى مرت بها هذه البلاد مؤشرا لقيام نظام جديد من القهر، ولم يكن الناس، وهم الذين قد اعتادوا ألا يروا فى سلطة الحاكم إلا حقه المطلق فى السلب والإيذاء، يستطيعون أن يتقبلوا أو يعقلوا أن النصر يمكن أن تعقبه سعادة عامة، وأن تكون له أغراض بمثل هذا النبل. وتفتحت القلوب فى النهاية للمعرفة، وظهرت مشاعر جديدة - لم يوح بها من قبل أى حاكم من حكامهم - ربطتهم بالحكومة الجديدة، وإلى الآن، لا يزال لاسم فرنسا سطوته فى هذه البلاد، ولن يكون فى وسع أية أحداث أن تمحوه.

كان القائد العام يرنو ببصره منذ وقت طويل إلى ربط البحرين، فاتجه إلى السويس على طرف الخليج العربى، واكتشف مع توجهه نحو الشمال، ولفت نظر مرافقيه إلى آثار ترعة قديمة، نفذها الملوك القدماء بهدف ربط النيل بالبحر الأحمر، وتتبع آثارها لوقت طويل، وبعد ذلك بأيام قليلة، تعرف - وكان قد اقترب من الأراضى التى ترويها مياه النيل - على الطرف الآخر لهذه الترعة، إلى الشرق من بوباسطة القديمة (*)، فأمر على الفور باتخاذ كافة الإجراءات الضرورية لتنفيذ المشروع الضخم الذى كان ينعم فيه النظر، وعهد بالمهمة إلى رجال، كان يقدر جدارتهم العليا وحماستهم، ربطوا معارفهم النظرية بكل معطيات التجربة وخبراتها.

كان لنفس هذه الرحلة كذلك - على الرغم من قصر مدتها - غرض آخر، فقد أمر القائد العام بالتعرف بدقة على ميناء الخليج وسواحله وظروف الملاحة فيه. لقد كان يتدبر أمور الدفاع عن السويس، وعدل الرسوم المتزايدة التى كانت مفروضة على التجارة، وبذلك جعل تجارة الصادر أكثر سهولة وأوفر أمنا، كما أنشأ علاقات ود ومصلحة مع عربان القبائل المجاورة.

ولم يتوان الجزء الدارى من مصر مطلقا فى أن يتحرر من ربقة المماليك، كان مراد قد التجأ إلى هناك، وتحالف مع نفس المماليك الذين سبق له أن طاردهم

(*) حاليا، تل بسطة بالشرقية. (المترجم).

بانتقامه ، وأصبح الآن يوجد بينهم وبينه خطر مشترك يهدد أقدارهم جميعا، واستدعى مراد لنجدته من الشاطئ المقابل للبحر الأحمر فيالق من أبناء مكة وينبع، وكانت ذكرى سلطته لاتزال تخضع له أبناء الريف وسكان الصحراوات المجاورة. جمع مراد كل هؤلاء، وجهز الإمدادات، وجبى من كل مكان ضرائب حرب ، ومع ذلك، فسواء كان هو الذى بدأ هجومه أو كان الفرنسيون هم الذين بادؤوه ، فقد هُزِم وشرع فى الفرار، محتفظا على الدوام بجزء من قواته. وحيث لا توجد بالصحراوات الوعرة طرق مجهولة بالنسبة له، فسرعان ما ظهر من جديد، على رأس قوات جديدة، ولقد تغلب الضباط القادة الذين أوكلت إليهم أمور هذه الهزيمة العسيرة (أى هزيمة مراد) على كل العقبات التى كانت تواجههم بكفاءة غير معتادة، واستعاروا على نحو ما نفس وسائل عدوهم وعاداته فى مواجهة شئون المعيشة، وسرعان ماتفوقوا على هذا العدو بسبب من جسارتهم وهمتهم، بل وكذلك بفضل معرفتهم بطبوغرافية مسرح القتال. وأخيرا أقصى المماليك من الصعيد، ودفع البعض منهم ثلاث مرات متواليات إلى ماوراء شلال أسوان، وانسحب بعض آخر منهم إلى الواحات التى تفصلها فراغات شاسعة وقاحلة عن وادى النيل، أما العربان فقد هلكوا أو تشتتوا ، ومسحت العدالة والسماحة قلق الشعب وذعره، وأتمت فعل النصر.

أما الجنرال الذى عهد إليه منذ البداية بمهمة احتلال الصعيد (*)، وأن يدمر هناك سلطة المماليك، فقد خفف من ويلات الحرب بأمارات متضاعفة من الحكمة وسمو الروح، كان يعيش من أجل آمال الوطن وشرفه ، وسرعان ما وجب عليه أن يهرع إلى سهول ايطاليا ، وأن يسهم بكفاءاته وشجاعته، بل وبالتضحية بحياته نفسها ، فى حدث خالد، كان له بالغ الأثر على الموقف فى أوربا ، وحين أنهى بعظمة ومجد، فوق ساحة المعركة، سجله المضئ، فقد وجد فى انتصار جيوشنا المكافأة على جهوده العظيمة، واختلطت بأنين أنفاسه الأخيرة صيحات النصر،

(*) الجنرال ديزيه Desaix .(المترجم).

وكان قد بث فى جيش الشرق، وفى قلوب سكان مصر شعورا عاما بالتعلق والإعجاب به، ولم تكن ذكراه أقل من حياته تبجيلا بفعل من مشاعر الحزن المؤثرة من جانب أولئك الذين كان قد حكمهم (فى مصر) أو بفعل الآلام الجليلة التى سرت بين الفرنسيين.

هذه هى وقائع الحملة التى فتحت لنا محراب مصر، وفى خلالها اكتشفنا هناك ذلك المعبد الرائع فى تنتيريس القديمة، كما اكتشفنا آثار طيبة الجديرة حقا بأشعار هوميروس، بالإضافة إلى بيوت الفراعنة، الملكية بمعنى الكلمة، ولقد توغلنا إلى ما وراء الفانتين، وفى هذه الجزيرة المقدسة، التى تبدو فى حد ذاتها وكأنها مبنى قائم بذاته، صرح شيده المصريون على شرف آلهة الفنون الجميلة. ولقد أخذ الجنود الفرنسيون الذين استدعتهم الحرب إلى ضفاف النيل إعجابا بهذا العمل الرائع، وتوقفوا كما لو كانت قد شدهتهم الدهشة والاحترام . وكان شاهدا على هذه الأحداث التى لن يلقى بها تاريخ الفنون الجميلة مطلقا إلى زوايا النسيان، رجل ذواقة لا يمكن أن يقدرها إلا واحد من نوعه، وستظل أعماله - التى قدمت لأوربا لأول مرة فكرة تامة وصحيحة عن آثار مصر - تلفت فى كل العصور انتباها قويا، إذ إن لها جمالها الذى لا يشع إلا منها، كما أنها تتجاوز بكثير ما يمكن للمرء أن ينتظره من جهد ومقدرة رجل بمفرده (*).

ولقد أحرز تطبيق النظريات الميكانيكية والكيميائية فى القاهرة تقدما كبيرا، وكنا قد جمعنا داخل نفس سور المبنى الكبير الذى خصص للعلوم كل العناصر والأدوات التى يمكنها أن تساعد فى تطور الصناعة، وكان يدير هذه المنشأة رئيس يدعو للاحترام، فقدته العلوم والوطن منذ عدة سنوات، وكان يجمع إلى حماسته المنزهة عن كل هوى كفاءة حاذقة معطاء ، كانت تفتح له آفاقا لم تكن مرئية، وكان بالفعل قد أثرى فرنسا بالكثير من الاختراعات، وسرعان ما منح مصر بعضا من

(*) لعله يشير هنا إلى فيفان دينون Vivant Denon . (المترجم) .

فنون أوربا بالغة الأهمية ، فأنشئت ماكينات هيدروليكية، وصنع الصلب والأسلحة والأجواخ والأدوات الرياضية والبصرية ، وقد قامت هذه المصانع الكبيرة خلال فترة الحملة بتهيئة ألوف الأشياء التى كان من شأنها أن تسهم فى نجاح الحرب وفى مباهج السلام. ولم يتوان أهل البلاد مطلقا عن الإفادة من المزايا التى حققتها هذه المنشآت ، فبدأوا يلتفتون إلى مصانعهم ويطورون الوسائل التى كانوا معتادين على استخدامها، كانوا يتأملون باهتمام شديد منتجات المصانع الفرنسية ثم يدأبون على تقليدها، واعترافا منهم بصنوف التفوق المختلفة التى وجدوها فى الغازى فقد خضعوا بمزيد من الثقة لسلطة الحكومة الجديدة الراعية. وكان صنع البارود من عمل شعبة خاصة، وحقق الشخص الذى عهد إليه بإدارتها- بتقديمه خدمات بالغة الخطر- كل الآمال التى أدركها بمعارفه وكل خبرته الطويلة . كان مجمع القاهرة يدير الأبحاث ، وكان الأشخاص المكونون له يضعون نصب أعينهم على الدوام مصالح الجيش ، والحرص على تقدم العلوم والفنون، وكان يشجعهم فى عملهم صداقة يقظة ومعونة حقة من ضابط يتحلى بأنبل وأعظم الصفات، كانت تنتظره فى ميادين سوريا ميتة مجيدة ، أثارت الأشجان والأسى (*) . كان نموذجا يكاد يستعصى على التقليد فى النزاهة والمثابرة والفضيلة، كان كأنما ولد من أجل كل الفضائل والعواطف الكريمة، وكان ينسى دون تصنع آلامه الخاصة ليشعر بقوة بآلام الآخرين، ولم يبد أحد على الإطلاق مثلما أبداه هو من نوايا طيبة ، من أجل سعادة الوطن وتقدم العقل والفنون، وقد أسهم فى كل الأبحاث العلمية التى شرعنا فيها فى ذلك الوقت، وقد شاء وفاء التاريخ أن ترتبط ذكراه بالاكتشافات التى كانت ثمرة لهذه الأبحاث.

ومن بين الأمور الجديرة بأن تلفت انتباه أوربا - العلم بأننا تمكنا من أن نحدد بدقة المواقع الجغرافية ، ولقد أعطينا لهذا الإنجاز الكبير كل عناية مثابرة ، كما لجأنا لكل الوسائل والطرق التى تضمن دقته ، كما تأسس ذلك - فى

(*) لعله يقصد الجنرال كافاريللى . (المترجم) .

جزء منه – على ملاحظات فلكية تحدد موضع المدن والأماكن بالغة الأهمية. ولقد شرعنا فى هذه الأعمال – التى ندين بها لمواهب متمرسة بذلت أقصى ما فى طاقتها من حماسة مرجوة – وسط قعقعة الحرب وفى داخل أقاليم متباعدة ، لم تخضع لنا إلا منذ عهد جد قريب ، وكان خضوعها علاوة على ذلك غير مؤكد ، وكنا نضطر فى مرات كثيرة أن نستبدل الأسلحة بأدوات القياس، وعلى نحو ما، أن نصارع وأن نخضع الأرض التى جئنا لقياسها.

كانت مصر قد تخلصت من السلطة التى كانت تقهرها، وكنا قد اقتصصنا من الإهانات التى وجهت إلى الأمة الفرنسية، وكان لنا أن نأمل أن هذه الأحداث لن تشعل مطلقا الحرب بيننا وبين الامبراطورية العثمانية. وفى الواقع، فلقد كانت هذه الولاية الجميلة منذ وقت طويل فريسة سائغة لبعض عبيد (مماليك) ينشدون الاستقلال ، وكانوا يزدرون – عن طريق إهانات مستمرة – صاحب الجلالة السلطان، بالإضافة إلى ازدرائهم لجلال الشريعة والدين . وكان الباشا، المفترض أنه مطاع من جانبهم – أسيرا لهم، وشاهدا لاحول له على فظاعتهم التى كانت تمر دوما دون عقاب، وأصبحت السلطة التى لاينفكون يتنازعون عليها هى المكافأة التقليدية للجريمة والنكران . وحين يتوصل واحد منهم – إما بفعل السم ، وإما عن طريق الحديد والنار – إلى تدمير كل أصحاب الفضل عليه وكل منافسيه، فلن يكون هذا النجاح سوى أمارة على عصيان موجه ضد الباب العالى. كان أكثر هؤلاء خضوعا ينازع فى تسديد الضريبة الضئيلة التى قررها الباب (على مصر)، أما الآخرون فيرفضون سدادها بشكل صريح . ولقد أرهقوا بابتزازاتهم ، التجارة الداخلية وتجارة أوربا والجزيرة العربية وأفريقيا، كما أرهقوا الزراعة وكل الحرف النافعة، كما كانوا يمارسون على الشعب سلطة منفرة جامحة.

وقد يكون من الأوفق أن نقول إن الأسلحة الفرنسية قد خلصت مصر، لا أنها قد هزمتها. ولسوف تمضى هذه الأرض البائسة، والتى ظلت حتى ذلك الوقت خصيبة دون جدوى، نحو حالة من الازدهار السريع، كما أن مآل هذا التطور الذى

لايمكن أن تفزع منه سوى قوة أوربية واحدة (*) لم يكن ليتعارض مطلقا مع مصالح الامبراطورية العثمانية، بل كان يمكن لهذه، على العكس من ذلك، أن تزيد من عوائدها ، وأن تدعم سلطتها فى إقليمين هامين (من أقاليمها) ، وكان المنتظر من بلاط القسطنطينية أن يفضل أقدم حليفاته على رعايا له لكنهم عصاة متمردون، لم يكن سيفقد مصر وسوريا، بل كان سيسترجعهما على نحو ما ، كان ينبغى على هذا البلاط أن يرى فى قيام مؤسسة (مستعمرة) تحت رعاية وحماية جيش قوى، وتعاونه كل فنون أوربا، أمرا يعد كلا الدولتين بمزايا واسعة، وبوسعه أن يدعم سطوة الاسم العثمانى فى آسيا وأفريقيا. لكن هذه الاعتبارات لم تكن محل تقدير على الإطلاق، كان ضباط الامبراطورية، القادرون على إدراك واستبصار هذه الدوافع معزولين أو منفيين، ولقد أكد الانتصار البحرى الذى أحرز فى أبى قير، لدى هذه الحكومة، الرأى الذى كان لايزال غير مؤكد، فأذعنت لنصائح أعداء فرنسا الذين أوحوا إليها بمحاذيرهم الخاصة، وسرعان ما انساقت إلى حرب وإلى تحالف مضادين لنا.

كان قائد الحملة الفرنسية قد بذل أكبر الجهود ليتفادى هذه القطيعة، كان يدير أسلحته فقط ضد أعداء السلطان، وعمل على توكيد الاحترام لاسم السلطان باعتباره الحاكم الشرعى (لمصر) ، كما راعى بكل عناية العادات والتقاليد الدينية والسياسية. كان جيشه يسلك فى مصر باعتباره جيشا معاونا للباب، ولم يسبق لهذه الولاية أن كانت محكومة بشكل أفضل، ولاتتمتع بممارسة عباداتها على نحو أيسر، ولم تكن قد خضعت من قبل مطلقاً لحكام أكثر استعدادا للاعتراف بسلطة القسطنطينية، لكنه بثاقب بصره كان يصارع وحده ضد كل العقبات، ولم تساعده السلطات فى فرنسا نفسها إلا بشروع فى التفاوض متأخر وغير كاف . وحدس فى هذه الظروف أن الأمر سرعان مايحتم عليه أن يدافع عن مصر ضد قوات

(*) يقصد انجلترا.(المترجم) .

هائلة، لذا فقد قر عزمه على مشروع يتميز بجرأة غير عادية، هو أن يتوقى الهجوم المتوقع بأن ينقل الحرب إلى قلب سوريا نفسها.

كانت هذه البلاد تخضع في جزء منها لسيطرة رجل كانت قساواته وغدره وخياناته قد جعلت اسمه شهيرا في كل الشرق، لقد كان أحمد الجزار لوقت طويل عبدا في القاهرة، حيث عوقب كثيرا من جراء سرقاته المنزلية، بل لقد كان يتميز بين المماليك أنفسهم بمخاتلة وشراسة غير عاديتين، وكان قد خان على التوالي كلا من : علي بك ، والدروز ، والعرب ، وبلاط القسطنطينية . كان عندئذ حاكم صيدا ، وكان يقيم في عكا، وهي بتوليمايس القديمة Ptolémais . بدا الجزار في الظاهر معتنقا قضية بكوات مصر، وتقدم – مخفيا في الحقيقة طموحات أكبر – ليقود الحملة التي كانت تدبر ضد الجيش الفرنسي . وفي الوقت الذي كانت فيه هذه الاستعدادات تهز كل آسيا الصغرى وسوريا، عمل هذا الباشا منذ البداية على أن تحتل طلائع قواته مناطق الحدود، لم يكن ليتخيل مطلقا أن عليه أن يخوض هو نفسه حربا دفاعية. وكان كل شئ ينبئ بأن مصر توشك أن تتعرض لهجوم عن طريق البحر، في الوقت الذي تصبح فيه عمليات الإنزال ممكنة، وكانت الخطة تقضي في نفس الوقت بتسيير القوات التي تجمعت في سوريا، وتلك التي يمكن أن يكون البكوات قد احتفظوا بها في الصعيد. وحين تبين للقائد العام – وهو الذي سبق له أن اخترق مشروعات الحلفاء – أنه ينبغي أن تمضي عدة أشهر قبل أن يكون باستطاعة أعدائه القيام بأي إنزال للجنود، قرر أن يحمل على وجه السرعة، مع اثني عشر ألفا من الرجال على سوريا ، وأن يشتت القوات التي تجمعت هناك ، ثم يعود على الفور ليواجه الحملة التي كانت تهدد السواحل . مثل هذا المشروع لم يكن ليتحقق إلا على يد جيش مقدام ، متمرس على كل الفضائل العسكرية ، وفي الواقع فإن التاريخ المفصل لهذه الحملة يستطيع أن يقدم الكثير من الملامح التي لم يسبق لأحد أن سمع بمثلها عن الشرف والقيم الفرنسية. كان علينا أن نتوغل تحت سماء ملتهبة إلى ما وراء صحراء شاسعة ومجهولة ، وأن نغزو

بغتة بلدا أجنبيا تذود عنه قوات متفوقة. كان ثمة أسطول إنجليزى فى البحر، وكان سكان المدن وكذا العربان الجوابون مسلحين ضدنا، لم يكن بهذه الأرض المعادية إلا كل ما يناصبنا العداء، ولم يكن جنودنا بقادرين على أن يخطوا فيها خطوة واحدة دون أن يلقوا مصاعب جديدة، لكن ثقة لا تحول كانت تسمو بهم فوق كل المخاطر، فأخذوا يتقدمون بسرعة فى الصحراء الشاسعة التى تفصلهم عن سوريا، واستسلم حصن العريش، ثم استسلمت غزة، واستولينا بالقوة العنيفة على يافا أو Joppé القديمة، وقررنا فى ميناء حيفا، وعثرنا فى هذه المناطق ، وفى مناطق أخرى متفرقة ، على ذخائر، ومعدات قتال، ومخازن هائلة، ومؤن من كل نوع .

كانت أول فرقة من الجيش المعادى، يتلوها المماليك والعرب ، قد تقدمت بالفعل إلى هذا الجزء من سوريا، وأخذت هذه القوات فى معسكراتها على غزة، وظلت تتراجع مندفعة على الدوام، تاركة فى ميادين القتال كل ما لديها من مدافع، وكل معدات القتال التى كانت تتطلبها حملة مدبرة ضد مصر . وفى النهاية شرع قادة الفرق التركية الذين لديهم الكثير من الفرسان ، فى تجميع قواتهم إلى قوات حلفائهم ، وفى أن يحملوا على الفرنسيين وهم يحاصرون مدينة عكا التى كان قد انسحب إليها ولاذ بها أحمد الجزار . لكن القائد العام توقاهم كذلك، ورأى أن من الضرورى أن يلتقى معهم فى معركة حاسمة ، لكى يدفع بهم نحو دمشق . وحين هوجم هؤلاء فى نفس الوقت فى مناطق بالغة البعد، لم يستطيعوا مقاومة هذه التحركات الجسورة بل المتهورة وغير المتوقعة، ووجدوا أنفسهم قد انفصلوا عن معسكراتهم، محرومين من كل مؤونتهم ، وشبه محاصرين من كل جانب، وسقط الكثيرون منهم إعياء فى ازدريلون أو فى المعارك السابقة، أما الآخرون فقد لاذوا بالفرار ملتمسين الأمان عن طريق تقهقر متسرع ذى جلبة . كان الفرنسيون قد استولوا منذ البداية على كل الأماكن التى قد يلوذ بها العدو، كما استعاضوا عن قلة عددهم بخفتهم فى التحرك وسرعتهم فى الزحف، بحيث كان يبدو أن ليس ثمة

نقطة فى الميدان إلا وهم يتجمعون فيها، وكانت النهاية الظافرة (!) لهذه المعارك قد حطمت آخر آمال العثمانيين ، وملأت بالرعب قلوب الأقوام الذين تحالفوا معهم، فعادت تلتمس الأردن بقايا هذه الفرق العسكرية (المعادية)، بشكل بالغ الاضطراب، حاملة معها الفزع إلى داخل مناطق شديدة البعد.

وفى الوقت الذى كان فيه جزء من قواتنا يقاتل على أرض فلسطين بشكل مجيد، كانت قواتنا التى بقيت بمصر تكمل احتلال بقية البلاد ، ابتداء من أسوان حتى البحر (المتوسط) ، وقام الإنجليز بمحاولة لا طائل من ورائها ضد السويس، ومع ذلك فقد تم صد عرب مكة ، وتم الاستيلاء على كل الصعيد، وقمعت حركات العصيان التى اندلعت فى الأقاليم الشمالية، وكان يسهر على الدفاع عن الأسكندرية والسواحل فطنة حاذقة .

وفى نفس الوقت فإن باشا عكا قد تخندق فى ملاذه الأخير، وجاءه العون من البحر ضد الفرنسيين الذين كانت تنقصهم المؤن والمدفعية اللازمة للحصار، وأمكن لهذا الباشا أن يحصن دفاعاته ، بحيث تستطيع أن تصمد لوقت أبعد من الوقت الذى يمكن لجيشنا أن يبقى فيه فى سوريا . كان الغرض الحقيقى من وراء هذه الحرب قد تحقق، فلقد أحدثنا الارتباك فى مشروعات العدو، واستولينا على مخازنه ومعداته الحربية ، ودمرنا حصونه وأفنينا جيشا كبيرا كان يستعد لغزو مصر، وكانت قوات الإنزال المخصصة للهجوم على الأسكندرية قد حولت عن غرضها، واستخدمت فى دعم حصار قاتل . كان استيلاؤنا على عكا يضمن لنا عقاب أحد المماليك السفاحين ، الذى كان يستحق الإعدام بسبب ما اقترفه طيلة حياته ، والذى لا يمكن لأى ارتباط به أن يوحى إلا بالفزع، لكن هذا الحصار – فى نفس الوقت – كان يقتضى منا مزيدا من الوقت ، ولم يكن من شأن النصر أن يقدم لنا إلا مزايا هزيلة ، لا يمكن لها مطلقا أن تكون عوضا عن أخطار البقاء هناك مدة أطول من ذلك، وفى ذلك الوقت كانت الأمراض المعدية تنشر رعبا عاما، وكانت تنتشر فى كل أنحاء سوريا بسرعة هائلة، وتزداد بشاعتها أكثر فأكثر،

وأخيرا فلقد اقترب ذلك الوقت الذى يمكن أن تهاجم فيه مصر نفسها من البحر. وفى الحقيقة فإن هذه الحملة لم يعد بمقدورها أن تحصل على دعم من الجيش العثمانى فى سوريا، الذى شتتناه للتو، وإن كانت قد بقيت للعدو مع ذلك قوات هائلة .

لقد جعلت هذه الظروف من عودتنا أمرا لا مناص منه، وأنذر القائد العام قواته بأن الدفاع عن سواحل مصر سيفرض عليها جهودا جديدة . وعبرت هذه القوات للمرة الثانية تلك الصحراء التى تفصل مصر عن سوريا، وقبل ابتعادنا عن القطر الأخير عاقبنا بقسوة تلك القبائل التى نكصت عن وعودها ، وخانت مواثيقها مع الفرنسيين، ثم دمرنا المؤن الحربية وكل المصادر التى يمكنها أن تسهل تجهيز حملة معادية بعد ذلك .

وسرعان ما استقبلت عاصمة مصر هذا الجيش الذى واجه الكثير من المخاطر وضرب الأمثلة على كل الفضائل، وتوجه وجهاء المدينة لاستقباله، وتبعتهم حشود هائلة كانت تحيى قواتنا بالهتافات والتهليل والألعاب ، وفى النهاية، ذاق الفرنسيون بهجة الالتقاء برفقاء السلاح. أما الاستقبال المؤثر الذى قدمته هذه الحشود ، فلن ينمحى أبدا من الذاكرة ، إذن فقد بدأ الرفاق يتحادثون معا عن المخاطر التى عليهم أن يواجهوها بعزائمهم وآمالهم، وبدا أن مصر قد أصبحت بالنسبة لهم وطنا جديدا، وأنهم لم يعودوا يشكلون إلا أسرة واحدة .

بعد وقت قصير تعرف القائد العام على حركات متفرقة كانت قد تمت بالداخل، وكان مشروع الغزو المرتقب يوشك أن يفجرها. وفى الواقع فإن المماليك قد هبطوا إلى ضفتى النهر، وتجمع عربان الغرب ليلحقوا بمراد بالقرب من وادى بحيرات النطرون ، فى نفس الوقت الذى ظهر فيه أسطول أبى قير. كنا قد ارتقبنا هذه الظروف ، وهوجم العدو فى وقت واحد فى كل مكان ظهر فيه ، وتحرك طابور شتت العربان ، أما المماليك من حزب إبراهيم، الذين فوجئوا داخل

معسكرهم فقد ولوا الأدبار على الفور نحو الصحراء تاركين أمتعتهم ، وأما مراد – وهو أكثر فطنة وأكثر حذرا – فقد أسرع يلتمس مصر العليا، وكان القائد العام نفسه يجد في أثره ، وحين بلغه ظهور الأسطول المعادى اتجه على الفور نحو الأسكندرية ، وفي أثناء هذه المسيرة أرسل أوامر بالغة السرعة إلى مختلف فرق الجيش التى شرعت كلها فى التحرك فى وقت واحد، وعمل على مراقبة واحتواء المماليك والعربان، واتخذ وضعا يمكنه من تقديم العون إلى رشيد أو إلى الأسكندرية (إذا هوجمت أى منهما).

كانت قوات عثمانية قد نزلت فوق شبه جزيرة أبى قير واستقرت هناك بعد أن انتزعت الحصن بعد استسلامه، وقر رأى القائد العام على أن يهاجم هذه القوات على الفور وهى وراء حصونها، وكللت كل الهجمات التى تمت على كل المواقع بنجاح سريع، ولم تستطع خطوط العدو أن تصمد أمام الهجمات الجسورة والمتهورة من جانب الفرنسيين، أما العثمانيون فقد دفعهم اليأس إلى استخدام السلاح الأبيض ، ورفضوا رفضا شبه إجماعى أن يقعوا فى الأسر، وعندما أحيط بهم من كل جانب سقطوا صرعى أو هرعوا إلى البحر محاولين– دون جدوى– الوصول إلى السفن التى جاءت بهم، وهلك منهم عدد كبير فى ميدان المعركة، ومات معظمهم بين الأمواج بفعل نيران مدفعيتنا ، واستولينا على بنادق وخيام وذخائر حربية . أما الباشا الذى كان يقود الحملة فقد وقع هو نفسه فى قبضتنا ، وتحصن ابن هذا الجنرال سيئ الحظ داخل الحصن مع من تبقى من قواته، وشرع يخوض دفاعا بالغ العناد. وفى النهاية، وحين رأى آخر من تبقى من جنود هذا الجيش أسطولهم يدمر بفعل المدافع الفرنسية، وعندما رأوا أنفسهم مشرفين على الموت من الجوع أو العطش أو الإرهاق، ألقوا بأسلحتهم واستعطفوا المنتصر، وكان الحصن قد أصبح كومة من الأنقاض ، تغطيها أجساد القتلى والجرحى ، أجساد أولئك الذين هلكوا أثناء الحصار.

فى الوقت الذى كانت تدور فيه هذه الأحداث فى سوريا ومصر، وكان جيش

الشرق يدافع بثبات وإصرار عن الأرض الشهيرة التى فتحها، كانت فرنسا قد انغمست فى انشقاقات وخلافات مدنية، وكانت جبهاتنا (فى أوربا) مهددة . لقد أصبحت هذه الأوقات العصيبة جد بعيدة عنا، ويحول شعور الألفة السائد اليوم دون أن ننقب فيها. لقد أبلغ القائد العام بحقيقة الأوضاع فى أوربا وبالكوارث التى تحيق بفرنسا ، وأوحت له معرفته بهذه الأحداث بالرغبة فى معاودة الظهور بين جيوشنا، فقرر بعد ذلك النجاح الذى أحرزه فى أبى قير بأن ينفذ هذا المشروع الذى كانت عواقبه وخيمة على أعدائنا . وكانت مصر قد أُلزمت الهدوء ، ولم يكن بالإمكان – لوقت طويل – أن تكون عرضة لهجمات جديدة، وكان المماليك قد فروا إما إلى داخل فلسطين أو إلى حدود النوبة، وكان العربان يجدون سعيا فى الحصول على تحالف معنا. وبذل الصدر الأعظم جهودا لا جدوى منها كى يجمع قواته فيما وراء دمشق، فقد كانت الحملة الفرنسية على الشام قد دمرت كل المصادر التى يحتاجها أى تجهيز لمسيرة جيش ، وكانت الشواطئ (المصرية) – ابتداء من الأسكندرية حتى دمياط – قد وضعت فى حالة دفاع ، وكانت الحصون مزودة بالمؤن وذخائر الحرب . وكانت مدينة القاهرة منذ وقت طويل تجنى ثمار وجود إدارة راعية ، فظهرت بمظهر العارف بالجميل، وخصص القائد العام كل اللحظات التى سبقت رحيله فى تحسين وتطوير المنشآت العسكرية والإدارات المدنية، جاهدا فى أن يجعل وجوده بشخصه أقل ضرورة بقدر الإمكان، وفى نفس الوقت كان يعلم أن المراكب المعادية قد اضطرت للتخلى عن القيام بعمليات المراقبة البحرية، عندئذ رحل إلى الأسكندرية، وبعد ذلك بقليل غادر شواطئ مصر. لقد دعاه الواجب وأمن فرنسا، لقد ابتعد وكشف عن مكنون سره لذلك الرجل الذى عمل فى خدمة مشروعاته الأولى، وأخفاه الحظ عن أساطيل الأعداء، ورد البحر ، الذى كان مخلصا للمرة الثانية، إلى أرض الوطن ذلك الرجل القادر على التصدى لأعدائه الخطرين .

ولم يكن القائد العام طيلة مدة حرب مصر وسوريا ليكف مطلقا عن رعاية

مصالح العلوم ، فقد كان هذا المشروع الكبير حاضرا على الدوام فى ذهنه ، سواء قبل انتصاره أو بعده ، وسواء كان يقود العمليات العسكرية أو كان يفكر فى أوضاع إدارية أو اجتماعية جديدة، فكان يعهد - وهو بين المعسكرات - إلى عبقرية الفنون الجميلة أن تخلد ذكرى المعارك التى أضاءت سماوات فلسطين والفيوم والصعيد . وفى الأيام الأخيرة التى سبقت رحيله كان لايزال مشغولا بتشجيع الأبحاث العلمية ، وذلك بأن قدم للأكاديمية التى كان قد كونها الوسائل اللازمة لاجتياز وعبور المناطق المدارية من مصر ، وللاحظة أعاجيبها بأمان، وأصبحت هذه الرحلة التى ستزود الفنون والآداب بالكثير من النتائج موضوعا مباشرا لعنايته وتقديره، فقد وضع بنفسه خط سيرها، وهيأ لها كل الظروف المواتية مع حيطة ويقظة بالغتين .

كنا فى ذلك الفصل من العام، الذى تسهل فيه رياحه القوية الملاحة فى النيل، عندئذ كان ميسورا علينا أن نصعد فى وقت قصير إلى جزيرة الفانتين ، وفى نفس الوقت، عزمنا على أن نبلغ كل الأماكن التى تقع بها الآثار، بغية التعرف أولا على الأشياء التى ينبغى لنا أن نصفها، وأن نضع عن طريق هذا الحصر الأولى، نظاما أكثر دقة فى أبحاثنا. وحين وصلنا إلى الحدود التى تفصل مصر عن النوبة ، إلى الجنوب من الشلال الأول، هبطنا مجرى النيل ابتداء من أسوان حتى القاهرة، ووضعنا كل أثر مرة أخرى تحت فحص بالغ الدقة، فما أن كانت السفن تلمس الشاطئ ، حتى كنا نهرع لنجتاز من كل جانب تلك الأسوار أو الأفنية التى يمكن أن نجد بها بعض بقايا لمنشآت قديمة. وأقمنا خرائط طبوغرافية، ورسمنا مناظر طبيعية مع كثير من مشاهد تصويرية لكل مبنى ، كما قسنا الأبعاد المعمارية بالإضافة إلى التفاصيل التى لاحد لها للزينات ، وقلدنا بأمانة اللوحات المرسومة أو المحفورة مع كل الحروف الهيروغليفية التى تغطيها، وفى الوقت نفسه كنا نلحظ الحالة الراهنة للأطلال ، وأساليب البناء ، وطبيعة المواد التى بنيت بها المنشآت، ودونا الكتابات العادية أو التاريخية أو تلك التى

تختص بالنذور والمناسبات الدينية الأخرى، والتى تذكر بكثير من الأسماء اللامعة . وقام آخرون منا بقياس سرعة المياه وكمية ترسيب التربة وارتفاعات الأرض، وحدد فريق ثالث المواقع الجغرافية عن طريق ملاحظات فلكية. لقد أكببنا على فحص طبيعى للمنطقة ، كما جمعنا مجموعات ثمينة من الحيوانات والمعادن والنباتات وكل العناصر التى من شأن دراستنا لها أن تطلعنا على الثروات الزراعية وكذلك التجارة والعادات والتقاليد والوضع الاجتماعى للسكان .

وكان من الضرورى أن نلحق بدراسة الخواص الفيزيقية للطقس، دراسة عن الأثر الذى تحدثه هذه الخواص على حياة وصحة الإنسان، وإننا لندين بهذه الأبحاث لأناس وهبوا أنفسهم بحكم مهنتهم لمختلف فروع فن العلاج (الطب) ، وقد رسم خطة هذه الأبحاث كبير أطباء جيش الشرق (*) ، وقام بتجميعها وبنشرها، كما أننا مدينون لكبير جراحى هذا الجيش (**) بعمل من نفس النوع يضم عددا كبيرا من الملاحظات . ولقد حصلا، بخلاف المزايا الأدبية التى يضفيها عليهما نشر هذه الأبحاث، كما حصل زملاؤهما – على مزايا أخرى كنوع من العرفان العام . وسوف يظل يذكر تاريخ هذه الحملة لكل هؤلاء كل الخدمات التى أدوها، «ينابيع الحذق والجسارة التى أملتها عليهم كفاءتهم ، سواء عندما كانوا يحملون المواساة والأمل إلى ميادين المعارك بين أشد أهوال الحروب وأكثرها إثارة للفزع، أو عندما كانوا يواجهون بروح هادئة الدمار المروع الذى كانت تحدثه الأوبئة ، والفزع القاتل الذى كانت تسببه هذه الأمراض فيعصف بنفوس الألوف.

وقبل أن نشرع فى الرحلة التى أشرت من قبل إليها، كان عديد من الأشخاص المتحمسين لتقدم العلوم قد توجهوا بالفعل إلى الصعيد أو إلى الفيوم، وفى خلال الإقامة الطويلة التى كانت لهم هناك، كانوا قد عكفوا على وصف دقيق

(*) ديجينيت Desgintles . (المترجم) .

(**) البارون لارى Larry . (المترجم) .

للآثار ، وعلى أبحاث هامة حول مجرى النيل، والطبيعة الفيزيقية للأرض، وزراعة وتجارة وجغرافية البلاد القديمة، وأسرعوا يضمون إلى المؤلف العام كل النتائج التى سبق أن حصلوا عليها.

وقد أنجزت مختلف أجزاء هذا العمل الضخم فى نفس الوقت، فكان كل منا قد انغمس بشكل خاص بموضوع دراساته المعتاد، وكان ينقل إلى الآخرين أفكاره ووجهات نظره، ولقد سهل هذا التعاون المثمر – وهو الذى لا يوجد مثيل له على الإطلاق فى تاريخ الرحلات العلمية – القيام بكل الاكتشافات، وجعل منها اكتشافات أصيلة وصادقة إن صح التعبير، لقد كان الصالح العام للفنون والعلوم والآداب يؤلف بسهولة ما بين العقول ، مبقيا فى الوقت ذاته على تنوع الآراء واختلافها، وسيظل التقدير المتبادل هو أكثر البراهين وثوقا على تآلف وتكامل وجهات النظر، وكانت تربط بين هؤلاء – فضلا عن ذلك – صداقة قديمة، الأمر الذى جعل المصاعب أكثر يسرا ، كما جعل المسرات أكثر بهجة، كما كان يعطى جرعات متجددة من القوة عند مواجهة المخاطر المشتركة، ومن الصلابة كلما اشتدت مشقات البعد عن الوطن.

لم يسبق لأى بلد آخر أن خضع لأبحاث بمثل هذا الشمول وهذا التنوع، وفضلا عن ذلك فليست هناك بلاد أخرى جديرة بأن تكون موضوعا لأبحاث كهذه، فمعرفة مصر أمر يهم فى الحقيقة كل الأمم المتحضرة، سواء لأن هذه البلاد هى مهد الفنون والنظم الدينية، أو لأن بإمكانها – حتى اليوم – أن تصبح مركزا للعلاقات الدولية ولتجارة الامبراطوريات . ولقد ترك الشعب الذى كان يسكنها آثارا تدعو للإعجاب بعظمتها وقوتها ونفوذها، كما أن الفنون لم تبذل على الإطلاق فى مكان آخر مثل هذا الجهد ، كى تسمو إلى هذا الطابع الذى لا يحول والذى يماثل فى ذلك أعمال الطبيعة ذاتها.

وفى هذه الأثناء كان الحلفاء قد حاولوا دون جدوى أن يستولوا على ميناء القصير، وبعد ذلك بوقت قصير استعاضت حامية دمياط الضعيفة عن عددها الضئيل بالجرأة والجسارة وسرعة الحركة، فدمرت فرقة قوامها أربعة آلاف من جنود الإنكشارية أنزلوا عن طريق البحر وبدأوا يتخذون مواقعهم على الساحل . ومع ذلك فإن الفرنسيين الموكلين بالدفاع عن مصر كانوا يجهلون الأحداث السياسية التى أعادت الأمن إلى وطنهم ، وحطمت للأبد الآمال الطموح للقوى المعادية، كانوا لايعرفون بعد إلا أن وطنهم يعيش فى الآلام والشقاء، لذلك فقد كان الوطن موضوع قلقهم وأسفهم . وتجددت (*) تلك المفاوضات التى كانت تهدف إلى التوافق مع الباب العالى، وعلى حين غرة، اتخذت هذه المفاوضات وجهة مختلفة وغير متوقعة، ولهذا أعد وأبرم على وجه السرعة اتفاق العريش العسكرى ، الذى تم الإقرار فيه على أن تعود الفرق العسكرية إلى موانيها (فرنسا)، بعد أن توافق على تسليم مصر إلى سلطة الباب العثمانى، على مراكب مملوكة للقوى المتحالفة.

وعلى الفور بدأت تتم الالتزامات المتبادلة، ودخلت إلى مصر - بحرية تامة - قوات كبيرة، نظامية وغير نظامية للوزير (الصدر الأعظم) والبكوات ، وتقدمت حتى بلغت أبواب القاهرة، وبدأ كل شئ ينذر بأن هذه البلاد الجميلة ستعود من جديد لتقع فى براثن سادتها القدامى، لكن سببين مختلفين أسهما فى تغير مباغت لما تهيأت له النفوس، كان أولهما هو الإعلان عن ثورة حدثت فى الحكومة المدنية لفرنسا .

استسلم الجيش للمشاعر الجديدة التى أوحت بها إليه هذه الأحداث حين رفض الطرف الآخر تنفيذ الشروط التى كان قد قبلها، ويعود السبب فى ذلك إلى القوى المتحالفة التى ساهمت بأكبر نصيب فى إبرام هذا الاتفاق الذى اقترح

(*) يستخدم المؤلف الضمير on ، وهو ضمير نكرة لايحدد بدقة شخص الفاعل ، وبذلك يروغ هنا وفى كل السياق لهذه الدراسة من تحديد مسئولية الأطراف المختلفة. (المترجم) .

ووفق عليه باسمها، فلقد وضع عند التنفيذ عقبةً غير متوقعة حين وجه إلى القوات الفرنسية اشتراطاً مهيناً بأن تبقى أسيرة فى مصر، كان الطرف الثانى - بهذا الاشتراط - يجدُ فى هذا التنكر لوعوده، للحصول على امتياز لم يكن ليتوقع الوصول إليه بقوة السلاح . وفى هذا الوقت كانت القوات العثمانية قد استحوذت على الصعيد ، وعلى كل المناطق ابتداء من موانى البحر الأحمر حتى دمياط، وكنا قد سحبنا مدفعيتنا من قلعة القاهرة ، وكان من المفترض أن نسلم العاصمة نفسها بعد ذلك بيومين، كما كانت المؤن والذخائر بالفعل قد نقلت إلى الأسكندرية، وأصبح الجيش الذى كانت فى حوزته قبل ذلك بيومين أقاليم عديدة ثرية وخصيبة، محروما من وسائل مواصلة الحرب ، ولم يعد يتملك من أرض مصر إلا تلك التى يصطف عليها، ومع ذلك فإن ظروفا غير عادية كذلك، كانت قد رفعت من معنوياته، لم تكن لجيشنا إلا غاية واحدة أو هدف واحد، وكان الشخص الذى يقوده قد بث فى كل القلوب سخطا كان يثيره هو، وتعرف أوربا سلسلة المعارك الخالدة التى تلت هذه القطيعة، ثم جاء النصر - وهو أكثر وفاء من كل المعاهدات - ليبسط حمايته على أولئك الذين لم يترك لهم مكان يلوذون به سوى الصحراء، وشُتت وأُفنى الجيش العثمانى. الذى هاجمه الفرنسيون بالقرب من خرائب هليوبوليس، واجتاز الصدر الأعظم - شبه وحيد خلال هروبه المتعجل - نفس البلاد التى سبق له أن توغل فيها ومعه قوات هائلة، وفقد ثلاثة معسكرات بالإضافة إلى مدفعيته ومؤنه العسكرية، كما استعدنا الحصون التى كانت قد سلمت له، وقمعت حركات التمرد التى كان قد أشعلها فى كل المدن فى وقت واحد، وطردت قواته من الصعيد ومن دمياط .

أما العاصمة نفسها فقد فاجأها المماليك والانكشاريون، وتحولت على الفور إلى ميدان قتال فسيح، تنهشها أهوال الحرب والتمرد ، وبعد أن شاهدت المدينة جزءا من مبانيها تضطرم فيه النيران ويتحول إلى أنقاض، فى الوقت الذى تطيع فيه قادة منقسمين تفرق بينهم مصالحهم الخاصة، وحين أفزعها ما حدث لمدينة

مجاورة، نالت من قبل عقابا صارما وقاسيا، استسلمت مستعطفة الغازى . أما الفرق التى سبق أن تجمعت فيها والتى كانت قبل ذلك بوقت قصير تتقدم ضدنا حين كان البحر موصدا أمامنا، خارقة بذلك أكثر المعاهدات توثيقا- فقد التمس جنودها التسليم والإذعان ، وعندما تم لها ذلك عبرت معسكراتنا فى أمان، وتذوق الفرنسيون الثمار الأولى للنصر، وتشبثوا بالبنود والقرارات الثابتة التى تمليها عليهم المصالح الحقيقية لوطنهم . وفجأة وقع حادث مؤسف أغرق الفرنسيين فى الرعب والوجوم، لقد تآمر أغوات الانكشارية الذين لجأوا إلى سوريا ضد حياة القائد الفرنسى، وأغروا واحدا من أبناء حلب تملى عليه ديانته كل حركاته، أن يضحى بحياته فى مقابل هذه الجريمة الكبرى ، ووصل هذا الشاب المخبول، الذى كان من السهل غوايته بفعل سنه، بطريقة سرية إلى القاهرة، وبعد أن قضى ثلاثين يوما فى الصلاة بالمساجد، ارتكب جريمته البشعة. كان كليبر أعزل من السلاح، بعيدا عن حراسه ، وطعن مرات عديدة بالخنجر، ولفظ أنفاسه بعد ذلك بلحظات ، وبمجرد أن انتشر خبر هذا الاغتيال الجديد فى كل أقاليم مصر عبر جيش الشرق عن مشاعر حزن تام وجماعى، وروى بالدموع مقبرة قائد لامع، مسح لتوه بالنصر مهانات المفاوضات ، ثم سقط صريعا وسط مغانم انتصاراته، وقد كان الوطن يعده واحدا من أكثر من دافعوا عنه فداء وتضحية . وتجمع القادة العسكريون منذ اللحظات الأولى التى أعقبت وفاته ، وعلى الفور وجه الشخص الذى كانت ترشحه القوانين العسكرية لقيادة الجيش من الأوامر ما تحتمه خطورة الظروف ، وأخذت القوات العسكرية تظهر على التوالى أمام الناس ، وأطلقت المدافع ، ووضعت الأعلام الفرنسية على مآذن المساجد. كانت هذه الاحتياطات ضرورية للغاية، إذ كان من المعتاد فى بلاد الشرق هذه - خلال الثورات وحركات التمرد التى تهزها وتشيع فيها القلق - أن يتلو الميتة العنيفة لزعيم ما دمار حزبه وتشتت جنوده . كان قد ألقى القبض على القاتل سليمان، ولم يشارك فى جريمته أى واحد من المصريين، واكتشف ثلاثة متواطئون كان قد ائتمنهم على سره،

وكانوا مثله من أصل سورى، وحكم عليهم جميعا بالعقوبات التى ينبغى أن يحكم عليهم بها تبعا للشريعة الإسلامية، وفى خلال المدة الطويلة التى استغرقها إعدام سليمان كان يقرأ بعض آيات من القرآن، كما كان ينعى على المسلمين أنهم لم يقدموا له العون .

وأسهم سكان العاصمة فى إضفاء طابع المهابة على جنازة قائد الجيش الفرنسى ، وسرعان ما رأوا خليفته يمضى قدما فى تنفيذ المشروعات النافعة التى كانت قد أقرت عقب الفتح . والتزم القائد العام (الجديد) ، مستفيدا من المزايا التى حققتها نجاحاتنا الأخيرة، بدعم سطوة القوانين، وبتحسين إدارة الضرائب، وتيسير السبل أمام تقدم وتطور الزراعة والصناعة والتجارة، وأكب فى الوقت نفسه على تصريف شئون جيشه الذى وجد فيه (أى فى قائده) مثالا للتضحية والمثابرة، وتمتع الزراع الذين انحدر بهم الشح الأرعن لسادتهم القدامى إلى حالة من التدنى والمهانة ، تمتعوا وبحرية كاملة بثمار أعمالهم، وعقدت تحالفات جديدة مع العربان ، ووهبت بعض القبائل أراضى غير آهلة، كانت الشقاقات المدنية قد حرمتها من الزراعة ، وأقيم على أسس محددة نظام عام للرى، وبذلت كافة الجهود لتوقى كل المساوئ المرتبطة بوضع المياه المضطرب أو بإساءة استخدامها، وتقررت مكافآت عامة لسكان الريف الذين يضاعفون من عدد الأشجار النافعة، وتجمعت داخل منشأة واسعة تلك النباتات والشجيرات الأجنبية التى رؤى من المناسب نشر زراعتها: كانت فنون أوربا قد بدأت فى صنع التقدم على أرض مصر، وانتعشت الصناعة فى كل مكان.

وأنشئ نظام جديد للمالية، عهد بإدارته العامة إلى إدارى حكيم ونزيه، كان قد حاز منذ وقت طويل تقدير الجيش ومحبة الأهالى ، وكان قد فحص بعناية كبيرة المصادر المتنوعة للدخول العامة ، وكان يدرك كل المزايا التى ينبغى أن تتوقع الحصول عليها أية حكومة عاقلة مستنيرة من امتلاكها لمصر ، وقد قام بتكوين جداول ليستخدمها مدخلا لحساب الميزانية العامة ، هى التى قدمها عن إدارته

للمالية طوال مدة الحملة (*) . ولقد استخلصنا نحن من هذا المؤلف، الذى أرجئ نشره، الدراسة التى ضمنت هذه الموسوعة ، وهى تحتوى على عدد كبير من النتائج التى ما كان ليسهل الحصول عليها دون ظروف مواتية لهذا الحد، وينبغى أن ننظر إليها باعتبارها عناصر ثمينة فى تاريخ مصر الحديث .

ومن جهة أخرى فقد وضعت لوائح نزيهة وعادلة أدت إلى تنشيط التجارة الخارجية التى أوشكت حكومة المماليك أن تقضى عليها. إلى هذا الحد بلغ تأثير الإجراءات التى اتخذناها، والتى أمكنها – على الرغم من العقبات الكثيرة التى نجمت عن حالة الحرب – أن تقيم من جديد علاقة نافعة مع الأرخبيل وسواحل الجزيرة العربية وبلاد أواسط أفريقيا، كما ساهمت أعمال جديدة عامة فى تجميل العاصمة والأسكندرية وتحسين الحالة الصحية بهما، وشيئا فشيئا كف المواطنون عن أن يظنوا أنفسهم غرباء عن الأمة الفرنسية ، كما كانت الثقة المتبادلة تحرز كل يوم تقدما ملموسا ، ولقد أدرك هذا الارتياح – من جانب كل النفوس – كافة الذين تعهدوا العلاقات الودية مع شعب مصر ، وقد أدرك هذا بصفة خاصة مؤلف هذه الدراسة ، وهو الذى كان يسهم فى الحكومة المدنية بتوليه إدارة العدل . وهكذا كان الزمن وحده كفيلا بأن يؤكد ويدعم هذه الأنظمة الجديدة ، وأن يجعل الناس يشعرون بها (ويجدواها) ، لكن الحرب قلبتها بغتة، ولم تبق على أى أثر منها . وقد نشر نجاح الحملة الفرنسية – الذى كان يعد كل الأمم الأوربية بخطوط اتصالات هامة – القلق والفزع فى انجلترا، وعزمت هذه القوة على القيام بجهود غير اعتيادية، وشارك البلاط العثمانى – حين انساق وراء اعتبارات روحانية – فى وجهات نظر وآراء حلفائه الجدد ، فتقررت مهاجمة سواحل البحر الأبيض على يد جيش انجليزى، كما تقرر أن تدعم هذه الحملة بفرقة من الانكشارية والألبان أوكلت قيادتها إلى قبطان باشا، وتلقت هذه القوات الأوامر بأن تتوغل فى الخليج العربى،

(*) يشير المؤلف إلى دراسة الكونت استيف Estéve عن مالية مصر، وهى الدراسة التى تكون مع غيرها المجلد الخامس من الترجمة العربية الكاملة لوصف مصر . (المترجم) .

وأن تنزل إلى مصر عن طريق مينائى السويس والقصير، وفى النهاية اقتضى الأمر أن يتقدم الوزير (الصدر الأعظم) إلى العاصمة على رأس جيش عثمانى قادم من سوريا. كانت كل عناصر خطة الغزو قد أعدت ووزعت بعناية ، ووضعت كلها موضع التنفيذ فى وقت واحد . ولقد تجلى فى حركة القوات قدر من الوثوق والإصرار ، على النحو الذى تسمح به المسافة النائية للأماكن وعناد المسلمين الذى لاسبيل إلى قهره . كان إبراهيم ومماليكه يزحفون مع الوزير ، أما القبائل العربية التى أثارتها نصائح وتحريضات النبى الجديد مولاى محمد(!) فلم تكن تنتظر سوى الإشارة كى تتجمع ، وأخيرا فقد كان حزب مراد، حاكم الصعيد ، قد ارتبط سرا بالإنجليز .

كانت المعارك السابقة قد أضعفت الجيش الفرنسى الذى لم يعد ثلثه قادرا على أن يستخدم فى حرب الأقاليم، كانت الجروح الخطيرة والكثيرة تغطى أجسام هؤلاء الجنود الأسخياء (الفدائيين) الذين كانت تحثهم على البذل قيمة أكثر منهم إصرارا واندفاعا نحو الأخطار الجسام، وكانت هذه الجروح تجعلهم عاجزين عن أية مشاركة إيجابية فى الوقت الذى كانت قواتنا فيه تحتل بلدانا شاسعة تبدو كل بقعة فيها وكأنها تحتم وجودها، فكانت تحرس حدود مصر مع سوريا والتى يتهددها الصدر الأعظم ، كما كانت تحرس القاهرة والجيزة وبولاق والسويس وجزءا من مصر العليا ، كما كانت تستخدم فى الأقاليم كى تحمى جباية الضرائب، ولكى تؤمن الملاحة فى النهر، ولكى تصد المماليك ، وتحتوى القبائل العربية . أما الاتفاق الذى أدت دوافع عديدة إلى إبرامه مع مراد فلم يكن ليوحى بأية ثقة ، لقد ضاعف تحالفه مع الفرنسيين من نفوذه ومصادر قوته ، لكنه ماكان ليفيد من كل هذه المزايا إلا لكى يعلن وقوفه ضدهم، وكان علينا أن نخشاه خائنا ، وألا نأمل إلا فى عون جد ضئيل من جانبه لو أنه كان مخلصا . وهكذا كان موقف الفرنسيين عندما ظهرت السفن المعادية أمام الأسكندرية .

تمكن الجيش الإنجليزى من القيام بعمليات إنزال على سواحل أبى قير، ثم تقدم بعد ذلك داخل شبه الجزيرة ليتخذ موقعا مواتيا للغاية يقع بين البحر وبين بحيرة المعدية . وحين هاجمته بعض القوات الفرنسية دافع عن نفسه بنجاح فوق أرض ضيقة ، يدعمها خط من الحصون ، وتحميها زوارق المدفعية من جانبى البحر والبحيرة . وقد جرح فى هذه العملية قائد الحملة الإنجليزية ، ومات بعد ذلك بأيام قليلة متأثرا بجروحه ، تاركا ذكرى مشرفة بحق . وبعد أن تلقى الحلفاء دعما هائلا قرروا احتلال رشيد ، ثم بدأوا التقدم صوب شاطىء النيل فى نفس الوقت الذى كان أسطولهم فيه يصعد النهر، واستسلم حصن الرحمانية وامتلك العثمانيون دمياط، ولم تلبث العاصمة أن حوصرت .

كان الصدر الأعظم قد ضم جيشه إلى الجيش الإنجليزى وجيش قبطان باشا، وكان يحصل كل يوم على قوات دعم جديدة من داخل مصر وسوريا، وكانت صلاته مع العربان والمماليك والقوات العسكرية القديمة وسكان الريف تتدعم فى كل مكان نتيجة تلك النجاحات الأولى التى أحرزها جيش الحملة ، وكانت قوات الهند قد وصلت ، أما القاهرة والأسكندرية فكانتا فريستين لوباء بشع وقاتل ، وفى نفس الوقت انضم إلى العثمانيين مماليك إبراهيم ومماليك مراد بالإضافة إلى فرسان كثيرين من العربان . هكذا كان وضع القوات المتحالفة حين تقدمت ، لكى يتم لها استرداد القاهرة والأسكندرية، ببنود امتيازات لاتختلف كثيرا عما جاء بمعاهدة العريش . لم يكن ثمة عملية عسكرية واحدة لم تكن قواتنا فيها أدنى عددا بكثير، فعدم تأكدنا من معرفة نوايا العدو كان قد أرغم القائد العام أن يوزع على جبهات عديدة القوات التى يمكنها أن تتصدى للعدو، وينبغى أن نضيف بأنهم – أى العدو – لم يكفوا طيلة هذه الحرب عن أن يعرضوا على الفرنسيين العودة إلى وطنهم ، وبنفس الشروط التى سبق لهم أن قبلوها قبل ذلك بوقت طويل والتى سبق للحلفاء كذلك الالتزام بها .

وعندما أبلغ الجنرال مينو بأن باب المفاوضات قد فتح فى أوربا ، وبالمحاولات المتكررة التى يقوم بها أسطولنا كى يجلب إليه المساعدات ، اشتد عزمه على أن يستمر فى الدفاع عن الأسكندرية لأطول وقت ممكن ، وظل متشبثا فى موقعه لآخر الشوط ، وعند نهاية الحصار كان نصف الفرنسيين مرضى بالمستشفيات، أما أولئك الذين لم تكن قد مستهم شرور الأوبئة بعد فكانت قد أضنتهم الأعمال التى لاتنتهى ، واستخدام المياه المالحة ، وتناول الأطعمة الضارة لفترة طويلة ، بل وكذلك نقص الأطعمة . كانت الأمثلة التى قدمها قادتهم تقوى من عزائمهم ، وفى النهاية لم يبق لديهم إلا شجاعتهم ، وكان المرء يراهم مهدمين منهكين لايقدرون إلا بالكاد أن يتحملوا ثقل سلاحهم، وكانوا لايستعيدون قواهم إلا حينما كان الواجب يدعوهم إلى المعركة . هكذا أنيط بهم أن يضعوا بجهودهم الأخيرة نهاية مشرفة لهذه الحملة الخالدة .

وفى الوقت الذى كان جيشنا يستعد فيه لمغادرة موانى مصر، وكان الناس فيه فى أوربا يجهلون العمليات الأخيرة للحلفاء ، وقعت فى باريس ولندن تلك المعاهدة التى تعيد هذه البلاد إلى الباب العثمانى . هكذا قدر عليها أن تعود من جديد لهمجية السلاح التى كانت جيوش فرنسا قد خلصتها منها، وهذه هى اليوم فريسة لابتزازات نواب الملك ولصوصية العربان والفرق العسكرية غير النظامية ، أو لعنف بعض البكوات الذين ظلوا على قيد الحياة . لقد استعاد هؤلاء الأغراب – على الرغم من تقلصهم إلى عدد ضئيل – وطنا إلى حوزتهم ، وخلف عبيد مراد وإبراهيم سيديهم ، لقد أقصيت هذه الحكومة العجيبة على الأقل لمدة ثلاث سنوات بسبب وجود الفرنسيين ، فلقد هزم الفرنسيون المماليك ونفوهم ، كما قمعوا العربان ، وأبادوا ثلاثة جيوش عثمانية فى فلسطين وأبى قير وعلى أبواب العاصمة ، وليس أقل جدارة بالذكر من ذلك أنهم لم يمارسوا إلا سلطة حماية فى البلاد التى خضعت لهم ، وبدأ كل واحد من هؤلاء الفرنسيين مرتفعا لمستوى أكبر الأهداف التى جعلتنا نشرع فى هذا الغزو . ولقد واجه الفرنسيون طيلة سنوات

ثلاث مخاطر لاتنقطع، كأنما كانت تتوالد من جديد، وقاسوا - بعزيمة ثابتة، وتحت سماء ملتهبة وغريبة عليهم - متاعب يصعب التعبير عنها، ولقد تكاتفوا في هذه المهمة الشاقة رغبة منهم في أن يهبوا أنفسهم لمجد ومصلحة وطنهم . وإنه لشعور نبيل ونافع يسمو بالإنسان ليتفوق على نفسه ، ويوحى بكل التضحيات ، ويظل في نفس الوقت هو الدافع وهو الجزاء . ولقد جاءت عودتهم في أفضل الظروف ملاءمة، فكانت أوربا هادئة ، وكانت فرنسا - بعد أن ثأرت لنفسها وانتصرت - تركن للراحة في ظل قوانين أكثر لطفا من الهزات التي سببتها الحروب الخارجية.

ومن جانب آخر، كانت الهيئة العلمية التي تشكلت في عاصمة مصر، تحت حماية الأسلحة الفرنسية، قد اتخذت لنفسها نفس اللوائح التي تنظم أعمال أكاديميات أوربا، كانت مهمتها أن تزيد وأن تحسن كل المعارف النظرية ، وأن تضاعف من تطبيقاتها. كانت إسهامات العلوم والفنون قادرة على أن تدعم وأن تجمل منشآت الفرنسيين ، في الوقت الذي تؤثر فيه في الأحوال المدنية للأهالي، لكنها لم تكن لتبلغ هذا الهدف المرجو للغاية دون أن نكون قد اكتسبنا معرفة عميقة بمصر . ولم يكن الوصف التاريخي والفيزيقي لهذه البلاد في الحقيقة إلا جزءا من خطة عامة ، كنا قد وضعناها لدراسة العلوم ولتهيئة تقدمها، لكن الوصف مع ذلك كان عنصرا ضروريا ، وكان واحدا من تلك الموضوعات التي يهمنا أن ننقلها إلى أوربا . وكان هذا هو الغرض من هذه الموسوعة التي ننشرها اليوم، والتي تشتمل على نتائج الأبحاث الرئيسية التي قمنا بها خلال مدة بقاء الحملة الفرنسية ، والتي تستطيع أن تقدم معرفة متكاملة بمصر. أما هذا المؤلف الضخم فيتكون من : النص ، ومن مجموعات اللوحات . ويتكون النص من الدراسات والأوصاف ، أما الأطالس فتحتوى على : ١- رسوم عن مصر القديمة ، ٢- رسوم تتعلق بمصر الحديثة ، ٣- لوحات الحيوان والنبات والمعادن ، ٤- الخريطة الجغرافية . إذن فمجموعة هذه اللوحات تمثل الأشياء الموجودة والتي يمكن ملاحظتها ووصفها بدقة، والتي لابد أن نعتبرها - لهذا السبب - عناصر موضوعية لدراسة مصر.

وكنا كذلك نهدف فى الدراسات والأوصاف إلى عرض هذه الأمور على نحو أكمل وأكثر تماما ، وأن نبين بدقة ما قد لايستطيع فن الرسم أن يعرف به ، وأن نقارن الوقائع ، ونقارب مابين النتائج ، وأن نتفحص ما يمكن لنا أن نستخلصه من ذلك كله .

وتتكون الخريطة الجغرافية من خمسين لوحة خاصة ، تقدم كل التفاصيل التى يمكن لنا أن نرغب فيها ، وليست هناك منطقة فى أوربا يمكن لها أن تكون قد وصفت على هذه الدرجة من الكمال . ويشمل هذا العمل الكبير – الذى يقوم فى جزء منه على ملاحظات فلكية – كل البلاد الواقعة مابين شلال أسوان والبحر، وابتداء من آخر مبنى يقع إلى الغرب من الأسكندرية حتى خرائب صور القديمة Tyr، وأضفنا إلى ذلك خرائط خاصة بالمدن وبالموانى، وخرائط ومذكرات عن الجغرافيا القديمة، وحصراً بالأسماء العربية لكل المناطق الآهلة، مع ملاحظات عن السكان والزراعة وامتداد الأراضى الخصبة ، والملاحة والصناعة والمنشآت العامة وبقايا المدن القديمة .

وقد لاحظنا بكثير من العناية الحالة الجغرافية لوادى النيل، والصخور التى تقوم بمثابة حدود له، وامتدت الأبحاث التعدينية إلى مناطق صحراوية وجبلية بعيدة عن النهر، كما اشتملت هذه البحوث كذلك على فحص المحاجر التى استغلها المصريون القدماء، وعلى تصنيف دقيق للمواد التى استخدمت فى بناء الآثار. وقمنا برحلات كثيرة كى نجمع من الصحراوات المجاورة لمصر، وفي الصعيد والدلتا ، وعلي ضفاف النيل والترع – النباتات الخاصة بمصر ، وتلك التى أمكن للعلم أن يؤقلمها هناك، كذلك كان هذا العمل يهدف إلى الإكثار من الثروات الزراعية للبلاد ، وأن نزود التجارة والصناعة بعناصر جديدة . وقد أعطينا لدراسة الحيوان عناية مثابرة ، فأكببنا على تمحيص النتائج التى سبقت معرفتها ، وعلى إتمام الأوصاف الناقصة وإضافة الملاحظات التى لم يكن الطبيعيون قد قاموا بها من قبل مطلقا أثناء رحلاتهم السابقة . وقد أسفر فحص المواد الطبيعية بمصر

عن أهمية بالغة ، خاصة وقد سبق لها أن شغلت من قبل، ولوقت طويل، المشرعين الأول فى هذه البلاد، وفى بعض الأحيان كانت معرفتنا بهذه المواد تلقى ضوءا كاشفا وغير متوقع ، على نقاط غامضة فى عقائد المصريين (القدماء) . كما تتميز اللوحات التى تمثل هذه الأشياء بأمانة بالغة فى النقل والتقليد، فلها طابع الحقيقة وملمح الدقة اللذين يشهدان فى الوقت نفسه بعناية الفنان واهتمامه، وبخطى التقدم التى أحرزها هذا الفرع من فن الرسم، وحتى الآن، لم يسبق أن تمت جهود أكثر نجاحا وتوفيقا من ذلك كى تنوب عن حضور الطبيعة ذاتها (أى كى ينوب الرسم عن الأصل نفسه) .

أما بخصوص الآثار التى خلدت مصر ، فلم تكن لدينا عنها إلا معرفة شائهة قبل الحملة الفرنسية ، بل لقد كانت هذه الآثار مجهولة لنا بشكل تام، وسوف يقدم هذا المؤلف وصفا دقيقا لها. ولقد تعرفنا على الموقع الجغرافى لكل مبنى وبيناه علىّ الخريطة، ثم أقمنا بعد ذلك الخرائط الطبوغرافية التى تعرفنا بالمواقع الخاصة بمنشآت مدينة بذاتها أو بموقعها بالنسبة للنيل أو للجبال المجاورة ، وقد ضاعفنا من المناظر المرسومة لهذه الأنقاض الجليلة ، أما الفنانون الذين ندين لهم بهذه الرسوم فقد أخذتهم روعة الموضوعات وما يشع منها من جلال هو جدير بها، حتى أنهم لم يستبعدوا أى تكوين ولو كان اعتباطيا أو تعسفيا، إنهم إذن لم يلتزموا إلا بحقيقة النقل والتقليد بغية أن ينقلوا بإخلاص وأمانة نفس الأثر الذى أحدثته فيهم رؤية مصر، وليس هناك بين كل منجزات البشر على الإطلاق ما قدم لعبقرية الرسم موضوعا أكثر سموا ورفعة .

وقد قام هؤلاء عدة مرات، وبالعناية البالغة الدقة، بقياس أطوال المبانى وأطوال الأجزاء الرئيسية أو الإضافية التى تتكون منها، وقد رسمت لكل هذه المبانى تصميمات وواجهات وقطاعات أخذت من جوانب عدة ومن منظورات خاصة، ولقد حققت الرسوم والدراسات التى تضم نتائج عمليات القياس هذه كل ما نطمح إليه لدراسة العمارة المصرية، ونستطيع نحن أن نستخدمها لإنشاء مبان تشبه تمام

الشبه تلك التى وصفناها ، ولا بد لنا أن نلاحظ أن هذاالعمل (من جانبنا) لم يكن قاصرا قط على بعض الأطلال المنعزلة التى أفلتت من فعل الزمن، وإنما اشتمل على المبانى الرئيسية لأمة متنورة تدين لها أغلبية الأمم الأخرى بنظمها ومؤسساتها . وفى واقع الأمر فإننا لم نلاحظ فى مصر المدارية وجود هذه الأسباب المتضاعفة، التى ترمى- على الدوام - فى الأجواء الأخرى إلى تدمير المنشآت، وإلى محوها - فى بعض الاحيان - حتى آخر أثر لها، ومع ذلك فإن هذه الأعمال تذود عن نفسها بنفسها بكتلتها الخاصة كذلك ضد جهود البشر، وهكذا أمكننا اليوم أن نقدم لوحة لعمارة المصريين ، واثقين بأننا قد ضمناها أجمل منشآتهم .

ومن الواضح أن هذه المنشآت التى لا تزال باقية فى طيبة وأبوللينوبوليس وفى أبيدوس ولاتوبوليس (*) هى نفس القصور التى سكنها الملوك (القدماء) أو هى أكثر معابد (المصريين القدماء) أهمية، إنها كذلك هى نفس المبانى التى وصفها كل من هيكاتيه Hecaté وديودور Diodor وسترابون Strabon، ولا يمكننا أن نجد ما هو أكثر أهمية بالنسبة لتاريخ الفنون من معرفة هذه النماذج العظيمة التى أثارت إعجاب الإغريق وطورت عبقريتهم .

وبالإضافة إلى ذلك فقد أكببنا على نقل وتقليد دقيقين لأعمال النحت والحفر التى تزدان بها هذه الصروح، أما النقوش البارزة فتمثل أشياء بالغة التنوع، كما أنها تلقى أضواء جديدة على علوم العصور القديمة، وهى تتصل بتقاليد الحرب، والحفلات الدينية، والظواهر الفلكية، ونظام الحكم، والتقاليد العامة، والعادات الأسرية، وبالزراعة والملاحة وكافة الصناعات المدنية ، وقد حرصنا عند رسم عدد كبير من هذه المبانى على أن ننقل بدقة كافة الرسوم والحروف الهيروغليفية، ولم نحتفظ لها بأشكالها المفردة فحسب، بل بالنظام والوضع الخاص بإشاراتها

(*) وهذه المدن الأربع هى الآن على التوالى : الكرنك، وإدفو، ومنطقة خرائب بالقرب من العرابة المدفونة والخربة، واسنا . (المترجم) .

كذلك، وقد جمعنا الكتابات والنقوش القديمة التى تهم العلوم والتاريخ ، وقلدنا بعناية الألوان التى لاتزال تحلى العديد من المبانى ، والتى تبدو وكأنها لم تفقد شيئا من بريقها الأول .

وبعد ذلك ألحقنا بالخرائط الطبوغرافية، وبالأشكال المرسومة، وباللوحات المعمارية وبالرسوم البارزة وصفا موسعا، جمعنا فيه كل الملاحظات التى لايستطيع الرسم أن ينقلها، وتشتمل هذه الأوصاف على نتائج فحص مستفيض، أصيل وموثق، عاون فيه على الدوام كثير من الشهود . وكانت هذه الأوصاف تهدف إلى أن تعرفنا بشكل كاف على الحالة الراهنة للمبانى ، وعلى التدهور الذى حدث فيها بفعل الزمن، وكذلك على نوع المواد التى استخدمت ، وعلى أمور كثيرة أثارت اهتمامنا . ونجد فى هذه الأوصاف ملاحظات متنوعة عن العمارة ، وحول أساليب البناء، والألوان، واستخدامات الأشياء المرسومة، كما نجد ملاحظات حول طبيعة الأرض، والتغييرات التى تحدثها الفيضانات الموسمية، وحول موضوعات أخرى لم تكن واسعة بالقدر الذى يكفى لكى تعالج فى دراسات مستقلة .

وبنفس هذه العناية، قمنا بوصف المقابر الرائعة التى لملوك طيبة القدماء، والمقابر الصخرية حيث يجاهد الخدم المخلصون لتخليد ذكرى وأجساد الأجداد، كما وصفنا الحجرات السفلية الأخرى التى كانت مخصصة فيما يبدو لطقوس أو لممارسات غامضة.

وتقدم أهرام ممفيس الشهيرة ذائعة الصيت، القليل من الأهمية فيما يتصل بالفنون الجميلة، وإن كان ثمة دوافع أخرى ينبغى لها أن تُخْضع لأبحاث بالغة الأهمية هذه المبانى الضخام التى كانت موضوعا لملاحظات تنقصها الدقة، وقد حددنا نحن من جانبنا موقعها الجغرافى واتجاهات جوانبها بالنسبة لخط الزوال، وكذا الأبعاد الخارجية، وأبعاد كل الغرف التى أمكن لنا أن نتوغل إليها، وأخيرا فقد وصفنا كافة المبانى الجانبية.

وقد أفردنا أشكالا خاصة، رسمت فيها كل من المسلات وتماثيل أبى الهول والتماثيل الضخام والتوابيت ومسلات مختلفة أخرى، ولم يكن من المستطاع نقل هذه الزينات الثمينة للصروح والأماكن المقدسة إلى أوربا دون بذل جهود هائلة لم تسمح الظروف مطلقا ببذلها على الإطلاق ، وإن كانت توجد منها ألوف أقل حجما جمعها بعض الأشخاص واحتفظوا بها أو أودعت اليوم فى المتاحف العامة. وقد جلبنا معنا من مصر أحجارا منقوشة وتماثيل بأكملها أو مجدوعة ، وقطعا من البرنز ، و من الخزف أو البورسلين، وأحجارا مقطوعة ومشذبه تحمل نقوشا ورسوما فنية أخرى تتصل بالديانة القديمة وبعلوم وبعادات أهل البلاد، كما تفحصنا باهتمام عددا هائلا من مومياوات البشر ، ومن مومياوات الحيوان من ذوات الأربع ، وكذا الزواحف والطيور ، واحتفظنا بالكثير منها. وقد عثرنا فى الصناديق والآنية الفخارية التى تضم هذه الأجساد الجافة على أقمشة من نسيج ثمين ، وعلى مذهبات وعقود وتمائم وحلقان، وعلى أعداد هائلة من الشظايا، كما استخرجنا من هذه الصناديق مجلدات عديدة من البردى مغطاة بنقوش هيروغليفية أو بحروف هجائية . وقد اكتشفنا هذه الأشياء وسط خرائب المدن القديمة وداخل الحفريات الكثيرة التى اقتضى القيام بها الفحص الذى أجريناه للمبانى، وكذلك فى داخل المقابر العامة أو الملكية ، وفى بعض الأحيان أيضا فى داخل البيوت الحالية، وقد جمعت كل هذه خلال أحداث الحملة الفرنسية ، وتبينا أن من الضرورى أن نضمن رسوماتها المجلد العام.

أما اللوحات الخاصة بمصر الحديثة فتمثل : ١ - المساجد ، والقصور، وبوابات المدن ، والميادين ، والمحاكم ، ومجارى العيون ، والمقابر ، والأحواش ، والوكالات المخصصة للتجارة ، والنقوش ، والميداليات وقطع النقود . ٢ - الحدائق، والحمامات، والمدارس، وأدوات الحرف، والأسلحة، ومقابر العائلات، وبيوت الخاصة، ومنشآت المصانع، والماكينات، والورش، وأدوات المهن المختلفة. ٣- الاحتفالات السنوية ، المواكب ، الاجتماعات العامة، التجمعات والأعياد المدنية،

التدريبات العسكرية ، العادات الخاصة بالجنازات وبالزواج وبشراء العبيد وعتقهم وبالميلاد. ٤ – وأخيرا الشخصيات الهامة من مختلف طبقات السكان أو من الأجناس الأجنبية ، والملابس والأسلحة التى تميزهم.

وقد سعينا، فى الدراسات التى تشكل جزءا من هذه الموسوعة، إلى أن نستكمل وصف مصر وأن نعمق دراستنا لها عن طريق مقارنة الظواهر ومناقشتها. ولم نكن نهدف مطلقا، من هذا المنظور الثانى، لأن نشرع فى بحث يقتصر على حدود محددة، فالمرء لا يستطيع فى واقع الأمر أن يقصر أبحاثه حول مصر مطلقا (عند حد محدد)، فليس ثمة موضوعات فى الدراسات الإنسانية أكثر من ذلك خصوبة أو أكبر اتساعا ، فإذا ما ظننا أننا قد استوفينا مجالا ما فى هذه الدراسات فإننا نكون فى واقع الأمر قد استخففنا به ، ولكننا اقتصرنا على وضع نظام يكفل لنا أن نعالج كافة المسائل الرئيسية ، ولهذا السبب فإن مؤلفى الدراسات قد ركزوا بحوثهم على ما يأتى :

١ – المؤسسات والنظم، العادات والتقاليد، الآداب والعلوم والفنون، نظام المقاييس والصناعة عند قدماء المصريين.

٢ – الجغرافيا القديمة والحديثة، تاريخ مصر، الحكومة الحالية لهذه البلاد، الدين، التقاليد، العادات العامة والأسرية، حالة الفنون والآداب والعلوم ، الزراعة والصناعة والموارد العامة، الملاحة والتجارة.

٣ – طبيعة وخواص التربة والهواء والمياه من الناحية الفيزيقية، الحيوان والنبات والمعادن، جيولوجية مصر.

ويشكل كل واحد من هذه الموضوعات دراسة مستقلة ، وقد راعينا فى هذا الجزء من الموسوعة الذى يشتمل على الدراسات، نفس القواعد التى تراعى فى الموسوعات الأكاديمية . وعندما قام كاتب شهير– بحق – بنشر نتائج رحلاته إلى مصر وإلى سوريا ، فإنه قد أثرى بالفعل الأدب الفرنسى بوصف دقيق وبليغ

لعادات وحكومات هذه البلدان ، وقد لمسنا كيف تتطابق ملاحظاته مع الأبحاث التى قمنا بها خلال الحملة .

وتنتمى الأبحاث التى دارت حول الآثار الفلكية التى اكتشفت فى الصعيد إلى الجزء الأول من هذا المؤلف، وإن كان نشره هو الذى تأخر.

وفى معظم الأحيان نسبت فى المقالات العديدة والمبتسرة التى أوجدها هذا الموضوع الشهير بالفعل إلى كاتب هذه الدراسة آراء تختلف عن تلك التى انتوى أن يؤسسها . إن النتائج التى تستخلص من الدراسة المتأنية للنظم لن تسمح مطلقا بفهم تاريخ مصر داخل إطار تأريخ ضيق لم تستمر متابعته مطلقا فى القرون الأولى للمسيحية، كما أن هذه النتائج ليست أقل تعارضا مما يستخلصه أولئك الذين يؤسسون على افتراضات (أحوال) العصور القديمة المعلية من شأن الأمة المصرية، ثم لا يميزون مطلقا الفترات التاريخية ، والتى تستحق بالفعل مثل هذا الوصف، من تلك الحسابات والأرقام التى تستخدم فى عمليات التقويم .

ويوضح لنا السرد السابق، تلك الخطة التى اتبعناها فى وصف مصر. لقد التزم المؤلفون بملاحظة أعمال الطبيعة وأعمال الإنسان التى يمكن أن يفيد فحصها فى دراسة هذه البلاد، وقد مثلت هذه الأشياء بالرسوم أو المناظر المرسومة أو الخرائط أو التصميمات كلما كان الأمر ممكنا لذلك، لكن هناك عددا كبيرا من الظواهر لا يستطيع أن يقتفى أثرها سوى الحديث (أى البحث) فضمناها فى الدراسات والأوصاف التى تشكل النص، ولم نهمل شيئا وجدناه لازما كى يكون الجانب الوصفى من هذه الموسوعة كاملا ، ولقد سهل وجود الأسلحة الفرنسية بالإضافة إلى ترحيب الجنرالات وإسهام العديد من المراقبين والشهود ودقة الأدوات فى القيام بهذه الأبحاث ، ومع ذلك فكثيرا ما قطعت هذه الأبحاث بفعل أحداث وظروف مشئومة ، وعديد من بين هؤلاء الذين قادهم إلى مصر تذوقهم للفنون الجميلة، والذين جلبت لهم أعمالهم السابقة الاحترام قد

سقطوا صرعى، بسبب اضطرابات كانت تتجدد دون انقطاع أو في مخاطر شبه مؤكدة دفعتهم إليها حماسة ملتهبة، وهلك آخرون دفعهم إلى هناك شغفهم في خدمة العلوم وأملهم في تشريف عائلاتهم، واختصوا وطنهم بثمار دراساتهم، هلك هؤلاء في شباب غض فوق هذه الأرض الغريبة عليهم ضحايا للتمرد والعصيان والأوبئة المهلكة . ووسط هذا الخضم من أحداث الحرب، توقفت الأبحاث العلمية في بعض الأحيان بسبب عراقيل لا يمكن السيطرة عليها في حقيقة الأمر. هكذا يمكننا أن نؤكد أن ثمة بعض أمور قد أغفلناها، لكن هذه الأمور ليست بالهامة على الإطلاق، ولذلك فإن المؤلف الذي نشرنا الجزء الأول منه سيقدم معرفة مركزة ودقيقة عن الحالة الفيزيقية لمصر، وعن الصناعات الحالية للسكان، وعن المنشآت التي أقامها أجدادهم . وربما لم يكن هناك، على امتداد كل الدول المتحضرة ، أي بلد آخر قد خضع لفحص أكثر تفصيلا أو أكثر دقة .

وبخلاف هذا الوصف الطبيعي والتاريخي لمصر، فقد كان بمقدور إقامة الفرنسيين في هذه البلاد أن تقدم المزيد من الفوائد والمزايا المرغوبة ، بل لقد كان بمقدور الفنون أن تكون – في الوقت الحاضر نفسه – قد طورت وجملت ضفاف النيل، كما كان بمقدور الناس هناك ، بعد أن تخلصوا من إدارة عابثة وغير إنسانية ، أن يعكفوا بأمان على زراعة أرضهم وأن يفيدوا من ثمار حرفتهم، وكان يمكن للمخترعات الميكانيكية أن تحل محل قوة الإنسان ، وتجعل أعماله أكثر يسرا وأوفر إنتاجا، وكان بالإمكان أن تتوطن بعض القبائل العربية في أرض أصبحت خصيبة ، وأن يدفع الآخرون إلى أعماق الصحراوات، وأن تثرى هذه الأرض الخصيبة بالنباتات والمحاصيل الأجنبية التي يمكن أن تجلب إليها أو تزاد كمية ما يزرع منها، بل لقد كان بوسع الفرنسيين أن يقيموا هناك الكثير من المصانع الهامة ، كما كان من المستطاع إقامة علاقات طيبة مع فارس والهند والجزيرة العربية، وعبور ووصف هذه المناطق، بل كان سيصبح في مقدور رحالة كثيرين أن يراقبوا (وأن يدرسوا) المجرى الأعلى للنيل وأن يتفحصوا المنشآت القديمة القائمة

فى جنوب أسوان وفى أثيوبيا، وأن يتوغل آخرون مع القوافل إلى الواحات وإلى بلدان أفريقيا الداخلية، وأن نحصل على معلومات أكثر دقة حول الأنهار والجبال ومناجم الحديد والذهب وكل المنتجات الطبيعية، والمدن، وخاصة عناصر تجارة هذه القارة الشاسعة، وكان من الممكن كذلك أن يتم مشروع القناة التى من شأنها أن تربط بين البحرين ، وبذلك يبدأ جزء من تجارة الشرق يتبع طريقا بالغ اليسر طالما رغب العالم فى وجوده .. كان يمكن أن يكون ذلك هو حال مصر اليوم لو أن قدرا معاكسا لم يعد بها إلى طغاتها القدامى، ونستطيع هنا أن نؤكد أن ليس ثمة أية مبالغة فى هذه اللوحة التى رسمناها للتو، فلقد كانت السنوات الثمانى التى انقضت (منذ خروجنا من مصر) كافية لكى تزود هذه البلاد (لو أننا مكثنا فيها) بالكثير من الاكتشافات والمؤسسات النافعة، فأى شئ هذا الذى لا نستطيع أن نتوقعه من تأثير ممتد يمكن له أن ينتج عن الارتباط بفرنسا وعن التقدم المستمر لأضواء المعارف والفنون !

وعلى الرغم من أن العلوم قد شاهدت - ربما - بدء ازدهار جزء من الأمل الذى كانت فى ذلك الوقت حبلى به، فإنها قد خسرت المزايا الهائلة للحملة الفرنسية . وتقدم لنا الموسوعة التى بدأنا اليوم فى نشرها ميدانا رحبا للأبحاث الأدبية والعلمية ، وسوف تلقى أضواء جديدة عن أصل كل الفنون، وليس لدى أولئك الذين أسهموا فى وضعها ما يضيفونه إلى عظمة موضوعها .

كان عملهم يستلزم منهم فحصا مثابرا، كما أن الحقوق التى يمكن أن تترتب لهذا العمل على الرأى العام تنتج من طبيعة موضوعه ذاتها أو من الظروف التى صاحبت تكوين عناصره ، فإذا ما نظرنا إليه من وجهة النظر هذه، فإن هذه الموسوعة سوف تشكل صرحا هائلا للتاريخ والفنون، كما أن هذا العمل العظيم يسهم فى مجد وطننا، ونحن مدينون به لجهود مقاتلينا، كما أنه يستمد أصالته من اتحاد العلم بالسلاح ، فهو شهادة وثمرة لتحالفهما، إنه تذكار عظيم لوجود الفرنسيين فى واحد من أشهر بلدان العالم، ولكل ما فعلوه هناك من تكريم للنصر

باتخاذ طريق العدل والتسامح، مقلصين حقوق المنتصر إلى مجرد ممارسة لسلطة وصاية ، ويمكن لهذه الموسوعة أن توحى لبلاط القسطنطينية بمشروعات تدعم عودة سلطتها إلى مصر ، وتقيم فيها حكومة أكثر اتباعا لقواعد الحكم والإدارة، وستظل تنقل إلى هذه البلاد أفكار وأمانى أصدقاء الفنون الجميلة ، وكل الذين يتطلعون بإخلاص وتجرد إلى تقدم المعارف النافعة .

ولسوف يجد الناس فى هذا المؤلف الأساسى، مع أمهات الكتب التى رفعت اسم اليونان وايطاليا، لوحة أمينة للآثار المصرية، وسيجد الناس فى متناول أيديهم أعظم ما أنتجته عبقرية الفنون وأكثرها تماما. وحين يقارن الناس هذه النماذج فلا بد أن يتذكروا أنها هى كل ثمن النصر، هكذا تقيم فرنسا أنصبتها التذكارية من أسمى منجزات العصور القديمة ، رابطة على هذا النحو ذكرى انتصاراتها بكل عصور المجد التى عرفتها الفنون الجميلة .

إن مصر التى كانت تطمح لأن تجعل من مؤسساتها ومنشآتها أشياء تقاوم الفناء، والتى تركت بها كل الفنون بصمات لا سبيل لمحوها، ستظل لوقت طويل تدفع بتلك المهابة الصارمة بل التى تتزايد روعتها، والتى تشع من أقدم نماذج (الفن التى عرفها البشر) - خفة وطيش العقل البشرى وعدم استقراره . لقد شيدت هذه الصروح من قبل أن تنشأ مدن الإغريق بقرون عديدة ، و لقد رأت هذه الآثار نشأة وازدهار صور Tyr وقرطاجة وأثينا، وكانت تحمل بالفعل اسم «العصور المصرية القديمة» فى زمن أفلاطون، وسيظل يعجب بها أحفادنا فى وقت لن يبقى فيه فى أى مكان آخر على ظهر الكرة الأرضية أثر واحد لمنشآت شامخة اليوم.

وبالإضافة إلى ذلك فإن البقاء الطويل لهذه الصروح لا يرجع فقط إلى خواص الطقس ، بل هو ناتج بشكل خاص عن جهود هؤلاء الذين شيدوها، ذلك أننا نكاد لا نستطيع أن نعثر - على ضفاف النيل - على أثر لمنشآت رومانية . إن المصريين الأوائل لم يكونوا يعتبرون جميلا وجديرا بالإعجاب بهذا المعنى، إلا ما

هو قابل للبقاء وينهض على فكرة المنفعة العامة، كان الفهم المبدئى من وراء أعظم منجزاتهم هو جعل الأرض أكثر ملاءمة لصحة الإنسان، وأكثر خصوبة وأعظم اتساعا، فتوصلوا إلى تجفيف المستنقعات والبحيرات وإلى انتزاع أقاليم بأكملها من الصحراوات الليبية (وحولوها إلى أرض زراعية)، كما تفادوا أخطار عدم ثبات منسوب الفيضانات باحتياطات نشطة تتسم ببعد النظر وتستخدم كل أعاجيب الفنون، فأسسوا مدنهم فوق أرصفة شاسعة، محولين مجرى النهر حسبما يتراءى لهم أو مقسمينه إلى روافد وقنوات كثيرة، ورأوا الأرض نفسها تطل من قلب المياه(*) ، فخلقوا – بمعنى كلمة الخلق – بأنفسهم سهول الدلتا الجميلة التى سرعان ما أصبحت بالغة الثراء، ولقد ساهم ثبات الطقس وانتظام الظواهر الطبيعية فى طبع هؤلاء القوم بهذا الطابع العميق من الوقار والمثابرة والإصرار، وهى الملامح التى تميز أنظمتهم، ولم يكتف هؤلاء القوم بأن يزينوا شواطئ النيل بالكثير من الصروح الخالدة ، بل شرعوا فى إقامة أعمال باذخة فى قلب الصخور التى تتاخم أراضيهم، و« مصر التحتية أو الدفينة» هذه تعادل فى عظمتها عظمة أولئك الذين كانوا يقطنونها، وهى تلك العظمة التى أثرتها كل الفنون .

وكان المصريون يعتبرون على نحو ما خالدا كل ما كانت له صلة بديانتهم وحكومتهم، فكانوا يتعهدون على الدوام هذه الفكرة بإنشائهم الصروح الكبرى والتى تظل على الدوام هى هى، والتى تبدو وكأنها لا تخضع مطلقا لفعل الزمن، ولقد أدرك مشرعوهم أن هذا التأثير الروحى قد يسهم فى دعم نظمهم . وفى نفس هذا الاتجاه، نقش هذا الشعب فوق قصوره ومعابده ومقابره ، صور آلهته وملوكه، وملاحظاته للنجوم، ومبادئه وحكمه المقدسة، ومشاهد من عباداته وأعياده المدنية ، وهذه هى أقدم أثر يمكن أن يكون الإنسان قد تركه على ظهر الأرض، وهى تنتمى إلى حضارة آسيا الضاربة فى القدم والتى سبقت كل العصور التاريخية لليونان،

(*) يشير هنا إلى طمى النيل . (المترجم) .

وقد أوقفتنا هذه الآثار على ما كانت عليه فى ذلك الوقت عقول الأمم وتقاليدها .

ولن يكون بمقدورنا مطلقا أن نعجب بآثار مصر ومنجزاتها، ولا أن نتذكر ما كانت مصر عليه فى عصور مجدها، دون أن نولى اعتبارا للآلام ونوبات الشقاء التى سببها فقدها لاستقلالها ولقوانينها ولمعارفها . وسنظل نقدر على نحو أفضل أنظمتها، وسنظل ننظر إليها باعتبارها منبعا روحيا للازدهار لم يكن أقل ضرورة، فى هذه البلاد، من النهر الذى يرويها، وسنظل على الدوام، وعلى وجه الخصوص، ندرك هذه الحالة المحزنة التى ترددت إليها، على الرغم من الثراء الذى يمكن أن تجلبه إليها، فى سنوات قليلة، إدارة أكثر حكمة .

وهكذا فإن دراسة مصر، الخصيبة لهذا الحد بالذكريات العظيمة، تظل تنذرنا بأن تطور العقل وتطور الصناعة إنما يرتبطان باستتباب النظم، كما تظل توضح لنا، وعلى نحو أفضل، ما تساويه القوانين، وما تساويه حكومة مستقرة مستنيرة، وستظل توحى لنا بدوافع جديدة كى نحب ذلك . ومثل هذه الدراسة لا يمكنها إلا أن توحى بأفكار عادلة ومتسامية، وبأن تغض الطرف عن البحث فى البهرج التافه، وإلا أن تقودنا نحو وحدة وبساطة الآراء ووجهات النظر . ولسوف تجعلنا هذه الدراسة ندرك على نحو أفضل أن الأشياء الراسخة والقابلة للبقاء هى ذات عظمة لا تشع من سواها، وأنه، إذا كانت الأناقة الحاذقة للأشكال والمنجزات تسهم فى التطور، فإن فكرة الجمال الحق تحوى بالضرورة فكرتى الرسوخ والعظمة، وستظل توضح لنا هذا المبدأ بكل جلائه، ولا بد أن تكون لهذه الفكرة سطوتها الخلاقة على ذوق وإنجازات العصر .

إيضاحات

جمعنا فى هذه الإيضاحات كل الملاحظات المختلفة التى تتصل بخطة هذا المؤلف ، أو التى يمكن لها أن ترشد القارئ عند استخدامه للأطالس، وقد سبقت ذلك نبذة تاريخية ، تناولت الإجراءات التى اتخذت عند تجميع محتويات هذا المؤلف ، وكذلك عند نشرها .

بعد عودة جيش الشرق مباشرة، أمرت الحكومة بأن تجمع كل الدراسات والخرائط والرسوم وكافة الملاحظات التى تتصل بالعلوم والفنون والتى جمعت أثناء الحملة ، فى مؤلف عام ينشر على نفقة الخزينة العامة، ودعى الأشخاص الذين سبق لهم أن ساهموا فى هذه الأبحاث كى يقترحوا الكتابات أو الرسوم التى ينبغى لهذا المؤلف أن يتكون منها، وفى نفس الوقت عهد بإدارة هذا العمل إلى لجنة مكونة من ثمانية أشخاص ، حددهم وزير الداخلية باعتبارهم ممثلين لكل جماعة المؤلفين، واختارت هذه الجماعة بنفسها بعد ذلك وعن طريق الاقتراع ، ذلك الشخص- من بين أعضائها - الذى يناط به كتابة المقدمة التمهيدية . وقد عين السادة: برتوليه، كونتيه، كوستاز، ديجينيت، فورييه، جيرار، لانكريه، مونج أعضاء فى اللجنة التى تمارس الإشراف العام على مختلف أقسام هذا المؤلف ، بالإضافة إلى تنظيم نفقاته وعرضها بموافقة الوزير. وقد حل محل السيدين كونتيه ولانكريه على التوالى السيدان جومار وجولوا (*) ، أما السيدان ديليل وديفيلييه فقد ضما إلى هذه اللجنة فى بداية عام ١٨١٠ .

(*) اكتفيت بإيراد الأسماء هنا بالحروف العربية ، حيث سبق ورود كل أسماء علماء الحملة بالحروف اللاتينية فى مذكرة المسيو بانكوك . (المترجم) .

وكان من الضرورى أن يعين قوميسيير ، كى يتولى تنظيم ومباشرة تفاصيل التنفيذ ، ومراعاة المصاريف، والتنسيق بين كل أجزاء العمل، بالإضافة إلى ترتيب المادة وفقا للنظام الذى اتفق عليه. وعليه أن يختار الحفارين ، وأن يستلم منجزاتهم ، وأن يضعها تحت فحص اللجنة ، وأن يقدم كشفا بالمصاريف وبيانا بالتقدم المضطرد فى العمل، وفى النهاية أن يدير مختلف نواحى العمل فى حفر وطباعة اللوحات . وقد عين الوزير، ليشغل هذا العمل، المسيو كونتيه الذى أحدثت وفاته أسفا بالغا، فهو الرجل الذى قدم لوطنه وللعلوم خدمات لا تنسى ، وهو الأمر الذى وجدنا أن الواجب يقتضى منا أن نذكره فى مقدمتنا التاريخية . وقد خلفه المسيو ميشيلانج لانكريه، مهندس الطرق والكبارى، فى نهاية عام ١٨٠٥، وكان قد لفت إليه الأنظار منذ وقت طويل بمعارفه النادرة للغاية فى مجال الهندسة وفى كل فروع الفلسفة الطبيعية، لكنه سقط صريع مرض مزمن ومؤلم عند نحو نهاية عام ١٨٠٧ ، بعد أن قدم أمارات لا حصر لها على حماسة قل أن نجد لها نظيرا، وحل محله المسيو جومار مهندس المساحة السابق والمشرف على المخازن العسكرية والذى خصص لهذا العمل منذ وفاة المسيو كونتيه عنايته المثابرة . وقد اختارت اللجنة المكلفة بإدارة النشر - من بين أعضائها، وبموافقة وزير الداخلية - سكرتيرا موكلا بالمراسلات العامة، يقوم بتدوين المداولات، وبالمراقبة المباشرة على لميع الدراسات، وبالمساهمة مع القوميسيير الخاص فى جمع وتصويب اللوحات . وعهد بهذه المهمة على التوالى إلى السيدين لانكريه وجومار، ويشغلها اليوم المسيو جولوا مهندس الطرق والكبارى، ويشرف المؤلفون المقيمون بباريس على حفر رسومهم بالتنسيق مع قوميسيير الوزير .

كان الهدف الذى توخيناه عند وضع هذه الموسوعة أن نقدم بانتظام النتائج التى تتصل بعصور مصر القديمة، وبالحالة الراهنة والتاريخ الطبيعى، وجغرافية مصر، أى بتجميع العناصر الرئيسية لدراسة هذه البلاد . وقد وزع هذا العمل الكبير بين عدد كبير من الذين أسهموا فيه، وقد كونا عن طريق تجميع أعمالهم،

الوصف الكامل الذى كنا قد توخيناه. وقد وجدنا من الضرورى أن يتم فحص كل جزء من هذه الموسوعة عن طريق المؤلفين مجتمعين، وليست هناك دراسة واحدة أو رسما واحداً لم يعرض بشكل مفصل أمام الجمعية العامة ، حيث خضع هناك لمداولات متأنية . وكان الغرض من هذه المناقشات العامة ضمان دقة الوقائع، واستبعاد أو تصويب الأعمال المحرفة أو غير الدقيقة . وأعطت هذه المناقشات لأولئك الذين قبلت أعمالهم نوعا من الأصالة أو التوثيق ، ذلك أنه لم يسمح بالنشر لأى من هؤلاء إلا بعد أن نالوا الموافقة فى اقتراع ، وبغالبية الأصوات . لكن هذا الفحص لم يكن ليمتد مطلقا كى يتناول الأفكار التى تبناها مؤلفو الدراسات أو إلى النتائج التى استخلصوها من أبحاثهم ، ومع ذلك فلا ينبغى أن نرتب على ذلك أن جماعة المشاركين كانت تشاطر على الدوام هذه الآراء، أو حتى كانت تشاطر هذه الآراء تلك اللجنة التى كانت تتولى نشر الأعمال .

ولسوف نضمن الجزء الأخير من وصف مصر قائمة بأسماء كل الذين سيسهمون فى هذه الموسوعة، وعندئذ فقط يمكن لنا القول بأننا قدمنا قائمة عامة ودقيقة، وستحل هذه القائمة الشاملة محل تلك القوائم الجزئية التى ستلحق بكل جزء، وسوف نضيف كذلك أسماء المشاركين الذين أوقف الموت أعمالهم ، سواء بعد رجوع جيش الشرق ، أو خلال الحملة .

ولقد سهل من إنجاز هذه المهمة الكبيرة تلك الرعاية المستمرة من جانب الحكومة، ولقد قدمت هذه الرعاية الكثير من التشجيع إلى الحفارين الفرنسيين حين سعت إلى إسهام متواصل لعدد كبير من الفنانين، كما أدت هذه الرعاية فى النهاية إلى أشواط جديدة فى تقدم هذا النوع من فن الرسم، وقد اكتسب حفر الخرائط الطبوغرافية ولوحات التاريخ الطبيعى، وبشكل خاص لوحات العمارة، درجة من الاتقان لافتة للنظر، وسيجد الناس فى هذا الإنجاز نماذج كثيرة من العمل بالغة النقاء وبالغة التمام . وعند التدريب على كيفية التعبير عن الطابع العظيم الذى للمبانى المصرية، تكوّن فنانون شبان، تميزوا بالفعل بمواهب نادرة .

